هذه إيران .. وهذا مشروعها

(١)

إيران ..

دين .. وحضارة

د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب ـ من خلال الأدلة والوثائق الكثيرة ـ إثبات جانبين مهمين في إيران عبر مسيرتها التاريخية، وواقعها الحالي، وهما:

أولا ـ بيان أن الإيرانيين مسلمون منذ الفتح الأول، لم يتزحزحوا عن إسلامهم شعرة واحدة، وأن إسلامهم كان صادقا كما أخبر رسول الله ﷺ، وأنهم لم يتآمروا على الإسلام بتحريف أحكامه، ولا على المسلمين بإعلان الحرب عليهم، كما يزعم المغرضون.

وذكرنا في الكتاب الكثير من التجليات والشواهد والبراهين الدالة على ذلك، ابتداء من اهتمامهم بالقرآن الكريم قراءة وتفسيرا وتفعيلا في كل جوانب الحياة.. ومثله اهتمامهم بسنة رسول الله ﷺ بحسب ما وصلت إليهم نصوصها، وأنهم لأجل ذلك مؤمنون بعقائد الإسلام، ومنفذون لشرائعه، ومتحلون بقيمه الأخلاقية والروحية والحضارية، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ثانيا ـ بيان أن إيران لم تتمسك بدينها تمسكا أنانيا، احتكرته لنفسها، وإنما راحت تستعمل كل الوسائل لخدمة الإسلام والمسلمين ابتداء من القرن الأول، حيث كانت أرضها منبعا لكل العلوم الإسلامية، ومحلا لتدريسها والكتابة فيها.

ففيها ظهرت أكبر تفاسير القرآن الكريم، وأكثر مجامع السنة النبوية، ومعظم ما كتب في العقيدة والفقه والأخلاق والعرفان، وكل العلوم العقلية والكونية.

وفيها كانت المدارس التي نشأ فيها كبار العلماء، وتتلمذت فيها أجيال طويلة من المسلمين، الذين استقر

إيران

دين .. وحضارة

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1439 . 2018

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

مقدمة السلسلة

يخطئ الكثـير من النـاس حين يتصـورون أن مطـامع أعـداء الأمة الإسلامية محصورة فقط في فلسطين أو في القدس أو في بعض تلك المدن التي كانت ولا تزال قبلة للأحرار في العالم.

فالجشع الاستعماري والحقـد الغـربي لا يكتفي بتلـك الدولـة، ولا بتلك المدن التي تتشكل منها، وإنما يمد يـد مطامعـه وأحقـاده إلى جميع بلاد العالم الإسلامي، ليلتهمها دولة دولة، ومدينة مدينـة، وشارعا شارعا.

وهو يستعمل لكل دولـة أو مدينـة أسـلوبه ووسـائله وذرائعـه الخاصة.. فقد ضرب بغداد التي كانت عاصـمة الحضـارة والثقافـة الإسلامية لقرون عديدة، عبر استعداء إخوانها من المـدن العربيـة، ومن خلال قواعـده فيهـا نشـر الخـراب والـدمار، ولا يـزال ينشـر الفتنة، وبأياد وأموال عربية تكذب على نفسها حين تتصور أنها مـع فلسطين والقدس، ويستحيل أن يكون مع فلسطين والقــدس من لم يكن مـع العـراق وبغـداد والنجـف وكـربلاء، وكـل تلـك المـدن المضمخة بعطر العلم والإيمان والحضارة.

وهكــذا ضُــربت ســورية بــأموال عربيــة، وبمرتزقــة عــرب، يتوهمون أنهم مع قضايا الأمـة، مـع كـونهم أشـد أعـدائها، شـعروا بذلك أو لم يشعروا.. حتى الإسلاميون الذين يشـنعون على العـدو الصهيوني ضربه لغزة والضفة الغربية، راحوا يباركون له ولأمريكـا وكل الدول الإمبريالية الغربية ضربها لدمشق وحلب وحمص، تلـك المراكز الكبرى للحضارة الإسلامية، ولقرون طويلة.

وهكــذا نجــد أعــداء الأمــة يســتخدمون أولئــك المغفلين من العرب والمسلمين لينهشوا كل مرة قطعة جديدة من أرض العالم الإسلامي، ويركزون بصورة خاصة على العواصـم الحضـارية الـتي كانت بمثابة المنارات التي أضاءت للبشرية قرونـا طويلـة، ولـذلك يريـدون أن تنكس أعلام تلـك المنـارات، حـتى لا يمتـد ضـياؤها أو يعود لها بريقها وإشعاعها.

ومن تلك الدول التي لا يمكن لأحد أن يستبعد دورها المهم في التاريخ والحضارة الإسلامية (الجمهورية الإسلامية الإيرانية).. تلك الدولة التي لا تحوي مركزا واحدا فقط من مراكز الحضارة، بل تحوي مراكز كثيرة جدا.. فهي البلاد التي تضم أصفهان وشيراز وقم ومشهد ونيسابور وطهران وكاشان والكثير من المدن التي يتربع في كل شبر منها فقيه أو محدث أو مفسر أو أديب أو طبيب أو فلكي أو كيميائي.. ويتربع في كل قطعة منها أثر من آثار الحضارة الإسلامية، والقيم العظيمة المرتبطة بها.

ولذلك كانت الحملات الشديدة عليها، لا من أمريكا أو إسرائيل وحدهما، وإنما من أولئك العرب المغفلين الذين راحوا يشوهون إيران، ويدعون المتآمرين لضربها، ولم يكتفوا بذلك، بل راحت كل وسائل إعلامهم تشيطنها بدل أن تشيطن أمريكا، أو العدو الصهيوني.

وإن نسينا فلن ننسى أبدا ذلك الموقف الذي وقفه السلفيون والحركيون، حين عقدت بعض الاتفاقات في مصر لفتح المجال للزيارات السياحية المشتركة بين طهران والقاهرة، حينها راح السلفيون من معهم من الحركيين يدعون إلى الذهاب إلى المطارات، ومنع كل سائح إيراني من الدخول إلى مصر، في نفس الوقت الذي يدخل فيه الإسرائيليون والأمريكيون، وعبدة الشياطين والهييز.. وكل من هب ودب.

ولن ننسى أبدا تلك القنوات التي لا هم لها إلا تصوير إيران بكونها شيطانا أكبر، وأنه لا غرض لها إلا هدم الأمة، وتفريق صفها، واستعمار أرضها، والهيمنة على خيراتها، في نفس الوقت الذي نرى فيه تلك الخيرات توهب هكذا مجانا، وبمئات الملايير من الدولارات لترامب وزوجته وابنته.. وكل المقربين أو المبعدين منه.

وقد بدأت هذه الحملة منذ لبست إيران لقب (الجمهورية الإسلامية)، حينها فقط تحولت إلى مشروع مجوسي وصفوي وفارسي، أما قبل ذلك، فقد كانوا مقربين جدا منها يستقبلون الشاهنشاهات بالأحضان، ويرفضون أي إساءة لهم، لسبب بسيط هو أن أولئك الشاهنشات كانوا أصدقاء لأمريكا وإسرائيل والغرب.

ولذلك كان الواجب على كل مسلم أن يقف في وجه هذه المؤامرات الموجهة للعالم الإسلامي، ولمراكز الحضارة فيه، فالغرب لا يستهدف فقط ديننا وقيمنا، وإنما يستهدف كذلك أرضنا، ويستعمل بعضنا بعضا وسيلة لتحقيق ذلك.

وبناء على هذا حاولت في هذه السلسلةأن أقوم بواجبي الشرعي في الذب عن هذه القطعة المباركة، التي لا يمكن أن أنكر دورها العظيم علي وعلى جميع المسلمين.. فأكثر التراث الإسلامي الفقهي والأدبي واللغوي والصوفي جاءنا منها.

وأذكر أن من أوائل كتب الأدب التي شغفت بها كتاب (الأغاني)، لأبي فرج الأصفهاني، وهو من أصفهان الإيرانية.. وهكذا كان من أوائل الشخصيات التي قرأت كل كتبها، وامتلأت تعظيما لها، وأنا لا أزال شابا يافعا، أبو حامد الغزالي، وهو من طوس، وقبره قريب من مقام الإمام الرضا في مشهد... ومثله الفيض الكاشاني، وهو من كاشان، ومثلهما فريد الدين العطار وأشعاره الجميلة، وهو من نيسابور .. وهكذا كان أكثر الأعلام الذين تتلمذنا على أيديهم من صوفية وفقهاء وشعراء ومحدثين ومفسرين من تلك البلاد الممتلئة بالجمال والقيم الرفيعة.

لكن مع ذلك كله، وفجأة، ومن غير مقدمات تحولت إيران من تلك البلاد التي تضم أكبر مراكز الحضارة، وأكثر محاضن العلم والمعرفة، ومهد المدارس الإسلامية بجميع تفرعاتها، إلى بلد المؤامرات على الإسلام والمسلمين، وطيلة تاريخها.

حيث حولتها الكثير من الأقلام المأجورة، ومعها المؤسسات الإعلامية الضخمة، ومعهما سيل كبير من المغفلين الطائفيين الذين أعمتهم الأحقاد عن أن يبصروا الحقائق؛ فراحوا يشككون في إسلام إيران، ويطرحون بين عوام الناس وخواصهم أن الإيرانيين ليسوا سوى مجوس تستروا بالإسلام ليقضوا عليه.

وراحوا يبتدعون في سبيل ذلك الكثير من المصطلحات الغريبة التي لم نسمع بها طيلة التاريخ الإسلامي من أمثال: (المشروع الصفوي)، و(الإمبراطورية الفارسية) و(الفرس

المجوس) و(الخطرالفارسي) و(جاء دور المجوس)، وغيرها، وهي من الكثرة بحيث لا تحتاج أي توثيق، لأن الجميع صار يسمعها ويرددها من غير أن يحاول التأكد منها، أو التثبت من معانيها، ذلك أنه يسمعها من كبار رجال العلم والدين في الأمة، ومن كبار الحركيين والقيادات الاجتماعية فيها.

والطامة الكبرى، والتي لا يمكن تفسيرها هي أن أكبر من حمل لواء العداء لإيران، وفي ثوبها الإسلامي، هم أولئك الإسلاميون الذين يدعون أنهم يطمحون إلى تحقيق المشروع الإسلامي على أرض الواقع، ليستعيدوا بذلك أمجاد الإسلام، ويحققوا قيمه في البلاد الإسلامية، ويحققوا معها معاني الحاكمية التي جاءت النصوص المقدسة بالدعوة إليها في كل مجالات الحياة.

لكنهم، وبعد فترة قصيرة من نجاح الثورة الإسلامية الإيرانية، راحوا يخونون ويشيطنون نظام (ولاية الفقيه)، الذي اعتمده الشعب الإيراني، وصوت عليه، وقبله نظاما لحكمه، وهو نظام يدعو إلى (الحاكمية لله)، وينفذها في الواقع بطريقة علمية سمحة ممتلئة بكل القيم الحضارية، مع مراعاة حقوق الشعب في اختيار قادته ونوابه.

وكان المنتظر من الإسلاميين أن يفرحوا بذلك، وأن يساندوه باعتباره المشروع الذي ظلوا طول أعمارهم ينادون به، لكنهم بدل ذلك راحوا يسبون الفقيه، ويكفرونه، ويعتبرونه متآمرا على الإسلام.. وراحوا يمدون أيديهم لجميع أعداء الأمة التي تخلت عن كل مشاريعها، لتجعل هدفها الوحيد والأكبر هو صد ذلك الزحف من الوعي الذي مثلته الجمهورية الإسلامية بوقوفها مع جميع القضايا العادلة.

ولأجل هذا حاولنا في هذه السلسلةأن نجمع كل تلك الشبهات التي استعملها الإسلاميون وغيرهم لضرب الجمهورية الإسلامية الإيرانية وتشويهها وشيطنتها، لاعتقادنا أن ذلك من الواجبات الكبرى التي لا يجوز لنا السكوت عنها، فالشبهات التي تطال الإسلام لا تكتفي فقط بالشبه المرتبطة بتصوراته العقدية،

أو أحكامه الفقهية، أو قيمه السلوكية.. بل هي تتعدى ذلك إلى الشبهات التي تطال شعوبه وبلاده وتاريخه وحضارته.. ذلك أن تشويه تلك الشعوب، ليس سوى تفريغ للإسلام من كل المنتسبين إليه.

وهو يدخل ضمن ما أُمرنا به من الذب عن إخواننا المسلمين والانتصار لهم، ورد الظلم عنهم؛ فلا يجوز لمسلم يسمع من يكفر إخوانه المؤمنين الطيبين في إيران أو في أي مكان، ويرميهم بالعظائم، ثم يظل ساكتا لا يتحرك للدفاع عنهم، لأنه يكون بذلك شريكا للمتآمرين الظالمين.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الواجب الشرعي في قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (لأنفال:72)

ففي هذه الآية الكريمة حض على نصر المؤمنين بعضهم بعضا؛ فلا يصح أن ينعم المسلم بالأمن والعافية والسمعة الطيبة والثناء العريض، في الوقت الذي يصاب إخوانه في إيران بكل أنواع البلاء، من الحصار الجائر، والحرب الضروس الظالمة، ومعهما كل تلك المكاييل التي لا عد لها من السباب والشتائم والتكفير والتبديع.

وهكذا دعانا رسول الله ﷺ أن نبرهن على إسلامنا بنصرة إخواننا في أي مكان تعرضوا له لأي أذى، ففي الحديث قال ﷺ: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة.. بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله)[1]

---

[1]() رواه البخاري 9 / 171، ومسلم رقم (2563).

وهكذا نجد النصوص المقدسة تـدعونا إلى نصـرة إخواننـا في كـل أرض، وفي كـل حـال، ففي الحـديث قـال رسـول اللـه ﷺ: (انصر أخاك ظالمـاً أو مظلومـاً)، قيـل: يـا رسـول اللـه! أنصـره مظلوماً، فكيف أنصره ظالمـا؟)، قـال:(تمنعـه من الظلم؛ فـذلك نصرك إياه)[1]

وهكذا نص جميع العلماء من جميـع المـذاهب الإسـلامية على أنه لا يجوز للمسلم أن يسكت عن الذب عن غرض إخوانـه إذا مـا انتهك، حتى لا يكون شريكا للمنتهكين، يقول الغزالي عنـد تعديـده لحقوق الأخوة الإسلامية (ذب الأخ عن أخيه في غيبته مهمـا قصـد بسـوء أو تعـرض لعرضـه بكلام صـريح أو تعـريض، فحـق الأخـوة التشـمير في الحمايـة والنصـرة وتبكيت المتعنت وتغليـظ القـول عليه، والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفـر للقلب وتقصـير في حق الأخوة.. فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومـك وهـو سـاكت لا تحركـه الشـفقة والحميـة للـدفع عنـك وتمزيـق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولـذلك شـبهه اللـه تعالى بأكل لحوم الميتة فقال: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيـهِ مَيْتاً (الحجرات: 12))[2]

ولهذا، فإنا في هذه السلسلةنحاول أن نطبق بقدر المستطاع هذه الواجبـات الشـرعية الـتي تحـرم علينـا أن نسـكت عن الظلم الموجه لعشرات الملايين من إخواننا الذين يغتابهم في كل لحظـة الإعلام المغـــرض، والأقلام المـــأجورة، والخطبـــاء المغفلـــون، والسياسيون المتلاعبون..

وقد التزمت في هذه المقالات الحياد المطلق، والموضـوعية التامـة، فلم أذكـر أي مسـألة إلا مشـفوعة بأدلتهـا والوثـائق الـتي تثبتها، ذلك أن الشريعة التي أمرتنـا بنصـرة إخواننـا والـذب عنهم، هي نفسها التي أمرتنا بـأن نكـون موضـوعيين وعلمـيين، وألا نتبـع الهوى، فالحق أحق أن يتبع، وقـد قـال اللـه تعـالى: {وَلَا تَقْـفُ مَـا

1() رواه البخاري 5 / 70، والترمذي رقم (2256).

2() إحياء علوم الدين (2/ 181)

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} (الإسراء: 36)، وقال: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } (المائدة: 8)

ولهذا نحن نسعد بكل من ينتقدنا، أو يصحح ما قد نورده من معلومات يرى خطأها، ذلك أننا لم ندع عصمة إيران، ولا الشعب الإيراني، كما لم ندع عصمة أي دولة أو أي شعب من الشعوب.. لكن نريد فقط من الذي ينتقد أو يرد أن ينتقد بعلم، وبموضوعية، وبحياد تام، وبما هو ظاهر.. لأن الكثير للأسف يدخل تخميناته وحدسه وكشفه الباطن في هذا المجال..

حيث يذكرون لنا أن إيران وأمريكا وإسرائيل يشكلون حلفا مشتركا لمواجهة الأمة، وتخريبها.. فإذا ما طالبتهم بالدليل ذكروا لك أن ذلك يجري في الخفاء، ومن وراء الكواليس، وما تحت الطاولة..

فإذا سألتهم عن مصدر تلك المعلومات الخطيرة لم يجيبوك بشيء، لأنهم يتوهمون أن أوهامهم وحدسهم وكشفهم الباطن وحدها الدليل على تلك الادعاءات العريضة التي يدل كل شيء على نقيضها.

ولهذا لا نحترم أمثال تلك الدعاوى لأن الله تعالى نهانا أن نرجم بالغيب، أو نبني أحكامنا على سوء الظن، بل طولبنا بأن نتعامل بالظاهر، وأن نكل إلى الله النيات والسرائر، وقد قال رسول الله ﷺ: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تنافسوا، ولا تدابروا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا)[1]

وقبله قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} (الحجرات: 12)، بل اعتبر أن أكبر حجاب وقع فيه المنحرفون عن الأنبياء هو سوء ظنهم بأنبيائهم،

[1] () رواه أحمد (2/482)

كما قال تعالى: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} (الأنعام: 116)

ولهذا، فإن عقولنا لا تستطيع أن تصدق تلك الأراجيف والوساوس، في نفس الوقت الذي ترى فيه الجمهورية الإسلامية الإيرانية تدفع الغالي والنفيس في صراعها مع جميع قوى الاستكبار العالمي من أجل مواقفها الشجاعة والصادقة من القضية الفلسطينية، ومن الحروب الناعمة والصلبة التي تسلط على العالم الإسلامي.

مقدمة الكتاب

يحـاول هـذا الكتـاب الـذي جعلنـاه الجـزء الأول من هـذه السلسلة التعريف بجانبين مهمين في إيران تاريخا وواقعا، وهما:

أولا ــ بيـان أن الإيرانـيين مسـلمون منـذ الفتح الأول، لم يتزحزحوا عن إسلامهم شعرة واحـدة، وأن إسـلامهم كـان صـادقا كما أخبر رسول الله ﷺ، وأنهم لم يتـآمروا على الإسـلام بتحريـف أحكامـه، ولا على المسـلمين بـإعلان الحـرب عليهم، كمـا يـزعم المغرضون.

وذكرنا في الكتاب الكثير من التجليـات والشـواهد والـبراهين الدالة على ذلك، ابتداء من اهتمامهم تاريخا وواقعا بالقرآن الكريم قراءة وتفسيرا وتفعيلا في كـل جـوانب الحيـاة.. ومثلـه اهتمـامهم بسنة رسول الله ﷺ بحسب ما وصلت إليهم نصوصها، وأنهم لأجل ذلك مؤمنون بعقائد الإسلام، ومنفذون لشرائعه، ومتحلـون بقيمـه الأخلاقية والروحية والحضارية، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ثانيا ـ بيان أن إيـران لم يكن تمسـكها بـدينها تمسـكا أنانيـا، احتكرته لنفسها، وإنما راحت تستعمل كل الوسائل لخدمة الإسلام والمسلمين ابتداء من القرن الأول، حيث كانت أرضـها منبعـا لكـل العلوم الإسلامية، ومحلا لتدريسها والكتابة فيها.

ففيها ظهرت أكبر تفاسير القرآن الكريم، وأكثر مجامع السنة النبويـة، ومعظم مـا كتب في العقيـدة والفقـه والأخلاق والعرفـان وكل العلوم العقلية والكونية.

وفيها كانت المدارس التي نشأ فيهـا كبـار العلمـاء، وتتلمـذت فيها أجيال طويلة من المسلمين، الذين استقر بهم الإسلام، وامتد في الأرض، لينشر هداية الله، ويلبس في كل عصر اللبـاس الـذي يتناسب معه.

وقـد حاولنـا في هـذا الكتـاب كـذلك أن نـبين أن المشـروع الحـالي لإيـران ليس سـوى امتـداد لمشـروعها القـديم في خدمـة

الإسلام، بل إن هذا المشروع حاول أن يستفيد من كل ما حصل في التاريخ من عبر، ليؤسس من خلالها دولة إسلامية قوية، تحمل هم طرح القيم الإسلامية بحسب ما هي عليه، بعيدة عن كل التحريفات التي وقعت عبر التاريخ.

وحاولنا أن نفند عند ذكرنا لهذا المشروع كل الشبه التي يذكرها المغرضون، والتي على أساسها حولوا من إيران دولة العداء للإسلام، بدل أن تكون دولة الخدمة للإسلام، وقد استندنا في ذلك إلى ما ذكره القادة الفكريون لهذا المشروع من خلال كتاباتهم وطروحاتهم المختلفة.

وقد قسمنا الكتاب إلى سبعة فصول، كما يلي:

أولا ـ إيران.. والقرآن الكريم: وذكرت فيه تعلق الإيرانيين بالقرآن الكريم قراءة وتدبرا وتفسيرا وحفظا، ورددت فيه بتفصيل على تلك الشبه المغرضة التي تصور أن لإيران قرآنا غير قرآن المسلمين، وبينت أن مشروع إيران الحديث ليس سوى محاولة لتطبيق القرآن الكريم في الواقع بجميع مجالاته.

ثانيا ـ إيران.. والسنة النبوية: ورددت فيه على تلك المغالطات التي يستعملها المغرضون، ليشوهوا بها إيران من خلال تصويرهم لها بأنها بلد البدعة والضلالة، وأنه لا علاقة لها بسنة رسول الله ﷺ، وقد ذكرت فيه أن إيران ليست متمسكة بسنة رسول الله ﷺ في واقع حياتها فقط، وإنما هي أكبر من خدم رسول الله ﷺ، وفي جميع مراحل التاريخ، فأكثر كتب السنة رواية ودراية كتبت من طرف أعلامها الكبار.

ثالثا ـ إيران .. والعقيدة الإسلامية: وقد بينت فيه بالأدلة الكثيرة مدى التزام الإيرانيين بالعقيدة الإسلامية ونصرتها من خلال من ظهر فيها من المتكلمين الذين لم يظهر مثلهم في جميع بلاد العالم الإسلامي، كما رددت فيه على تلك الشبه التي يذكرها المغرضون، والتي يحاولون من خلالها شيطنة إيران وتكفيرها.

رابعا ـ إيران .. والشريعة الإسلامية: وبينت فيه من

خلال الأدلـة الكثـيرة مـدى اهتمـام الإيرانـيين بتطـبيق بالشـريعة الإسلامية في جميع مجالات حياتهم، وأن المشـروع الحـالي الـذي أُعلن الحرب عليهـا بسـببه ليس سـوى تجسـيد للنظـام الإسـلامي الــذي اســتنطبه الفقهــاء من المصــادر المقدســة المعصــومة.. بالإضافة إلى ذلك ذكرت مدى اهتمام الإيرانـيين بخدمـة الشـريعة الإسلامية، والكتابة في فقههـا وأصـولها، وضـمن الـرؤى المختلفـة للمذاهب الإسلامية.

خامسـا ــ إيـران .. والقيم الروحية: وبينت فيـه ــ من خلال الأدلـة الكثـيرة ــ مـدى تمسـك الإيرانـيين بالـدين من خلال التزامهم بشـعائره التعبديـة، ومـا تنطـوي عليـه من سـمو روحي، بالإضافة إلى ذكر الكثير من مساهماتهم في خدمـة هـذا الجـانب، من خلال كبار الروحانيين الذين عاشوا فيهـا، وكتبـوا في التصـوف والعرفان والحياة الروحية.

سادسا ـ إيـران .. والقيم الأخلاقية: وبينت فيـه مـدى اهتمام الإيرايين بالسلوك الأخلاقي، والدوافع الـتي دفعتهم لـذلك، كما بينت مـدى اهتمـام المشـروع الإسـلامي الحـديث بتنميـة هـذا الجانب في الواقـع الاجتمـاعي والسياسـي والاقتصـادي والثقـافي وكل المجالات.

كمـا ذكـرت فيـه مسـاهمات الإيرانـيين في التأسـيس لعلم الأخلاق، والكتابة فيه، وهي المجـال الـذي كـانت لهم الريـادة فيـه بجدارة.

سابعا ــ إيـران .. والقيم الحضـارية: وبينت فيـه مـدى تمسك الإيرانيين بالحضارة، وعراقتهم فيهـا، وفي القيم المرتبطـة بها، وذكرت ـ من خلال الأدلة الكثيرة ــ أن مشـروعها للأمـة ليس مشـروعا اسـتعماريا، ولا تسـلطيا، ولا مشـروع هيمنـة، وإنمـا هـو مشروع حضاري راق، يريد أن يخرج الأمة من تبعيتها لتبني حياتهـا وفق الرؤية الإسلامية الحضارية التي جاء الأنبيـاء جميعـا لتحقيقهـا في أرض الواقع.

هذه هي الفصول الكبرى التي قسـمنا على أساسـها مبـاحث

الكتاب، والـتي اعتمـدنا في كتابتهـا على مصـادر تاريخيـة وفكريـة كثيرة، ومن المدارس المختلفة، وقـد وثقنـا كـل ذلـك بحسـب مـا أطقنا، حتى يتمكن القارئ من العودة إلى المصادر والتأكد بنفسه.

ونحب أن نبين أننا ـ لصعوبة الإحصاء ـ اكتفينـا بـذكر النمـاذج من كل قضـية نطرحهـا، ذلـك أنـه من الصـعب أن نـؤرخ في هـذا الكتاب المختصر لكل المفسرين والمحدثين والفقهـاء والمتصـوفة وعلماء الفلك والطب والفلاسـفة وغـيرهم.. ولـذلك اكتفينـا بـذكر نماذج عنهم، وعن كبارهم الـذين أسسـوا للمعـارف، أو كـانت لهم إسهاماتهم الكبرى فيها.

ومثــل ذلــك لم نفصــل كثــيرا في ذكــر النــواحي المختلفــة المرتبطة بالمشروع الحضاري الجديد، ذلـك أننـا خصصـنا بالكتـاب الثاني من هذه السلسة، والذي عنونـاه بــ [إيـران.. نظـام وقيم]، والذي تناولنا فيه الشبهات بالمزيـد من الـردود العلميـة المفصـلة، كما وضحنا فيه القيم التي يتبناها هذا النظام ومدى شرعيتها.

ونحن وإن كنا بذلنا جهدا كبيرا في البحث والتحقيق إلا أننــا لا نــدعي العصــمة، ولــذلك يســرنا أن نجــد من يوجهنــا أو يصــحح أخطاءنا، على أساس النصح والنقد البنـاء الـذي ينهض بأمتنـا، لأنـا عنـد حـديثنا عن إيـران، لم نتحـدث إلا عن قطعـة كريمـة من بلاد الإسلام، وتكريمها لا يعني تحقير غيرها، ولا التهوين من شأنه.

وإنمـا خصصـناها بالحـديث، ردا للظلم الـذي يطالهـا، والـذي أمرنــا بــالوقوف في وجهــه، فالعقــل والشــرع والأخلاق الرفيعــة تدعونا للنهوض لنصـرة المظلـوم، والـدفاع عنـه، وهـذا مـا حاولنـا فعله في هذا الكتاب، ونستغفر الله من التقصير في أداء الواجب.

إيران.. والقرآن الكريم

لعـل الخاصـية الأبـرز الـتي تمـيز بهـا المشـروع الحضـاري الإيـراني في طبعاتـه القديمـة، وطبعتـه الحديثـة هـو ذلـك التعلـق بالقرآن الكريم، والذي يصل إلى حد العشق والهيام.. وذلك وحـده كاف لصد كل التهم التي ينشرها الإعلام المغرض، وينشـرها معـه دعاة الفتنة والطائفية.

فالإيرانيون جميعا عامتهم وخاصتهم، يقرؤون القـرآن الكـريم باللغة العربية، مع مراعاة مخارج الحـروف، وأحكـام الترتيـل قـدر المسـتطاع، وذلـك وحـده كـاف للـرد على اتهـامهم بالشـعوبية الفارسية، ذلك أنه في إمكانهم أن يقرؤوا القرآن الكـريم مترجمـا كما تفعل الكثير من الشعوب، ويكتفوا بذلك، ويجدون الرخص من الفقهاء التي تتيح لهم ذلك..

لكنهم لا يفعلون.. بل يقرؤون القرآن الكريم في صـلاتهم، أو في المصاحف، باللغة العربية، التي يحاولون تعديل ألسنتهم عليهـا لتقرأ القرآن غضا طريا، كما يقـرؤه إخـوانهم من العـرب.. بـل إن علماءهم، وأثناء تدريسهم لعوام الناس، الذين لا يعرفون العربيــة، إذا مروا بالآيات القرآنية أثناء دروسهم، ينطقون بهـا أولا بالعربيـة، ثم يترجمونها بعد ذلك للفارسية.

وهكذا فإن المصاحف المطبوعـة في إيـران، والموزعـة على جميع مدنها وقراها وأريافها، وحدها كافية للـرد على تلـك الشـبهة التي يحرص المغرضون على نشرها لتشويه إيران وتشويه شـعبها المسلم، وهي ادعاؤهم أن لإيران أو للشـيعة مصـاحفهم الخاصـة، وذلك كذب وبهتان عظيم.

فالمصـاحف المنتشـرة في كـل مقاطعـات إيـران هي نفس المصاحف الموجودة في كل بلاد العالم الإسلامي، وأنا أتحـدى أن يجد أحد من الناس هذا المصـحف الخـاص، الـذي يصـوره الإعلام، ويصوره دعاة الفتنة.

ولا يحتاج أحد من الناس للتنقل للتأكد من ذلـك، ففي إمكـان

أي كان أن يفتح أي قناة فضائية إيرانية، أو أي إذاعة محلية تابعة لها ليسمع القرآن الكريم، وبقراءات جميلة جدا، لا تختلف عن تلك القراءات التي يقرؤه بها إخوانهم من العرب.

وفوق هذا كله نجد الإيرانيين، ومنذ بداية الإسلام، يهتمون بتفسير القرآن الكريم، ويعقدون المجالس لذلك، وقد استمروا على ذلك النهج إلى اليوم.. ولذلك نرى في المكتبات الورقية والالكترونية ثروة كبيرة من كتب التفسير والعلوم المرتبطة بالقرآن الكريم.. وهي ثروة لا يمكن تجاهلها، ولا الاستهانة بها، بل إننا لن نبالغ إن قلنا بأن المصادر الكبرى للتفسير بأنواعه المختلفة كانت من تأليف إيرانيين، كما سنرى.

ولم يكتف الإيرانيون بهذا، بل راحوا يبنون مشروعهم الحضاري الجديد على القرآن الكريم، باعتبار قداسته أولا، ولاعتقادهم أنه صالح لكل زمان ومكان، وأن فيه الحلول لكل المشكلات، أو كما عبر عن ذلك قائدهم الأكبر الإمام الخميني بقوله في رسالة وجهها إلى الحجيج: (يجب أن نعلم أن الحكمة هي أن هذا الكتاب الخالد الأبدي إنما هو لأجل هداية وإرشاد البشرية من أي لون أو قومية، وفي أي قطب أو قطر وحتى قيام الساعة، وأن تبقى المسائل الحياتية المهمة حية سواء فيما يخص المعنويات أو فيما يتعلق بنظام الملكية، وإفهام الناس أن مسائل القرآن ليست لعصرٍ وجهةٍ خاصة، ولا يظن أن هدف إبراهيم وموسى ومحمد عليهم وعلى آلهم السلام يختص بزمان خاص)[1]

ويقول في نفس الرسالة: (وينبغي على الحجّاج لبيت الله الحرام المحترمين لأي قومية انتموا أن يرضخوا لأحكام القرآن الكريم، ويقفوا في مواجهة سيل الشياطين الذين يريدون اقتلاع الإسلام الذي طهر الشرق والغرب وعملاءهم الذين لا إرادة لهم، ويمدوا يد الأخوة الإسلامية لبعضهم البعض وينتبهوا للآيات الكريمة التي تدعوهم إلى الاعتصام بحبل الله، وتنهاهم عن الاختلاف

[1] () أبعاد الحج، الإمام الخميني، سلسلة الفكر والنهج الخميني، ص14.

والتفرقـة، وينبغي الاسـتفادة أكـثر عضـوياً وسياسـياً من هـذه الفريضة العبادية السياسية الإسـلامية، في تلـك الأمكنـة الشـريفة التي شيّدت بحق لأجل مصالح الموحدين والمسـلمين في العـالم، والالتفـات إلى سـر التضـحية والفـداء الإبـراهيمي ــ الإسـماعيلي، حيث يجب الوقوف في سبيل الله إلى حد التضـحية والفـداء بـأعز وأغلى ثمرة وجوده والدفاع عن الأهداف الإلهية)[1]

وهكـذا نجـد الـدعوات الكثـيرة من جميـع قـادة المشـروع الحضـاري الإيـراني القـديم والحـديث منـه إلى الاهتمـام بـالقرآن الكريم قراءة وتدبرا وانفعالا في جميع مجالات الحياة، أو كما عـبر عن ذلك أبو حامد الغزالي الابن الإيراني الأصيل، تعليقا على قوله تعالى: {يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } (مريم: 12): (أي بجد واجتهاد، وأخذه بالجد أن يكون متجردا له عند قراءته منصـرف الهمـة إليـه عن غيره، وقيل لبعضهم (إذا قرأت القرآن تحدث نفسـك بشـيء، فقـال: أو شـيء أحب إلي من القـرآن حـتى أحـدث بـه نفسـي).. وهذه الصـفة تتولـد من التعظيم فـإن المعظم للكلام الـذي يتلـوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه، ففي القرآن مـا يسـتأنس بـه القلب إن كان التالي أهلا له؛ فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزه ومتفرج، والذي يتفرج في المتنزهـات لا يتفكـر في غيرهـا، فقـد قيـل: إن في القـرآن ميـادين وبسـاتين ومقاصـير وعرائس وديابيج ورياضا وخانـات.. فـإذا دخـل القـارىء الميـادين، وقطف من البسـاتين، ودخـل المقاصـير، وشـهد العـرائس، ولبس الديابيج، وتنزه في الرياض، وسكن غرف الخانات، اسـتغرقه ذلـك وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره)[2]

بناء على هـذا سـنحاول في هـذا المقـال إثبـات أهم تجليـات اهتمام الإيرانيين بالقرآن الكريم طيلـة تـاريخهم المشـرق، وكونـه السبب في تلـك الـروح الإيمانيـة الـتي صـحبتهم قـديما، ولا تـزال تصحبهم حديثا.

---

[1] أبعاد الحج، الإمام الخميني، سلسلة الفكر والنهج الخميني، ص17.

[2] إحياء علوم الدين (1/ 281)

أولا ـ تقديس القرآن الكريم والتأثر به:

وهي أول ميزة يمكن اكتشافها بسـهولة لمن يـرى الإيرانـيين وتعاملهم مع القرآن الكريم، فالكثير من عاداتهم وتقاليـدهم تـولي المصاحف اهتماما خاصا، وتعطيها قداسة لا تعطيهـا لشـيء آخـر.. فهم يقبلونه بمجرد لمسه، ثم يضعونه على جباههم تكريما له.

وهم إذا ما دخلوا أي محل أو غادروه جعلـوا المصـاحف فـوق رؤوسهم، ثم ساروا أسفل منها تيمنا منهم بـأن يكونـوا في كلاءتـه وحفظه.

وهكذا هو حالهم عند قراءته أو سماعه؛ فهم ينفعلون عنـدها، ويتأثرون، وربما تنهمر الدموع الصادقة الخاشعة من عيونهم، مثـل حالهم عند سماع الأدعية الـواردة عن رسـول اللـه ﷺ أو عن أهـل بيت النبوة، والتي يرددونها كل حين.

ولعل ذلك ما أشـار إليـه قولـه ﷺ، وهـو يتحـدث عن فـارس، وصدقها في إيمانها: (لو كـان الإيمـان عنـد الثريـا لنالـه رجـال -أو رجل-من هؤلاء)[1]، وأشار إلى سلمان الفارسي.

ولا يمكنني أن أذكـر سـبب ذلـك الانفعـال، وتلـك الروحانيـة، ولكني موقن أنها ليست مرتبطة بالعرق ـ كما يذكر بعض الباحثين ـ عندما يعلل ظهـور أكـثر الكتابـات العرفانيـة والصـوفية من تلـك المناطق، ذلك أني مؤمن بأن الله تعـالى خلـق الخلـق جميعـا من طينة واحـدة، ومـؤمن كـذلك أن سـلوك الإنسـان هـو الـذي يحـدد وجهته، وطريقة تعامله مع الأشياء.

ولذلك فإن السبب الحقيقي لذلك التقـديس ومـا يصـحبه من الانفعـال والتـأثر يعـود لتلـك التعـاليم المقدسـة الـتي يسـمعها الإيرانيون ـ سنتهم وشـيعتهم ــ في المواعـظ والمجـالس العلميـة كل حين عن رسول الله ﷺ وعن ورثتـه من آل بيت النبـوة الـذين شغفوا بهم.

---

[1] رواه مسلم، والترمذي، والنسائي.

فقد أوصى رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم واعتبره الثقل الأكبر الذي لا تنجو الأمة إلا بالتمسك به، فقال: (إني تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، الثقلين وأحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي. ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)[1]

والإمام علي الذي يقدسه الإيرانيون، ويحفظون تعاليمه، ويرددونها في كل المحال، ويعلقونها كشعارات في شوارعهم ومدارسهم ومساجدهم، باعتباره الإمام الأول بعد رسول الله ﷺ يقول: (الله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم) [2]، ويقول: (كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله)[3]، ويقول: (تعلموا كتاب الله تبارك وتعالى فإنه أحسن الحديث وأبلغ الموعظة، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء لما في الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص)[4]، ويقول: (اعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم)[5]

وهكذا يسمعون كل حين، وفي كل مناسبة قول الإمام الحسن: (إن هذا القرآن فيه مصابيح النور وشفاء الصدور، فليجل جال بضوئه، وليلجم الصفة، فإن التلقين حياة القلب البصير كما

1() رواه أبو داود وغيره.

2() نهج البلاغة: الكتاب 47.

3() نهج البلاغة: الخطبة 133

4() تحف العقول: 150

5() نهج البلاغة: الخطبة 176، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 10 / 18

يمشى المستنير في الظلمات بالنور)[1]

ومثله قول الإمام زين العابدين الذي عبر عن علاقته الروحية بالقرآن الكريم، بقوله: (لو مـات من بين المشـرق والمغـرب لمـا استوحشت بعد أن يكون القرآن معي) [2]

وهكذا كان لتلك الكلمات النورانية وغيرها كثير تأثيره الهائــل في نفوس الإيرانيين، مما وفر لهم القابلية لاستقبال تعـاليم قـادة المشروع الحضـاري الجديـد، والـذين حـاولوا أن يستنهضـوا الهمم من خلال تلك المشاعر الجياشة تجاة القرآن الكـريم، وتجـاه أهـل بيت النبوة.

حيث نجد أحـاديث الإمـام الخميـني، وفي عـز الأزمـات الـتي مـرت بهـا إيـران، يـذكر بـالقرآن الكـريم، ويتحـدث عنـه حـديث العارفين المحققين، الذين يدعون إلى تذوق معانيـه، والعـروج من خلالها إلى الله، وعدم الاكتفاء بكسوة الألفاظ والحروف.

ومن كلماتـه في هـذا المجـال قولـه في بعض خطبـه: (نحن نفخر، ويفخر شعبنا المتمسك بالإسلام والقرآن بأننا أتبـاع مـذهب يهدف إلى إنقـاذ حقـائق القـرآن الممتلئـة دعـوة إلى الوحـدة بين المسلمين، بـل البشـرية باعتبارهـا أنجـع علاج منقـذ للإنسـان من القيود المكبلة لرجليه ويديه وقلبه وعقله، والسائقة له إلى الفنــاء والعدم والرق والعبودية للطواغيت)[3]

ويقول في وصاياه لبعض أولئـك الملتفين بـه، والـذين قـدموا الغـالي والنفيس في سـبيل تنفيـذ تعاليمـه: (اعلم أيهـا العزيـز أن عظمة كل كلام وكل كتاب إما بعظمة متكلمة وكاتبه، وإما بعظمـة مطالبـه ومقاصـده، وإمـا بعظمـة نتائجـه وثمراتـه، وإمـا بعظمـة

1() البحار: 78 / 112 / 6

2() الكافي: 2 / 602 / 13.

3() القرآن في كلام الإمام الخميني، ص17.

الرسـول والواسـطة، وإمـا بعظمـة المرسـل إليـه وحاملـه، وإمـا بعظمة حافظه وحارسه، وإما بعظمة شارحه ومبيّنه، وإمـا بعظمـة وقت إرساله وكيفية إرساله. وبعض هذه الأمور دخيل في العظمة ذاتـاً وجـوهرا وبعضـها عرضـاً وبالواسـطة، وبعضـها كاشـف عن العظمة)[1]

ثم يذكر أن هذه المعاني جميعا متـوفرة في القـرآن الكـريم، باعتباره حوى العظمـة في جميـع جوانبهـا، فيقـول: (وجميـع هـذه الأمور التي ذكرناها موجـودة في هـذه الصـحيفة النورانيـة بالوجـه الأعلى والأوفى، بل هي من مختصّاته بحيث أن أي كتاب اخـر إمـا ألاَّ يشترك معه في شيء منها أصلاً، أو لا يشـترك معـه في جميـع المراتب)

ثم راح يفصـل نـواحي العظمـة الـتي تسـتدعي التقـديس المطلق له، وابتدأ بعظمه المتكلم به، فقال: (أمـا عظمـة متكلمـه ومنشئه وصاحبه، فهو العظيم المطلق الذي جميـع أنـواع العظمـة المتصورة في الملك والملكوت، وجميع أنـواع القـدرة النازلـة في الغيب والشـهادة رشـحة من تجليـات عظمـة فعـل تلـك الـذات المقدسة، ولا يمكن أن يتجلّى الحـق تعـالى بالعظمـة لأحـدٍ وإنمـا يتجلى بها من وراء الاف الحجب والسرادقات)

وتحدث عن عظمة محتوياته، فقال: (وأمـا عظمتـه بواسـطة محتوياته ومقاصده ومطالبه فيستدعي ذلك عقد فصل على حـدة، بل فصول وأبواب، ورسالة مستقلة، وكتاب مسـتقل حـتى يسـلك نبذة منها في سلك البيان والتحرير)، وهو يشير بذلك إلى ما ألفـه حول عظمـة محتويـات القـرآن الكـريم، والـتي تناولهـا من جميـع جوانبها العرفانية والسلوكية والاجتماعية والسياسية وكـل جـوانب الحياة، كما سنرى.

وتحدث عن عظمـة الرسـول الـذي أنـزل عليـه، بلغـة ذوقيـة عرفانية، فقال: (وأما عظمة المرسـل إليـه ومتحمّلـه، فهـو القلب التقي النقي الأحمـدي الأحـدي الجمعي المحمـدي الـذي تجلى لـه

---

[1] () منهجية الثورة الإسلامية - صفحة 79.

الحق تعالى بجميع الشؤون الذاتية والصفاتية والأسمائية والأفعالية، وهو صاحب النبوة الختمية، والولاية المطلقة، وهو أكرم البرية، وأعظم الخليقة وخلاصة الكون، وجوهرة الوجود، وعصارة دار التحقق، واللبنة الأخيرة، وصاحب البرزخية الكبرى، والخلافة العظمى)

وتحدث عن الحراسة الإلهية له من التحريف، على عكس ما يذكر المغرضون والطائفيون، فقال: (وأما حافظه وحارسه، فهو ذات الحق جلّ جلاله، كما قال في الآية الكريمة المباركة: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: 9))

وهكذا تحدث عن سائر نواحي العظمة في القرآن الكريم، والتي تستدعي التقديس المطلق له، والانفعال المطلق لمعانيه، باعتبارها تمثل الحقائق الكبرى للوجود، وتشمل القيم الكبرى للسلوك.

وهكذا نرى كل القادة والعلماء الذين أسسوا لهذا المشروع الحضاري الجديد، يشيدون بالقرآن الكريم، ويدعون إلى قراءته قراءة روحية، وعدم الاكتفاء فقط بتجويده وترتيله والاهتمام بمخارج حروفه.

وذلك لا يعني عدم اهتمامهم بهذا الجانب، فالإيرانيون يحبون تجويد القرآن الكريم، ومولعون بصفة خاصة ببعض القراء المصريين كالشيخ عبد الباسط عبد الصمد وغيره، وهم يقلدونه كثيرا في قراءتهم، وهو دليل كبير على انفتاحهم على العالم الإسلامي، وعدم شعورهم بأي فوارق بينهم وبين سائر إخوانهم من المسلمين، ولذلك يستقبلون كل حين القراء من مصر وغيرها، وتعقد المجالس العامة لهم، ليستمع الناس إلى قراءتهم مع تتبعها في المصاحف.

ونحب أن نذكر نموذجا لذلك الولع بالقرآن الكريم بشخص قائدهم الحالي السيد علي الخامنئي، الذي تحدث عن نفسه وعن بداية عشقه للقرآن الكريم، فقال[1]: (أوّل نغمات القرآن العذبة

---

[1] () انظر هذه النصوص من كتاب [سيرة حياة آية الله السيد علي الحسيني الخامنئي]،

قد سمعتها من والدتي.. كنـاّ نجتمـع حولهـا، نجلس، لتقـرأ بـدورها القرآن لنا بصوت عذب جدّاً ومؤثّر، وتشرح لنا بعض آياته)

ثم ذكـر كيـف كـانت والدتـه تحكي لهم قصـص أنبيـاء اللـه، وقصص القرآن، وكيـف كـانت تحـرص على أن تقصّـها تمامـاً كمـا يحكيها القرآن الكريم.

ثم ذكر كيف أخذه والده السيّد جواد هـو وأخـوه إلى الكتـاب حيث تعلما القرآن الكريم على الطريقة التي يدرس بها في سـائر بلاد العالم الإسلامي، فقد (كـان التلامـذة يجلسـون خلـف الأرجـل الموزّعـة بشـكل دائـري داخـل الغرفـة، وجميـع الحاضـرين كـانوا يقرأون القرآن، وكان كلّ واحد يقرأ نصف صفحة)

ثم يـــذكر كيـــف شـــغف في شـــبابه البـــاكر بتلاوة القـــراء المصـريين، فقـال: (لقـد تعـرفت على قـراءة القـرّاء المصـريّين ورأيت بعدها أنّي نعم، ينقصني الكثـير من ناحيـة القـراءة وعنـدها كمّلت ما ينقصني)

ويذكر كيف كان يجتهد في التقاط موجة الإذاعة المصريّة في مشهد من أجل الاستمتاع بقـراءة القـراء المصـريين، وكيـف كـان يفرح فرحا شديدا عندما يتاح له التقـاط موجاتهـا بدقـة، أو عنـدما تتاح له أشرطة الكاسيت، التي يحضرها من يذهب إلى مصر.

وقد كان من المشايخ الذين تأثر بهم هو وجيله ـ كمـا يـذكر ـ الشيخ مصطفى إسماعيل، وهو أحد كبـار القـراء في ذلـك الحين، وقـد بـرر إيثـاره لقراءتـه بقولـه: (إن مصـطفى إسـماعيل يقـرأ بالالتفـات إلى المعـانى والمفـاهيم.. بعض القـرّاء يقـرأ بالاعتمـاد فقط على الصوت، ويكون هدفهم أداء لحن جميل وشَـغْل النـاس، أمّا مصطفى إسماعيل ففي الوقت الذي يقرأ فيـه قـراءة جميلـة، يلفت الناس إلى المعنى)

ويذكر كيف كان القرآن الكريم هو المؤنس له ولرفاقـه أيـام المحن التي مروا بها في سجون الشاه، وقد ذكر أنه في الاعتقـال الأوّل، عندما نُقـل إلى السـجن العسـكري في مشـهد، وجُـرّد من

طهران: مركز الدراسات والأبحاث السياسيّة، ص24.

جميع وسائله، طلب منهم أن يتركوا القرآن بحوزته، فوافقوا.

ويذكر مدى التخفيف والمواساة التي كانت تحدثها قراءة القرآن الكريم لهم، وهم في السجون والمعتقلات، ومن ذلك أنه في الاعتقال الخامس له عندما قام موظّفو السافاك بتعذيب العالم المجاهد السيّد عباس الموسوي القوتشاني، يذكر السيد علي الخامنئي أن عزاءه الوحيد كان في قراءته للقرآن، يقول في ذلك: (الشيء الوحيد الذي كان في هذا السجن مصدر عزاء للسيّد الموسوي، هو أنّه عندما عاد بعد إنهاء التعذيب من زنزانته الانفراديّة، كان يستمع إلي قراءتي للقرآن. وقد انتقيت بدوري آيات خاصّة من قبل، وقرأتها على مسمعه لتكون بلسماً لجراحه وراحةً لنفسه، ومقوّية لعزيمته)

وهكذا يذكر كيف كان الثوار حينها يستعملون القرآن الكريم وسيلة لاستنهاض الهمم، ومواجهة الاستبداد والظلم الذي يقوم به الشاه، ومخابراته.

ومن الأمثلة على ذلك أنهم ـ كما يذكر ـ كانوا يدرسون سورة البقرة، وما جرى مع بني إسرائيل، ليوصلوا من خلالها رسائلهم الثورية، ويصف كيفية ذلك، فيذكر أنهم بعد شرح تفسير الآيات القرآنية يطلب من القارىء أن يقرأ الآيات المفسّرة بصوته الجميل لتستقر في النفس أكثر، ويقول: (الآن وقد فهمتم معنى هذه الآيات، فليأتِ قارئنا العزيز ويتلوها بلحن وصوت حسن لتلتذّوا بها أكثر، لأنّ الناس كانوا قد فهموا معنى القرآن، كانوا يرتبطون به بنحو أسهل)

هذا نموذج بسيط عن مدى اهتمام الإيرانيين وخاصة في مشروعهم الحضاري الجديد بالقرآن الكريم قراءة وانفعالا وتأثرا، وهو ما أفادهم ذلك الانتصار الكبير.

ولذلك أولوا ــ بعد انتصار الثورة الاسلاميّة ــ عناية خاصة بالقرآن الكريم قراءة ودراسة وتدبرا؛ فأسست أول إذاعة للقرآن الكريم بعد الانتصار مباشرة، ثم شكل مجلس أعلى للقرآن في مؤسّسة الإذاعة والتلفزيون، وطورت جلسات التلاوة من خلال

مشاركة القرّاء من خارج البلاد وخاصّة القرّاء المصريّين.

وهكذا كانت تعقد المجالس الكثيرة للقرآن الكريم في جميـع أنحـاء البلاد، وفي المؤسسـات التربويـة المختلفـة، ليشـب النشـأ على حب القرآن، وتنشر من خلال ذلك الثقافة والقيم القرآنيّة.

وقد كان السـيد على الخـامنئي، حريصـا على الحضـور لتلـك المجـالس، وخاصـة تلـك الـتي تعقـد في شـهر رمضـان، أو أثنـاء المسابقات الخاصة بالترتيل والتجويد، وكان يـدلي بتوجيهاتـه أثنـاء تلك القراءات ليزداد الشعب تمسكا بها.

ومن أمثلة تلك التوجيهات قوله ـ مخاطبا الشعب الإيراني ـــ: (اسعو جهدكم أن لا تقطعوا صلتكم بـالقرآن.. اقـرأوا القـرآن كـلّ يوم ولو نصف صفحة؛ فهذه جميعاً تقرّب الإنسان إلى الله؛ وهــذه الأمـور نفسـها هي الـتي تجلب للانسـان صـفاء الـروح والانشـراح والفتوحات المعنويّة)

وومن أمثلتهـا قولـه في لقائـه الأوّل مـع أعضـاء حكومـة من الحكومات الجديدة: (أيّها الإخوة والأخوات الأعـزّاء.. حملكم ثقيـل وعملكم صـعب .. فمن أجـل أن تتمكّنـوا من عبـور هـذا الطريـق بسلام، وتمضوا الـ 1450 يوماً التي أمامكم بنحـو جيّـد، عليكم أن ترتبطـوا باللـه. حتمـاً، اقـرأوا القـرآن يوميّـاً؛ قـدر مـا تسـتطيعون واجعلوا هذا عادةً حتميّة لكم)

وكـان يهـدي الـوزراء في أول تـوليهم لوظـائفهم، نسـخةً من القـرآن الكـريم تـذكيرا لهم بـه، ودعـوة لهم لرعايتـه أثنـاء أدائهم للمسؤوليات المناطة بهم.

وهو يعتبر كل ذلك مقدمة لتحقيق الانفعـال الكامـل بـالقرآن الكـريم، فيقـول: (من بركـات الثـورة الاسـلاميّة، أنّ شـبابنا ذوي الصوت والذوق وفنّ التلاوة، والموهوبين والمسـتعدّين للتعلّم، قـد وردوا ـ بحمـد اللـه ــ هـذا الميـدان وحقّقـوا نجاحـات، ولكن هـذه جميعاً مقدّمات؛ مقدّمات لفهم القرآن والتخلّق بأخلاق القرآن)

ويقـول مخاطبـا الجمـوع في جلسـة من جلسـات القـرآن:

(المسألة الأسمى، هي التخلّق بالأخلاق القرآنيّة؛ جعل طريقة الحياة متطابقة مع القرآن)

هذه مجرد شذرات تدل على مدى تقديس الإيرانيين للقرآن الكريم، وحبهم له، سواء كانوا عامة بسطاء، أو كانوا أصحاب مسؤوليات ضخمة.

ثانيا ــ الاهتمام بتفسير القرآن الكريم وعلومه:

من أهم تجليات اهتمام الإيرانيين بالقرآن الكريم من لدن سلفهم الأول إلى اليوم ذلك الاهتمام بتفسير القرآن الكريم، وبالصيغ المختلفة، ولا نبالغ إن ذكرنا بأن أهم كتب التفسير بأنواعه المختلفة كانت إيرانية المنشأ، وإيرانية السبق.. وسنحاول هنا ــ باختصار ــ إثبات ذلك من خلال ذكر بعض أهم ما ألفه الإيرانيون، وكان لهم السبق فيه.

ونبدأ بأول نوع من أنواع التفسير وأهمها، وهو التفسير بالمأثور، ذلك التفسير الذي يعتمد (على ما ورد فى القرآن الكريم نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، بالإضافة إلى ما نُقل عن الرسول ﷺ، أو عن الصحابة والتابعين)[1]

حيث نجد أهم كتاب في هذا النوع من التفسير، بل أهم مرجع ترجع إليه جميع التفاسير ـ باتفاق جميع المؤرخين ــ كتاب (جامع البيان في تأويل القرآن) لابن جرير الطبري (224هـ - 310هـ)، فهو الجامع لأكبر قدر من الروايات التفسيرية، وصاحبه إيراني من آمل التابعة لمحافظة مازندران[2].

1() التفسير والمفسرون (1/ 112).

2() آمل هي مدينة في محافظة مازندران في إيران وهي من أكبر مدن المحافظة ويبلغ عدد سكانها 197470 نسمة (عام 2005). ترتفع آمل 76 متراً عن سطح البحر، ويبعد مركز آمل عن شاطيء بحر قزوين 18 كم وعن أقدام سلسلة جبال البرز حوالي 6 كم. كما تبعد آمل حوالي 180 كم شمال شرق مدينة طهران. كما تتمتع آمل بموقع مهم فهي المدخل لعدة مدن في محافظة مازندران. تتبع مدينة آمل العديد من القرى ذات الطبيعة الجميلة كما يمكن رؤية قمة جبل دماوند من مدينة آمل.

وقد قال الذهبي مبينا أهمية تفسيره، وتأثيره فيمـا بعـده من التفاسير: (يعتبر تفسير ابن جريـر من أقـوم التفاسـير وأشـهرها، كمـا يعتـبر المرجـع الأول عنـد المفسِّـرين الـذين عنـوا بالتفسـير النقلى، وإن كان فى الوقت نفسه يُعتبر مرجعاً غير قليـل الأهميـة من مراجع التفسير العقلى، نظراً لما فيه من الاسـتنباط، وتوجيـه الأقـوال، وتـرجيح بعضـها على بعض، ترجيحـاً يعتمـد على النظـر العقلى، والبحث الحر الدقيق.. ولو أننا تتبعنا مـا قالـه العلمـاء فى تفسـير ابن جريـر، لوجـدنا أن البـاحثين فى الشـرق والغـرب قـد أجمعوا الحكم على عظيم قيمته، واتفقـوا على أنـه مرجـع لا غِنَى عنه لطالب التفسير)[1]

وذكـر أسـبقيته لجميـع كتب التفسـير، فقـال: (ونسـتطيع أن نقول: إن تفسير ابن جرير هو التفسير الـذى لـه الأوَّليـة بين كتب التفسير، أوَّلية زمنية، وأوَّلية من ناحية الفن والصناعة.. أما أوَّليتـه الزمنية، فلأنه أقدم كتاب فى التفسير وصل إلينـا، ومـا سـبقه من المحاولات التفسـيرية ذهبت بمـرور الـزمن، ولم يصـل إلينـا شئ منها، اللَّهم إلا ما وصل إلينا منها فى ثنايا ذلك الكتاب الخالد الـذى نحن بصدده.. وأمـا أوَّليتـه من ناحيـة الفن والصـناعة، فـذلك أمـر يرجع إلى ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التى سلكها فيـه مؤلفه، حتى أخرجه للناس كتاباً له قيمته ومكانته.)[2]

ونقل عن السيوطى قوله: (وكتابه - يعـنى تفسـير محمـد بن جريـر - أجَّل التفاسـير وأعظمهـا، فإنـه يتعـرض لتوجيـه الأقـوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط، فهو يفوق بـذلك على تفاسير الأقدمين)

وقال النووى: (أجمعت الأُمة على أنه لم يُصنَّف مثـل تفسـير الطبرى)، وقال أبو حامد الإسفراييني: (لو سافر رجل إلى الصـين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً)

1() التفسير والمفسرون (1/ 149)

2() التفسير والمفسرون (1/ 150).

وقد شاء الله أن تكون المدينة التي ولد فيها الطبري هي نفسها المدينة التي نشأ فيها أكبر أعلام المفسرين في هذا العصر الشيخ عبد الله الجوادي الآملي (ولد في 1932) الفيلسوف، والمفسر والمرجع، وأحد أبرز العلماء الإيرانيين المعاصرين، وهو من تلامذة المفسر والفيلسوف الكبير محمد حسين الطباطبائي، وللشيخ عبد الله الجوادي الآملي بالإضافة إلى تفسيره الكبير الكثير من الكتب حول المعارف القرآنية من أمثال (تسنيم في تفسير القرآن)، (معارف القرآن من خلال الحواميم السبع)، و(نظرية المعرفة في القرآن الكريم)، و(العقيدة من خلال الفطرة في القرآن الكريم)

وهكذا نجد من أوائل من اهتم بالبلاغة القرآنية، بل يمكن اعتباره المؤسس لها، عالم كان يسكن قريبا من تلك المدينة، وهو **أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني**[1] (400 ـ 471هـ) المنتسب لمدينة (جرجان)[2] الإيرانية، وهو أحد اللذَين قيل عنهما: (لم يفهم القرآن إلا أعرجان أحدهما في زمخشر، والآخر في جرجان)

ويعتبر ـ بشهادة كل المؤرخين ـ مؤسس علم البلاغة، ويعد كتاباه: (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) من أهم ما ألف في هذا المجال، وقد كان هدفه منهما هو إعجاز القرآن الكريم وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر، بالإضافة إلى ذلك ألف رسالة في إعجاز القرآن الكريم بعنوان (الرسالة الشافية في إعجاز القرآن)، وهي من أفضل ماكُتِب في الإعجاز القرآني، وقد نفى فيها الجرجاني القول بالصرفة، الذي حاول البعض من خلاله نفي البحث عن مدارك الإعجاز القرآني.

وقريب من تلك المدن التي ولدت فيها المؤلفات المرتبطة

1() وفيات الأعيان 1: 298 وطبقات السبكي 3: 238.

2() أو كركان (بالفارسية:گرگان)، وكانت تسمّى قديماً أستراباذ أو أستراباد، وهي إحدى المدن الشهيرة في إيران. وتقع في شمالي إيران حالياً، وكانت جرجان مركز منطقة استرآباد.. وإليها ينتسب الشريف الجرجاني والميرداماد الحسيني الفيلسوف والمير فندرسكي واللغوي النحوي علي الفصيحي وكذلك الأمين الأسترابادي.

بالتفسير بالمأثور والبلاغة القرآنية ولد أكبر من صنّف في التفسير بـالرأي الشـيخ فخـر الـدين الـرازي، ابن خطيب الـري، وهـو من العلماء الذين جمعوا بين تخصصـات مختلفـة، فهـو مفسـر وفقيـه وأصولي، وباحث في الفيزياء، والرياضيات، والطب، والفلك.

ويعتبر كتابه (التفسير الكبير) الذي سماه (مفاتيح الغيب) من أكثر كتب التفسير تحقيقا وبحثا في المعاني القرآنيـة، ومـا يرتبـط بها من العلوم المختلفة، وقـد قـال محمـد السـيد حسـين الـذهبي عنه: (إن تفسير الفخر الرازى ليحظى بشهرة واسعة بين العلماء، وذلك لأنـه يمتـاز عن غـيره من كتب التفسـير، بالأبحـاث الفيَّاضـة الواسـعة، فى نـواح شـتَّى من العلم، ولهـذا يصـفه ابن خلكـان فيقول: (إن الفخر الرازى جمع فيه كل غريب وغريبة)[1]

وهكذا نجد **ناصر الدين البيضـاوي** (ت 691هـ) صـاحب تفسير (أنوار التنزيل وأسـرار التأويـل)، وهـو من أشـهر التفاسـير التي اعتمدها المتأخرون لسهولتها، من إيـران من مدينـة البيضـاء، قـرب شـيراز، وتـوفي في تـبريز، وتفسـيره يعتـبر نموذجـا للكتب الدراسية المقررة التي تعتمد التلخيص والتبسيط.

وهكذا نجد أكـبر من اهتم باللغـة القرآنيـة وتحريـر مفرداتهـا ومصطلحاتها علم كبير من أعلام إيران في التفسـير وغـيره، وهـو الراغب الأصفهاني (ت 502 هـ)، وهـو من أهـل (أصـفهان)، وقـد كتب في اللغة القرآنية والتفسير الكتب الـتي لا تـزال مراجـع في بابها، ولم يسبق لمثلها، ومن أهمهـا كتابـه (المفـردات في غـريب القرآن) و(حل متشابهات القرآن) و(جامع التفاسير)، بالإضافة إلى كتبه في الأخلاق والآداب من أمثال (الذريعة إلى مكارم الشـريعة) و(الأخلاق) ويسـمى (أخلاق الـراغب) و(تفصـيل النشـأتين) في الحكمة وعلم النفس، وغيرها من الكتب.

وعلى هذا المنوال نجد أقدم كتب التفسير الإشاري الصـوفي كتاب **سهل بن عبد الله التسـتري** (المتـوفى: 283هـ)، وهـو من (تستر) إحدى مدن محافظة خوزسـتان الموجـودة في إيـران،

---

[1] () التفسير والمفسرون (1/ 208)

وكان سهل التستري أحد أكبر أئمة الصوفية وعلمائهم المتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال، وقد قال عنه أبو نعيم الأصفهاني في كتابه (حلية الأولياء): (عامة كلام سهل في تصفية الأعمال، وتنقية الأحوال عن المعايب والأعلال)

وهكذا نجد أقدم كتب التفسير الفقهي كتاب (أحكام القرآن) لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ((305 ـ 370هـ)، ويعد من أفضل وأسبق ما كتب في أحكام القرآن، ويقع في ثلاثة مجلدات، وهو رازي منسوب إلى الري، وهي جزء من مدينة طهران في إيران المعاصرة[1].

ومن التفاسير الكبرى التي ألفها إيرانيون، وكانت مصادر كبرى للتفسير في جميع العالم الإسلامي، ولفترات طويلة تفسير (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، المعروف بتفسير النيسابوري الذي ألفه العلامة نظام الدين حسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، إمام المفسرين في عصره، وهو ينتسب إلى عاصمتين من عواصم الحضارة في إيران نيسابور، ومدينة قم.

ومنها تفسير **ابن أبي حاتم الرازي** (240 - 327 هـ)، وهو من أقدم التفاسير بالمأثور، وعليه وعلى تفسير الطبري يعتمد هذا النوع من التفسير، وهو كما تدل عليه نسبته من مدينة الري، الموجودة حاليا في طهران.

ومؤلفه هو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم الحنظلي[2] الرازي[3] (240 ـ- 327 هـ)، وهو من كبار حفاظ الحديث، رحل في طلب الحديث إلى البلاد مع أبيه وبعده، وأدرك

[1] الري (بالفارسية:شهر رى) هي مدينة تاريخية أضحت اليوم جزءً من الجنوب الشرقي لمدينة طهران في إيران، وإليها ينسب الكثير من الأعلام من أمثال قطب الدين الرازي (694-766هـ) الفيلسوف وعالم المنطق، ونجم الدين الرازي (573-654هـ) الصوفي المعروف، و.

[2] الحنظلي نسبة إلى درب حنظلة بالري.

[3] تذكرة الحفاظ 3 / 46؛ وطبقات الحنابلة 2 / 55؛ والأعلام للزركلي 4 / 99

الأسانيد العالية،كان إماما في معرفة الرجال. قال أبو الوليد الباجي: ابن أبي حاتم ثقة حافظ.

ومن مؤلفاته: (الجرح والتعديل)، والتفسير، في عدة مجلدات، كما صنف في الفقه واختلاف الصحابة والتابعين.

بالإضافة إلى هذه الكتب السنية، والتي كان لها السبق على غيرها في هذا المجال، نجد كبار كتب التفسير الشيعية تخرج من المدن الإيرانية، بل من نفس المدن التي صدرت منها تلك الكتب السنية، وهو دليل على الأخوة التي كانت تربط بين جميع سكان إيران سنتهم وشيعتهم.

ومن الأمثلة على ذلك أشهر كتاب شيعي في التفسير، تفسير (مجمع البيان لعلوم القرآن)، لأبي علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى المشهدى، العالِم، المفسِّر، الفقيه، المحدِّث.

وميزته أنه من التفاسير التي تجد رواجا وقبولا عند كل من الشيعة والسنة، بل اعتبره الفريقان من أقدم المصادر التفسير ية، وقد اعتمد فيه منهجية علمية مميزة، حيث يعتمد على اللغة، ثم الإعراب، ثم الحجة، ثم القراءة، ثم المعنى، ولا يقتصر على آراء مذهب دون آخر، بل يذكر آراء جميع المذاهب الإسلامية، ولذلك صار هذا التفسير مميزاً عن سائر التفاسير، ومعترفاً به من قبل الأمة الإسلامية قاطبة.

وقد نقل الذهبي في (التفسير والمفسرون) عن بعضهم قولهم عنه: (إن عمدة المفسِّرين، أمين الدين، ثقة الإسلام، أبو عليّ الفاضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى، كان من نحارير علماء التفسير، وتفسيره الكبير الموسوم بمجمع البيان، بيان كاف ودليل واف لجامعيته لفنون الفضل والكمال، ثم لما وصل إليه بعد هذا التأليف كتاب الكشاف واستحسن طريقته، ألَّف تفسيراً آخر مختصراً، شاملاً لفوائد تفسيره الأول ولطائف الكشاف، وسماه الجوامع، وله تفسير ثالث أيضاً أخصر من

الأولين، وتصانيف أخرى فى الفقه والكلام)[1]

وقد أشاد بهذا التفسير جميع رواد التقريب بن المذاهب الإسلامية، ومن بينهم الشيخ محمود شلتوت شيخ جامع الأزهر الذي قال في مقدمته لإحدى طبعاته: (إنّ تفسير مجمع البيان بما فيه من مزايا يفضل على جميع تفاسير القرآن المؤلفة من قبل علماء الإسلام على اختلاف مسالكهم ومذاهبهم طوال مئآت السنين)[2]

وقال عنه الشيخ عبد المجيد سليم، شيخ الجامع الأزهر آنذاك ووكيل جماعة التقريب: (هو كتاب جليل الشأن غزير العلم كثير الفوائد وحسن الترتيب، لا أحسبني مبالغاً إذا قلت إنه في مقدمة كتب التفسير التي تعد مراجع لعلومه وبحوثه، وجدت صاحبه عميق التفكر عظيم التدبر، متمكنا من علمه، قويا في أسلوبه وتعبيره، شديد الحرص على أن يجلى للنّاس كثيرا من المسائل التي يفيدهم علمها)

ومن التفاسير الشيعية المؤلفة في إيران (تفسير الصافى) لمؤلفه ملا محسن الفيض الكاشاني، ومؤلفه من (كاشان) المدينة الإيرانية المعروفة[3]، وتفسيره من التفاسير الروائية (أي: تفسير الآيات بناء على ما ورد في الروايات)، وهو تفسير مختصر وشامل، وكان موضع اهتمام المفسرين الذين جاؤوا بعده، فقد كان السيد محمد الحسين الطباطبائي يستشهد كثيرا بأقوال مؤلفه في تفسيره الميزان، وكان محمد هادي معرفة يقول عنه: (وهذا التفسير – على جملته – من نفائس التفاسير الجامعة لجُلّ

1() التفسير والمفسرون (2/ 74).

2() الطبرسي، مجمع البيان لعلوم القرآن، المقدمة.

3() وهي رابع أهم مدينة إيرانية من حيث وجود الآثار التاريخية فيها بعد أصفهان وشيراز ويزد، فهي عريقة في التاريخ في الفن المعماري الإيراني. كما أن كاشان تُعرف عالمياً بسجّادها الذي تصنعه أنامل نسائها في أغلب بيوتها، فضلاً عن مصانع السجّاد الحديثة الموجودة في هذه المدينة..

المرويات عن أئمة أهل البيت إن تفسيراً أو تـأويلاً. وإن كـان فيـه بعض الخلـط بين الغثّ والسـمين)[1]، ويقـول عنـه محمـد علي أيـازي: هـذا التفسـير - بالنسـبة إلى التفاسـير الأخـرى - تفسـير مختصر للقرآن الكريم، وكان في السابق موضع اهتمام أهل العلم والبحث في الحوزات العلمية حتى تم تدريسه للطلبة في الحوزة.

هذه نماذج عن بعض التفاسـير القرآنيـة القديمـة الـتي ألفت في إيـران، ومن علمـاء إيرانـيين، كـان لهم السـبق في المجـالات التي كتبوا فيها..

أما إيـران المعاصـرة، فقـد أولت التفسـير القـرآني أهميـة لا يضاهيها فيها كل ما ألـف في العصـور السـابقة، حيث نجـد الكثـير من المفسرين الذين ألفوا التفاسير البديعة المتقنة، والتي حاولت أن تتجاوز المذاهب والطوائف الإسلامية.

ولعل من أهم تلك التفاسير ما ألفه العلامتان الكبيران الشيخ جعفر السبحاني، والشيخ ناصر مكارم الشيرازي:

أمـا **أولهما**، فهـو العلامـة الكبـير الشـيخ جعفـر بن محمـد حسين السبحاني الخياباني التبريزي، العالم الإيراني الكبير صاحب التآليف الكثـيرة في علم الكلام والتفسـير والفلسـفة [2]، والـذي لم تمنعه فارسيته من التبحر في اللغة العربية وتذوقها، وقـد قـال عنه الشيخ محمد تقي التستري في تقريضه لبعض كتبه: (والعجب أنكم رغم نشأتكم في إيران أخـذتم بناصـية اللغـة العربيـة كـأديب مصري أو بغدادي، فأتيتم بتعابير عصرية رائجة)[3]

وقـد كـان من أبـرز تلامـذة قائـد الثـورة الإسـلامية الإمـام

1() التفسير والمفسرون، ج2، ص336.

2() وهـو مؤسـس مؤسسـة الإمـام الصـادق والمشـرف عليهـا، وهي من المؤسسـات الثقافية الإسلامية الكبيرة في قم، وتتبعها مؤسسات ومراكز فرعية أخرى..

3() انظر مقالا بعنوان: منية الطالبين في تفسير القـرآن المـبين عصـارة خـبرة علميـة وثمرة مسيرة حافلة، الشيخ حسن الصفار، مجلة البصائر 9 / 11 / 2015م ..

الخميني، حيث حضر درسه الأصولي لسبع سنوات، وقرر أبحاثه الاصولية التي طبعت تحت عنوان (تهذيب الأصول) في ثلاثة أجزاء، سنة 1955م.

وقد كان من أهم المجالات التي أولاها اهتمامه الكبير تفسير القرآن الكريم والدراسات المرتبطة به، وقد عبر عن ذلك في بعض كتبه بقوله: (ثم من فضل الله ومنته على عبده الفقير هو أني عشت مع القرآن الكريم قراءة وتفسيراً، مدة مديدة من عمري، منذ شبابي إلى هرمي، وقد ألفت في تفسير القرآن موسوعتين باللغة العربية والفار سية، كما فسرت عددا كبيرا من سور القرآن الكريم، وأما الآن فإني عازم بما يسنح به العمر على تفسير أجزاء القرآن الكريم)

وكان الشيخ السبحاني رائدا التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، حيث أصدر فيه كتابه الكبير (مفاهيم القرآن)، والذي لا نجد نظيرا له للأسف في سائر المدارس الإسلامية، حيث تناول فيه الكثير من المواضيع والقضايا الأساسية في القرآن الكريم كالتوحيد والصفات الالهية والنبوة والإمامة والمعاد والحكومة الاسلامية وغيرها.

بالإضافة إلى هذا نجد في قائمة مؤلفات الشيخ السبحاني التي تنوف على (250) كتاباً عشرات الكتب العلمية حول القرآن الكريم، ومعالجة موضوعاته المختلفة.

وقد أشار الشيخ حسن الصفار إلى أهمية كتابات الشيخ السبحاني في التفسير عند عرضه لأحد تفاسيره، وهو (منية الطالبين في تفسير القرآن المبين) بقوله: (إن الساحة الفكرية الاسلامية تستقبل الآن مشروعا قرآنيا واعداً، يوفر فرصة رائعة لأبناء هذا الجيل من الأمة، في التعرف على معاني آيات القرآن الكريم، واستشفاف مضامينها، بما يواكب تطورات الحياة المعاصرة، ويستجيب للتحديات الفكرية القائمة، بلغة واضحة، وأسلوب جذاب، بعيدا عن الإسهاب الممل، والاختصار المخل.. وسيجد من يطلع على الأجزاء الصادرة من هذا التفسير المميّز، كيف يوظّف الشيخ السبحاني خبرته وتجربته العلمية في مختلف

حقول المعرفة، للغـوص في اعمـاق معـاني الآيـات الكريمـة، من أجل تقديم لآلئ مضامينها ناصعة مشرقة بين يدي القارئ الكريم)

ثم وصف طريقته في التفسير، فقال: (فحينما تستبطن الآيـة معنى عقدياً، يبرزه ويجلّيه بدقـة ووضـوح.. وحين تشـير الآيـة إلى حدث تاريخي، يسلط عليه الأضواء بما يخدم هـدف الآيـة من أخـذ العبرة والدروس.. وإذا تضمنت الآية حكما تشريعيا، ناقش اختلاف المذاهب والفقهاء في تشخيص ذلـك الحكم.. وعنـدما تعـالج الآيـة بعـداً تربويـاً أخلاقيـاً، يتنـاول مقاصـدها في تزكيـة النفس وتقـويم السلوك.. وهكذا يجـد القـارئ الكـريم نفسـه امـام بحـوث علميـة مركّزة، وطرح معرفي مكثّف، بلغة عصرية واضحة مشرقة) [1]

أما الثاني، فهو **العلامة الكبير ناصر مكارم الشـيرازي**، أحد أكبر العلماء المعاصـرين، والـذي كـان من المشـاركين الكبـار في قيـام الثـورة الإسـلامية في إيـران، وقـد تعـرض للنفي عـدة مرات، ويعد اليوم من أبرز القيادات الدينية في إيران.

ومن كتبه في التفسير (تفسير الأمثل)، وقد كتبـه في البدايـة باللغة الفارسية، وصدر في سبعة وعشرين مجلَّدًا ثمَّ ترجم بعـدها إلى العربية، وقد استغرق العمل فيه قرابـة الخمسـة عشـر عامًـا امتدَّت من 1396هـ ولغاية 1410هـ.

ومن مزايا هذا التفسـير كونـه وضـع بعبـارات سلسـة، قابلـة للفهم من قبل العوام والخواص، لأن الهدف من كتابته كان ــ كمـا يذكر صاحبه ـ ألا يستعصـي فهمـه على النـاس، حـتى يتمكنـوا من فهم وتدبُّر معاني القرآن العظيم، ولذلك نراه يبتعد عن التعقيدات في طرح المطالب العلمية والمصطلحات الغامضة.

وقد ذكر في مقدمة التفسير دوافعه لتأليفـه، فقـال: (واجهنـا دومًـا أسـئلة وردت إلينـا من مختلـف الفئـات -وخاصـة الشـباب المتعطِّش إلى نبـع القـرآن- عن التفسـير الأفضـل. هـذه الأسـئلة تنطـوي ضـمنيًا على بحث عن تفسـير يـبيِّن عظمـة القـرآن عن

1() انظر مقالا بعنوان: منية الطالبين في تفسير القـرآن المـبين عصـارة خـبرة علميـة وثمرة مسيرة حافلة، الشيخ حسن الصفار، مجلة البصائر 9 / 11 / 2015م ..

تحقيق ولا عن تقليد ويجيب على ما في الساحة من احتياجات وتطلّعات وآلام وآمال.. تفسير يجدي كلّ الفئات، ويخلو عن المصطلحات العلمية المعقّدة، وهذا التفسير دوّن على أساس هذين الهدفين)[1]

ومن مزايا هذا التفسير كونه من التفاسير التي راعت التقريب بين المذاهب الإسلامية، حيث نجده يشتمل على تحقيقات مهمة من المدارس الإسلامية المختلفة، فهو يرجع لتفسير مجمع البيان للطبرسي، والجامع لأحكام القرآن، والميزان في تفسير القرآن للطباطبائي، والمنار، وتفسير نور الثقلين للحويزي، والتفسير الكبير للفخر الرازي، وظلال القرآن لسيد قطب، وتفسير المراغي وغيرها من الكتب، ويصيغ عباراتها بلغة سلسلة مبسطة، يمكن فهمها لعوام الناس وخواصهم.

هذه مجرد نماذج عن اهتمام الإيرانيين بتفسير القرآن الكريم وفهمه والتدبر فيه، والتي لم تكتف بالعلماء والأساتذة المتفرغين، وإنما شملت أيضا كبار القادة الذين أنيطت بهم أكبر المهمات إبان الثورة الإسلامية.

ومنهم الإمام الخميني الذي كان له اهتمام كبير بتفسير القرآن الكريم، فقد كان يفسره في مجالسه المختلفة، وقد جمعت تلك المجالس في تفسير خاص، سمي (تفسير القرآن الكريم المستخرج من آثار الإمام الخميني)، وقد نشره قسم الشؤون الدولية في مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني في خمسة مجلدات.

ثالثا ـ الاهتمام بتفعيل القرآن الكريم في الحياة:

من مظاهر الاهتمام التي يوليها الإيرانيون للقرآن الكريم، تلك الدعوات الكثيرة لتفعيله في الحياة، فهو الكتاب الذي يحوي جميع القيم الإيمانية والأخلاقية والحضارية، وهو الكتاب الذي جعله

1() الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ج1- ص5..

الله حبله الممدود لإنقاذ البشرية وتخليصها من الأهواء والاستبداد وكل أنواع الفتن، كما قال الإمام الصادق: (من لم يعرف الحق من القرآن لم يتنكب الفتن)[1]

وسر ذلك كما عبر عنه هو (أن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة) [2]

ولذلك حمل الإيرانيون من سالف الزمان هذا النوع من الاهتمام، وكيف لا يفعلون ذلك، وقد سمعوا صيحات الإمام الرضا فيهم، وهو يخاطبهم من مشهد، واصفا القرآن الكريم بقوله: (هو حبل الله المتين، وعروته الوثقى، وطريقته المثلى، المؤدي إلى الجنة، والمنجي من النار، لا يخلق على الأزمنة، ولا يغث على الألسنة، لأنه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان، والحجة على كل إنسان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[3]

وسمعوا بعده الإمام الجواد، وهو يحذرهم من نبذ القرآن الكريم، أو تحريف معانيه وقيمه، ويقول لهم: (كل أمة قد رفع الله عنهم علم الكتاب حين نبذوه وولاهم عدوهم حين تولوه، وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية)[4]

وبناء على تلك الدعوات وغيرها، سار الكثير من المجددين ودعاة الإحياء الذين أنجبتهم إيران طيلة تاريخها، والذين كان لهم

---

[1] () المحاسن: 1 / 341 / 702.

[2] () البحار: 92 / 15 / 8

[3] () عيون أخبار الرضا : 2 / 130 / 9

[4] () الكافي: 8 / 53 / 16

الأثر البالغ على العالم الإسلامي جميعا.

ولبيـان هـذا وتأكيـده، نحب أن نقتصـر هنـا على مثـالين من المشــروع الحضــاري الإيــراني القــديم، ومثــالين من المشــروع الحضاري الجديد.

أما **المثال الأول** من المشروع الحضاري الإيـراني القـديم، فهو أبو حامد الغزالي الذي عاش وتربى في مشهد، تلـك المدينـة التي تشرفت بالإمـام الرضـا، وكـانت تعاليمـه لا تـزال تـؤثر فيهـا، والذي لا يشك أحد في كونه حلقة مهمة في تاريخ الإحياء والتجديد الإسلامي.

وقد كان من أهم ما تركـزت عليـه دعـوة الغـزالي الإحيائيـة، العودة إلى القرآن الكريم، وعدم الاكتفـاء بقراءتـه قـراءة مجـردة عن أي تأثير واقعي، وقد وضع في ذلـك كتابـه المعـروف (جـواهر القرآن) الذي بين فيه مناهج تدبر القرآن، والاسـتفادة من حقائقـه في جميع مناحي الحياة، وقد ذكر في مقدمتـه غرضـه من تأليفـه، فقـال: (إِني أُنَبِّهـك على رَقْـدَتك، أَيُّهـا المُستَرسِـلُ في تِلاوَتِـك، المُتَّخِـذُ دراسـة القـرآن عملاً، المُتَلَقِّفُ من معانيـه ظـواهر وجُمَلاً، إلى كم تطوف على ساحل البحر مُغَمَّضاً عينيك عن غرائبها؟ أَوَمَا كان لك أن تركب مَتْنَ لُجَّتِها لِتُبْصِرَ عجائبَها؟ وتسافَر إلى جزائرهـا لاِجتِنَاء أطَايِبِها؟ وتغوصَ في عمقها فتستغني بِنَيْلِ جواهِرها؟ أوَمـا تُعَيِّر نفسكَ في الحرمان عن دُرَرِها وجواهرهـا بإدمـان النظـر إلى سواحلها وظواهرها؟ أوَمـا بَلغـك أن القـرآن هـو البحـر المحيـط؟ ومنه يتشعَّب علمُ الأَوَّلينَ والآخرِينَ كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارُها وجـداوِلُها؟ أوَمـا تَغْبِـطُ أقوامـاً خاضـوا في غَمـرة أمواجهــا فظفــروا بــالكبريت الأحمــر؟ وغاصــوا في أعماقهــا فاستخرجوا الياقوتَ الأحمرَ، والدُرَّ الأزهَـرَ، والزَّبَرْجَـدَ الأخضـر؟ .. وها أنا أُرشدك قاضِياً حقَّ إخائِك، ومُرتَجياً بَرَكة دعائـك إلى كيفيـة سياحتهم وغَوْصهم وسباحتهم)[1]

ونجد أمثـال هـذه الـدعوة في كـل كتبـه، وخاصـة في (إحيـاء

---

[1] جواهر القرآن (ص: 21)

علوم الدين) الذي دعا فيه إلى العبور إلى حقـائق القـرآن، وعـدم الاكتفاء بظاهر التلاوة، وقد كانت تلـك الآداب من أحسـن مـا كتب في التعامل الإيماني مع القرآن الكريم، ولا يمكن لأحد أن يقرأهـا، وينفعل لها دون أن يتأثر بذلك، وتتغير قراءته للقرآن الكريم تغـيرا جذريا.

ومما له علاقة كبرى بتفعيل القـرآن الكـريم في الحيـاة ذلـك الأدب الرفيع الذي سماه الغزالي (التخصيص)، ويعني بـه أن يقـدر قارئ القرآن أثناء قراءته أنه المخصـوص بكـل خطـاب فيـه، فـإن سمع أمرا أو نهيـا قـدر أنـه المنهي والمـأمور، وإن سـمع وعـدا أو وعيـدا فمثـل ذلـك، (وكيـف لا يقـدر هـذا، والقـرآن مـا أنـزل على رسول الله ﷺ لرسول الله ﷺ خاصة، بل هـو شـفاء ورحمـة ونـور للعالمين) [1]

ونتيجة ذلك ـ كما يرى الغـزالي ــ أن لا تتخـذ دراسـة القـرآن عملا، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأملـه، ويعمل بمقتضاه، وينقل الغزالي في ذلك عن مالك بن دينار قولـه: (مـا زرع القـرآن في قلـوبكم يـا أهـل القـرآن؟.. إن القـرآن ربيـع المؤمن، كما أن القرآن ربيع الأرض)[2]

ولا يكون ذلك ـ كما يـرى الغـزالي ــ إلا بالتعامـل الجـدي مـع القرآن الكريم، واعتبـار كـل مـا فيـه حكمـة وفائـدة في حـق كـل شخص بعينه، فليست قصصه ـ مثلاـ سمرا غير مقصود، وإنمـا هي عبر وتثبيت لمن تأملها، ولأجل هذا أمر اللـه تعـالى الكافـة بشـكر نعمة القرآن الكريم باعتبار نزوله غير مختص به ﷺ، بل هو متعلق بكل مكلـف، فقـد قـال تعـالى: ﴿ وَاذْكُـرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَـا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ (البقرة:231)[3]

---

[1] إحياء علوم الدين: 1/284.

[2] إحياء علوم الدين: 1/285.

[3] إحياء علوم الدين: 1/285.

هــذا المثــال الأول، ولا يشــك أحــد في تــأثيره في العــالم الإسلامي، ولفترات طويلة جدا، بل لا نكون مبـالغين إن زعمنـا أن تأثيره لا يزال ساريا إلى اليوم، وفي كل المدارس الإسلامية، ذلك أن كتابه (إحياء علوم الدين) قد تناوله الفيض الكاشاني بالتهـذيب، ونقله إلى المدرسة الشيعية، لتصبح القيم التي ذكرها فيه مصــدرا من مصادر الوحدة الإسلامية.

أما المثال الثـاني، فهـو بـاعث النهضـة في العصـر الحـديث، والذي كان لـه التـأثير الفاعـل في كـل الـدعاة والمفكـرين الـذين جـاءوا بعـده (جمـال الـدين الأسـد أبـادي) والـذي اشـتهر بلقب بالأفغاني مع كونـه كـان إيرانيـا، ولم يكن أفغانيـا، ولكن المصـلحة والتقية دعته لأن يلقب بذلك اللقب خوفا على دعوته من أن تغتال إذا علمت السلطات العثمانية خصوصا بأصله[1].

وقد كان جـوهر دعـوة جمـال الـدين ينطلـق من العـودة إلى القرآن الكريم، وتفعليه في جميع مناحي الحيـاة، أو كمـا عـبر عن ذلك بقوله: (على العلماء والخطباء والأئمة في جميع زوايا الإسلام أن يتواصلوا ويتحاوروا مع بعضهم البعض، وأن ينشؤوا مراكــز لهم في أنحاء الأرض المختلفـة، يجتمعـوا فيهـا ليبحثـوا قضـايا الوحـدة ويرشدوا العامـة إلى تعـاليم القـرآن الكـريم والحـديث الشـريف، ويجمعوا الشتات في الأماكن المقدسة، وأيّ مكان أقدس من بيت الله الحرام، ينهلوا من فيوضاته الرحمانية، فيمتلؤوا عزيمـة وثباتـاً بوجه المعتدين، ويقفـوا على احتياجـات النـاس، وفي هـذا العمـل نشر للعلـوم وحمايـة للـدين وكـذلك طـردٌ للبـدع وتنـوير للأذهـان، وتنظيم هذه العملية سيحدّد المدارج العلمية ومسؤوليات كل فــرد ويسـدّ بـاب البـدع، وحـتى لـو ظهـرت البدعـة، فـإنّ تواصـل هـذه الشرائح مع بعضها سيتيح وأدها في مهدها لئلا تنتشــر بين النـاس)[2]

---

[1] قال مرزا لطف الله أسد آبادي ابن اخت جمال الدين المشهور بالأفغاني في كتابــه [جمال الدين الأسدابادي، ص34]: (وكان كشـف حقيقـة جمـال الـدين أمـام السـلطان عبـد الحميد ضربة قاضية وجَّهها مظفر الـدين شـاه إلى جمـال الـدين بوثيقـة سـلمها علاء الملـك سفير إيران في تركيا إلى الحكومـة التركيـة تثبت بالأدلـة القاطعـة أن جمـال الـدين إيـراني شيعي يختفي في ثياب الأفغاني، ويتّخذ المذهب السني ستاراً يحتمي به).

وهو يرجع جميع أنواع البلاء والتخلف والفقر والاستعمار التي حصلت للمسلمين إلى ابتعادهم عن القرآن الكريم، ويستدل لذلك بقوله تعالى: {وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ} (هود: 117)، ويستخرج منها أسباب الخلل الذي حصل للأمة الإسلامية، ويتساءل متعجبا: (كيف أتيح للكفار أن يظهروا على المسلمين؟ ما الذي جرى؟ كيف وصلت الحضارة الإسلامية إلى ما وصلت إليه من الضعف والانحلال والوهن بعد عصر طويل من الازدهار والغلبة؟ كيف أضاع المسلمون جميع تلك الإمكانات والنعم؟)

ثم يطرح الحل من خلال القرآن الكريم نفسه، ومن خلال قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ} (الرعد: 11))[1]

فهذه الآية الكريمة ـ كما يذكر جمال الدين ـ هي التي تصف للأمة طريق الخروج من أزماتها، وهي نفس الآية التي استند إليها كل المصلحين الذين جاءوا بعده، وقد قال معبرا عن معناها: (إنّ الحكيم المبدع لهذا الكون قد وضع للأشياء عللاً وأسباباً، ومن ثمّ لكل حادث علله ونتائجه الخاصة به، والآيات القرآنية بدورها تصرّح بهذه الحقيقة، وهي أنّ نظام الكون تحكمه قوانين دقيقة وثابتة اصطلح عليها بالسنن الإلهية، وأنّ التزامها والتقيّد بها يعني السير في طريق الخير والفلاح، والحيد عنها يوجب الضلال والخسران)[2]

وقد ذكر جمال الدين إدراك المستعمر لهذه الحقائق، ولهذا كان يحارب كل من يدعو إلى العودة إلى القرآن الكريم، ويقول في ذلك: (حَسْبُ رجل الدين أن يقول: إنّه مؤمن بالقرآن وآياته؛

2() الأفغاني، الجمود وانحطاط المسلمين، مقالات العروة الوثقى: 45 ـ 46.

1()]) انظر: الأفغاني، القضاء والقدر: 64 ـ 75، مقالات العروة الوثقى.

2() انظر: الأفغاني، أسباب حفظ الملك: 148 ـ 157، العروة الوثقى.

لينفيه الاستعمار إلى جزيرة اندومان)[1]

هذه بعض النماذج عن طروحات جمال الدين الأسد آبادي، والتي يمكن لمن شاء أن يرجع إليها، ويتأكد منها ليتبين له أنها كلها تنطلق من القرآن الكريم، وأنها فوق ذلك كانت الأسس الكبرى التي قام عليها الإصلاح والتجديد في العصر الحديث.

أما المشروع الحضاري الجديد للجمهورية الإسلامية الإيرانية؛ فيمكننا اعتباره قائما على القرآن الكريم باتفاق جميع قادته ومفكريه وزعمائه السياسيين وغير السياسيين، فكلهم دعوا إلى تفعيل القرآن الكريم في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، واعتباره الدستور الأعلى الذي يقوم عليه النظام الإسلامي في جميع جوانبه.

وأول من دعا إلى هذا، ونشره، واهتم بالدعوة إليه قائد المشروع الحضاري الجديد في إيران الإمام الخميني، والذي لم يكن يدع مناسبة شعبية أو خاصة إلا ودعا فيها إلى تفعيل القرآن الكريم في جميع مظاهر الحياة، باعتباره الوصية الكبرى لرسول الله ﷺ.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعليقا على حديث الثقلين [2]، وتفريط الأمة في وصية النبي ﷺ: (فهذا الحديث حجة بالغة على البشرية جمعاء، ولا سيما المسلمين بمختلف مذاهبهم، فهم مسؤولون جميعاً عن ذلك بعد أن تمّت الحجة عليهم، وإن كان هناك من عذر للعامة بسبب جهلهم وعدم اطلاعهم، فلا عذر لعلماء المذاهب.. ولنر الآن ما جرى على القرآن هذه الوديعة الإلهية، وتركة رسول الإسلام ﷺ لقد شرعت نوائب مفجعة حرية أن يُبكى منها دماً.. فقد استغل عباد الأنا والطواغيت القرآن الكريم، واتخذوه وسيلة للحكومات المعادية للقرآن، وأبعدوا

1() الأفغاني، العروة الوثقى وجرائد الإنجليز، مقالات العروة الوثقى: 206.

2() وهو قوله ﷺ: (إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض).

مفسري القرآن الحقيقيين والعارفين بالحقائق الحقة ممن تعلموا القرآن كله من الرسول الأكرم ﷺ أبعدوهم بذرائع شتى)

ثم ذكر بعض مظاهر ذلك الإبعاد، فقال: (لقد أخرجوا القرآن الذي كان وما يزال الدستور الأعظم لحياة البشر وشؤونهم المادية والمعنوية حتى يردوا الحوض من الميدان، وأبطلوا حكومة العدل الإلهي، وهي أحد أهداف هذا الكتاب المقدس، وأسسوا أسس الانحراف عن دين الله وكتابه والسنّة الإلهية، فبلغ الأمر حداً يخجل القلم عن تبيانه، وكلما ارتفع هذا البنيان المنحرف ازداد الانحراف، فقد عطلوا القرآن الكريم إلى حد بدا، وكأنه لا دور له في الهداية، وهو الكتاب الذي تنزل هدى للعالمين، ومحوراً لجميع المسلمين كافة، بل وعموم الأسرة البشرية، والسمو بها إلى ما يجب أن تسمو إليه، وإنقاذها من شرور الشياطين والطغاة) [1]

ثم ذكر متألما الأدوار السلبية التي قام بها علماء السوء من أجل إرضاء السلاطين، فقال: (وبلغ الانحراف درجة أن الحكومات الجائرة والخبثاء من فقهاء البلاط، وهم أسوأ من الطغاة اتخذوا القرآن وسيلة للظلم وترويج الفساد وتسويغ أعمال الظلمة والمعاندين لإرادة الحق تعالى)

وذكر من مظاهر الإفساد التي استغل القرآن الكريم لترويجها من طرف علماء السوء، فقال: (وواأسفاه أن القرآن، وهو كتاب الهداية لم يعد له من دور سوى في المقابر والمآتم، بسبب الأعداء والمتآمرين والجهلة من الأصدقاء، كان الحال كذلك وما زال، فأصبح الكتاب الذي ينبغي أن يكون وسيلة لتوحيد المسلمين والعالمين، ودستوراً لحياتهم أصبح وسيلة للتفرقة وإثارة الخلاف، أو عُطّل دوره كليّاً، وقد رأينا كيف يُعتبر مرتكباً لكبرى الكبائر من ينادي بالحكومة الإسلامية ويتحدث بالسياسة. في حين أن سيرة الرسول الأعظم ﷺ، والقرآن والسنة ملأى بالنصوص المعنية بدور الإسلام الكبير في الشؤون السياسية، وأصبح وصف عالم الدين بالسياسي مرادفاً لوصفه بعدم الدين

1() القرآن في كلام الإمام الخميني، ص 14.

وما زال هذا الوصف موجوداً. وأخيراً آل الحال إلى أن تعمد القوى الشيطانية الكبرى ابتغاء محو القرآن وحفظ مطامعها الشيطانية إلى طبع القرآن بخط جميل، وتوزيعه على نطاق واسع، وتنفذ ذلك بأيدي الحكومات المنحرفة التي تتظاهر بالإسلام زيفاً، وهي بعيدة عن تعاليمه، وبهذا المكر الشيطاني تعطّل القرآن)[1]

وهو لا يكتفي بذلك الأسف والحسرة، وإنما يضع المنهج الذي من خلاله يفعّل القرآن الكريم في الحياة جميعا، ابتداء بالإنسان نفسه، فالحضارة لا يمكن أن تقوم بمعزل الإنسان.

ولأجل هذا، نراه يعيد بطريقة معاصرة ما ذكره الغزالي من ضرورة تطهير النفس وتربيتها وتهذيبها حتى ترتقي لفهم الحقائق القرآنية، وتنفعل لها؛ فيقول: (لو لم تكن التزكية لما أمكن تعليم كتاب الحكمة، يجب تزكية النفوس وتطهيرها من جميع الأدران، وأعظم الأدران هي النفس الإنسانية والأهواء النفسية، فما دام الإنسان في حجاب نفسه، فإنه لا يستطيع أن يدرك القرآن الذي هو نور، كما يعبر القرآن عن نفسه، فالذين يقفون خلف حجب عديدة لا يمكنهم أن يدركوا النور، ويظنون أنهم يستطيعون دركه، لكنهم لا يقدرون على ذلك. ما دام الإنسان لم يخرج من حجاب نفسه المظلم جداً، وطالما أنه مبتلى بالأهواء النفسية، وطالما أنه مبتلى بالعجب، طالما أنه مبتلى بالأمور التي أوجدها في باطن نفسه، وتلك الظلمات التي بعضها فوق بعض، فإنّه لا يكون مؤهلاً لانعكاس هذا النور الإلهي في قلبه)[2]

والوصفة المناسبة ـ كما يذكر الخميني ـ لكل (الذين يريدون فهم القرآن ومحتواه، لا صورته النازلة المحدودة، بل يفهموا محتواه ويزدادون سمواً ورقياً كلما قرأوه، ويقتربون من مصدر النور والمبدأ الأعلى كلما قرأوه، فإن هذا لا يتحقق إلاَّ أن تزول الحجب .. لذا يجب رفع هذه الحجب حتى تتمكن من رؤية هذا النور كما هو، وكما يليق بالإنسان أن يدركه، فأحد الأهداف هو

[1] المرجع السابق، ص16.

[2] منهجية الثورة الإسلامية، ص 90.

تعليم الكتاب بعد التزكية، وتعليم الحكمة بعد التزكية) [1]

ولـذلك اهتم الإمـام الخميـني في كتبـه جميعـا بالـدعوة إلى تزكية النفس، وتطهيرها لتسـمو لفهم الحقـائق القرآنيـة، وتنفعـل لها، وقد كانت تلك الدعوات هي السبب في توفير القابليـة للكثـير من الشعب الإيراني الذي سار خلفه، واسـتطاع أن يتحمـل جميـع أنواع الحروب التي حورب بها، ولولا ذلـك الإيمـان، وتلـك التزكيـة لما استطاع أن يتحمل ذلك.

والمثـال الثـاني في المشـروع الجديـد هـو قائـد الثـورة الإسـلامية الحـالي، والـذي اسـتمر على نفس نهج أسـتاذه الإمـام الخميـني في الـدعوة لتفعيـل القـرآن الكـريم في جميـع منـاحي الحياة، فلا يكـاد يخلـو مجلس من مجالسـه إلا ويـذكر بـذلك، وقـد جمع له في هذا كتاب كبير الحجم بعنوان: (الفكـر الإسـلامي على ضوء القرآن الكريم)

ومن تصريحاته فيه قوله ـ متأسفا ـ:(صحيح أننـا نجـد القـرآن ومنـذ الخطـوات الأولى الـتي تلت تحـوّل الخلافـة الإسـلامية إلى السـلطنة الطاغوتيـة، وقـد تحـوّل في الواقـع إلى زائـدة كماليـة، وخرج بشكل رسمي وإن لم يكن ذلك بشكل اسـمي عن المجـال الحياتي للمسلمين، إلاّ أن مـا حـدث في جاهليـة القـرن العشـرين من خلال عمل الأجهزة السياسية والاعلامية المعقـدة، يعـدُّ أخطـر من ذلك بمراتب، وأكثر بعثاً على القلق بلا ريب)[2]

وذكر أن السبب الأكبر فيما حصل للمسلمين وعـزل الإسـلام عن حياتهم هو هجر القرآن الكـريم، فقـال: (ولكي يُعـزل الإسـلام عن الحياة، فإنّ أكبر وسيلة وأكثرهـا أثـراً هي إخـراج القـرآن عن المجال الذهني والقلبي والعملي للأُمة الإسلامية، وهذا بالتأكيد مـا عمل لـه المتسـلطون الأجـانب والعملاء الـداخليون لهم، سـالكين

1() المرجع السابق.

2() الفكر الإسلامي على ضوء القرآن الكريم، السيد علي الخامنئي.

هذه السبيل عبر الاستعانة بشتى الأنماط والوسائل)[1]

وللاستدلال على هذا، ذكر أن القرآن الكريم استطاع أن يحدث تغييرا كبيرا في الذين طبقوه في حياتهم، ولم يكتفوا بقراءته قراءة مجردة، وقد قال معبرا عن هذا: (إنّ القرآن هو الكتاب المقدس، والنور، والهدى، والفرقان بين الحق والباطل، والحياة، والميزان والشفاء، والذكر، لا تتم له هذه الخصال بشكلٍ عملي إلاّ إذا تمّ قبل كل شيء استيعابه فهماً، وتطبيقه عملاً.. لقد كان القرآن في عصر الحكم الاسلامي في الصدر الأول، هو القول الفصل والكلمة الأخيرة، وحتى كلام الرسول ﷺ فإنه يجب أن يعرض عليه، وكان حَمَلَة القرآن، يتمتعون بمكانة مرموقة في المجتمع بعد أن كان الرسول ﷺ قد أعطى الأمة التعليم القائل: (أشراف أُمتي، أصحاب اللّيل وحَمَلَة القرآن)، لقد كان استيعاب القرآن علماً وعملاً، يشكل قيمة واقعية. فللعثور على حلٍّ لكل مشكلة حياتية يجب الرجوع إلى القرآن، ولقد كان القرآن ملاك قبول أيّ حديث، أو أسلوب، أو مدّعى، ومعياره، كان عليهم أن يعرفوا الحق والباطل من وجهة نظر القرآن ليشخصوا نماذجهما ومصاديقهما في ميدان الحياة) [2]

ثم ذكر ما آل إليه الأمر بعد ذلك، فقال: (ومنذ فقدت القوى الحاكمة على المجتمعات المسلمة القيم الإسلامية، واغتربت عنها، ورأت في القرآن وهو الناطق بالحق وفرقان الحق والباطل عقبة في سبيلها، بدأ السعي الحثيث لإبعاد كلام الله عن ميدان الحياة، ووُجد عقيب ذلك الفصل بين الدين والحياة الإجتماعية، والتفريق بين الدنيا والآخرة، والتقابل بين المتدينين الواقعيين وأهل الدنيا المقتدرين، وأُبعد الاسلام عن مركز إدارة مجالات الحياة الاجتماعية للمجتمعات المسلمة، ليقتصر على المساجد والمعابد والبيوت وزوايا القلوب، وهكذا وُجد الفصل بين الدين

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

والحياة بكل ما عاد به من خسارة وعلى المدى الطويل) [1]

وهو عند تعديده لأسباب ما حصل للمسلمين من هجر للقرآن الكريم، وعدم تطبيقه في جميع مناحي الحياة لا يذكر الأسباب الداخلية فقط، بل يذكر أن للأسباب الخارجية دورها الكبير أيضا، يقول في ذلك: (ومن الطبيعي أن القرآن قبل أن يتمّ الهجوم الواسع للمتسلّطين الغربيين الصليبيّين والصهاينة وإن لم يكن موجوداً في المجال الحياتي بالمعنى الحقيقي إلاّ أنه كان يحتل مكانة في أذهان المسلمين وقلوبهم على تفاوت بينهم في ذلك غير أن الهجوم الصليبي الصهيوني في القرن التاسع عشر لم يستطع أن يتحمّل حتى هذا القدر أيضاً، إنهم لا يستطيعون أن يتحمّلوا وجود القرآن الذي يصدر بكل وضوح أمر: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ } (الأنفال: 60) ويصدح بقول: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} (النساء: 141)، القرآن الذي يريد للمؤمنين أن يكونوا إخوة فيما بينهم، أشداء غضاباً على أعدائهم، مثل هذا القرآن لا يمكن أن يتحمّله المتسلطون الساعون للسيطرة على أزمّة أمور المسلمين، ونهب كل شيء لديهم) [2]

ثم ذكر بأسف كيف استطاعت تلك المؤامرات الغربية والصهيونية إبعاد المسلمين عن القرآن الكريم، بل حذفه تماما من حياتهم، فيقول: (إنّ هؤلاء المتسلطين أدركوا بكل وضوح أن القرآن رغم هذا الحضور غير الكامل في حياة الأمة، لن يسمح لتسلّطهم ونفوذهم أن يسلكا سبيلهما المنشودين، لذا فقد وضعوا خطة حذف القرآن بشكل كامل، وطبيعي أن لا تمتلك ولن تمتلك هذه الخطة تطبيقاً عملياً، ذلك أن اللّه تعالى قد وعد الأُمة الإسلامية بحفظ القرآن دائماً على أننا لا نستطيع أن نغض النظر عن نتائج ذلك السعي الواسع الأبعاد الذي تمّ من قبلهم بهذا الصدد)

---

[1] المرجع السابق.

[2] المرجع السابق.

ثم خاطب جميع المسلمين متسائلا: (ألقوا اليـوم نظـرة على ميدان حيـاة المسـلمين، فـأين تجـدون القـرآن؟ هـل تجدونـه في أجهـــزة الحكومـــات؟ أو في النظم الإقتصـــادية؟ أو في تنظيم العلاقات والمناسبات بين الناس بعضهم مـع البعض الآخـر؟ أو في المدارس والجامعـات؟ أو في السياسـة الخارجيـة والعلاقـات بين الدول؟ أو في تقسيم الثروات الوطنية بين فئات الشـعب؟ أو في أخلاقية المسؤولين في المجتمعات الإسلامية وكل فئات الشـعوب الـتي تتـأثّر بهم قليلاً أو كثـيراً ؟ أو في السـلوك الفـردي للحكـام المسلمين؟ أو في العلاقات بين الرجل والمـرأة؟ أو في الأرصـدة المصرفية؟ أو في أنماط المعاشرة؟ أو في أي مكان من الحركـة العامة والإجتماعية للناس؟ ولنستثنِ من كل هذه الميادين الحياتية المسـاجد والمـاذن وأحيانـاً بعـد الـبرامج الـتي لا تُعـد شـيئاً من الإذاعات رياءً وخداعاً لعامـة النـاس. ولكن هـل جـاء القـرآن لهـذا فقط؟)

ثم راح يردد ما ذكره جمال الدين الأسد آبـادي بقولـه: (لقـد كان السيد جمال قبل مئة سنة يَبكي ويُبكي لهذا الأمـر، حيث عـاد القرآن يقتصر على الإهداء والـتزيين والتلاوة في المقـابر والوضـع على الرفـوف.. ولكن مـاذا حـدث في المئـة سـنة هـذه؟ تـرى ألا يبعث وضع القرآن لدى الأُمة الإسلامية على القلق؟)[1]

ثم أجـاب مبينـا حقيقـة دور القـرآن الكـريم، فيقـول: (إنّ الحديث كلّه يتركز على أن القـرآن، كتـاب حيـاة الإنسـان، إنسـان اللانهاية، الإنسان المتكامل، الإنسان ذي الأبعـاد، الإنسـان الـذي لا حدّ لتكامله، إنّ هذا الهادي والمعلم للإنسـان قـادر على أن يرعـاه في كل العصور، وأن نظـام الحيـاة اللائـق بالانسـان، إنمـا يتعلّمـه الإنسـان من القـرآن لا غـير، وأن الأسـاليب الـتي يجب أن يتبعهـا لـــيرفع عن كاهلـــه أنـــواع الظلم، والتفرقـــة والفســـاد، والجهـــل، والطغيـان، والانحـراف، والـدناءة، والخيانـة الـتي ابتلي بهـا خلال تاريخه الطويل فكانت عقبة في سـبيل رشـده وتعاليـه، كـل هـذه الأسـاليب إنّمـا يمكن أن تكـون عمليـة في ظـل الهدايـة القرآنيـة

1() المرجع السابق.

والمخطط الذي طرحه الكتاب السماوي للحياة الإنسانية) [1]

ثم ذكر مرغبا الفوائد التي يجنيها المؤمنون إن هم عـادوا إلى كتاب ربهم، وطبقوه في جميـع نـواحي حيـاتهم قـائلا: (إنّ العـودة الى القـرآن، هي عــودة إلى الحيــاة الــتي تليــق بالإنســان، وهي المهمــة الملقــاة على عــاتق المؤمــنين بــالقرآن، وفي طليعتهم العــارفون بــه، والعلمــاء والمبلغــون الــدينيُّون.. وإنّ العــودة الى القرآن، شعار لو يطرح بشكل حقيقي وجـدّي، لاسـتطاع أن يقـدِّم الفــارق بين الحــق والباطــل، كمــا يجب أن لا تتحمّــل الشــعوب الإسلامية وجود تلك القوى الـتي لا تريـد أن تقبـل مسـألة العـودة الى القرآن) [2]

لكنه ومع كل ذلـك الألم الـذي اعـتراه حين صـور واقـع هجـر المسلمين للقـرآن الكـريم، ومـا فعلـه الأعـداء في سـبيل تحقيـق ذلــك، لم ينس أن ينشــر الأمــل في المســلمين عــبر ذكــر بعض مظاهر التجربة التي مارسـتها الجمهوريـة الإسـلامية الإيرانيـة في سبيل إعادة تفعيل القرآن الكريم في الجياة بجميع جوانبها، فقال: (إننا بعد أن ابتلينا كذلك بالبعد عن القرآن، وأُصبنا بآثار التآمر ضـد القــرآن من قبــل الأعــداء العــالميين، قــد ذقنــا طعم العــودة الى القرآن، وإن انتصار الثورة الإسـلامية العظيمـة في إيـران، وإقامـة نظام الجمهورية الإسلامية، ليعدّان من الآثار المباركة الكبرى لهذه العــودة.. إنّ هــذا الشــعب ليشــاهد اليــوم في أُفــق حياتــه، وفي علاقاته الإجتماعية، وفي شـكل حكومتـه ومحتواهـا، وفي مناقبيـة قادته، وفي سياسته الخارجيـة، وفي نظـام التعليم والتربيـة لديـه، يشاهد في كـل ذلـك لمعـات من التعليم القـرآني... إنّ الـذي هبَّ علينا لحد الان إنما هو نسيم في جنة القرآن.. إلاّ أن الطريق أمام السعي والحركة، ما زال مفتوحاً للوصول إلى بحبوحـة هـذه الجنَّة الواقعية) [3]

---

[1] المرجع السابق.

[2] المرجع السابق.

وبذلك، فإن المستقبل الذي يرسمه السيد علي الخامنيئ للجمهورية الإسلامية الإيرانية هو المزيد من التحقق بالقرآن الكريم في الواقع، حتى تتنزل البركات التي وعد الله بها من يقيم كتبه، ويحفظ عهده ووصاياه.

هذا مجرد نموذج عن بعض كلماته التي يخاطب بها الأمة، ويدعوها فيها إلى العودة إلى القرآن الكريم، ومن تأمل توجيهاته في هذا المجال، وخصوصا في المجالس القرآنية أو غيرها يجد الكثير من الدرر والحكمة التي تبين مدى تعظيم الإيرانيين للقرآن الكريم.

ففي حفل اختتام الدورة الثامنة والعشرين من مسابقات القرآن الكريم ألقى السيد علي الخامنئي خطابا راقيا ممتلئا بالتوجيهات السامية قال فيه: (أنا سعيد جداً لأن الله تعالى وفقنا، وله الحمد لأن نبقى أحياء ونشهد مرة أخرى هذه الجلسة القرآنية الطيبة المحببة. استفدنا من التلاوات التي قدمها الإخوة الأعزاء. نسأل الله أن يحشر جميع هؤلاء الأعزاء ويحشركم جميعاً ويحشرنا جميعاً مع القرآن في الدنيا والآخرة، وأن نعيش بالقرآن، ونتنفس بالقرآن، ويكون القرآن شفيعنا في الآخرة وفي يوم القيامة ولا يشتكينا إلى الله.. هذا هو أملنا)

ثم ذكر دور القرآن الكريم في الوحدة الإسلامية، فقال: (ما يمثل أمام أنظار المرء في هذه المسابقات العالمية هو أن القرآن عامل اجتماع ووحدة، لدينا نحن المسلمين عوامل اتحاد عديدة أحدها وربما أهمها القرآن الكريم. جميع المسلمين وكل الشعوب المسلمة خاضعة أمام القرآن الكريم، وتستلهم الدروس منه، وتروم الاقتراب منه، هذه فرصة على جانب كبير من الأهمية، لقد حاول أعداء الإسلام وأعداء القرآن الكريم إبعاد الشعوب المسلمة عن بعضها وفصلها، بل وجعلها تتواجه وتتعادى فيما بينها بعض الأحيان. هذا ناجم عن الغفلة عن القرآن. حينما تكون جميع الشعوب المسلمة مؤمنة بهذا الكتاب السماوي وهذه الرسالة السماوية وهذه الهدية الإلهية العظيمة فما سيكون أفضل منها

---

(3) المرجع السابق.

وسـيلة للاجتمـاع والاتحـاد؟ لنجلس جميعنـا على هـذه المائـدة المعنوية ونتزوّد منها فهـذا من أسـباب العـزة والقـدرة الإسـلامية والإلهية)

ثم ذكر سبب ذلك، فقال: (لدينا غفلتان: إحـداهما الغفلـة عن أن القرآن الكريم وسيلة لاجتماع المسـلمين، والثانيـة الغفلـة عن الاعتقاد بالمفاهيم القرآنية والاعتراف بما وعدنا الله تعالى بـه في القرآن الكريم. يجب أن نـؤمن بـالوعود الإلهيـة. إذا آمنـا بـالوعود الإلهية فسينفتح الطريق أمام الأمة الإسلامية نحو العـزة والوحـدة والاقتدار وتتخلص من التخلف)

ثم راح يستعرض ما قرئ من آيات قرآنية في ذلك المجلس، ويعقب عليه، ومن أمثلة ذلك قولـه: (الآيـات الـتي تلاهـا الآن هـذا الأستاذ المصري المحـترم:﴿إِن يَنصُـرْكُمُ اللّـهُ فَلاَ غَـالِبَ لَكُمْ﴾. إذا نصركم الله فلن تستطيع أية قدرة الانتصار عليكم. ﴿وَإِن يَخْـذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْـدِهِ﴾. إذا لم ينصـركم اللـه ولم يمـدد لكم يد العـون فمن سـيعينكم؟ إنـه سـطر مشـرق متـألق. لتكتب الشعوب هـذا السـطر وترفعـه رايـة تضـعها أمـام أنظارهـا وفـوق رؤوسها. ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَـالِبَ لَكُمْ﴾. إذا نصـركم اللـه فلن تقدر أية قوة على أن تتغلب عليكم. فما نفعل حتى ينصـرنا اللـه؟ هذه مسألة. ماذا يجب أن نفعل حتى تشملنا النصرة الإلهيـة؟ هـذا أيضــاً يــذكره لنا القــرآن الكــريم: ﴿إِن تَنصُــرُوا اللَّهَ يَنصُــرْكُمْ﴾، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾)

وفي مجلس آخر من جلسـات الأنس بـالقرآن الكـريم، قـال: (لقد كانت جلستنا اليوم في غاية العذوبة، جلسة حلوة ومنشـودة. فقـد انتهلنـا من بركـات التلاوات والعـروض الفنيـة القرآنيـة الـتي ألقاها رجالنا وشبابنا الأعزاء)

ثم ذكر بعض فوائد تلك الجلسات التي تقام في جميع بلـدات وقرى الجمهورية الإسلامية الإيرانية: (إن إحدى المحاسن الكـبرى لهـذه الجلسـات والمسـابقات القرآنيـة، هي الأنس المتبـادل بين الإخـوة المسـلمين من مختلـف البلـدان مـع بعضـهم الآخـر. فـإن

السياسات الاستكبارية المختلفة تسعى جاهدة لإثارة الشقاق فيما بيننا والعمل على إقصاء الشعوب المسلمة بعضها عن الآخر، بل وتأليب بعضها ضدّ الآخر. وعلى الشعوب الإسلامية أن تعمل بعكس ذلك تماماً، وأن توطّد الأنس فيما بينها بكل ما أوتيت من قوة وبما أتيح لها من سبيل.. وواحدة من هذه السُبُل، هي إقامة مثل هذه الجلسات. فإن القرآن هو المحور المشترك والنعمة الإلهية الكبرى للمسلمين كافة. وعلى الجميع أن ينتهلوا معاً من بركات هذه المائدة المعنوية الإلهية. وهذه الجلسات والمسابقات القرآنية، توفّر للجميع الفرصة للنهوض بهذا العمل)

ثم دعا كعادته إلى العودة إلى القرآن الكريم والتفاعل مع كل ما يدعو إليه، فقال: (إنّ من البركات الأخرى لهذه الجلسات، تعزيزُ الأنس بالقرآن لدى شبابنا ومختلف أبناء الشعب والشرائح. وهذه حقيقة: أننا بعيدون عن القرآن، والأمة الإسلامية بعيدة عن القرآن، وهناك بونٌ شاسع بين واقع حياتنا والحقائق القرآنية! وما علينا إلا أن نقرّب أنفسنا منه، وإن سعادة الأمة الإسلامية مرهونة بأن تقترب بنفسها من القرآن ومفاهيمه ومعارفه ودروسه)

والمنهج الذي ذكره لتحقيق ذلك هو ــ كما يذكر ــ (تعزيزُ الأنس بالقرآن لدى الشباب وأبناء الشعب نساءً ورجالاً .. فلو تمسّكنا بالقرآن وبهديِهِ، لكان بمقدورنا التغلّب على هذه المؤامرات، ولو واصلنا طريق الجهاد، لكان النصر حليفنا لا محالة. فلا بد من التمسّك بالقرآن، والعالم الإسلامي بحاجة إلى التمسّك بحبل الله، وإرساء دعائمه، وتعزيز ثباته وصموده.. هذا ما يحتاج إليه العالم الإسلامي في الوقت الراهن)

هذه أمثلة قصدنا ذكرها بطولها حتى نرد على تلك الدعاوى التي تصور الإيرانيين بكونهم مجوسا، وكون دعوتهم دعوة مجوسية، وهل يمكن عقلا لمجوسي أن يدعو إلى القرآن الكريم بكل هذا الحماس، وهل هناك أي رئيس أو أي زعيم من أي دولة مسلمة تحدث بمثل هذه الحماسة عن القرآن الكريم وتفعيله في الحياة؟

لا يمكن لعاقل أن يقبل ذلك إلا بشرط واحد، وهو أن يعتبر

القـرآن الكـريم كتابـا للمجـوس، وليس للمسـلمين.. حينهـا فقـط يمكن أن نعتبر الجمهورية الإسلامية الإيرانيـة جمهوريـة مجوسـية، ومشروعها مشروعا مجوسيا..

رابعـا ــ الاهتمـام بـرد الشـبهات عن القـرآن الكريم:

تعرض القرآن الكـريم في كـل فـترة من الفـترات التاريخيـة لهجمـات متعـددة ارتبطت بحقيقتـه ومصـدره وقيمتـه وأثـره في الحيـاة.. وقـد اسـتدعى كـل ذلـك وجـود العلمـاء الربـانيين الـذين يفندون الحجج، وينشرون الإيمان، ويردون على الشبه.

وقد كان من أكابر الذين تولوا هذه الوظيفة في الأمـة رجـال كثيرون من إيران، أثبتوا بالبراهين الجليلة كون القرآن الكريم هــو رسالة الله الخاتمة إلى عباده، ولذلك فإن كل ما ورد فيـه حقـائق مطلقة لا تحتمل الجدل، ولا المناقشة.. بـل هي معصـومة عصـمة مصدرها ومرسلها والمرسلة إليه.

وبما أن هذه المسألة مرتبطة بنصرة العقيدة الإسلامية، فإننا سنتحدث عنهـا بتفصـيل عنـد الحـديث عن كبـار أعلام المناصـرين للإسلام وعقائده وشرائعه في الفصول الخاصة بذلك.

ونكتفي هنا بذكر ما أورده الشيخ الشهيد مرتضـى مطهّـري (1919 -ــ 1979)، والــذي يعتــبر من كبــار القــادة الفكــريين المؤسسين للجمهورية الإسلامية الإيرانية[1]، فقد تحدث كثيرا في كتبه عن القرآن الكريم بلغة علميـة عقليـة فلسـفية تناسـب هـذه الأجيال.

ومن ذلك ما كتبه في كتابه (دراسات عقائدية) عنـد الحـديث

---

[1] () هو العضو المؤسس في شورى الثورة الإسلامية في إيران إبان الأيـام الأخـيرة من سـقوط نظـام الشـاه، ومن المنظـرين جمهوريـة الإسـلامية الإيرانيـة، وهوأحـد أبـرز تلامـذة المفسر والفيلسوف الإسلامي محمد حسين الطباطبائي و روح الله الخميـني، بالإضـافة إلى ذلك، فهو صاحب المؤلفات التأصيلية والعقائدية والفلسفية الإسلامية، من أهم مميزاته بيـان تعاليم الإسلام والتشيع بعبارات سهلة، وواضحة وسهلة، للجيل الصاعد في ذلـك الـوقت، لـه مؤلفـات كثـيرة، في فـروع العلـوم الإسـلامية المختلفـة، وقـد تـرجمت إلى لغـات مختلفـة، ويعدمطهري من أفراد الثورة الإسلامية في إيران وقادتها المؤثرين.

عن الإعجـاز العلميّ والفكـريّ للقـرآن بقولـه: (لـو أخـذنا بعض الموضوعات التي تطـرَّق لهـا القـرآن، كالتوحيـد مثلاً، فسـنرى أنَّ مقاربة القرآن لها كانت بنحوٍ يفوق بكثيرٍ مـا كـان سـائداً ومألوفـاً في العالم برمّته، حتّى ما كان سائداً عند اليونان والرومـان، وهـذا خيرُ دليلٍ على إعجازه، ولا سيّما أنَّه صدر عن رجـلٍ عـربيٍّ أُمِّيٍّ.. وهكـذا هـو الحـال في المسـائل الأخـرى، كـالأخلاق، والتربيـة، والتعاليم، والقوانين، فهي في القرآن الكريم بمسـتوى يفـوق كـلّ مستوى كانت أو تكون عليه، حتّى إنَّه يُلحظ أنَّ ما جاء في القرآن حول هذه المواضيع أرقى وأسمى ممّا جـاء في الروايـات والفقـه الإسـلامِيّ حولهـا، وذلـك لتـواتر القـرآن وبقائـه محفوظـاً من التحريـف، بينمـا تـدخلت الأيـدي البشـرِيَّة في الروايـات والفقـه.. فكيف تكون مقاربةُ هذه الموضوعات بهذا الرقيّ وهي صادِرةٌ من رجلٍ أُمِّيٍّ؟! .. وقد ذكر القرآن الكريم مسـائل عديـدة في مجـال الطبيعة، كالـذي ذكـره حـول الـريح، والمطـر، والأرض، والسـماء، والحيوانات. ولا يزال العلم يصل بين فترةٍ وأخرى إلى حقـائق قـد أثبتهـا القـرآن منـذ 1400 سـنة، ولكنَّهـا لم تكن مفهومـةً آنـذاك، وكانت تُعتَبَر من الموارِد المتشـابِهات.. وقابلِيّـةُ الكشـف هـذه في القرآن الكريم قد وردت في كلام النبِيّ ﷺ والأئمّـة، الـذين ذكـروا أنَّ القرآن معجِزٌ بلفظـه ومعنـاه، وأنَّه جديـدٌ على الـدوام لا يبلى، وأنَّه لا يختصُّ بزمان دون زمان)[1]

ومن الشـبه الـتي اهتم الإيرانيـون، وخاصـة في مشـروعهم الحضاري الجديد بالرد عليها تلك النزعة التي تحاول أن تجعـل من القـرآن الكـريم كتابـا غريبـا عن الواقـع، وأنـه لا يمكن فهمـه ولا تطبيقـه إلا من طـرف المعصـومين، أو تجعـل منـه مجموعـة طلسمات، لا يفكها إلا الذين انصرفوا عن الـدنيا، وصـاروا يتلقـون الكشف والإلهام.

ومن أبرز الذين فندوا هذه الشـبهة، وأعـادوا للقـرآن الكـريم واقعية فهمه وتطبيقه وتأثيره الإمام الخميني الـذي تصـدى بشـدة للمنهج البـاطني، الـذي يـرى أن القـرآن الكـريم لا يدركـه إلا

[1] دراسات عقائدية، الشهيد مطهري، ص 266.

المكاشفون.. كما تصدى للمدرسة الإخبارية التي تعطل فهم القرآن مباشرة، معتمدة على التفسير بالمأثور عن الأئمة.

ولهذا نراه يصرح كل حين بأن القرآن الكريم كتاب يمكن فهمه لجميع المسلمين كل بحسبه، ومن ذلك قوله: (إن هذا الكتاب وهذه المائدة الممتدة في الشرق والغرب، منذ زمان الوحي حتى القيامة، يستفيد منها الناس جميعا العامي والعالم والفيلسوف والعارف والفقيه.. وإن الإنسان يستفيد منه على قدر استعداده، فثم مسائل يستفيد منها الفلاسفة وحكماء الإسلام، وهناك مسائل يستفيد منها عرفاء الإسلام، ومسائل يستفيد منها الفقهاء، فهذه المائدة عامة للجميع، وكما أن هذه الطوائف تستفيد من القرآن، فإن فيه -أيضا- المسائل السياسية والاجتماعية والثقافية)[1]

وهو يرد على الذين تصوروا الصراع بين الظاهر والباطن، فيقول: (.. وبناء على هذه النظرة، فمن تمسك بالظاهر ووقف على بابه قصر وعطل، وترده الآيات والروايات المتكاثرة الدالة على تحسين التدبر في آيات الله، والتفكر في كتبه وكلماته، ومن سلك طريق الباطن بلا نظر إلى الظاهر ضل وأضل عن الطريق المستقيم، ومن أخذ الظاهر وتمسك به للوصول إلى الحقائق، ونظر إلى المرآة لرؤية جمال المحبوب فقد هدي إلى الصراط المستقيم، وتلا الكتاب حق تلاوته)

وبناء على ذلك ذكر المحاور الكبرى التي يدور حولها القرآن الكريم، وهي لا تختلف كثيرا عن تلك المحاور التي ذكرها الغزالي، وأهمها دعوة القرآن (إلى معرفة الله، وبيان المعارف الإلهية من الشئون الذاتية والأسمائية والصفاتية والأفعالية، وأهمها في هذا المقصد توحيد الذات والأسماء والأفعال، وللتوحيد مدلولات اجتماعية وسياسية وسلوكية جمة ينبغي استكشافها وتفعيلها، ومن يركز على التوحيد كمقصد أقصى لا ينبغي مطلقا تجميد آثاره العملية في المجتمع والسياسة والاقتصاد وبقية مرافق الحياة)

---

[1] () انظر مقالا بعنوان: شروط فهم القرآن، الإمام الخميني، موقع هدى القرآن.

وهكذا يسترسل في ذكر جميع المقاصد القرآنية، ويجمع فيها بين الرؤيـــــة العرفانيـــــة الذوقيـــــة، والمنهج العقلي الكلامي، والاستنباطات الفقهية.. لا يـرى أن أي أحـد منهـا يـزاحم الآخـر أو يرفضه.

وبناء على ذلك قسـم التعامـل مـع القـرآن الكـريم إلى ثلاث مناطق، اثنتين منهما مقبولة، وهي (منطقة التفسير)، التي يتحرى فيها المفسر الكشف عن مقاصد القـرآن وبيانهـا وشـرحها، فهـذه هي مهمة التفسير التي يضطلع بها المفسرون.. و(منطقة التفكير والتدبر) واستفادة المعاني والعظات الأخلاقية والتربوية والإيمانية، وكذلك المفاهيم والدروس السياسية والاجتماعيـة، ووعي السـنن، وما شابه ذلك، وهذه منطقة واسعة تشمل لوازم الكلام ومصاديق المفـاهيم، ومـراتب الحقـائق والمعـاني، ومـا قـام عليـه البرهـان العقلي أو العرفاني..

أما المنطقة الثالثة المرفوضة فهي (منطقة التفسـير بـالرأي الممنوع)، بناء على ما ورد في الروايات من أن (من فسر القـرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ خر (هوى) أبعد من السماء)

ومن الشبه التي اهتم العلماء الإيرانيـون منـذ العصـور الأولى بالرد عليها تلك الشـبهة الـتي يثيرهـا المغرضـون، والـتي يـذكرون فيها أن الشيعة يقولون بتحريف القـرآن، وليس لهم من سـند في ذلـك سـوى مـا كتبـه بعض الإخبـاريين ممن أغرمـوا بـالجمع دون التحقيق، وممن لا أثر لهم في جميع المجتمعـات الشـيعية العربيـة وغير العربيـة، والـتي يطغى عليهـا الطـابع التحقيقي التأصـيلي، لا الطابع الإخباري.

ومن أوائـل من رد على هـذه الشـبهة من قـدامى الإيرانـيين الشـيخ محمـد بن علي بن بابويـه القمي (305 هــ - 381 هــ) المعـروف بــ (الشـيخ الصـدوق) صـاحب كتـاب (من لا يحضـره الفقيه)، وهو من الكتب الأربعـة الكـبرى لـدى الشـيعة، والـذي رد على هذه الشبهة بقوله: (اعتقادنا في القرآن الكـريم الـذي أنزلـه الله تعالى على نبيّه محمد ﷺ هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك، ومن نسب إلينا أنّا نقول أنّـه أكـثر من

ذلك فهو كاذب)[1]

ومنهم الشيخ أبو علي الطبرسي الملقب بأمين الإسلام (توفي 548 هـ)، والذي قال: (.. ومن ذلك الكلام في زيادة القرآن ونقصانه فإنه لا يليق بالتفسير فأما الزيادة فمجمع على بطلانها، وأمّا النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة:إن في القرآن تغييراً ونقصاناً ... والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذي نصره المرتضى – قدّس الله روحه – واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيات)[2]

وهو يشير بوقوع الخلاف إلى ما ورد في الروايات من كتب السنة والشيعة مما يسمى بالمنسوخ تلاوة، والذي لم يقبله إلا الإخباريون من المدرستين، والذين أطلق عليهم الشيخ الطبرسي لقب (الحشوية) أي الذين يهتمون بالجمع دون التحقيق[3].

1() الاعتقادات في دين الامامية ص48 .

2() مجمع البيان ج 1 ص 15 ..

3() من الأمثلة على ذلك، والتي يتغاضى عنها للأسف من يرمون الشيعة بتحريف القرآن، ما رووه عن عمر بن الخطاب أنه قال ـ وهو يخطب الناس على المنبر ـ (ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله : (أن لا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو إن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم) رواه البخاري (6830) ومسلم (1691)

ومنها: (ألا بلغوا عنا قومنا بأنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا) [رواه البخاري (3064)]

ومنها ما رووه من أن سورة طويلة نزلت، ثم نسخت، ولم يبق من آياتها إلا (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا)، واستدلوا لذلك بأن أبا موسى الأشعري أرسل إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاث مائة رجل قد قرؤوا القرآن، فقال : (أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها، غير أني قد حفظت منها : (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب)، وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيتها، غير أني حفظت منها : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة) رواه مسلم (1050) .. وغيرها من الروايات الكثيرة التي لا تختلف عن الروايات التي يوردها أمثالهم من إخباريي الشيعة، مع فارق خطير وهو أن جميع محققي الشيعة

ومنهم الشيخ الطوسي الملقب بشيخ الطائفة (توفي 460 هـ)، والذي قال: (وأما الكلام في زيادة القرآن ونقصه فمما لا يليق به، لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها، وأما النقصان فالظاهر من مذهب المسلمين خلافه وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا، وهو الذي نصره المرتضى وهو الظاهر من الروايات)[1]

ولم يقتصر الرد على هذه الشبهة من الأصوليين الشيعة فقط، بل كان للإخباريين الكبار أيضا سهم في ردها، ومنهم المحدث الكبير الفيض الكاشاني صاحب كتاب (الوافي) الذي يعد من الجوامع الحديثية المتأخرة (توفي 1091 ه) الذي استدل بقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} (فصلت: 41ـ 42)، وقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: 9) على عدم وقوع التحريف، وعلق عليهما بقوله: (عندئذ كيف يتطرق إليه التحريف والتغيير.. مع أن خبر التحريف مخالف لكتاب الله، مكذب له فيجب رده والحكم بفساده وتأويله)[2]

ومنهم محمد باقر المجلسي[3] (1037 هـ ـ)، والذي يمنعه كونه من المحدثين الكبار، بل من الذين أوردوا روايات التحريف نفسها أن ينص على عدم صحتها، وأن القرآن يستحيل تحريفه، وقد قال معبرا عن ذلك: (فإن قال قائل كيف يصحّ القول بأن الّذي بين الدفتين هو كلام الله تعالى على الحقيقة من غير زيادة ولا نقصان وأنتم تروون عن الأئمة عليهم السلام أنّهم قرأوا

يرفضون تلك الروايات، بينما أكثر محققي السنة يقبلونها.

[1] مقدمة تفسير التبيان، ص 3 ..

[2] عنه مفاهيم القرآن (العدل والإمامة)، الشيخ جعفر السبحاني – ج 10 – ص 441 ..

[3] ولد في مدينة أصفهان التي كانت آنذاك من المراكز العلمية المعروفة في العالم الإسلامي، وكان والده المولى محمد تقي المجلسي من مفاخر علماء الشيعة، له مؤلفات كثيرة في شتى المجالات، ينتهي نسبه إلى الحافظ أبي نعيم المتوفى عام 430 هـ صاحب الكتاب المعروف بـ حلية الاولياء في طبقات الاصفياء..

(كنتم خير أئمة أخرجت للناس) وكـذلك (جعلنـاكم أئمـة وسـطا ...) وهـذا بخلاف ما في المصـحف الـذي في أيـدي النـاس ؟ قيل له:قد مضى الجـواب عن هـذا، وهو أنّ الأخبـار الـتي جـاءت بتلك أخبار آحاد لا يقطع على الله تعالى بصحتها؛ فلذلك وقفنا فيها، ولم نعدل عمّا في المصحف الظاهر على ما أمرنا به حسب مـا بيّنـاه) [1]

أما المعاصرون، فقد ألفوا الكتب الكثيرة في الرد على هــذه الشبهة خاصة بعـدما ألـف الإخبـاري النـوري (ت1320هــ)، كتابـه (فصـل الخطـاب في تحريـف كتـاب رب الأربـاب) معتمـدا على مجموعة من الروايات ضعيفة السند، أو مكذوبة على الأئمة.

ومن تلك الكتب (كشف الارتياب في عدم تحريف كتــاب رب الأرباب) للطهراني (ت 1313هـ)، ومنها (حفـظ الكتـاب الشـريف على شبهة القول بالتحريف) للسـيد هبـة الـدين الشهرسـتاني (ت 1315هـ)، ومنها (الحجـة على فصـل الخطـاب في إبطـال القـول بتحريــف الكتــاب) لعبــد الــرحمن الهيــدجي (1372هــ)، ومنهــا (البرهان على عدم تحريف القرآن) للميرزا الـبروجردي (1374هـ - 1954م)، ومنهـا (آلاء الـرحمن في الـرد على تحريـف القـرآن) للميرزا عبد الـرحيم المـدرس الخيابـاني (1318هــ)، ومنهـا (بحـر الفوائــــد في شــــرح الفرائــــد)، للمــــيرزا الأشــــتياني (ت 1319هـ)،وغيرها كثير.

وأحب أن أرد هنا على أولئـك المغرضـين الـذين يزعمـون أن الشيعة رضوا بكتاب النوري، وأنهم لم يقفوا منـه أي موقـف، بـأن ذلك خطأ، بل خطيئة علمية، فقد ذكر الشيخ جعفر السـبحاني ردة الفعل الشـديدة الـتي قـامت على الكتـاب وصـاحبه من الحـوزات العلمية، فقال: (وقـد تمّ تـأليف (فصـل الخطـاب) على يـد مؤَلفـه النوري سنة 1292، وطبع سنة 1298، وقد وَجَدَ المحدّث النــوري منذ نشر كتابه نفسـه في وحشـة العزلـة وفي ضوضـاء من نفـرة العلماء والطلبـة في حـوزة سـامراء العلميـة آن ذاك. وقـد قـامت

[1] بحار الأنوار ج92ص75.

ضدّه نعرات، تتبعها شتائم وسبّات من نبهاء الأمّة في جميع أرجـاء البلاد الشيعيّة، ونهض في وجهـه أصـحاب الأَقلام من ذوي الحميّـة على الإِسلام، ولا يزال في متناوش أهل الإِيمان، يسلقونه بألسـنة حـداد، على مـا جـاء في وصـف العلّامـة السـيد هبـة الـدين الشهرستاني، عن موضع هذا الكتـاب ومؤَلفـه وناشـره، يـوم كـان طالباً شابّاً في حوزة سامراء)[1]

ثم ذكر ثناء علماء الشـيعة على الكتب والرسـائل الـتي ردت على النوري، ومنها رسـالة بعثهـا السـيد هبـة الـدين الشهرسـتاني تقريظاً على رسالة (البرهان) التي كتبها الميرزا مهدي البروجردي بقم 1373 هـ يقول فيهـا: (كم أنت شـاكر مـولاك إذ أولاك بنعمـة هـذا التـأليف المـنيف، لعصـمة المصـحف الشـريف عن وصـمة التحريف، تلك العقيدة الصحيحة التي آنستُ بهـا منـذ الصـغر أيّـام مكـوثي في سـامرّاء، مسـقط رأسـي، حيث تمركـز العلم والـدين تحت لواء الامام الشيرازي الكبـير، فكنت أراهـا تمـوج ثـائرة على نزيلها المحدّث النوري، بشـأن تأليفـه كتـاب (فصـل الخطـاب) فلا ندخل مجلساً في الحوزة العلمية إلّا ونسـمع الضـجّة والعجّـة ضـدّ الكتاب ومؤَلّفه وناشره، يسلقونه بالسنة حداد)[2]

ثم يعلق السـبحاني على هـذا التقريـظ بقولـه: (و هكـذا هبّ أرباب القلم يسارعون في الردّ عليه ونقض كتابه بأقسـى كلمـات وأعنف تعابير لاذعة، لم يدعوا لبثّ آرائه ونشـر عقائـده مجـالًا ولا قيـد شـعرةٍ، وممّن كتب في الـردّ عليـه من معاصـريه، الفقيـه المحقّق الشيخ محمود بن أبي القاسم الشهير بالمعرّب الطهراني (المتوفّى 1313) في رسالة قيّمـة أسـماها (كشـف الارتيـاب في عدم تحريف الكتاب) فـرغ منهـا في (17 ج 2 1302) تقـرب من أربعة آلاف بيت في 300 صفحة، و فيهـا من الاسـتدلالات المتينـة والبراهين القاطعة، ما ألجـأ الشـيخ النـوري إلى الـتراجع عن رأيـه

1() موسوعة طبقات الفقهاء، ج1، ص: 77.

2() المرجع السابق، ص87.

بعض الشيء، وتأثّر كثيراً بهذا الكتاب) [1]

وقال: (كتب في الردّ عليه معاصره العلّامة السيد محمد حسين الشهرستاني (المتوفّى 1315) في رسالة أسماها (حفظ الكتاب الشريف عن شبهة القول بالتحريف)، و قد أحسن الكلام في الدلالة على صيانة القرآن عن التحريف وردّ شبهات المخالف ببيان وافٍ شافٍ، و الرسالة في واقعها ردّ على فصل الخطاب، ولكن في أُسلوب ظريف بعيد عن التعسّف والتحمّس المقيت)[2]

أما القادة الفكريين والسياسيين للجمهورية الإسلامية الإيرانية، فقد وقفوا بشدة ضد تلك الشبهات، لأنها تتناقض مع مشروعهم في إعادة تطبيق القرآن الكريم في الحياة.

ومن هؤلاء الإمام الخميني الذي لم يكن يدع مناسبة إلا ويذكر فيها بسلامة القرآن الكريم من التحريف، ومن ذلك قوله: (إن الواقف على عناية المسلمين بجمع القرآن وحفظه وضبطه قراءةً وكتابةً يقف على بطلان تلك المزعومة – التحريف – وما ورد فيها من أخبار – حسبما تمسكوا – إما ضعيف لا يصلح الاستدلال به أو مجعول تلوح عليه أمارات الجعل أو غريب يقضي بالعجب أما الصحيح منها فيرمي إلى مسألة التأويل والتفسير وإن التحريف إنما حصل في ذلك لا في لفظه وعباراته)[3]

وهو يشير بذلك إلى التحريف في معاني القرآن بتأويلها أو صرفها عن معانيها، وهو مما اتفقت عليه الأمة جميعا، بل أخبر رسول الله ﷺ عن وقوعه، فعن أبي سعيد الخدري قال:كنا جلوسا ننتظر رسول الله ﷺ فخرج إلينا قد انقطع شسع نعله، فرمى به إلى علي، فقال:(إن منكم رجلا يقاتل الناس على تأويل القرآن،

1() المرجع السابق، ص87.

2() المرجع السابق، ص89.

3() تهذيب الأصول ج 2 ص 165 تقريرات درس الإمام الخميني.

كما قاتلت على تنزيله، قال أبو بكر:أنا، قال:لا، قال عمر:أنا، قال:لا، ولكن خاصف النعل)[1]

ومثل ذلك نص أئمة أهل البيت على إمكانية وقوع مثل هذا النوع من التحريف وحذروا منه، كما قال الإمام علي: (إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهّالاً، ويموتون ضلّالاً ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حقّ تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب، إذا حرِّف عن مواضعه)[2]

وقال الإمام الباقر: (وكان من نبذهم الكتاب: أن أقاموا حروفه، وحرّفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهّال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية)[3]

ولم يكتف الإمام الخميني بالرد المجمل على تلك الشبهة، بل راح يناقش تلك الروايات التي اعتمدها الإخباريون، ويفندها، وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام: (الروايات الضعيفة التي لا يمكن الاستفادة منها والأخذ بها أبدا.. والروايات المختلقة التي تظهر عليها علامات الوضع والاختلاق.. والروايات الصحيحة)

وعلق عليها بقوله: (لو تأملنا فيها بدقة فسيتضح أن المقصود منها ليس هو التحريف اللفظي (أي الزيادة والنقصان)، بل هو تحريف تفسيرها وشرحها)

وقد رد بشدة على الميرزا النوري، معتبرا إياه مثل الكثير من المحدثين الذين يهتمون بجمع الروايات دون التحقيق في معانيها وأسانيدها، يقول في ذلك: (إنّه لو كان الأمر كما توّهم صاحب فصل الخطاب (الميرزا النوري)، الذي كان كتبه لا يفيد علماً ولا عملاً، وإنّما هو إيراد روايات ضعاف أعرض عنها

1() رواه النسائي في الخصائص، انظر: تهذيب الخصائص ص 88 ..

2() الشريف الرضي، نهج البلاغة، شرح محمد عبده، الخطبة17، ص54.

3() الشيخ الكليني، الكافي، ج8، كتاب الروضة، ح16، ص53.

الأصحاب، وتنزّه عنها أولو الألباب، من قدماء أصحابنا، كالمحمّدين الثلاثة المتقدّمين (الصدوق والكليني والطوسي (رحمهم الله)، هذا حال كتب روايته غالباً، كالمستدرك، ولا تسأل عن سائر كتبه المشحونة بالقصص والحكايات الغريبة التي غالبها بالهزل أشبه منه بالجدّ، وهو شخص صالح متتبّع، إلا أنّ اشتياقه لجمع الضعاف والغرائب والعجائب وما لا يقبلها العقل السليم والرأي المستقيم، أكثر من الكلام النافع. والعجب من معاصريه من أهل اليقظة كيف ذهلوا وغفلوا، حتى وقع ما وقع ممّا بكت عليه السماوات، وكادت تتدكدك على الأرض؟!)[1]

وقد اعتمد الخميني في رد هذه الشبهة الخطيرة على إجماع المسلمين على سلامة القرآن من التحريف، وقد قال معبرا عن ذلك: (فلو كان الأمر، كما ذكره هذا وأشباهه، من كون الكتاب الإلهي مشحوناً بذِكر أهل البيت عليهم السلام وفضلهم، وذِكْر أمير المؤمنين عليه السلام وإثبات وصايته وإمامته، فلِمَ لَمْ يحتجّ بواحد من تلك الآيات النازلة والبراهين القاطعة من الكتاب الإلهي كلّ من: أمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين، وسلمان، وأبو ذر، والمقداد، وعمار، في صدد إثبات خلافته عليه السلام؟! ولِمَ تشبّث عليه السلام بالأحاديث النبوية، والقرآن بين أظهرهم؟! ولو كان القرآن مشحوناً باسم أمير المؤمنين وأولاده المعصومين وفضائلهم وإثبات خلافتهم، فبأيّ وجه خاف النبي ﷺ في حجّة الوداع آخر سنين عمره الشريف، وأخيرة نزول الوحي الإلهي، من تبليغ آية واحدة مربوطة بالتبليغ، حتى ورد أنّ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. ولِمَ احتاج النبي ﷺ إلى دواة وقلم حين موته للتصريح باسم علي ؟! فهل رأى أنّ لكلامه أثراً فوق أثر الوحي الإلهي؟!)[2]

هذه مجرد نماذج عن مواقف الإيرانيين المتشددة من كل المقولات التي تريد أن تصرف القرآن الكريم عن الواقع إما بحجة

1() انظر مقالا بعنوان: الخميني والتفسير وقضية التحريف، د. حسان عبد الله.

2() انظر: الإمام الخميني، أنوار الهداية، ج1، ص244-247.

عدم فهمه إلا للمعصومين، أو بحجة وقوع التحريف فيـه، أو بحجـة إثارة الشبه حوله.

والكتب المؤلفة في ذلك كثيرة جدا، لا يمكن التعريف بها هنا جميعا، ولـذلك اكتفينـا بمـا ذكـره الإمـام الخميـني للـرد على تلـك الطروحات التي يطرحها من لا يخاف الله، ولا يتـورع في مواقفـه حين يرمي هذا العملاق من عمالقة التجديد الإسلامي بكونه يقـول بتحريف القرآن، مع كونه قضى حياته جميعا في الـدعوة إليـه ورد الشبه عنه، ولكن عين السخط لا تبدي المساوئ فقط، بل تصنعها أيضا.

من المغالطات التي يستعملها المغرضون، ليشوهوا بها تلك القطعة الكريمة من بلاد المسلمين تصويرهم لها بأنها بلد البدعة والضلالة، وأنه لا علاقة لها بسنة رسول الله ﷺ، كما لا علاقة لها بالقرآن الكريم..

وهم يستعملون في ذلك ما شاع تاريخيا من اعتبار السنة حكرا على تلك الطائفة الكريمة من طوائف المسلمين، والمتمثلة في أصحاب المذاهب الأربعة، وهذا خطأ كبير، وهو إن صلح التعبير به سياسيا وتاريخيا، فإنه لا يصلح التعبير به دينيا، فسنة رسول الله ﷺ أعظم من أن يحتكرها أحد من الناس، ورسول الله ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين أعظم من أن يكتفي باتباعه طائفة من الطوائف.

فكل المسلمين مهما اختلفت طوائفهم يعرفون السنة، ويحترمونها، ويتبعونها، وإن كانت مصادرهم لها مختلفة، ورواياتهم لها متباينة.. فلكل قوام رواتهم ومحدثوهم ورجالهم، ولا يصح أن تفرض طائفة من الطوائف ثقاتها ورواتها ورجالها على غيرها من الطوائف، لتستبعدها عن نبيها، وهديه.

وبناء على هذا المفهوم للسنة النبوية، والذي ينسجم مع عدالة الإسلام وشموليته وعالميته، نحاول في هذا الفصل أن نذكر بعض تجليات اهتمام الإيرانيين بالسنة النبوية، والتي رأينا انحصارها في ثلاثة مظاهر كبرى:

المظهر الأول: ذلك التعلق الشديد برسول الله ﷺ، باعتباره خاتم الرسل، وخير خلق الله كلهم، وأنه يمثل الهداية الإلهية بأسمى صورها، وأنه القرآن الناطق، والأسوة الحسنة، التي ينهل منها جميع الورثة، كما ينهل منها جميع الأمة.

وهذا متفق عليه عند الإيرانيين بمختلف مذاهبهم وطوائفهم، فهم لا يكتفون بأداء السنن، وإنما ينطلقون فيها من ذلك التعلق بصاحبها ﷺ، فالتعلق به ومحبته هي الأساس الذي تبنى عليه كل

الممارسات التي دعانا رسول الله ﷺ إلى فعلها والاقتداء به فيها.

لكن المغرضين يوهمون عوام الناس وبسطاءهم أن الإيرانيين الشيعة لا علاقة لهم برسول الله ﷺ، وأن علاقتهم محصورة بأئمتهم، وهم واهمون في ذلك، فأساس تعلق الشيعة بأئمتهم هو ارتباطهم برسول الله ﷺ، ولولا ذلك الارتباط، وتلك الوصية لما تعلقوا بهم.

فهم إنما تعلقوا بالإمام الحسين لقوله ﷺ فيه::(حسين مني، وأنا من حسين)[1]، ولذلك يرون أن اتباع الحسين، ومحبته وتعظيمه هو نفس تعظيم رسول الله ﷺ.

وهكذا سائر الأئمة الذين اتفق على صلاحهم وعلمهم وتقواهم وانتسابهم لرسول الله ﷺ جميع السنة والشيعة.

أما ما يدعيه المغرضون من أن الشيعة يفضلون الإمام عليا أو غيره من الأئمة على رسول الله ﷺ، فوهم كبير، وهو ناتج من ذلك التعالي عن سؤال أهل العلم منهم، أو مطالعة تراثهم المحقق، والذي يجدون فيه أمثال هذه الرواية التي سئل فيها الإمام علي بن أبي طالب من بعض الأحبار ـ بعد أن سمع كلامه العجب ـ: (يا أمير المؤمنين أفنبي أنت؟)، فقال له الإمام علي: (ويلك، إنما أنا عبد من عبيد محمد ﷺ)[2]

المظهر الثاني: اهتمام الإيرانيين سنتهم وشيعتهم بجمع السنة النبوية والتحقيق فيها، والتعامل معها رواية ودراية، ولذلك ظهر فيهم محدثون كثيرون، وظهرت معهم أسفار حديثية كثيرة لا يمكن إلغاؤها، أو التهوين منها، ذلك أنها ركن أصيل في كلا المدرستين.

وفي هذا أكبر رد على أولئك المغرضين الذين يذكرون عن الإيرانيين أنهم لم يدخلوا الإسلام اقتناعا ومحبة، وإنما دخلوه

1() التوحيد: 174 / 3.

2() رواه الترمذي (3775) وابن ماجه (144) وأحمد (17111)

ليشوهوه؛ فإن كان الأمر كذلك، فإن الثقة ترفع عن كل تلك الكتب التي جمعت فيها الأحاديث، والتي تعتبر مراجع أساسية لكلا المدرستين، ومنها صحاح وسنن ومسانيد ومستخرجات ومعاجم.. ولو ألغيناها لألغينا معها ثروة حديثية كبيرة، وسننا نبوية عظيمة.

المظهر الثالث: اهتمام الإيرانيين بمختلف مذاهبهم بتطبيق السنة النبوية المطهرة في جميع مناحي الحياة؛ فلم يظهر فيهم أولئك المتكبرون عليها، الذين يتوهمون أنهم يمكنهم الاكتفاء بالقرآن الكريم بدلها، وإن ظهر فيهم أمثالهم فهم محدودون جدا، ولا يهتم بهم الإعلام، ولا الشعب الإيراني، ذلك أنهم يصطدمون مع تعلقهم بأهل بيت النبوة الذين اعتبرهم الإيرانيون سفينة نجاتهم التي يتخلصون بها من الأهواء والبدع والضلالات.

ونحب أن نشير هنا إلى ما ذكرناه في مناسبات كثيرة من أن تطبيق السنة النبوية ليس محصورا في تلك المظاهر البسيطة المحترمة، بل هو يشمل مناحي الحياة جميعا، فتطبيق السنة في السياسة هي تحقيق السيادة، والوقوف مع المستضعفين وجميع قضايا الأمة، والحرص على الوحدة الإسلامية.. وللسياسة الإيرانية الحظ الكبير من هذه السنة.

والسنن الاجتماعية تنطلق من الحرص على التآلف والمودة والتناصر والتكافل بين المسلمين جميعا بغض النظر عن مذاهبهم وطوائفهم، بل حتى مع غير المسلمين الذين أمرنا أن نؤلف قلوبهم، ونحترم مقدساتهم.. وهذه سنة عظيمة، وللمجتمع الإيراني حظه الكبير منها.

وهكذا نجد السنن النبوية تتغلغل في جميع مناحي الحياة لتمتد حتى لطريقة أكلنا ونومنا ولباسنا وكل حركاتنا لتضبطها بآداب النبوة.. وكل ذلك موجود في المجامع الحديثية السنية والشيعية، والتي لا تختلف المسافات بينها كثيرا في هذا المجال.. وإن كان هناك اختلاف فهو اختلاف مبرر باختلاف المواقف من الرواة، لا بسبب رفض السنة نفسها، فهي أعظم من أن يرفضها مسلم.

بناء على هذا سنحاول في هذا الفصل البرهنة على هذه التجليات الثلاثة لتعلق الإيرانيين بالسنة النبوية، وكون ما يشاع عنهم إشاعة ظالمة، تنطلق من الحقد الأعمى، لا من البحث العلمي الموضوعي الرصين.

أولا ـ تعظيم الإيرانيين لرسول الله ﷺ:

وهذا مظهر لا يمكن أن يجادل فيه إلا مغرض، فمن زار إيران، أو رأى مسلسلاتها وأفلامها، فسيشاهد الناس جميعا يصلون على رسول الله ﷺ، وبأصوات عالية جماعية لمناسبة ولغير مناسبة، بل يكفي أن يصيح أحد في الشارع، ليقول لهم: طلبا لشفائي، صلوا على رسول الله ﷺ، فإذا بكل من سمعه يردد بصوت عال: اللهم صل على محمد وآل محمد.. وهكذا تبدأ سلسلة الصلوات، حيث يذكر كل أحد طلبه، ويشفعه بطلب الصلاة على رسول الله ﷺ.

وهذا شاهد واحد من عشرات الشواهد على ذلك التعظيم الذي يوليه الإيرانيون لرسول الله ﷺ، وكيف لا يولونه له، وهم يدينون له بالإسلام والتبعية، ويدينون لأهل بيته بالولاء والنصرة، وهل يمكن أن يوالي شخص أبناء رجل، ثم لا يوالي والدهم؟

ومن مشاهد تلك المحبة بالإضافة للصلوات، إحياؤهم للمناسبات المختلفة المرتبطة بميلاد رسول الله ﷺ، وبعثته والإسراء به.. وغيرها من المناسبات الكثيرة، وهي احتفالات رسمية تمتلئ بها إيران جميعا بالمحاضرات والمسابقات الخاصة بالتعريف برسول الله ﷺ.

وقد شاء الإمام الخميني، حتى يرفع الخلاف بين السنة والشيعة في تحديد موعد الاحتفال بالمولد النبوي الشريف أن يجعله أسبوعا كاملا، وهو نفسه أسبوع الوحدة الإسلامية، حيث أن المدرسة السنية ترى أن الميلاد كان في 12 ربيع الأول، بينما ترى المدرسة الشيعية أنه كان في 17 من نفس الشهر.. ولم يشأ الإمام الخميني أن يميل لأحد الجانبين؛ فجعل جميع المدة بينهما

احتفالا، وسماه (أسبوع الوحدة الإسلامية)[1]

ومن مشاهد تلك المحبة بالإضافة إلى ذلك كله ما يحرص عليه الإيرانيون كثيرا، ويسمونه بالزيارات، وهي زيارات يؤدونها من بيوتهم ومحالهم المختلفة لرسول الله ﷺ وأهل بيته، وهي تتوزع على الأيام والمناسبات، لتبقى ذكراهم دائما عطرة في قلوبهم.

وعند التأمل في تلك الزيارات التي أوردها العلم الكبير الشيخ عباس القمي في كتابه (مفاتيح الجنان)، الممتلئ بالأدعية والصلوات، نجد أنه لا تكاد تخلو زيارة ولا دعاء من الصلاة على رسول الله ﷺ، والثناء عليه.

ومن تلك الزيارات المهمة والجميلة في ألفاظها ومعانيها الزيارة الخاصة بيوم السبت، والتي تردد في المساجد والبيوت الإيرانية كل سبت، وباللغة العربية، وهي تحوي معاني سامية في التعريف برسول الله ﷺ.

وسنذكر نصها هنا لأولئك الذين يتصورون الإيرانيين أعداء لرسول الله ﷺ، أو لأمته ودينه، وأسألهم: هل يفعلون مثلها، أو ما هو دونها، حتى يرموا غيرهم بما يرمونه به من تهم؟

وكيفية تلك الزيارة التي تعتبر لوحدها وثيقة كافية في الدلالة على مبلغ التعلق والتعظيم لرسول الله ﷺ، هي أن يستشعر المؤمن ـ كما يذكرون ـ رسول الله ﷺ، وكأنه بين يديه، ثم يقول له: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك

1() يذكر السيد علي الخامنئي سبب طرح فكرة أسبوع الوحدة بقوله: (أنا شخصياً كنت منفيّاً إلى بلوشستان. لم تكن الأجهزة الأمنية تريد أن نمارس أي مسعى؛ لكن في الوقت ذاته قلنا فلنَقُم بعمل نظهر من خلاله الوحدة بين الشيعة والسنّة في هذه المدينة؛ فخطرت على بالنا قضية أسبوع الوحدة - ولادة النبي الأكرم في 12 ربيع الأول حسب رواية أهل السنّة وفي 17 ربيع الأول حسب رواية الشّيعة- وقُمنا بإجرائها بشكل عملي في إيران شهر؛ أي أنّنا احتفلنا من الثاني عشر حتى السابع عشر من ربيع الأول. لقد كان هذا فكراً عميقاً، ليس وليد اليوم والبارحة)[إطلاق (أسبوع الوحدة) خلال أيام النفي إلى إيرانشهر، موقع مكتب السيد علي خامنئي، 17 أكتوبر 2010]، وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران طرحت هذه القضية من قبل الجمهورية الإسلامية في إيران وتم اتخاذ القرار بإقامة مؤتمر الوحدة الإسلامية في هذا الأسبوع.

رسوله، وأنك محمد بن عبد اللـه، وأشـهد أنـك قـد بلغت رسـالات ربك، ونصحت لأمتك، وجاهدت في سبيل الله بالحكمة والموعظـة الحسنة، وأديت الذى عليك من الحق، وأنك قد رؤفت بـالمؤمنين، وغلظت على الكـافرين، وعبـدت اللـه مخلصـا حـتى أتـاك اليقين، فبلغ الله بك أشرف محل المكرمين، الحمد لله الذي استنقذنا بك من الشرك والضلال، اللـهم صل على محمد وآله، واجعل صلواتك وصلوات ملائكتك المقربين وأنبيائك المـرسلين وعبادك الصـالحين وأهـل السـماوات والأرضـين ومن سـبح لـك يـا رب العـالمين من الأولين والآخـرين على محمـد عبـدك ورسـولك ونبيـك وأمينـك ونجيبك وحبيبك وصفيك وصفوتك وخاصتك وخالصتك وخيرتـك من خلقك، وأعطه الفضل والفضيلة والوسيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون)

ثم يطأطئ رأسه تواضعا أمام رسول الله ﷺ، ليسأل حاجتـه، ويتوسل به إلى الله قائلا: (اللـهم إنـك قلت {وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } (النساء: 64)، إلهي فقـد أتيت نبيـك مسـتغفرا تائبـا من ذنوبي، فصل على محمد وآله واغفرها لي، يا سيدنا أتوجه بـك وبأهل بيتك الى الله تعالى ربك وربي ليغفر لي)

ثم يتذكر فقده، ويتألم لذلك، ويقول مخاطبا له ثلاثا: (إنـا للـه وإنا اليه راجعون)، ثم يقول: (أصبنا بك يا حبيب قلوبنا، فمـا أعظم المصيبة بك حيث انقطع عنا الوحي، وحيث فقـدناك فإنـا للـه وإنـا اليه راجعون، يا سيدنا يا رسول الله صلوات اللـه عليـك وعلى آل بيتك الطاهرين، هـذا يـوم السـبت، وهـو يومـك، وأنـا فيـه ضـيفك وجـارك، فأضـفني وأجـرني فإنـك كـريم تحب الضـيافة ومـأمور بالإجارة، فأضفني وأحسن ضيافتي وأجرنا وأحسن إجارتنـا بمنزلـة الله عنـدك وعنـد آل بيتـك وبمـنزلتهم عنـده وبمـا اسـتودعكم من علمه فإنه أكرم الأكرمين)

وهكـذا يـروون أن أسـلافهم سـألوا الإمـام الرضـا، إمـامهم الثـامن، الـذي يعتبرونـه ملكهم والحـاكم الحقيقي عليهم، قـائلين: كيـف يصـلى على النـبي ﷺ ويسـلم عليـه بعـد الصـلاة؟ فأجـاب:

(السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا محمد بن عبد الله، السلام عليك يا خيرة الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا صفوة الله، السلام عليك يا أمين الله، أشهد أنك رسول الله، وأشهد أنك محمد بن عبد الله، وأشهد أنك قد نصحت لأمتك، وجاهدت في سبيل ربك وعبدته حتى أتاك اليقين، فجزاك الله يا رسول الله أفضل ما جزى نبيا عن أمته، اللهم صل على محمد وآل محمد أفضل ما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد)

وهكذا نجد الكثير من الصلوات في الصحيفة السجادية، وهي الصحيفة المنسوبة للإمام زين العابدين السجاد، ابن الإمام الحسين، وهي مملوءة بالأدعية والمناجيات، وفي كل مقطع منها نرى الصلوات على رسول الله ﷺ، وبالصيغ المختلفة.

ومن تلك الصلوات الواردة فيها، والخاصة برسول الله ﷺ، والحاوية للمعارف الكثيرة المرتبطة به ﷺ، لتملأ القلوب محبة له وشوقا إليه: (الحمد الله الذي من علينا بمحمد نبيه صلى الله عليه وآله دون الأمم الماضية والقرون السالفة، بقدرته التي لا تعجز عن شئ وإن عظم، ولا يفوتها شئ وإن لطف، فختم بنا على جميع من ذرأ، وجعلنا شهداء على من جحد، وكثرنا بمنه على من قل. اللهم فصل على محمد أمينك على وحيك، ونجيبك من خلقك، وصفيك من عبادك، إمام الرحمة، وقائد الخير، ومفتاح البركة، كما نصب لأمرك نفسه، وعرض فيك للمكروه بدنه وكاشف في الدعاء إليك حامته، وحارب في رضاك أسرته، وقطع في إحياء دينك رحمه، وأقصى الأدنين على جحودهم، وقرب الأقصين على استجابتهم لك، ووالى فيك الأبعدين، وعادى فيك الأقربين. وأدأب نفسه في تبليغ رسالتك، وأتعبها بالدعاء إلى ملتك وشغلها بالنصح لأهل دعوتك، وهاجر إلى بلاد الغربة، ومحل النأي..)[1]

إلى آخر الصلاة التي يحرص الإيرانيون على أدائها في المناسبات المختلفة.. وهي مجرد نموذج ومثال عن صلوات كثيرة، يرددونها، وكلها ـ وبحسب اطلاعي الدقيق عليها ـ تحوي

[1] () الصحيفة السجادية، ص31.

من المعارف والأشواق ما لم أره في أي دواوين أخرى من دواوين الزيارات أو الصلوات على رسول الله ﷺ المتداولة لدى الصوفية في المدرسة السنية، بالإضافة إلى لغتها الجميلة الممتلئة بالبلاغة، وكيف لا تكون كذلك، وكلها من صياغة أبناء الإمام علي، وأحفاد رسول الله ﷺ.

وقد كان لذلك كله أثره البالغ في التحقق بالسنة النبوية المطهرة، ذلك أن السنة تنبني على المحبة، فلا يمكن أن نتبع من لا نحب، ولا يمكن أن نحب من لا نعرف.

ولهذا نجد في التراث الذي تركه علماء السلوك الإيرانيين الكثير من الكتب التي تعرف برسول الله ﷺ، وتجعل ذلك مقدمة للدعوة للاستنان بسنته.

ولعل من أقرب أمثلتها، وأكثرها انتشارا في العالم الإسلام كله، ذلك الكتاب الذي ألفه الغزالي الطوسي الإيراني، وجعله من جملة كتب إحياء علوم الدين، وسماه (آداب المعيشة وأخلاق النبوة)، وهو نفسه المتداول في المدرسة الشيعية ضمن كتب (المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء)، فقد حوى هذا الكتاب باختصار شديد تعريفا برسول الله ﷺ، ودستورا للتحقق بسنته.

وقد بدأه الغزالي بهذه الديباجة المعبرة: (الحمد للّه الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه وأدّب نبيه محمّدا ﷺ فأحسن تأديبه، وزكى أوصافه وأخلاقه ثم اتخذه صفيه وحبيبه، ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه، وحرم عن التخلق بأخلاقه من أراد تخييبه)[1]

ثم ذكر غرضه من الكتاب بقوله: (رأيت أن أقتصر في هذا الكتاب على ذكر آداب رسول اللّه ﷺ، وأخلاقه المأثورة عنه بالإسناد فأسردها مجموعة فصلا فصلا، محذوفة الأسانيد، ليجتمع فيه مع جميع الآداب تجديد الإيمان وتأكيده بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي شهد آحادها على القطع بأنه أكرم خلق اللّه تعالى وأعلاهم رتبة، وأجلهم قدرا، فكيف مجموعها، ثم أضيف إلى ذكر

1() إحياء علوم الدين، ج3، ص: 96.

أخلاقه ذكر خلقته، ثم ذكر معجزاته التي صحت بها الأخبار ليكون ذلك معربا عن مكارم الأخلاق والشيم، ومنتزعا عن آذان الجاحدين لنبوته صمام الصمم، واللّه تعالى ولى التوفيق، للاقتداء بسيد المرسلين في الأخلاق، والأحوال وسائر معالم الدين، فإنه دليل المتحيرين، ومجيب دعوة المضطرين) [1]

ويمكن اعتبار هذا الكتاب مع صغر حجمه متنا في التعريف برسول الله ﷺ، ومن مزاياه الكبرى كونه يجمع بين المدرستين، فهو يردد في المحافل السنية، كما يردد في المحافل الشيعية، ولا يتوقف عن ترديده إلا أعداء المدرستين الذين يكفرون الشيعة، بسبب تشيعهم، ويكفرون الغزالي بسبب تصوفه، وأشعريته.

وهكذا كان المشروع الحضاري القديم لإيران ممتلئا بالمعرفة والمحبة لرسول الله ﷺ، ومنطلقا منها، وهو ما يزيف تلك المقولات التي تتهم الشيعة بالولاء لزرادشت بدل الولاء لرسول الله ﷺ مع أننا لا نجد قصيدة واحدة في مدح زرادشت، ولا ديانته في نفس الوقت الذي نجد فيه الدواوين الكثيرة التي ألفها إيرانيون في مدح رسول الله ﷺ.

ولعل من أشهرها ما كتبه أكبر وأشهر شاعر إيراني يعرفه العامة والخاصة، ويرددون أشعاره، وينشدونها كل حين، وهو الشاعر المعروف سعدي الشيرازي[2] الذي نظم الشعر بالفارسية والعربية، ومن قصائده المترجمة في مدح رسول الله ﷺ، والتي لا يزال الإيرانيون يرددونها، ويغنونها:

1() إحياء علوم الدين، ج3، ص: 96.

2() سعدي الشيرازي (القرن السابع الهجري) هو شاعر ومتصوف فارسي، تميزت كتاباته بأسلوبها الجزل الواضح وقيم أخلاقية رفيعة، مما جعله أكثر كُتاب الفرس شعبية، فتخطت سمعته حدود البلدان الناطقة بالفارسية إلى عدد من مناطق وأقاليم العالم الإسلامي، وبلغت الغرب أيضاً، حيث صنف كأحد أبرز الشعراء الكلاسيكيين.. ومن أشهر آثاره: (الگلستان) و(البوستان). وكان من شدة تأثر سعدي باللغة العربية أن اعتبره بعض النقاد الأدبيين أحد أبرز المؤثرين بالقصيدة العربية من ناحية ما أدخلته أشعاره من نظم موسيقية جديدة عبر اقتباس النظم العروضية الفارسية.

كريم السجايا، جميل ... نبيّ البرايا، شفيع الأمم
هو إمام الرسل، هادي ... وأمين الله، مهبط جبريل
إنه اليتيم، الذي لم يعرف ... لكنه نسخ كتباً كثيرة
وحين سلَّ عزمهُ سيف ... انشق القمر نصفين إعجازاً
وحين تردد اسمه في ... تُصدع ديوان كسرى
إنهُ حطم اللات، بكلمة لا ... ومحا الدين العزيز مكانة
لم يحطم اللات والعُزى، ... بل نسخ التوراة والإنجيل
ركب ليلة القدر، فجاوز ... ومضى بالتمكين، والجاه، من
وجدَّ في تيه القُربى، من ... حتى تخلف عنه جبريل في
أثنى عليك الله، ومنحك ... وقبل الأرض تقديراً لك
خجلت أمام قدرتك، ... أنت مخلوق، وآدم لا يزال

إلى آخر القصيدة الجميلة التي ذكرناها لأجل معانيها، لا لأجل ألفاظها، فهي مترجمة، وليست موزونة، ولا مقفاة، كما في لغتها الأصلية.

وقد كان كل ذلك أرضية صالحة للمشروع الحضاري الجديد الذي تبناه الشعب الإيراني لتوافقه مع طبيعته الروحانية، ولهذا نجد كل القادة الفكريين والسياسيين يذكرون رسول الله ﷺ كل حين، ويشيدون بمكانته عند الله، وبكون الإنسان الكامل الذي لا يمكن التحقق بالإنسانية من دون التواصل معه، والاستنان بسنته.

والأمثلة على ذلك من خطاباتهم وكتاباتهم كثيرة جدا، لكنا سنقتصر هنا على بعض النماذج منها، وخاصة من تلك الشخصيات التي أساء إليها المغرضون والطائفيون دون أن يكلفوا أنفسهم بالتعرف عليها، ولا بقراءة كتاباتها.

ومنهم الشيخ مرتضى مطهري، الذي ألقى محاضرة مهمة عن رسول الله ﷺ بأسلوبه العقلاني الجميل، في تلك الفترة التي كان يحضر فيها للمشروع الحضاري الجديد، وقد نشرت تحت

عنوان (الإنسان الكامل)، حدد فيها بعض مناحي الكمال في شخصية رسول الله ﷺ، والتي جعلته محل عناية إلهية خاصة، كما جعلته سراجا منيرا للبشرية جميعا.

ومما جاء فيها قوله: (إنّ معرفة الإنسان الكامل، أو الإنسان النموذجيّ أو الأسمى واجبة علينا كمسلمين، لأنّه بحكم المثال والقدوة الّتي ينبغي أن يُقتدى بها، وليس بحثنا هذا مجرّد بحث علمّي بحت وإنّما له فائدة عمليّة كبيرة، إذ من خلاله نستطيع أن نشخّص الطريق الّذي أراد الإسلامُ من الإنسان والأمّة أن يسلُكاه للوصول إلى الإنسان الكامل الّذي يريده الإسلام)[1]

وانطلاقا من هذا المعنى المتفق عليه راح يعرض كيفية التعرف على الإنسان الكامل، وهو كما يذكر طريقان:

أولهما ـ كما يذكر مطهري ـ هو (الرجوع إلى القرآن الكريم والسنّة النبويّة، لِنرى الأوصاف الّتي ذكرها للإنسان الكامل، ولو بتعبير المسلم أو المؤمن الكامل، إذ المراد منهما هو الإنسان الّذي يصل إلى الكمال على ضوء تعاليم الإسلام. وفي المقام يوجد الكثير من النّصوص الّتي يمكن الاستفادة منها،)

وثانيهما ـ كما يذكر ـ هو الرجوع للنماذج الذي تمثل فيها الكمال الإنساني في أرقى درجاته، ولم يتمثل ذلك إلا في رسول الله ﷺ، وفي ورثته الذين ورثوا أخلاقه، كما ورثوا سنته.

ثم يحدد الكيفية التي نتعرف بها على شخصيّة الإنسان الكامل، والتي يمكنها أن تؤثر في حياتنا، فيذكر أنها (لا تعني دراسة هويّته فقط، كمعرفة نسبه وتاريخ ولادته، وإنّما تعني ما هو أعمق من ذلك بكثير، تعني التعرّف على حقيقة شخصيّته لنستطيع من خلال ذلك تشخيص القدوة، ونكون بالتالي قادرين على الاقتداء بها.. وبهذا الاقتداء نكون مستحقّين للاتصاف بأنّنا أتباع محمّد ﷺ)

1() انظر: الإنسان الكامل، مرتضى مطهري، نشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، مركز نون للتأليف والترجمة، ص.

وهكذا راح يتدرج بالمستمعين والقراء بطريقته المنهجية التي تختلط فيها الفلسفة بالروحانية إلى الدرجة التي يقتنع فيها القارئ والمستمع أنه لا مناص له من اتباع رسـول اللـه ﷺ لا لينـال أجـور الآخرة فقط، وإنما ليتحقق بإنسانيته أيضا.

وهكذا نجد نفس الخطاب الممتزج بالعقلانية والروحانية يردد لدى جميع القادة الروحيين والسياسيين في الجمهوريـة الإسـلامية الإيرانية، ومن بينهم الإمام الخميني الذي كتب الكثـير عن رسـول اللـه ﷺ، وقـد جمعت بعض خطاباتـه في هـذا المجـال في كتـاب بعنوان (الرسول الأكرم ﷺ في فكر الإمام الخميني)

ومن ذلك قوله عند الحديث عن عبودية رسـول اللـه ﷺ للـه، وكونها أشرف مراتب الكمال الإنساني: (لا بدّ من الإشـارة إلى أنّ العبوديّة المطلقة هي من أعلى مراتب الكمال ومن أرفع مقامات الإنسانيّة، ولا نصيب لأحد من البشر منهـا سـوى أكمـل خلـق اللـه محمّد ﷺ أصالة وسائر الأولياء الكُمّل عليهم السـلام تبعـاً لـه، أمّـا من سواهم فقـدم عبـوديّتهم عوجـاء وعبـادتهم وعبـوديّتهم معلّلـة بأسباب أخرى)[1]

ومن خلال هذا المعنى يفسـر المعـراج الـذي حصـل لرسـول الله ﷺ، فيقول: (ولمّا كان من غير الممكن الوصول إلى المعـراج الحقيقيّ المطلق إلّا بقدم العبوديّة، نرى أنّ قدم العبوديّـة وجذبـة الربوبيّة هي الّتي أسْرَت بتلك الذات المقدّسة إلى معـراج القـرب والوصول، لذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْـدِهِ...﴾، ولهـذا أيضاً كان تأكيد العبوديّة قبل الرسالة في تشهّد الصلاة الّذي يمثّـل الرجوع من الفناء المطلق المتحقّق في السجدة. ولعـلّ في ذلـك أيضـاً إشـارة إلى أنّ مقـام الرسـالة بالنتيجـة هـو ثمـرة لجـوهرة العبوديّة)[2]

وهكذا يتحدث الإمام الخميني عن رسول اللـه ﷺ مبينـا مـدى

---

[1] سرّ الصلاة، الإمام الخمينيّ، ص 89 ـ 90..

[2] آداب الصلاة، الإمام الخمينيّ، ص 10..

صلته بالله، من خلال تلك القابليات التي لم يطقها غيره، وهو يذكر أن تلك القابليات أصيلة في رسول الله ﷺ، بينما هي تبعية في غيره بمقدار صلته برسول الله ﷺ.

وهذه المقولة، أو هذا التعريف أكبر رد على تلك الفرية التي ينسبها المغرضون للإمام الخميني، والتي تمتلئ بها المواقع والكتب، وكأنها الكفر البواح، وهي قوله ـ في خطاب له عن الإمام المهدي ـ:(لقد جاء الأنبياء جميعا من أجل إرساء قواعد العدالة في العالم، لكنهم لم ينجحوا، حتى النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء الذي جاء لإصلاح البشرية وتنفيذ العدالة لم ينجح في ذلك)[1]، وهم يتصورون أنه بقوله هذا فضل الإمام المهدي على رسول الله ﷺ، مع أن الأمر ليس كذلك.

فالنصوص المقدسة كلها تدل على ما ذكره؛ فرسول الله ﷺ بلغ الدين كاملا، وأدى الرسالة، لكن الواقع لم يكن يسمح بانتشار الدين ولا العدالة في عهده في الأرض جميعا، مثلما سيحصل زمن الإمام المهدي، وذلك بسبب عدم توفر القابلية في تلك المجتمعات، لا في تقصير الرسول ﷺ.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا المعنى في الحديث المعروف، الوارد في الصحاح، والذي شكا فيه رسول الله ﷺ لأم المؤمنين عائشة قومه، وأنه كان ينوي إجراء بعض التعديلات في الكعبة، لكن خشيته منهم ومن ارتدادهم، جعله يتركها، حيث قال لها ﷺ: (يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم)[2]

وقد علق ابن حجر على هذا الحديث بقوله: (خشي رسول الله ﷺ أن يظنوا لأجل قرب عهدهم بالإسلام أنه غير بناءها لينفرد

1() من خطبة القاها بمناسبة ذكرى مولد المهدي في 15/شعبان /1400 هـ، انظر كتاب نهج خميني ص46.

2() البخاري ح (1586)، ومسلم ح (1333)، والترمذي ح (875)، والنسائي ح (2900)، وابن ماجه ح (2955)

بالفخر عليهم في ذلك، فيستفاد منه تـرك المصـلحة لأمن الوقـوع في المفسدة، وترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه)[1]

ولذلك نرى أن القابلية لو توفرت كاملة في ذلك الجيل الـذي عـاش فيـه رسـول اللـه ﷺ لألغى الـرق، وألغى معـه الكثـير من المظاهر السلبية الـتي جـاء الإسـلام للتنفـير منهـا، لكن لم يتسـن تنفيذها في ذلك الحين، بسبب عدم توفر القابلية الكافية.

وبنـاء على هـذا، فـإن كلام الإمـام الخميـني ينصـب في هـذا الاتجاه، ويفسر على هذا المحمل، بل قد أشار إليه رسول اللـه ﷺ حين تحدث عن الأنبياء، فقال: (عرضت علي الأمم، فـرأيت النـبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والـرجلان، والنـبي وليس معـه أحد)[2]

وقد علق بعض أولئك الذين يتهمـون الإمـام الخميـني بسـبب ذلك الخطاب على هذا الحـديث بقولـه: (فتصـور هـذا النـبي يـأتي ومعه رهيط، تصغير لقلة عددهم، فهذا النبي لا ينقصـه إخلاص، ولا ينقصه علم، ولا ينقصـه تأييـد من اللـه تبـارك وتعـالى، ولا ينقصـه معرفة بوسائل الـدعوة، وطـرق التـأثير في النـاس، فهـذه الأمـور الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام، هم أكمـل النـاس فيهـا، ومـع ذلـك يأتي ومعه الرهيط، ومن هذا نأخذ فائـدة مهمـة، وهي: أن الهدايـة بيد الله عز وجل، وأن القلوب بيـده، فالأنبيـاء يـأتون إلى أقـوامهم فما تفتح تلك القلوب، ليس نقصاً في ذلك النبي، ولا في أسـلوبه، وإنما هؤلاء أعماهم الله عـز وجـل وأذلهم وأخـزاهم، فحجبهم عن هذا النور، وعن هذا الهدى)[3]

ولو أنه وغـيره طبـق هـذا الخطـاب على تلـك المقولـة الـتي قالها الإمام الخميني لأجاب نفسه بنفسه، ولكن المشـكلة ليسـت

---

[1] فتح الباري (1/ 225)

[2] الجمع بين الصحيحين (2/ 54)

[3] انظر: شرح كتاب رياض الصالحين، د. خالد بن عثمان السبت.

في العقول التي لا تعي، وإنما في النفوس الممتلئة بالدنس الـذي يعميها عن تبصر الحقائق، أو الاعتراف بها.

ثانيا ـ اهتمام الإيرانيين بسنة رسول الله ﷺ:

من أهم تجليات اهتمـام الإيرانـيين بالسـنة النبويـة المطهـرة رواية ودرايـة وشـرحا تلـك المصـنفات الكثـيرة الـتي ألفهـا رجـال ينتسبون لكل مدينة من مدن إيران.. ولو أننا طبقنـا تلـك المقولـة التي يرددهـا المغرضـون عن موقـف الإيرانـيين من الإسـلام ومن سنة رسول الله ﷺ لفقدنا ثروة حديثية كبيرة لا يمكن تعويضها.

ذلك أن عصر الاهتمام بالحديث من لدن الإيرانيين ابتـدأ منـذ العهد الأول، أي من عهد الرواية، ثم نشط في عهد التدوين، وبقي نشيطا طيلة العهود الإسلامية المختلفة إلى العصر الحاضر.

ونحب أن نــذكر هنــا إلى أن علم الحــديث نفســه ـــ كعلم مستقل ـ أسس في إيران، ومن طرف اثـنين من علمائهـا الكبـار، أما أولهما، فهو الإمام الحافظ أبو محمد الحسن بن عبـد الـرحمن بن خلاد الرامهرمزي[1] (265هــ ــ 360 هــ)، وذلـك في كتابـه الذي يعد أول كتاب ظهـر في هـذا العلم الجليـل كتـاب (المحـدث الفاصل بين الراوي والواعي)

وقد نوه العلماء كثـيراً بكتابـه (المحـدث الفاضـل)، وصـرحوا بانه أول كتاب جامع في أصول الحـديث، وباحتوائـه على كثـير من مسائل الفن صار أساسـا لمـا صـنف بعـده من الكتب في أصـول الحديث، قال الذهبي عنه: (كان الإمام الرامهرمزي من أئمـة هـذا الشـأن (يقصـد بـه علـوم الحـديث) ومن تأمـل كتابـه في علـوم الحديث لاح له ذلك. وذكره الثعالبي في يتيمة الدهر: وتبين لنا من آثار ابن خلاد العلميـة ومن اقـوال العلمـاء وأصـحاب الـتراجم في وصـفه ووصـف مصـنفاته، وقـد جمـع بين العلم والأدب ونبـغ في الحديث والشعر وبرع في الرواية والتأليف)[2]

---

[1] وهو من رامهرمز وهي مدينة في محافظة خوزستان، وتنتهي من الجهة الغربية إلى مدينة أهواز مركز المحافظة المذكورة..

وقد ذكر في مقدمة الكتاب، فضل علم الحديث ورجاله، ومنزلتهم الرفيعة، ثم ابتدأ الكتاب باب فضل الناقل لسنة رسول الله ﷺ ثم باب فضل الطالب لسنة رسول الله ﷺ والراغب فيها والمستن بها، ثم باب النية في طلب الحديث، ثم بباب أوصاف الطالب وآدابه، وختمه بباب المصنفون من رواة الفقه في الأمصار.

أما الكتاب الثاني، فهو بعنوان [معرفة علوم الحديث]، وهو للحاكم النيسابوري، (321 -ـ 405هـ)، وهو أوسع من كتاب الرامهرمزي بالنسبة لعدد الأنواع.

ولم يكتف الإيرانيون بذلك التأصيل لعلم الحديث، وإنما دخلوا باب الرواية والدراية من بابها الواسع، وما على من يريد أن يتحقق من ذلك، ويتثبت منه سوى الذهاب إلى كتب الطبقات والرجال، ليرى بنفسه ذلك الكم الكبير من المحدثين والحفاظ الذين ولدوا في إيران، وانتسبوا إلى مدنها، ليرى ماذا سيبقى لو أزيلت أسماؤهم وكتبهم من دواوين أهل الحديث.

وحتى نريح القارئ من عناء ذلك البحث، أو من المنهج المتبع فيه، فسنذكر هنا باختصار نماذج محدودة جدا عن رجال من كبار المحدثين الإيرانيين بحسب المدن التي ينتسبون إليها، ومن شاء المزيد من ذلك، فما عليه سوى أن يكتب اسم المدينة الإيرانية، ثم يبحث في كتب الطبقات والتاريخ، ليرى بعينه حقيقة ذلك الاهتمام الذي يفند جميع شبهات المغرضين، الذين يصورون الإيرانيين بصورة المتآمرين، لا بصورة الذين بذلوا كل ما لديهم لخدمة الإسلام.

1 ـ المحدثون بنيسابور:

تعتبر نيسابور من مراكز الحضارة الإسلامية الكبرى لا في إيران وحدها، بل في العالم الإسلامي أجمع، وهي مشهورة بكثرة محدثيها، واهتمامهم خصوصا بجمع الأحاديث الصحيحة، ولذلك اجتمع فيها كبار المحدثين الذين جمعوا الصحيح كمسلم وابن حبان

2() تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي (3/ 81)

وابن خزيمة والحاكم وغيرهم.

وقد اهتم أهلها بجمع الحديث من العصور الأولى للإسلام، ولذلك أُفرد رجالها وتاريخها بالتأليف، كما سنرى في الفصل المخصص لمراكز الحضارة الإسلامية في إيران، وقد عبر بعضهم عن ذلك بقوله: (وقد نبغ فيها جماعة من العلماء في كل فن ما لا يحصى عددهم في القرون الأولى الإسلامية، لا سيما في فن الحديث والفقه، حتى فاقت نظاميةُ نيسابور نظاميةَ بغداد. فقد قيل بلغ عدد محدثيها ورجالها العلمية في القرون الأربعة الأولى إلى 3000 عالماً)[1]

وممن أفرد تاريخها ورجالها بالتأليف، مما يرتبط بالحديث وعلومه ما كتبه الإمام الحافظ الحاكم (321 - 405هـ)، صاحب كتاب المستدرك على الصحيحين، وقد ذكر البيهقي في (تاريخ بيهق) أنه يتألّف من (12) جزءا مرتبا على حروف المعجم، ويضم تراجمَ للشخصيات البارزة في نيسابور إلى سنة 380هـ، وله تكملة فيها ذكر للشيوخ الذين ماتوا بعد سنة 388هـ.

ومن المحدثين الكبار في نيسابور، والذين لا يمكن الاستغناء عن أحاديثهم في المدرسة السنية **مسلم بن الحجاج النيسابوري** (206 هـ - 261 هـ)، صاحب كتاب (الصحيح)، أو (الجامع الصحيح)[2] الذي يعتبر أحد أهم كتب جوامع الحديث النبوي عند المسلمين في المدرسة السنية، بل إنهم يعتبرونه ثالث أصحّ الكتب على الإطلاق بعد القرآن الكريم، وصحيح البخاري.

بل إن هناك، وخصوصا من المغاربة، من يفضله على صحيح البخاري، وذلك بسبب المنهجية التي اتبعها في تصنيفه، فهو يسرد

---

[1] خراسان قديمي ترين پايگاه علوم اسلامي، مولوي عبد الحميد.

[2] لم ينص مسلم -في كتابه الصحيح- على تسميته ولذلك وقع الاختلاف في اسمه، فذُكرت له عدة تسميات، منها [الجامع]: ذكره الفيروزآبادي وابن حجر العسقلاني وحاجي خليفة والقنوجي وغيرهم، ومنها [المسند الصحيح]: هكذا سمّاه الإمام مسلم، ومنها [المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ] وغيرها..

الاحاديث بأكملها دون تقطيع، لا كما صنع البخارى، ومنها سرده أسانيد الحديث قبل ذكره لها، ومنها الاهتمام بدقة الألفاظ، وخصوصا تلك التي وقع فيها الخلاف.

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني سبب ذلك التفضيل، فقال: (حصل لمسلم في كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحدٍ مثله بحيث أن بعض الناس كان يفضله على صحيح محمد بن إسماعيل، وذلك لما اختص به من جميع الطرق وجودة السياق والمحافظة على أداء الألفاظ كما هي من غير تقطيع ولا رواية بمعنى، وقد نسج على منواله خلق عن النيسابوريين فلم يبلغوا شأوه وحفظت منهم أكثر من عشرين إماما ممن صنف المستخرج على مسلم فسبحان المعطي الوهّاب)[1]

ولذلك أجمع العلماء على فضله، فقد قال فيه أبو علي النيسابوري: (ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم بن الحجاج في علم الحديث)، وقال مسلمة بن القاسم القرطبي: (مسلم بن الحجاج النيسابوري جليل القدر ثقة من أئمة المحدثين له كتاب في الصحيح، لم يضع أحد مثله)، وقال الذهبي: (كتاب نفيس كامل في معناه، فلما رآه الحفاظ أعجبوا به)، وقال النووي: (ومن حقق نظره في صحيح مسلم رحمه الله واطلع على ما أودعه في أسانيده وترتيبه وحسن سياقته وبديع طريقته من نفائس التحقيق وجواهر التدقيق وانواع الورع والاحتياط والتحري في الرواية وتلخيص الطرق واختصارها وضبط متفرقها وانتشارها وكثرة اطلاعه واتساع روايته وغير ذلك ما فيه من المحاسن والأعجوبات واللطائف الظاهرات والخفيات عَلِمَ أنه إمامٌ لا يلحقه من بعد عصره وقل من يساويه بل يدانيه من أهل وقته ودهره وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)[2]

1() تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ج10 ص127.

2() انظر هذه النصوص وغيرها في: صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمايته من الإسقاط والسقط - عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (طبعة دار الغرب الإسلامي: ج1 ص62)

ومن المحدثين الكبار بنيسابور **الحافظ محمد بن اسحاق بن خزيمة النيسابوري** (223-311 هـ) الملقب بشيخ الإسلام، وإمام الأئمة، وصاحب كتاب صحيح ابن خزيمة، والذي قال فيه أبو حاتم بن حبان: (ما رأيت على وجه الأرض من يحسن صناعة السنن ويحفظ ألفاظها الصحاح وزياداتها حتى كان السنن كلها بين عينيه إلا ابن خزيمة)[1]

وقال السبكي عنه في ترجمته: (المجتهد المطلق، البحر العجاج جمع أشتات العلوم، وهو إمام الأئمة)[2]

وقال عنه ابن كثير: (هو من المجتهدين في دين الإسلام)[3]

وقال عنه الذهبي: (الحافظ الكبير، انتهت إليه الإمامة والحفظ في عصره بخراسان)[4]

وغيرها من المقولات التي يتبناها السلفيون خصوصا، فابن تيمية يشيد كثيرا بابن خزيمة، ولست أدري كيف يوفقون بين ذلك، وبين اتهامهم للإيرانيين بكونهم مؤامرة على الإسلام، وأنهم ما دخلوا الإسلام إلا ليشوهوه؟

ومن كبار المحدثين بنيسابور: **محمد بن عبد الله المشهور بـ (الحاكم النيسابوري)** (321 - 405هـ)، الذي يلقب بـ (الإمام، الحافظ، الناقد، العلامة، شيخ المحدثين، صاحب التصانيف)، وقيل فيه: (أدرك الأسانيد العالية بخراسان، والعراق، وما وراء النهر، وسمع من نحو ألفي شيخ. صنّف وخرَّج ورجَّح وصحَّح وعدَّل، وكان من بحور العلم. كان إمام عصره في

1() سير أعلام النبلاء 14/372.

2() طبقات الشافعية، (3/109).

3() الثقات لإبن حبان، 9/156.

4() تذكرة الحفاظ، 2/720.

الحديث، العارف به حق معرفته، صالحاً ثقة)[1]

وهو صاحب (المستدرك على الصحيحين)، و(تاريخ نيسابور)، و(علوم الحديث)، وكتبه لا تزال تعتمد في الرواية والدراية، ولا يمكن لمن يدرس علوم الحديث أن يستغنى عن كتبه فيها، ذلك أنها كانت من أوائل ما كتب في الموضوع.

وقد قال الشيخ أحمد شاكر عن كتابه المستدرك: (صحيح ابن خزيمة وصحيح ابن حبان والمستدرك على الصحيحن للحاكم، هذه الكتب الثلاثة هي أهم الكتب التي ألفت في الصحيح المجرد بعد الصحيحين للبخاري ومسلم)[2]، ومن العجيب أن هؤلاء الثلاثة الذين ذكرهم كلهم من نيسابور، بالإضافة لمسلم، وإن شئنا أضفنا البخاري، فقد كان كثير التردد على نيسابور، في حال تلمذته، وحال أستاذيته [3] .

ومن كبار المحدثين بنيسابور: **الإمام ابن حبان** (270هـ — 354هـ)، صاحب الصحيح، وهو الذي وصف بأنه (الإمام العلامة الحافظ، المحدّث، المؤرخ، القاضي، شيخ خراسان، من كبار أئمة علم الحديث والجرح والتعديل)[4]

وهو الذي قال فيه أبو سعد عبد الرحمن بن أحمد الإدريسي: (أبو حاتم كان من فقهاء الناس، وحفّاظ الآثار، المشهورين في الأمصار والأقطار، عالما بالطب والنجوم وفنون العلوم، ألّف المسند الصحيح، والتاريخ، والضعفاء، والكتب

1() سير أعلام النبلاء (17/163).

2() مقدمة صحيح ابن حبان ص 6-7.

3() قال الحاكم النيسابوري: (أول ما ورد البخاري نيسابور سنة تسع ومائتين، ووردها في الأخير سنة خمسين ومائتين، فأقام بها خمس سنين يحدث على الدوام) [تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (طبعة دار الغرب الإسلامي:ج6 ص140)]

4() سير أعلام المحدثين ص 298.

المشهورة في كل فنّ)

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان: (كان ابن حبان مكثرا من الحديث والرّحلة والشيوخ، عالما بالمتون والأسانيد، أخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره، ومن تأمّل تصانيفه تأمّل منصف، علم أن الرجل كان بحرا في العلوم)

وقال عنه ابن حجر العسقلاني: (كان من أئمة زمان، وطلب الحديث على رأس سنة ثلاث مئة.. وكان عارفا بالطب والنجوم والكلام والفقه، رأسا في معرفة الحديث، صاحب فنون، وذكاء مفرط، وحفظ واسع إلى الغاية)

ومن كبار المحدثين بنيسابور: **الحافظ أحمد بن حسين البيهقي**[1] (384-458)، والذي وصف بأنه (الحافظ الكبير الفقيه الأصولي الناقد)، وهو صاحب مراجع كبرى في الحديث وعلومه لا يمكن الاستغناء عنها، منها (السنن الكبرى)، و(المدخل إلى السنن الكبرى)، و(معرفة السنن والآثار)، والذي قال عنه السبكي: (هذا كتاب لا يستغني عنه فقيه شافعي)[2]

ومن أهم كتبه في نظري كتابين تميز بهما، الأول (دلائل النبوة)، وهو من أجمع وأفضل ما كتب في براهين النبوة، وقد قال عنه ابن كثير: (دلائل النبوة لأبي بكر البيهقي من عيون ما صنّف في السيرة والشمائل)

والثاني (الأسماء والصفات)، والذي قال عنه السبكي: (لا أعرف له نظيراً)

وقد أشاد بالبيهقي كل من ترجموا له، قال الذهبي عنه: (كان البيهقي أوحد زمانه وفرد أقرانه وحافظ أوانه)، وقال عنه: (لو شاء الذهبي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادرا على

1() بيهق من نواحي نيسابور، قد خرج منها ـ كما يذكر المؤرخون ـ ما لا يحصى من الفضلاء المحدثين والأدباء الفقهاء..

2() السبكي في الطبقات 4/9.

ذلك لسعة علومه، ومعرفته بالاختلاف)[1]

وقال عنه إمام الحرمين الجويني: (ما من شافعي إلا وللشافعي في عنقه منة إلا البيهقي فإن له على الشافعي منة لتصانيفه ونصرته لمذهبه وأقاويله)[2]

وقال عنه ابن خلكان: (الفقيه الشافعي الحافظ الكبير المشهور، واحد زمانه، وفرد أقرانه في الفنون، من كبار أصحاب الحاكم أبي عبد الله البيع في الحديث، ثم الزائد عليه في أنواع العلوم)[3]

وقال ابن كثير: (كان أوحد زمانه في الإتقان، والحديث، والفقه، والتصنيف، وكان فقيها محدثا، أصوليا.. وجمع أشياء كثيرة نافعة، لم يسبق إلى مثلها، ولا يدرك فيها، وكان فاضلا من أهل الحديث، مرضي الطريقة) [4]

بالإضافة إلى هؤلاء نجد الكثير من الرواة المتقدمين الذين اعتمد على رواياتهم أهل الحديث، وخصوصا أصحاب الصحاح منهم، ومنهم يحيى بن يحيى أبوبكر بن عبد الرحمن أبو زكريا النيسابوري الحافظ (142 هـ ـ). الذي تتلمذ على يديه البخاري ومسلم والدارمي وبن بشار والذهلي والبيهقي والآخرون.. وقد قال عنه إسحاق بن راهويه: (ما رأيت مثل يحيى بن يحيى، ولا أحسب أنه رأى مثل نفسه)، وقال: (أصبح يحيى بن يحيى إمام أهل الشرق والغرب)، وقال: (مات يحيى بن يحيى يوم مات وهو إمام لأهل الدنيا)، وقال عنه عبد الله بن أحمد بن حنبل: (سمعت أبي يذكر يحيى بن يحيى فأثنى عليه خيراً وقال: ما أخرجت

1() سير أعلام النبلاء 18/163.

2() انظر: طبقات الشافعية الكبرى 4/10-11، سير أعلام النبلاء 18/168.

3() دلائل النبوة للبيهقي محققا (المقدمة/ 5).

4() دلائل النبوة للبيهقي محققا (المقدمة/ 6).

خراسان بعد ابن مبارك مثله)[1]

هـذه مجـرد نمـاذج عن كبـار المحـدثين من أهـل نيسـابور، والـذين لا يمكن بحـال من الأحـوال أن نسـتغني عن جهـودهم في خدمة السنة النبوية، ونحن نطلب من أولئـك الـذين يشـككون في إيـران، وإسـلام أهلهـا، أن يـتركوا العـودة لهـذه المصـادر، لأنـه لا يستقيم أن يأخذوا أحاديثهم من الفـرس المتـآمرين على الإسـلام، أو من المجوس الذين لا حظ لهم في الإسلام.

2 ـ المحدثون بأصفهان:

تعتبر أصفهان من مراكـز الحضـارة الإسـلامية الكـبرى، وقـد كانت مقصد الكثير من العلماء وطلبة العلم، وخاصة علم الحـديث ابتداء من العصور الأولى للإسلام، ولـذلك أتيح لهـا أن تنجب كبـار المحـدثين بالإضـافة لكبـار الأدبـاء والفقهـاء والمـؤرخين وغـيرهم، والذين سنذكر بعضهم في الفصول التالية من هذا الكتاب.

ومن المحـدثين الكبـار الـذين أنجبتهم أصـفهان **أبـو نعيم الأصـفهاني** (336 هـ - 430 هـ) المـؤرخ الرحالـة، وصـاحب المؤلفات المهمة جدا في الحـديث وغـيره، ومنهـا: حليـة الأوليـاء، والمسـتخرج على البخـاري، ودلائـل النبـوّة، وتـاريخ أصـفهان، ومعجم الصحابة.

ويعد كتابه (حلية الأولياء) من أجمع ما كتب في بابه، حتى أن الكثير من الكتب التي أتت بعده كانت عيالا عليـه، فقـد جمـع فيـه أسامي جماعـة كبـيرة من العلمـاء والمحـدثين والنسـاك وغـيرهم ابتـداء من قـرن الصـحابة والتـابعين وتـابعيهم ومن بعـدهم، وقـد اشتمل على زهاء 800 ترجمة، وقد قال عنه الحافظ الـذهبي:(لم يصنف مثل حلية الأولياء)

ومن المحدثين الكبار الذين أنجبتهم أصفهان **إسـماعيل بن محمد الأصـفهاني**، الملقب بقـوام السـنة (457 -ـ 535 هـ)، وكان من أعلام الحفاظ، ومن كتبه (الجامع) في التفسـير، ثلاثـون

---

[1] سير أعلام النبلاء 10/512.

مجلدة، و(الإيضاح) في التفسير، أربع مجلدات، وتفسيران آخران، وتفسير بالفارسية، عدة مجلدات، و(دلائل النبوة) و(التذكرة) نحو 30 جزءا، و(سير السلف) في تراجم الصحابة والتابعين، و(الترغيب والترهيب) و(شرح الصحيحين) و(الحجة في بيان المحجة) و(إعراب القرآن) و(المبعث والمغازي)[1]

وقد قال عنه تلميذه أبو سعد السمعاني: (كان إمامًا في فنون العلم في التفسير والحديث واللغة والأدب حافظًا متقنًا، كبير الشأن، جليل القدر، عارفًا بالمتون والأسانيد، سمع الكثير بنفسه ونسخ، ووهب أكثر أصوله في آخر عمره، وأملى بجامع أصفهان قريبًا من ثلاثة آلاف مجلس، وكان يحضر مجلسه جماعة من الشيوخ والشبان ويكتبون، ووقت مقامي ما فاتني من أماليه شيء، وكان يملي عليّ في كل أسبوع يومًا مجلسًا خاصًا في داره وأقرأ عليه في كل أسبوع يومين ... كتبت عنه الكثير واستفدت منه، وهو من شيوخ والدي رحمه الله)[2]

وقال: (كان والدي يقول: ما رأيت بالعراق من يعرف الحديث ويفهمه غير اثنين: إسماعيل الجوزي بأصفهان، والمؤتمن بن أحمد ببغداد)[3]

وقال أبو موسى المديني في معجمه:(أبو القاسم الحافظ إمام أئمة وقته، وأستاذ علماء عصره، وقدوة أهل السنة في زمانه، حدثنا عنه غير واحدٍ من مشايخنا في حال حياته بمكة، وبغداد، وأصفهان ... ولا أعلم أحدًا عاب عليه قولا ولا فعلا، ولا عانده أحد إلا ونصره الله، وكان نزه النفس عن المطامع، ولا يدخل على السلاطين ولا على المتصلين بهم، قد أخلى دارًا من ملكه لأهل العلم مع خفة ذات يده، ولو أعطاه الرجل الدنيا

1() انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (ج4 ص51)؛ سير أعلام النبلاء أيضا للذهبي (ج20 ص81)

2() الأنساب للسمعاني (ج2 ص120)

3() التقييد لابن نقطة (ج1 ص252)

بأسرها لم يرتفع عنده، أملى ثلاثة آلاف وخمسمائة مجلس، وكان يُملي على البديهة)

وقال: (وقد قرأ عدة ختمات بقراءات على جماعة، وأما علم التفسير، والمعني، والإعراب، فقد صنف فيه كتابًا بالعربية والفارسية، وأما علم الفقه فقد شهرت فتاويه في البلد والرساتيق، بحيث لم ينكر أحدٌ شيئا من فتاويه في المذهب، وأصول الدين، والسنة)[1]

وقال عنه ابن كثير: (الإمام الحافظ الفقيه الكبير، أبو القاسم التميمي الطلحي الأصفهاني الجوزي الملقب بقوام السنة، أحد أئمة الشافعية وجهابذة الحديث ونقادهم)[2]

ومن المحدثين الكبار الذين أنجبتهم أصفهان **أبو الشيخ الأصفهاني** (274 ـ 369 هـ)، الذي وصفه الذهبي في (السير) بأنه (الإمام، الحافظ، الصادق، محدث أصفهان)، وقال: (سمع في سنة أربع وثمانين وهلم جرا، وكتب العالي والنازل، ولقي الكبار)، وقال: (قد كان أبو الشيخ من العلماء العاملين صاحب سنة واتباع لولا ما يملأ تصانيفه بالواهيات)، وقال: (ويروي عنه أنه قال: ما عملت فيه حديثا إلا بعد أن استعملته)، وقال: (عن بعض الطلبة قال: ما دخلت على أبي القاسم الطبراني إلا وهو يمزح أو يضحك، وما دخلت على أبي الشيخ إلا وهو يصلي)

ومن مصنفاته التي لا تزال منتشرة ومشتهرة: (السنة)، و(العظمة)، و(السنن)، و(التفسير)، و(ثواب الأعمال)، و(أخلاق النبي)، و(التوبيخ والتنبيه)، و(الفوائد)، و(التاريخ)، و(طبقات المحدثين بأصفهان)

بالإضافة إلى هؤلاء نجد الكثير من المحدثين من غير أهل أصفهان الذين أقاموا بها مدة طويلة، وتخرج على أيديهم الكثير من طلبة العلم، ومنهم **أبو سعيد الرازي** الذي أقام باصفهان

1() تاريخ الإسلام للذهبي (ج36 ص368 و371)، وتذكرة الحفاظ له (ج4 ص51)

2() طبقات الفقهاء الشافعيين لابن كثير (ج2 ص591)

45 سـنة ثم رحـل إلى العـراق، ثم راجـع منهـا إلى أصـفهان واستوطنها، وهو صاحب المسند وغيره من كتب الحديث.

ومنهم الحافـظ أبـوبكر عبـد اللـه بن أبي داود السجسـتاني صاحب السـنن، الـذي قـدم أصـفهان، فقـال: (حـدثت من حفظي بإصفهان ستة وثلاثين ألفاً ألزموني الوهم فيها في سبعة أحـاديث، فلما انصرفت وجدت في كتابي خمسة منها على ما كنت حـدثتهم به)[1]، وهذا يـدل على مبلـغ اهتمـام الاصـفهانيين بالسـنة النبويـة الشريفة.

هذا من المدرسة السنية، أمـا المدرسـة الشـيعية، فقـد كـان في أصـفهان الكثـير من المحـدثين، لعـل من أشـهرهم، وأكـثرهم جمعـا للحـديث **محمـد بـاقر المجلسي** (1037 هــ ـ 1111)، صاحب المؤلفات الروائية الكثيرة، ومنها (مرآة العقـول في شـرح أخبـار آل الرسـول) في شـرح كتـاب الكـافي لمحمـد بن يعقـوب الكليني في 26 مجلَّداً.

ومنها (ملاذ الأخيار في فهم تهذيب الأخبار) شـرح على كتـاب (تهذيب الأحكام) لمحمد بن الحسن الطوسي، يقـع في 16 مجلَّداً بطبعته الجديدة.

ومن أشـهرها (بحـار الأنـوار الجامعـة لـدرر أخبـار الأئمـة الأطهـار)، والـذي يعـد بحـق من أكـبر الموسـوعات الحديثيَّة عنـد الشيعة، بل عند المسلمين جميعـا، إذ تتجـاوز عـدد مجلَّداتـه 100 مجلـد، وتـرجمت كثـير من مجلَّداتـه إلى الفارسـيَّة والأرديَّة والإنگليزيَّة، ونحب أن ننبه هنا إلى أن غرضه من كتابه هذا هوجمع أكبر قدر من الأحـاديث والروايـات من المصـادر المختلفـة حرصـا على الحفظ عليهـا، ولـذلك لا يعـني أن كـل مـا فيـه صـحيح، على عكس ما يفعل السلفيون والطائفيون حين يعمدون إلى الروايـات الواردة فيها ويرمون بها الشيعة من غير نظر في موقفهم منها.

وأحب أن أشـيد هنـا بالـدور التصـحيحي الـذي تقـوم بـه الجمهورية الإسلامية الإيرانية في تنقيح التراث الشيعي، ومن بينها

[1] تذكرة الحفاظ 3/915.

هـذه الموسـوعة الـتي يسـتثمرها الطـائفيون في التفريـق بين المسلمين.

وقد ذكـرت وكالـة (تسـنيم للأنبـاء) أن العلامـة ناصـر مكـارم شـيرازي، طلب من رئيس وخـبراء مركـز الأبحـاث الإسـلامية في مدينة قم، ضرورة تجميع المصـادر الشـيعية وصـيانتها، وقـال إنهم قد بدأوا مشروعاً مهماً لغربلة كتـاب (بحـار الأنـوار) واستخلاصـه، وأكد أنهم في حوزة قم يعملـون بشـكل جـاد على تـدوين (طبعـة جديدة) من كتـاب (بحـار الأنـوار) خاليـة من التحريـف والأحـاديث الموضوعة.

وأوضح أنهم ومن خلال هذا المشروع الكبير يحـاولون غربلـة الأحاديث والروايات الضعيفة والزائفة، وأنهم انتهـوا من طباعـة 6 مجلدات من أصل 110 مجلدات من هذا الكتاب العملاق.

ولفت العلامـة الشـيرازي إلى أن (الطبعـة الجديـدة) لكتـاب (بحار الأنوار) ستحل العديد من المشاكل الحالية، كمـا شـدد على ضرورة تعديل العديد من مصـادر الفقـه الشـيعي والكتب الأخـرى في هذا المجال وفق متطلبات العصر الحاضر.

وما ذكرته الوكالة دليل على أن الجهود الكبيرة التي تقوم بها الجمهورية الإسلامية الإيرانيـة في مشـروعها الحضـاري الجديـد لا تقتصـر على تلـك الجـوانب السياسـية، بـل تتعـداها إلى التصـحيح الديني نفسه، بتنقيته من التحريف والتبديل والتغيير الـذي اعـتراه عبر العصور المختلفة.

3 ـ المحدثون بطهران:

قد يتصور البعض أنـه لا يوجـد علمـاء ولا حضـارة قديمـة في طهران بسبب قلة وجود النسبة إليهـا في معـاجم الرجـال، مثلمـا توجد النسبة للنيسابوري والأصفهاني والطوسي وغيرها.

وسبب ذلك هو أن طهران الحالية لم تكن قديما سـوى قريـة صغيرة من قرى مدينة الـري، ولـذلك فـإن من شـاء أن يبحث في حضارة طهران، فعليه أن يبحث في حضـارة الـري، ومن شـاء أن

يعــرف علماءهــا ورجالهــا الكبــار، فعليــه أن يبحث في النســبة المعروفة بـ [الرازي]، وهي نسبة مشـهورة جـدا في كتب التـاريخ والرجال، وتدل على مبلغ الحضارة التي بلغتها.

وقد اهتمت الري، أو طهـران الحاليـة، بعلم الحـديث اهتمامـا بالغا، أشار إليه السمعاني بقوله: (أقمت بها قريباً من أربعين يوماً في انصرافي من العراق، وكتبت بها عن جماعة من الرازية تقرب من الثلاثين نفساً)[1]، وهو عدد هائل مقارنة بمدة إقامته.

ومن كبار المحدثين فيها **أبو حـاتم الـرازي** (195 -ـ 277 هــ)، الـذي وصــف بأنــه (حافـظ للحــديث، من أقــران البخــاري ومسلم)، ومن كتبه (طبقـات التـابعين) وكتـاب (الزينـة) و(تفسـير القرآن العظيم) و(أعلام النبوة)

ومنهم أبوزرعة عبيدالله بن عبدالكريم الرازي (200 – 264 هـ)، وقد وصف بأنه (كان اماماً ربانياً متقناً حافظاً مكـثراً صـادقاً، قـدم بغـداد غـير مـرة، وجـالس أحمـد بن حنبـل وذاكـره وكثرت الفوائد في مجلسها)[2]

ومن مؤلفاته التي كـانت مصـادر للمحـدثين منـذ تأليفهـا إلى اليوم: فوائد الـرازيين، الفوائـد، الفضـائل، أعلام النبـوة، أو دلائـل النبوة، كتاب السير، كتاب المختصر، كتاب الزهد، كتاب الأطعمــة، كتاب الفرائض، كتاب الصوم، كتاب الآداب، كتـاب الوضـوء، كتـاب الشفعة، كتاب الأفراد، كتاب العلل، كتاب الجرح والتعـديل، كتـاب بيــان خطــأ البخــاري في تاريخــه، التفســير، أجوبتــه على أســئلة البرذعي في الضـعفاء، أجوبتـه على أسـئلة الـبرذعي في الثقـات، كتاب أسماء الضعفاء، كتاب الصحابة، كتاب المسند.

وقد اتفق جميع المحـدثين على حفظـه وإتقانه[3]، فقـد روى محمد بن جعفر قال: سئل أبو زرعة عن رجل حلــف بــالطلاق: أن

1() الأنساب (3/ 25)

2() (الانساب للسمعاني 3/ 26.

أبا زرعة يحفظ مائتي ألف حديث، هل حنث؟ فقال: لا. ثم قال أبو زرعة: أحفظ مائتي ألف حديث كما يحفظ الإنسان قل هو الله أحد ، وفي المذاكرة ثلاثمائة ألف حديث.

وقال صالح بن محمد: سمعت أبا زرعة يقول: كتبت عن رجلين مائتي ألف حديث، كتبت عن إبراهيم الفراء مائة ألف حديث، وعن ابن أبي شيبة: عبد الله مائة ألف حديث.

ولهذا قال ابن راهويه: (كل حديث لا يعرفه أبو زرعة فليس له أصل)، وقال عبد الله بن أحمد: (لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له، فسمعت أبي يوماً يقول: ما صليت غير الفرض؛ استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي)

وقال أبو يعلى الموصلي: (ما سمعنا بذكر أحد في الحفظ إلا كان اسمه أكبر من رؤيته، إلا أبا زرعة الرازي؛ فإن مشاهدته كانت أعظم من اسمه، وكان قد جمع حفظ الأبواب والشيوخ والتفسير، كتبنا بانتخابه بواسط ستة آلاف حديث)

وقال يونس بن عبد الأعلى: (إن أبا زرعة أشهر في الدنيا من الدنيا)

وقال الذهبي: (يعجبني كثيراً كلام أبي زرعة في الجرح والتعديل؛ يبين عليه الورع والمخبرة، بخلاف رفيقه أبي حاتم؛ فإنه جراح)

ومن كبار المحدثين في الري **محمد بن حميد الرازي [** 160 – 248 هـ]، وكان من الرواة الكبار أصحاب الأسانيد العالية،

وقد قال عنه أبو زرعة: (من فاته محمد بن حميد، يحتاج أن ينزل في عشرة آلاف حديث)، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: (سمعت أبي يقول لا يزال بالري علم ما دام محمد بن حميد حيا)، وقال أبو قريش الحافظ: (قلت لمحمد بن يحيى ما تقول في محمد بن حميد فقال ألا تراني أحدث عنه)[(1)]

3() انظر: الجرح و التعديل لابن أبي حاتم، وسير أعلام النبلاء للذهبي.

ومنهم **أبو عبدالله جرير الرازي** (تـوفي 188 هـ)، وقـد روى عنه كبار المحدثين من أمثال عبدالله بن المبـارك، وأبـوداود الطيالسي، وأحمـد بن حنبـل ويحـيي بن معين وعلي ابن المـديني وغيرهم من مشاهير الأئمة والأعلام[1].

ومنهم **إسماعيل بن علي بن حسين الرازي** المعـروف بالسمّان الحافظ، كان من المكثرين من الحـديث، سـمع من نحـو 4000 شيخ، روي عنه الخطيب ومحمـد بن عبداللـه بن جعفـر بن عبدالله بن الجنيد ابو الحسين الرازي، ووصف بأنـه (كـان حافظـاً ثقة مكثراً)، قال الكنائي عنه: (توفي شيخنا وأستاذنا تمام الرازي وكان ثقة مأموناً حافظاً لم أر أحفظ منه حديث الشاميين)

وقال أبوبكر الحداد:(مالقينا مثله في الحفظ والخبر)، وال أبو الأهوازي: (كان عالماً بالحديث ومعرفة الرجال وما رأيت مثله في معناه)[2]

هذه بعض النماذج عن المحدثين المنتسبين للـري أو طهـران الحالي من المدرسة السـنية، أمـا المحـدثون من الشـيعة، فهم لا يقلـون عنهم، ومن أشـهرهم الشـيخ **محمـد بن يعقـوب بن إسـحاق الكليـني الـرازي** (255 ـ 329 هـ)، وهـو ـ باتفـاق المؤرخين ـ من كبار فقهاء ومحـدثي الشـيعة، وهـو صـاحب كتـاب الكافي الذي يعدّ من أهم المصادر الحديثيـة الأربعـة عنـد الشـيعة، وهو أوّل من لقّب بـ (ثقة الإسلا)،م وكان الناس يرجعون إليـه في مسائلهم الإجتماعية والفقهية لفضله وعلمه وتقواه[3].

قال فيه ابن الأثـير: (أبـو جعفـر محمـد بن يعقـوب الـرازي،

1() انظر ترجمته بتفصيل في: سير اعلام النبلاء الرقم 2073، 8/292.

1() الأنساب 3/ 26.

2() معجم البلدان 3/ 121.

3() انظر ترجمته والثناء عليه في : الكليني والكافي، ص 264 - 267..

الفقيه، الإمام على مذهب أهل البيت عليهم السلام، عالم في مذهبه، كبير، فاضل عندهم، مشهور)، وقال الذهبي: (عالم الإمامية وصاحب المؤلفات المعروفة)

وقد اتفق جميع علماء الشيعة على الثناء عليه، فقد قال الشيخ الطوسي: (محمد بن يعقوب الكليني، يكنّى أبا جعفر، ثقة، عارف بالأخبار)، وقال في رجاله: (يكنى أبا جعفر الأعور، جليل القدر، عالم بالأخبار، وله مصنفات منها كتاب الكافي)[1]، وقال النجاشي: (أبو جعفر الكلينيشيخ أصحابنا في وقته بالري ووجههم، وكان أوثق الناس في الحديث وأثبتهم صنّف الكتاب الكبير المعروف بالكافي، في عشرين سنة)[2]

ويعتبر كتابه (الكافي)، من مصادر الحديث لدى المدرسة الشيعية، وأكثر الكتب الأربعة اعتبارا بأقسامه الثلاثة أصول الكافي، وفروع الكافي، وروضة الكافي.

وقد قال عنه الشيخ المفيد: (إن كتاب الكافي من أجل كتب الشيعة وأكثرها فائدة)[3]، وقال الشهيد الأول: (كتاب الكافي في الحديث، الذي لم يعمل للإمامية مثله)[4]

وأحب أن أنبه هنا كما نبهت سابقا إلى أن ثناء العلماء عليه، لا يعني صحته صحة مطلقة، أو أنهم لا ينتقدون أحاديثه، فليس عند الشيعة ما يطلقون عليه الصحيح المجرد، حتى لا يضاهون ما يكتبه البشر بكتاب الله تعالى.

وقد قال بعضهم في ذلك: (أما تضعيف العلماء المتأخرين

1() الطوسي، رجال الطوسي، ص 429.

2() النجاشي، رجال النجاشي، ص 377..

3() اعتقادات الامامية، ص 70.

4() الكافي، ج 1، ص 27.

لجملة من مروياتـه فلا يقـدح في مكانتـه أو التقليـل من شـأنه، إذ ينبغي الملاحظـة أن للتضـعيف والتصـحيح معنيـان عنـد الإماميـة ـ أحدهما عند المتقدمين ـ ويمثلهم الشيخ الكليني ومن في طبقتــه، والثاني عند المتأخرين ـ ويمثلهم العلامـة الحلي ومن في طبقتـه ـ ومعنى الصحيح عند المتقـدمين هـو القبـول بالحـديث والعمـل بـه لاحتفائه بقرائن تدل على صحة صدوره، وهذا عندهم بغض النظــر عن وثاقــة رواة الســند.. أمــا المتــأخرون فهم لا يــرون الحــديث صحيحاً إلا إذا ثبت عندهم وثاقة رواته بالخصوص.. والسر في ذلك هو الابتعاد زمناً عن عصر صدور النص، إضافة إلى غيـاب القـرائن الـتي يمكن لهـا أن تفيـد الاطمئنـان بالصـدور في قبـول الحـديث وعدمه، لذا فإن ما سمعتموه من التضعيف لاحـاديث الكـافي إنمـا كـان باصـطلاح المتـأخرين دون المتقـدمين، الـذين كتب الشـيخ الكليني كتابه على منوالهم وصرّح في بدايـة كتابـه بأنـه ذكـر فيـه الآثار الصحيحة عن الصادقين (عليهم السلام) ليعمل بها)

وردا على الشبهة المقابلة لهذه، والتي يوردها بعض السـلفية خصوصـا في رمي الشـيعة بأنـه ليس عنـدهم كتـاب في الصـحيح المجرد، قال: (ودعـوى المحـاور السـني أن الشـيعة ليس عنـدهم كتاب صحيح لا تعد قدحاً، وإنما هي مـيزة علميـة عاليـة امتـاز بهـا اتباع أهل البيت في أخذهم للعقيدة والفقه الصحيح المبرئ للذمــة أمام الله عز وجل، فلم يرضوا لأنفسهم الاعتماد على رأي شخص واحـد غـير معصـوم كـالكليني أو الصـدوق مثلاً أو حـتى عـالم من علماء الرجال بالحكم بصحة كتابه والأخذ به مطلقا، كما هو الحـال عند إخواننا أهـل السـنة في أخـذهم للحـديث من كتـابي البخـاري ومسـلم، فهـذا من التقليـد غـير المـبرئ للذمـة، ولـو نظرنـا إلى المسـألة نظـرة علميـة منصـفة، فالشـيعة لا يقـرون بتـواتر كتـاب وصحته من الغلاف إلى الغلاف سوى كتاب الله عز وجل)[1]

ومـا ذكـره هـذا البـاحث الفاضـل لا ينطبـق على المدرسـة السنية جميعا؛ بل لا ينطبق حتى على المدرسـة السـلفية نفسـها، ذلك أن الكثير من المحدثين نقد بعض أحاديث الصـحيحين، سـواء

---

[1] موسوعة الاسئلة العقائدية، مركز الأبحاث العقائدية، (بتصرف)

كانوا من المتقدمين أو المتأخرين، وقد قال الشيخ الألباني مبررا نقده لبعض أحاديث الصحيحين: (إن انتقاد أحاديث الصحيحين لم يغلق بابه، فكما أنه جاز للدارقطني أن ينتقد، وكذلك يجوز لمن تأهل بعده أن ينتقد)[1]

وقال المحدث الكبير جمال الدين القاسمي في تبرير لرد حديث السحر الوارد في الصحاح: (ولا غرابة في أن لا يقبل هذا الخبر لما برهن عليه، وإن كان مخرَّجاً في الصحاح ؛ وذلك لأنه ليس كل مخرج فيها سالماً من النقد، سنداً أو معنى، كما يعرفوه الراسخون. على أن المناقشة في خبر الآحاد معروفة من عهد الصحابة)[2]

4 ـ المحدثون بقزوين:

تعتبر قزوين[3] بسبب موقعها الاستراتيجي، ومناخها الطيب، وتضاريسها الجميلة، مركزا من مراكز الحضارة والعلم في إيران منذ بداية الإسلام إلى اليوم.

وقد ظهر فيها الكثير من المحدثين.. ومن أشهرهم الحافظ **الكبير محمد بن يزيد بن ماجة القزويني** (209 هـ ـ 273 هـ)، صاحب كتاب السنن، المعروف بـ (سنن ابن ماجة)، وهو سادس الكتب الستة التي هي أصول السنة النبوية في المدرسة السنية.

ومنهم **عمرو بن رافع البجلي القزويني** (توفي 237

1() منهم أبو الحسن الدارقطني، وأبو علي النيسابوري، وأبو الفضل بن عمار، وأبو علي الغساني، وأبو الحسين العطار، وأبو مسعود الدشقي وأبو عبد الله الذهبي، انظر : كتاب الإلزامات والتتبع لأبي الحسن الدارقطني، ميزان الاعتدال (4/39-40)، مقدمة الفتح (344)، شرح مسلم للنووي (1/27)، سلسلة الأحاديث الضعيفة (1/142)، (2/471-475) (5/218)

2() محاسن التأويل (9/ 577)

3() قزوين هي عاصمة محافظة قزوين، بإيران، وأكبر مدنها. تبعد حوالي 130كيلومتراً غرب مدينة طهران، لها مناخ بارد وجاف، بها أكثر من 2000 معلم معماري تاريخي.

هـ) وهو من الطبقة العاشرة من كبارالآخذين عن تبع الأتباع، قال عنه أبو حاتم ـ أحد أئمة الجرح والتعديل ــ: (سمعت ابراهيم بن موسى يقول: ما بقي أحد ممن كان يطلب معنا العلم غير عمرو بن رافع). وقال أيضا: (قل من كتبنا عنه أصدق لهجة وأصح حديثا منه)،

ومنهم **محمد بن سعيد أبو سعيد الرازي ثم القزويني**، (توفي 216 هـ)، وهو أيضا من الطبقة العاشرة من كبار الآخذين عن تبع الأتباع، وقد وصف بأنه (المحدث الراوي الثبت الثقة)، روى عن عمرو بن ابي قيس وابي جعفر الرازي ويعقوب بن عبد الله القمي، وروى عنه أبو زرعة ومحمد بن مسلم بن وارة ويحيى بن عبدك وكثير بن شهاب وأبو داود والنسائي، وغيرهم.

ومنهم **هارون بن موسى بن حيان القزويني** (توفي 248 هـ)، وهو من الطبقة الحادية عشرة من أوساط الآخذين عن تبع الأتباع، روى عنه الكثير من المحدثين منهم ابن ماجة وابنه موسى بن هارون القزويني وسعيد بن عمرو البردعي ومحمد ابن مسعود الأسدي وأبو زرعة، وغيرهم.

ومنهم **الخليل بن عبد الله أبو يَعلى القزويني** (توفي 405 هـ)وقد وصف بأنه (حافظ جليل، كان يحدث كثيراً من حفظه، سمع أصحاب البغوي وغيره)، ومما قيل فيه: (كان فهماً حافظاً ذكيا فريد عصره في الفَهْم والذكاءِ)

ومنهم **أبو الخير أحمد بن إسماعيل الملقب برضي الدين** (توفي 590 هـ)، وقد وصف بأنه (الشيخ الإمام، العلامة، الواعظ، ذو الفنون، الفقيه الشافعي، له تصانيف في الحديث وغيره)

وغيرهم كثير، بالإضافة إلى أعلامها في المجالات العلمية الأخرى، والذين سنعرض لهم في الفصول الخاصة بهم في هذا الكتاب.

5 ـ المحدثون بطوس:

وهي من المـدن التاريخيـة الأثريـة بـإيران، وتسـمى اليـوم (مشـهد الرضـا)، وقـد كـانت عاصـمة من عواصـم الحضـارة الإسلامية، بسبب كثرة علمائها في جميع المجالات.

أما المحـدّثون منهم، فكثـيرون، منهم **تميم بن محمد أبـو عبد الرحمن الطوسي** (توفي 255 هـ) صاحب المسند الكبير، قال عنـه الحـاكم: (تميم بن محمـد بن طمغـاج أبـو عبـد الـرحمن الطوسـي محـدث ثقـة كثـير الحـديث والرحلـة والتصـنيف جمـع (المسند الكبير) ورأيتُه عند جماعة من مشايخنا)[1]

وقال الذهبي: (طوف، وسمع من:شيبان بن فروخ، وهدبة بن خالـد، وأحمـد بن حنبـل، وإسـحاق بن راهويـه، وعلي بن حجـر، وإبراهيم بن الحجاج السامي، ومحمد بن رمح، وحرملـة، وعيسـى بن حماد، وأبي الربيع الرشديني، والحارث بن مسـكين، وسـليمان بن سلمة الخبائري، وطبقتهم بخراسـان والحجـاز ومصـر والشـام والعراق، وحدث عنه:الحسن بن سفيان رفيقه، وعلي بن حمشـاذ، وأبو عبـد اللـه بن الأخـرم، نعم سـهوت، وإنمـا حـدث الحسـن بن سفيان عن ولده أبي بكر بن الحسن، عن تميم)[2]

ومنهم **زيـاد بن أيـوب بن زيـاد الطوسـى البغـدادى** (166 هـ ـ 252 هـ)، وقد وصف بأنه (أحد الحفـاظ الثقـاة وهـو من طبقـة كبـار الأخـذين عن تبـع الأتبـاع روى لـه البخـاري وأبـو داود والترمذي والنسائي)

ومنهم **أبـــو النضـــر محمـــد بن محمـــد بن يوســـف الطوسي الشافعي،** (250 ـ 344 هـ)والذي وصف بأنه (الإمام الحافـظ الفقيـه العلامـة القـدوة شـيخ الإسـلام شـيخ المـذهب

1() انظر: تذكرة الحفاظ 2/ 536، وتهذيب التهذيب 6/ 60.

2() سير أعلام النبلاء (10/ 41)

بخراسان) [1]

ومن أهم مصنفاته في الحديث (المستخرج على صحيح مسلم]، قال الحاكم: (رحلت إليه إلى طوس مرتين، وسألته متى تتفرغ للتصنيف مع هذه الفتاوى الكثيرة، فقال: جزأت الليل أثلاثا؛ فثلث أصنف، وثلث أنام، وثلث أقرأ القرآن)

وقال: (وكان إماما عابدا بارع الأدب، ما رأيت في مشايخي أحسن صلاة منه، وكان يصوم الدهر، ويقوم ويتصدق بما فضل من قوته، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.. سمعت أحمد بن منصور الحافظ يقول: أبو النضر يفتي الناس من سبعين سنة أو نحوها، ما أخذ عليه في فتوى قط)

ثم قال الحاكم: (دخلت طوس وأبو أحمد الحافظ على قضائها، فقال لي: ما رأيت قط في بلد من بلاد الإسلام مثل أبي النضر)

ومنهم **عبد الله بن هاشم الطوسى الراذكانى**(توفي 159 هـ) وهو من الطبقة العاشرة من كبارالآخذين عن تبع الأتباع، وقد روى عنه ابن عيينة ويحيى القطان وابن مهدي ووكيع وغيرهم من مشاهير علم الحديث، كما روى عنه مسلم وابن خزيمة في صحيحه وصالح بن محمد الأسدي وأحمد بن سلمة وابن صاعد وحاجب بن اركين الفرغاني وغيرهم.

ومنهم **على بن مسلم بن سعيد الطوسى** (160 ـ 253 هـ) الملقب بالعابد لكثرة عبادته، روى عن يوسف بن يعقوب بن الماجشون وهشيم وابن المبارك وعباد بن العوام وعباد بن عباد وابن نمير ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة وعبد الصمد بن عبد الوارث وأبي داود الطيالسي وغيرهم، كما روى عنه البخاري وأبو داود والنسائي ويحيى بن معين وغيرهم.

بالإضافة إلى هؤلاء ازدهت طوس بالكثير من أعلام الحديث

1() انظر في ترجمته: ترجمته في الأنساب للسمعاني 8/ـ 264، والمنتظم لابن الجوزي 6/ 379، وتذكرة الحفاظ 3/ ترجمة رقم 861، والعبر 2/ 264، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي 3/ 313، وشذرات الذهب لابن العماد 2/ 368 .

من المدرسة الشيعية، ومن أشهرهم **أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي** (385 -460هـ)، الملقب بشيخ الطائفة، وهو مؤلف كتابين من الكتب الأربعة المعتمدة لدى الشيعة، كما أنه يعتبر من كبار المتكلمين والمحدثين والمفسرين والفقهاء الشيعة.

قدم الطوسي العراق سنة 408 هـ في سن الثالثة والعشرين وتتلمذ على يد الشيخ المفيد (المتوفي 413 هـ) مدّة خمس سنوات وعلى يد ابن الغضائري (المتوفي 411 هـ) ثلاث سنوات وعند ابن الحاشر البزاز، وابن أبي جيد، وابن الصلت والذي توفي بعد سنة 408 هـ. وشارك النجاشي (372 ـ 450 هـ) في بعض مشايخه. أدرك السيد المرتضي (المتوفي 436 هـ)، وقد أسند إليه الخليفة العباسي القائم بأمرالله كرسي علم كلام بغداد، وبذلك اجتمع حوله العلماء وتوجه إليه الطلاب وكان من بين تلامذته 300 من العلماء وظلّ محتفظا بمنصبه إلى أن سقطت بغداد بيد الأتراك السلاجقة.

وقد اتفق الجميع على الثناء عليه، منهم الشيخ آقا بزرك الطهراني، الذي قال عنه: (كتب الشيخ الطوسيّ في كافة العلوم، من: الفقه وأصوله، والكلام والتفسير والحديث والرجال، والأدعية والعبادات.. وغيرها. وكانت ـ ولم تزل ـ مؤلّفاته في كلّ علمٍ من العلوم مآخذَ علوم الدين، بأنوارها يستضيئون، ومنها يقتبسون، وعليها يعتمدون.. ولم يدع الشيخُ الطوسيّ باباً إلا طرقه، ولا طريقاً إلاّ سلكها، وقد ترك لنا نتاجاً طيّباً متنوّعاً غذّى به عقولَ فطاحل عدّة قرونٍ وأجيال)

وقال العلامة الحلي: (شيخ الإمامية ووجههم، ورئيس الطائفة، جليل القدر، عظيم المنزلة، ثقة عين صدوق، عارف بالأخبار والرجال، والفقه والأصول، والكلام والأدب، وجميع الفضائل تنسب إليه، صف في كل فنون الإسلام)[1]

وقال السيد بحر العلوم في الفوائد الرجالية: (أبو جعفر شيخ

---

[1] العلامة الحلي، خلاصة الأقوال، ص 249..

الطائفة ورافع أعلام الشـــريعة الحقـــة، إمـــام الفرقة بعد الأئمة المعصومين، وعماد الشيعة الإمامية في كـل مـا يتعلـق بالمـذهب والدين، ومحقق الأصول والفروع)

وهو من المكثرين من التأليف، وتعتبر كتبه من أهم المصـادر في المدرسة الشيعية، وقد قال بعضهم عنها: (كان الشيخ مخلصـاً في تآليفـه، لم يطلب شـهرةً أو رئاسـة، ولم يكن منـه مـراء أو مباهاة، فكُتب له التوفيق حتّى جاءت كتبه متميّـزةً عن السـابقين، إذ أصبحت مصدراً لمعظم مؤلّفي القرون الوسطى، تُستقى منهـا مادّتُهم؛ لأنّها حوت خلاصة الكتب الأصول بأسلوب جديـد وبـراهين وافـرة. إضـافة إلى عـدد كبـير من كتبـه ورسـائله ومسـائله في القرآن والكلام والعبادات والفقه والدعاء والرواية)

وأحب أن أنبـه هنـا إلى أن الكثـير من المدرسـة السـنية يعتبرونـه من الـذين تحولـوا من المـذهب الشـافعي إلى الشـيعة، مثلما نص على ذلك تقي الـدين السـبكي في (طبقـات الشـافعية الكبرى)، فقال: (محمد بن الحسن بن علي أبـو جعفـر الطوسـي، فقيـه الشـيعة ومصـنفهم كـان ينتمي إلى مـذهب الشـافعي، لـه تفسير القرآن وأملى أحاديث وحكايات تشتمل على مجلدين، قدِم بغداد وتفقه على مذهب الشافعي، وقرأ الأصول والكلام على أبي المفيد، فقيه الامامية، وحدّث عن هلال الحفار، روى عنه ابنـه أبـو علي الحسن، وقد أحرقت كتبه عدة مرات بمحضر من الناس)[1]

وقـد رأيت بعض الشـيعة يـرد على ذلـك، وينفي كونـه كـان شافعيا، وإنما (تفقه على مذهب الشافعي، وبقية المذاهب الأخرى كالحنفيـة، والمالكيـة، والحنابلـة، والظاهريـة وغيرهـا، وتضـلّع بهـا وكتب عنها الكثير، لكن ذلك لا يعـني انـه قـد انتمى إلى أحـد تلـك المذاهب، علماً بأن التاريخ لم يذكر بأن الطوسي كـان شـافعياً، أو انه قد انتحل إحدى المذاهب الأخرى)

والمسـألة بسـيطة جـدا، وهي لا تحتـاج أي انفعـال من أي طرف من الأطـراف، بـل إنهـا تثبت ذلـك التواصـل والحريـة الـتي

---

[1] طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (4/ 126)

كـانت بين المـدارس الإسـلامية، بحيث يتـاح للعلمـاء التنقـل بينهـا كيف شاءوا.

وهي تدل كذلك على أن مـا يسـمى بـــ (التمـدد الشـيعي)، لا علاقة له بالنظام الحالي للجمهورية الإسلامية الإيرانية، ولا بالدولة الصفوية، وإنما هي اختيارات شخصية مبنية على قناعـات علميـة، ولا علاقة لها بالسياسة، ولا بأي دولة من الدول.

6 ـ المحدثون بشيراز:

تعتبر مدينة شيراز[1] الإيرانيـة من أهم مراكـز الحضـارة في العالم الإسـلامي، ولقـرون طويلـة، وفي جوانبهـا المختلفـة، وهي التمثل التنوع الحضاري الجميل الدال على سماحة الإسلام.

وقد ازدهر فيهـا علم الحـديث روايـة ودرايـة كمـا ازدهـر في سـائر المـدن الإيرانيـة، ومن كبـار المحـدثين الـذين أنجبتهم **أبـو العباس أحمد بن منصور بن ثابت الشـيرازي** (تـوفي 382 هــ)، وكـان ذا رحلـة واسـعة في طلب الحـديث، قـال الحـاكم النيسابوري: (كان أحد الرحالـة في طلب الحـديث، المكـثرين من السماع والجمع، ورد نيسابور سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وأقام بها سنين ثم خرج الى هراة وانحدر منها الى مرو الـروذ، ودخـل مـرو وجمع من الحديث ما لم يجمعه غيره، ودخـل العـراق والشـام، ثم انصرف الى شـيراز، وصـار في القبـول عنـدهم بحيث يضـرب بـه المثل)، وروي أنه كتب عن الطبراني ثلاثمائة ألف حديث[2].

ومنهم **الحســـن بن عثمـــان أبـــو حســـان الزيـــادي الشيرازي**، (توفي 272هـ)، وهو من كبار المحدثين، وقـد وصـف بأنه (كان فاضلاَ بارعاَ ثقة، سمع منه محمـد بن إدريس الشـافعي،

1() تقع مدينة شيراز عاصمة محافظة فارس من حيث الموقع الجغرافي، في الجنـوب الغربي من إيران، وهي بمساحة 340 كم، ثالث مـدن إيـران من حيث المسـاحة حيث تـأتي مرتبتها بعـد طهـران ومشـهد، وتنتهي من ناحيـة الشـمال بأصـفهان، ومن الجـانب الشـرقي محاطة بيزد وكرمان، ومن الجنـوب تجـاور محافظـة هرمزكـان، كمـا هي منتهيـة من الجهـة الغربية ببوشهر.

2() تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي:ج8 ص532.

وإسماعيل بن علية، ووكيع بن الجراح)

ومنهم **أحمد بن عبد الرحمن الحافظ الشيرازي** (توفي 405 هـ)، وهو من كبار حفاظ الحديث، قال عنه الذهبي: (الإمام الحافظ الفقيه أبو علي الحسن بن أحمد بن محمد بن الليث الكشي ثم الشيرازي، من كبار الأئمة ببلاد فارس: ارتحل وسمع من إسماعيل الصفار وأبي جعفر بن البختري وعبد الله بن درستويه وجماعة ببغداد، ومن أبي العباس الأصم وأبي عبد الله محمد بن يعقوب بن الأخرم بنيسابور، ومن الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي الحافظ بفارس.. ذكره أبو عبد الله الحاكم فأثنى عليه وقال: هو متقدم في معرفة القراءات حافظ للحديث رحال، قدم علينا أيام الأصم ثم قدم علينا سنة 353 هـ وسمعت منه. وذكره أبو عمرو بن الصلاح في طبقات الشافعية مختصرًا وقال: هو والد الليث وأبي بكر. وذكره أبو عبد الله الصفار في طبقات أهل شيراز وأثنى عليه كثيرًا ثم قال: ومن أصحابه زيد بن محمد بن خلف الحافظ ومحمد بن موسى الحافظ وأحمد بن عبد الرحمن المقرئ الحافظ)[1]

ثالثا ـ عمل الإيرانيين بسنة رسول الله ﷺ:

اتفق الإيرانيون سنتهم وشيعتهم، ومنذ فجر الإسلام إلى اليوم على أن السنة النبوية المطهرة مصدر من مصادر التشريع، بل مصدر من المصادر الأساسية التي يستلهم المؤمن منها قيمه وعقائده وشعائره وشرائعه وحياته ومواقفه، وأنه لا يمكن أن يستغني عنها أبدا.

ويتجلى ذلك واقعيا من خلال الكثير من الممارسات التي لا نجد لها دليلا إلا في السنة التي سطرها علماء الحديث الذين سبق ذكر بعضهم في المبحث السابق، والذين يكادون يتفقون في أكثر أصول السنن، وإن كانوا يختلفون في بعض فروعها البسيطة، بناء على المواقف من الرواة، أو من شروط صحة الحديث.

فالمدرسة السنية مثلا تعتبر من أسباب ضعف الحديث عدم

[1] تذكرة الحفاظ للذهبي (3/ 161)

اتصال السند، أو وجود علة قادحة في راو من رواته.. وتتفق معها المدرسة الشيعية في الكثير من ذلك، وتضيف إليها عدم معارضة الحديث للقرآن الكريم، أو لما ثبت في السنة النبوية الأكثر قطعية، أو مخالفته للعقل، أو يكون إِخباراً عن أمر هام تتوافر الدواعي لنقله، ومع ذلك لم ينقله إلا واحد، أو يكون الراوي مناصراً للحاكم الجائر، مع العلم أن بعض هذه الفروع فيه خلاف بين المدرسة السنية نفسها.

وقد اتفق أكثرهم كذلك على أنه يجوز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال[1]، والتي لا تتعارض مع أصول الشريعة، وقواعدها العامة، وقدموا ذلك على الرأي.

ومن هذا الباب نجد الكثير من السنن عند الفريقين لم تثبت بأسانيد قوية، ومع ذلك يعملون بها بناء على انسجامها مع الشريعة، وكونها مزيد تأكيد وبيان لمعانيها، بالإضافة إلى أن ضعف الحديث لا يعني طرحه كليا.

ولهذا نجد الوعاظ من المدرستين يعتمدون الكثير من الأحاديث الضعيفة، ويقبلون العمل بها، ومن أشهر أمثلتهم في المدرسة السنية من الإيرانيين أبو حامد الغزالي.. ومن أشهر أمثلتهم في المدرسة الشيعية الفيض الكاشاني، وعباس القمي وغيرهما من الذين اهتموا بجمع الأدعية وفضائل الأعمال ونحوها.

وبناء على هذا يمكن أن نجد قواسم مشتركة كثيرة بين كلا مدرستي الأمة في العمل بالسنة المطهرة، وكون المؤمن المحب لرسول الله ﷺ، يفعل ذلك بداهة، لأنه لا يمكن أن يحب رسول

1() ومنهم من المدرسة الشيعية الشهيد العاملي الأول والعاملي الثاني والشيخ البهائي والأنصاري، وقبلهم ابن فهد الحلّي، ومنهم من لم يجوز العمل بالخبر الضعيف مطلقًا، ومنهم صاحب المدارك السيد محمد العاملي، حيث قال: (وما قيل من أنّ أدلّة السنن يتسامح فيها بما لا يتسامح في غيرها فمنظور فيه، لأنّ الإستحباب حكم شرعي فيتوقف على الدليل الشرعي كسائر الأحكام)

وهكذا وقع الخلاف بين أهل السنّة في المسألة، فمنهم من جوز العمل بالخبر الضعيف في خصوص فضائل الأعمال، والترغيب والترهيب، ومنهم سفيان الثوري، و الخطيب البغدادي، و ابن صلاح.. ومنهم من رفض العمل بالخبر الضعيف مطلقًا، مثل ابن حزم الأندلسي الظاهري.

الله ﷺ، ثم يرغب عن اتباعه.

وأحب أن أرد هنا على تلك المقولات التي يذكرها المغرضون، والتي يتصورون أن السنة حكر على من يسمون أنفسهم أهل السنة، فهذا موقف غير صحيح، وغير أخلاقي، لأنه يستعمل العصبية التي نهينا عنها في الحكم على الأشياء.

والواقع يدل على أن للشيعة اهتماما كبيرا بالسنن، لا يقل عن اهتمام إخوانهم من المدرسة السنية، بل إن تشيعهم ــ كما يرون ــ لا يكمل من دون الالتزام بالسنن، فهم يرون أئمتهم ممثلين للسنة، ناطقين بها، داعين إليها، ولذلك فإن كل ما يصدر منهم سنة نبوية صرحوا بذلك أو لم يصرحوا.

وهم يفسرون بذلك قوله ﷺ: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)[1]

وليس في ذلك أي غلو، ففي المدرسة السنية كذلك نجد من يعتبر مالكا ممثلا للسنة بأقواله وأفعاله، ونجد من الصوفية من يعتبرون مشايخهم ممثلين للسنة، بل لرسول الله ﷺ نفسه.. بل نجد من السلفية أنفسهم من يعتبر ابن تيمية أو الإمام أحمد ممثلا للسنة، ومعبرا عنها، وكل ما يصدر عنه سنة، حيث نجد في مصادرهم المعتبرة أن الإمام أحمد به يعرف المسلم من الزنديق، وأن نظرة من أحمد خير من عبادة سنة، وأن الله عز وجل يزوره في قبره كل عام، وأن الله يباهي به الملائكة، وأن أحد الحنابلة رأى الله في المنام فقال له الله: من خالف أحمد بن حنبل عذب، وأن الله أمر أهل السموات وجميع الشهداء أن يحضروا جنازة أحمد، وأن أهل السموات من السماء السابعة إلى السماء الدنيا اشتغلوا بعقد الألوية لاستقبال أحمد بن حنبل[2].

ولهذا نجدهم عند ذكرهم للأقوال في أي مسألة يذكرون

---

(1) رواه أبو داود [2/ 611] حديث [4607]، والترمذي [5/ 44] حديث [2676]

(2) قراءة في كتب العقائد المذهب الحنبلي نموذجاً (184)

رسول الله ﷺ مع السلف، وكأنه واحد من القائلين، ومن الأمثلة على ذلك قول البربهاري: (التكبير على الجنائز أربع، وهو قول مالك بن أنس وسفيان الثوري والحسن بن صالح وأحمد بن حنبل والفقهاء وهكذا قال رسول الله ﷺ!)[1]

وإن كان هؤلاء معذورون في مواقفهم بسبب اعتقادهم لرسوخ أئمتهم في المعرفة بالحديث وكيفية استنباط الأحكام منه، فالشيعة أيضا معذورون، فهم أيضا يعتبرون أئمتهم تلاميذ لإمامهم علي الذي كان مصاحبا دائما لرسول الله ﷺ،، ابتداء من صغره الباكر إلى وفاته، وأنه أخذ عنه كل شيء يرتبط بأصول الدين وفروعه، ثم نقله لأولاده وأحفاده.

ولهذا نجد الشيعة كثيرا ما يقرنون بين رسول الله ﷺ والإمام علي، لا باعتبار أن الإمام علي صنو لرسول الله ﷺ، فهم لا يقولون بذلك، وإنما مرادهم منه أنه التلميذ الأكبر لرسول الله ﷺ، وأنه لذلك يمثل السنة أحسن تمثيل، وذلك لا يختلف كثيرا عن موقف السلفية من ابن تيمية أو الإمام أحمد حين يعتبرونهما ممثلا للسنة والشريعة.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الشهيد مطهري في كتابه عن الإنسان الكامل، فقد راح ينقل عن الإمام علي الكثير من السنن المغيبة، والتي تمثل جوهر الدين أكثر من تلك السنن الفرعية البسيطة التي ترتبط ببعض هيئات الأعمال.

ومن ذلك تلك السنة التي سماها [الألم العرفانيّ]، واستنبطها مما ورد في حوار الإمام عليّ مع كميل بن زياد، وقوله له: (اللّهمّ بلى! لا تخلو الأرض من قائمٍ للـه بحجَّة، إمّا ظاهراً مشهوراً، وإمّا خائفاً مغموراً... أولئكَ واللـه الأقلّون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً، يحفظ اللـه بهم حججه وبيّناته، حتّى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم. هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا

1() شرح السنة، ص86.

بأبدانٍ أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضـه، والدعاة إلى دينه. آهٍ آهٍ شوقاً إلى رؤيتهم!)[1]

ثم علق على ذلك بقوله: (فهؤلاء كما يصفهم الأمـير يتـألّمون بسبب البعد عن الله والشوق إليه، فما لم يصل الإنسان إلى اللــه فلن تفارقــه حالــة الاضـطراب، ولــذا فــإن الــذكّر يكــون لــه دواءً {الَّذِينَ آمَنُــوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُــوبُهُمْ بِــذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِــذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28])

ولذلك فإن السنة الحقيقية في الصلاة ـ كما يصف مطهـري ـ هي أن يحصل لنا مثلما كان يحصل للإمـام علي الـذي كـان يمثـل السنة أحسن تمثيل، فقد كان ـ كما يعبر مطهري ـ (يغيب عن كـلّ ما حوله إذا دخل في الصلاة، مندمجاً بكلِّه في معشوقه حتّى أنّهم إذا أرادوا اقتلاع السهم من جسمه، كانوا يستخرجونه حال الصلاة. إنّ هكذا ألماً هو خير من ملك الدنيا)

والالتفات لتحقيق هذه السنة في الواقع وتطبيقها هو مـا يقي المسلمين من ذلك الصراع الذي تحدثـه تلـك الخلافـات الهامشـية حـول فـروع بسـيطة كـالقبض والسـدل أو السـجود على التربـة وغيرها.. والتي نجد لكل مذهب فيهـا أدلتـه، وكـان يمكن تجاوزهـا والاهتمام بالسنة الحقيقية التي هي الاسـتغراق في المقصـود من الصلاة الذي هو التواصل مع الله.

وهـو نفس مـا يشـير إليـه الخميـني كثـيرا، باعتبـاره الهـدف الحقيقي من الصلاة، وقد قال عن الصلاة وآدابها وأسرارها وسننها الخفيــة: (... فــإذا تحقّــق للســائل مقــام الاســميّة، رأى نفســه مستغرقاً في مقام الألوهيّة، ورأى نفسه اسم اللـه، وعلامـة اللـه، وفانيـاً في اللـه، ورأى سـائر الموجـودات على هـذه الحالـة.. وإذا أصـبح الـوليّ كـاملاً أصـبح متحقّقـاً بالاسـم المطلـق ووصـل إلى التحقّق بالعبوديّة المطلقة، فصار عبداً حقيقيّاً لله)[2]

1() نهج البلاغة، خطبة 214..

2() آداب الصلاة، الإمام الخمينيّ، ص 110..

وعندما نقارن بين السنن التي اهتم بهـا الإمـام الخميـني في كتابه عن الصلاة وأسرارها مع تلك السنن الـتي اهتم بهـا الألبـاني والاتجاه السلفي نجد البون بينهما كبير جدا.

فالسـنن الـتي ذكرهـا الخميـني تنبـع من مقاصـد الـدين من الصلاة، وتحويلها إلى معراج للمؤمن يعرج بها إلى الله، لأن نفسـه لا يمكن أن تهذب من دون تلك السنن المغيبة، بخلاف السنن التي ذكرها الألباني، وتصور أن من خالفها مبتدع، لأنهـا لم تفعـل سـوى أن زادت الفرقة بين الأمة.

وقد ذكر الألباني بصراحة دوافعه من تأليف كتابه [صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسـليم كأنـك تراهـا]، والـذي أثـار فتنـة كبيرة بين المسلمين، فقال: (ولما كنت لم أقف على كتـاب جـامع في هذا الموضـوع فقـد رأيت من الـواجب علي أن أضـع لأخـواني المسلمين ممن همهم الاقتداء في عبـادتهم بهـدي نـبيهم ﷺ كتابـا مسـتوعبا مـا أمكن لجميـع مـا يتعلـق بصـفة صـلاة النـبي ﷺ من التكبير إلى التسليم بحيث يسهل على من وقف عليه من المحبين للنبي ﷺ حبا صادقا القيام بتحقيق أمره في الحـديث: (صـلوا كمـا رأيتمـوني أصـلي)، ولهـذا فـإني شـمرت عن سـاعد الجـد وتتبعت الأحاديث المتعلقة بما إليه قصدت من مختلف كتب الحديث فكان من ذلك هذا الكتاب الذي بين يديك)[1]

وبعد عشر سنوات من الفتنة بسبب ذلك الكتـاب، لم يـتراجع عما فيه، ولم يتواضع، ليعتبر ما رآه من سنن مجرد اجتهـاد، وإنمـا راح يقول في طبعة جديدة من الكتاب: (ذلـك مـا كنت كتبتـه منـذ عشر سنوات في مقدمة هذا الكتاب وقد ظهر لنا في هذه البرهـة أن لـه تـأثير طيب في صـفوف الشـباب المـؤمن لإرشـادهم إلى وجوب العودة في دينهم وعبادتهم إلى المنبع الصافي من الإسلام: الكتاب والسنة فقـد ازداد فيهم - والحمـد للـه - العـاملون بالسـنة والمتعبدون بها حتى صاروا معروفين بذلك) [2]

1() صفة صلاة النبي ﷺ الألباني (ص: 40).

2() صفة صلاة النبي ﷺ الألباني (ص: 40).

وهذه الطائفية بعينها.. فالصلاة رمز لوحدة المسلمين، لكنهـا تحولت عندهم إلى أداة للتفرقة والطائفية لا بينهم وبين المدرسـة الشيعية فقط، بل بينهم وبين سـائر المـذاهب المنتميـة للمدرسـة السنية.

وبنــاء على هــذا نــرى تركـيز المشــروع الحضــاري الجديــد للجمهوريــة الإســلامية الإيرانيــة على إحيــاء تلــك الســنن الخفيــة المرتبطــة بالخشــوع والتقــوى وتحقيــق مقاصــد العبــادات، دون المبالغة في الهيئات التي وقع فيها الخلاف.

ومن السنن التي اهتم بها المشروع الحضاري الجديد ـ أيضا ـ تلك السنن المغيبة المرتبطة بالحيـاة بجميـع جوانبهـا، ولهـذا نـرى الإمام الخمينيّ في جميع أقواله ورسائله وخطاباته وكتبه، يتعـرّض لسـيرة النـبيّ الأعظم ﷺ، ويشـير إلى مسـيرته الدعويـة، وكيفيـة تطبيقها في الحياة، لإعادة إحياء الإسلام من جديد.

ومن الأمثلة على ذلك قوله: (إنّ أوّل آية - حسـبما ينقـل لنـا التاريخ والروايات - نزلت على النبيّ ﷺ هي آية {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} [العلق: 1]، حيث تلاها جبرائيل عليه السلام على الرسول الأكـرم ﷺ، ودعا فيها إلى القراءة والتعلّم.. وجاء في نفس هذه الســورة: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْـتَغْنَى } [العلـق: 6ـ 7]، هذه السورة هي أوّل ما نزل من الوحي على النــبيّ ﷺ، وفي أوّل مـا نــزل منهـا الآيتــان اللتــان نتعلّم منهمـا أنّ وجــود الطغيــان والطاغوت من الأشياء الّتي تحتلّ قائمة الأمور، فمن أجـل سـحق الطـاغوت يجب تعليم الكتـاب والحكمـة وتعلّم الكتـاب والحكمـة والتزكية. فالإنسان ما دام إنسـاناً مجـرّد أن يسـتغني فإنّـه يطغى، فلو استغنى ماليّاً يطغى بهذا المقـدار، ولـو اسـتغنى علميّاً يطغى بهذا المقدار، ولو حصل على مقام يطغى بهذا المقدار) (1)

ثم يبين خطور الطغيـان، وكونـه البدعـة الأعظم الـتي تحطم كل السنن النبوية، والـذي قـد يقـع فيـه نفس المـدعين أنهم على السنة؛ فيقول: (ففرعون يُسمّيه اللـه تبـارك وتعـالى طاغيـة لأنّـه

1() صحيفة الإمام، ج 14، ص 391 ـ 389.

حصل على المقام، ولم يكن في حصوله غاية إلهيّة، فأوصله هذا المقام إلى الطغيان. فالأشخاص الّذين يحصلون على متاع الدنيا بدون تزكية النفس، فمهما حصلوا فإنّ طغيانهم سوف يزداد. وإنّ وبال هذا المال وهذا المنال وهذا المقام وهذا الجاه وهذا المنصب، من الأشياء الّتي تُعرّض الإنسان للمتاعب والصعوبات في الحياة الدنيا، وهي في الآخرة أكثر. إنّ هدف البعثة هو أن تخلّصنا من هذا الطغيان بأن نزكّي أنفسنا ونصفّيها ونخلّصها من هذه الظلمات. فلو حصل هذا التوفيق للجميع، ستضحى الدنيا نوراً واحداً كنور القرآن، وتجلّياً لنور الحقّ. كلّ الخلافات الموجودة بين البشر، كلّ الخلافات الموجودة بين السلاطين، كلّ الخلافات الموجودة بين الأقوياء هي بسبب الطغيان الموجود في النفوس، ومردّ هذا إلى أنّ الإنسان يرى لنفسه مقاماً ومنصباً، لذلك يطغى، وحيث إنّه يطغى، يكون الطغيان سببَ تجاوزه. وعندما يحصل التجاوز يحصل الخلاف، ولا فرق في ذلك بين مرتبة طغيان دنيا أو مرتبة طغيان عليا؛ ففي المرتبة الصغيرة كأن يحصل الخلاف في قرية مّا بين أفرادها بسبب الطغيان، وفي مرتبة أعلى إذا حصل الخلاف سيكون الطغيان أكثر)

ثم يحدث تلاميذه ومريديه من الأمة جميعا داعيا لهم إلى التواضع قائلا: (إنّ هذه النزعة التجاوزية موجودة عند الجميع لا في فرعون وحده، فلو اعتلى إنسان ما وارتفع فوق رؤوس البشر فسوف يقول: أنا ربّكم الأعلى. غاية البعثة هي السيطرة على نفوس العاصين ونفوس الطغاة والمتمرّدين والواغلين في العصيان والطغيان والتمرّد، ودفع هذه النفوس إلى التزكية)

ثم يبين أن هذه هي السنة الحقيقية، بل هي هدف الرسالة النبوية بأكملها، فيقول: (إنّ سبب كلّ الخلافات الموجودة بين بني الإنسان عدم تزكية النفوس، وهدف البعثة هو دعوتهم إلى التزكية، فبواسطتها يتعلّمون الحكمة ويتعلّمون القرآن والكتاب أيضاً. وإذا زكت النفوس سينتفي الطغيان)[1]

---

[1] صحيفة الإمام، ج 14، ص 391 ـ 389.

وهكذا نرى الإمام الخميني في كل خطاباته يدعو إلى فهم السنة فهما صحيحا، بعيدا عن تلك الجزئيات التي ركز عليها الطائفيون ليفرقوا صف الأمة، ويخالفوا بذلك السنن الداعية إلى وحدتها وتآلف قلوبها.

وهو يدعو كل حين إلى التعالي على كل الخلافات الفرعية، ومن الأمثلة على ذلك قوله في بعض خطبه: (يريد نبيّ الإسلام أن يوحّد الكلمة في جميع أصقاع العالَم. يريد أن تنضوي جميع مسالك الدنيا تحت كلمة التوحيد. يريد أن تعمّ كلمة التوحيد جميع أرجاء العالَم المأهول)[1]

ومن السنن المغيبة التي يحرص الخميني على الدعوة إليها مواجهة الظلم والنضال من أجل ذلك، لا كما يفعل أولئك الذين يدعون السنة في نفس الوقت الذي يؤيدون فيه أئمة الظلم والجور، ومن خطبه في ذلك قوله: (إنّ بعثة الرسول ﷺ كانت من أجل رفع الظلم عن الناس، من أجل أن يستطيع الناس أن يواجهوا القوى الكبرى، كانت البعثة من أجل نجاة أخلاق الناس ونفوسهم وأرواحهم وأجسادهم من الظلمات، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، يخرجهم إلى نور العلم، يخرجهم من ظلمة الجهل إلى نور العدالة ويدلهم على الطريق، ليقول لهم إنّ جميع المسلمين إخوة يجب عليهم أن يتّحدوا جميعاً ولا يتفرّقوا)[2]

ومن السنن التابعة لهذه السنة، والمنجرة عنها هي تحمل الألم والعناء في سبيل تحقيق العدالة كما فعل رسول الله ﷺ، يقول الخميني: (لاحظوا أنتم جيّداً كيف أنّ النبيّ الأكرم ﷺ قد تحمّل أكثر من الجميع من أجل تربية الناس، من أجل أن ينقذ هؤلاء المظلومين من أيدي الظالمين)[3]

1() صحيفة الإمام، ج 2، ص 32.

2() صحيفة الإمام، ح 13، ص 435 ـ 434.

3() صحيفة الإمام، ج13، ص 233.

ومن السنن التي يحرص الخميني على التنبيه لها، خاصة لأولئك الذين يتبوؤون المناصب، ويتحملون المسؤوليات التواضع، فيقول: (ورد في الحديث أنّ جبرائيل عليه السلام قد هبط من قبل الله تعالى بمفاتيح خزائن الأرض لخاتم النبيّين ﷺ، فتواضع ﷺ ورفض قبولها، وافتخر بفقره [1] .. النبيّ الكريم ﷺ الّذي كان علمه من الوحي الإلهيّ، وكانت روحه من العظمة بحيث إنّها بمفردها غلبت نفسيّات كلّ البشر، إنّ هذا النبيّ قد وضع جميع العادات الجاهليّة والأديان الباطلة تحت قدميه، ونسخ جميع الكتب، واختتم حلقة النبوّة بشخصه الكريم. وكان هو سلطان الدنيا والآخرة والمتصرّف في جميع العوالم بإذن الله، ومع ذلك كان تواضعه مع عباد الله أكثر من أيّ شخص آخر. كان يكره أن يقوم له أصحابه احتراماً، وإذا دخل مجلساً لم يتصدّره، ويتناول الطعام جالساً على الأرض، قائلاً: إنّني عبدٌ، آكل مثل العبيد وأجلس مجلس العبيد)[2]

ثم نقل عن الإمام الصادق قوله: (إنّ رسول الله ﷺ كان يحبّ أن يركب الحمار من دون سرج، ويتناول الطعام مع العبيد على الأرض، وكان يعطي الفقراء بكلتا يديه)، ثم علق عليه بقوله: (كان ذلك الإنسان العظيم يركب الحمار مع غلامه أو غيره، ويجلس على الأرض مع العبيد. وفي سيرته أنّه كان يشترك في أعمال المنزل، ويحتلب الأغنام ويرقّع ثيابه ويخصف نعله بيده، ويطحن مع خادمه ويعجن، ويحمل متاعه بنفسه، ويجالس الفقراء والمساكين ويأكل معهم4 هذه وأمثالها، نماذج من سيرة ذلك الإنسان العظيم وتواضعه، مع أنّه فضلاً عن مقامه المعنويّ كان في أكمل حالات الرئاسة الظاهريّة) [3]

وهكذا نراه في خطاباته للمسؤولين بمختلف مراتبهم

1() الأربعون حديثاً، الإمام الخمينيّ، ص242.

2() الأربعون حديثاً، الإمام الخمينيّ قدس سره، ص 95 ـ 96..

3() الأربعون حديثاً، الإمام الخمينيّ قدس سره، ص 95 ـ 96..

يذكرهم بأمثال هذه السنن، فيقول: (لقد كانت سيرة الأنبياء عليهم السلام وتعاليمهم هي الوقوف بحزم في وجه الطواغيت، والتواضع للضعفاء والفقراء والمستضعفين. فقد ورد أنّ العرب كانوا إذا وفدوا على مسجد الرسول يسألون الناس: (أيكم محمّد؟) في الوقت الّذي كان رسول الله ﷺ على رأس الحكومة الّتي تمّ تشكيلها في المدينة، هكذا كانت الأمور في المدينة. في المقابل ما كان ليخضع لأيّ قدرة بلغت ما بلغت لأنّه كان يرى الله تعالى ويستمدّ منه القدرة والقوّة، لأنّه صاحب القدرة والغنى الحقيقيّين بالأصالة لذا ما كان النبيّ ليخضع لأيّ مقتدرٍ بالتبع)[1]

ومن السنن العظيمة التي يحرص الخمينيّ على التنبيه لها، وخاصة في لقائه مع المسؤولين سنن العفاف والزهد، فيقول: (يعتقد بعض الناس أنّ الرفاه المادّيّ وحيازة الأموال والأراضي والحدائق، وحسابات البنوك قد تجلب السعادة للإنسان. لكنّ هذا خطأ يرتكبه الإنسان، فيتوهّم أنّ السعادة هي بامتلاك الحدائق والأراضي وجمع الثروة والإتجار. عندما ندرس حالة الفقراء والمساكين الّذين يسكنون بيوت متواضعة نجدهم قد نالوا حظّاً من السعادة يفوق الّذين يسكنون القصور، بل قد لا نجدها في القصور. لقد كان هناك بيت متواضع في صدر الإسلام يتكوّن من أربعة أفراد، إنّه بيت فاطمة الزهراء عليها السلام، بيت أبسط من هذه البيوت، لكنّ هذا البيت كان يحمل سرّاً ملأت بركاته كلّ أرجاء العالم بالنور. إنّ الإنسان يحتاج إلى جهد كبير ليقطع هذا الطريق الطويل ويصل إلى بركات ساكني هذا الكوخ المتواضع، المتواضع ماديّاً، لكن روحيّة هذا البيت بلغت أقصى المدى فلا تصل إليها حتّى الملائكة. لقد كانت نوراً شعّ على جميع بلاد المسلمين ومثالاً تربويّاً ملأت بركاته جميع الأرجاء وخاصّة بلادنا)

ويضيف قائلا ـ بتأثر شديد لا يستطيع كتمانه ـ: (الرسول ﷺ الّذي كان يرأس كلّ شيء كان يعيش في بيت لا يمكن أن نساويه بغرفة واحدة متوسّطة الحال مشابهة في مجتمعنا. كان في هذا البيت حجرات متعدّدة الوظائف ومتواضعة. هذا الإنسان المتعالي

1() صحيفة الإمام، ج 16، ص 451..

في مقامه كان نوره يشعّ من هذه الحجرة المتواضعة ليصل إلى عالَم الملك والملكوت، ولتتّسع آثار هذه الحجرة التربوية إلى جميع أرجاء العالَم. صحيح أنّه لحدّ الآن ما أراده الرسول ﷺ من التربية لم يتحقّق بعد ولم تصل إليه البشريّة، لأنّ النموذج الّذي رسمه سيتحقّق بشكل كبير على يد الخلف الصالح المهديّ الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف عندما يأتي، ويحقّق بيديه المباركتين ذلك)[1]

ويقول في محل آخر: (كان الوضع المعيشيّ للرسول الأكرم ﷺ في غاية البساطة، فلم يستفد أبداً من مقامه ومنصبه لنفع مادّي شخصيّ، فلم يترك إرثاً ماديّاً خلفه، لم يترك إلّا العلم الّذي هو أشرف الأمور، خاصّة العلم الإلهيّ الّذي هو من عند الله تعالى)[2]

ومن السنن التي حرص الإمام الخميني على الدعوة إلى تفعيلها في الحياة سنة المساواة، ولذلك كان يحذر كل حين من بدع الاستكبار والتفاخر والتمييز العنصريّ، ومن خطاباته في ذلك قوله: (اذهبوا وطالعوا سيرة النبيّ الأكرم ﷺ الّذي كان المؤسّس الأوّل للكيان الإسلاميّ والجهاديّ الأوّل. هل كان طالب سلطة وحكم؟ انظروا إلى أصحابه وأتباعه ستجدون الأسود والأبيض، الجميع كان يجلس حول الجميع لا يوجد من يجلس في الأعلى أو في الأسفل أو هنا أو هناك.. إنّ تعامل وسلوك النبيّ الأعظم ﷺ مع أصحابه وكافّة الناس كان على أساس المساواة في جميع شؤون الحياة، حتّى على مستوى المجالسة والحديث والنظر، فهو لم يكن لينظر إلى فرد ويستثني آخر، بل كان يحادث ويخاطب الجميع، يقول الإمام الصادق: (كان رسول الله ﷺ يَقسِمُ لحظاته بين أصحابه، فينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسويّة)[3]

1() صحيفة الإمام، ج 17، ص 373 ـ 474..

2() الحكومة الإسلامية، الإمام الخميني، ص 103 ـ 104.

3() صحيفة الإمام، ج 17، ص 185..

ويقول في خطاب له بحضور جمع من الشباب الفرنسيّين ــ: (إنّ الحـاكم الإسـلاميّ ليس كرؤسـاء الجمهوريّـات والسـلاطين الآخرين. إنّ الحاكم الإسلاميّ هو الّذي يقصد المسجد الصغير في محلّته ويستمع إلى حديث الناس ولا يميّـز بين فقـير وغـنيّ فكلّهم سواسـية. فالأغنيـاء كـانوا كبقيّـة النـاس يجتمعـون في المسـجد، والشخص الغريب إذا دخـل عليهم لا يعـرف من هـو الـرئيس ومن هـو المـرؤوس منهم، من هـو صـاحب المقـام ومن هـو من عامّـة الشـعب. كـان لباسـهم مثـل لبـاس النـاس وسـلوكهم مثـل بقيّـة النـاس، وفي إجـراء العدالـة، إذا ادّعى أحـد أفـراد المجتمـع على حاكم المسلمين، كان القاضي يُحضر حاكم المسـلمين إلى جـانب المدّعي)[1]

ويقول في موضع آخر: (النبيّ الأكرم ﷺ الّذي وقف في وجـه قريش كان من قـريش أيضـاً، لكنّـه كـان يعـدّ نفسـه من طبقـات الناس العاديّة رغم أنّه كان من الأشراف وصاحب عشـيرة لم يكن يملك شيئاً. والّذين اجتمعوا حوله كانوا من الدرجـة الثالثـة وكـانوا فقـراء لا يملكـون شـيئاً، حتّى أنّ الرسـول نفسـه لم يكن يملـك منزلاً، كان يملك غرفة مصـنوعة من أليـاف النخـل، حتّى مسـجده كان كذلك)[2]

هذه مجرد نماذج عن السنن المغيبـة الـتي دعـا إليهـا الإمـام الخميني، والتي تمثل في حقيقتها غايات هذا الـدين وقيمـه العليـا، ويمكننا مقارنتها إذا شئنا بتلك الجزئيات من السـنن الـتي يحـرص عليهـا الطـائفيون، وفي سـبيل يخربـون الوحـدة الإسـلامية، وكـل القيم التي جاء بها رسول الله ﷺ.

وعلى نفس هذا المنهج نجد السـيد علي الخـامنئي يـدعو إلى الاقتداء الكامل برسول الله ﷺ في كل جزئيات الحياة وتفاصـيلها، لا في تلك السنن المحدودة المرتبطة بالشـعائر التعبديـة ونحوهـا،

1() سمات المعصومين في فكر الإمام الخميني، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمـام، ص 99 ـ 100.

2() صحيفة الإمام، ج 8، ص 456 ـ 457.

فيقول: (نحن المسلمين واجبنا أن نقتدي بهذا العظيم، يقـول اللـه سبحانه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَـنَةٌ} [الأحـزاب: 21]، يجب أن نقتـدي ونهتـدي ونتأسّـى بـالنبيّ ﷺ، فلا يكفي أن نقتـدي بصـلاة ركعـات عـدّة، وإنّمـا الـواجب أن نقتـدي بسـلوكنا وأقوالنا، بعلاقتنا فيما بيننا، وبتعاملنا مع الآخر، ولا يتيسّـر كـلّ هـذا إلّا من خلال معرفة النبيّ ﷺ)[1]

وقد حدد في الكثير من خطاباته الأسس الكـبرى الـتي تـدور حولها السنة النبوية، وهي سبعة، نختصرها فيما يلي[2]:

1. نفخ روح الإيمـان وتقويتـه وترسـيخه وتغذيـة أبنـاء الأمّـة بالمعتقد والفكر السليمين، وهذا ما باشره النبيّ ﷺ في مكّة ورفع رايته في المدينة بكلّ اقتدار.

2. العدل والقسط، فمنطلق العمـل كـان يقـوم على أسـاس العدل والقسط وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه دون أدنى مداهنة.

3. العلم والمعرفة، فأساس كلّ شيء في النظام النبويّ هـو العلم والمعرفة والـوعي واليقظـة، فهـو لا يحـرّك أحـداً في اتّجـاهٍ معيّن حركةً عمياء، بل يحـوّل الأمّـة عن طريـق الـوعي والمعرفـة والقدرة على التشخيص، إلى قوّة فعّالة لا منفعلة.

4. الصـفاء والأخـوّة، فالنظـام النبـويّ ينبـذ الصـراعات الّـتي تغذّيها الدوافع الخُرافية والشخصية والمصلحية والنفعية ويحاربهـا. فالأجواء هي أجواء تتّسم بالصدق والأخوّة والتآلف والحميميّة.

5. الصلاح الأخلاقيّ والسلوكيّ، فهو يزكّي النـاس ويطهّـرهم من رذائـل الأخلاق وأدرانهـا، ويصـنع إنسـاناً خلوقـاً ومـزكّىً { وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ} [آل عمـران: 164]، فالتزكية هي أحد المرتكزات الأساس الّتي كان يستند إليهـا النـبيّ ﷺ في عمله التربويّ مع أبناء الأمّة فرداً فرداً لبناء الإنسان.

---

[1] خطاب قائد الثورة في صلاة الجمعة، 7 صفر، 1421هـ.

[2] النبي الأعظم ﷺ في كلام الولي دام ظله، شبكة المعارف الإسلامية.

6. الاقتدار والعزّة: فالمجتمع والنظام النبويّ لا يتميّز بالتبعيّة والتسوّل من الآخرين، بل يتميّز بعزّته واقتداره وإصراره على اتّخاذ القرار؛ فهو متى ما شخَّص موطن صلاحه سعى إليه وشقّ طريقه إلى الأمام.

7. العمل والنشاط والتقدّم المطّرد: فلا مجال للتوقّف في النظام النبويّ، بل الحركة الدؤوبة والتقدّم الدائم. ولا معنى لدى أبنائه للقول إنّ كلّ شيء قد انتهى فلنركن إلى الدّعة! وهذا العمل - بطبيعة الحال - مبعث لذّة وسرور وليس مدعاة للكسل والملل والإرهاق، بل هو عمل يمنح الإنسان النشاط والطاقة والاندفاع.

هذه مجرد نماذج عن الرؤية الشمولية للسنة النبوية في مشروع إيران الحضاري الجديد، وهي ما يجعلها أداة للنهوض والتحضر والتحلي بجميع القيم التي جاء القرآن الكريم للدعوة إليها، فالسنة الحقيقية هي التي تحول المؤمن إلى إنسان قرآني، لا إلى إنسان طائفي مستكبر مغرور مملوء بكل أنواع السلبية.

من أول الأسـس الـتي يقـوم عليهـا أي دين من الأديـان تلـك التصورات والحقائق التي يحملها عن الوجـود والكـون والحيـاة، أو تلك المعـارف الـتي تتأسـس عليهـا نظرتـه لعلـة الكـون ومصـيره والحقائق التي ينبـني عليهـا.. أو مـا يطلـق على ذلـك جميعـا لقب [العقيدة] و[الإيمان]، فعلى أساسـها يصـنف الـدين أو المـذهب أو التوجه الفكري.

ومع أن الحقائق والتصورات التي تنبني عليها عقائد الإيرانيين منـذ دخلـوا الإسـلام في أيامـه الأولى إلى اليـوم هي نفس عقائـد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربهـا، وهي نفس العقائـد الـتي نص عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة الـتي بينـا مـدى الـتزام الإيرانيين لهمـا، واهتمـامهم بهمـا، إلا أنـا نجـد من المغرضـين من يذكرون مجوسية إيرانية وضلالها وكفرها، وأنها لم تـدخل الإسـلام أصلا.

ولسـت أدري كيـف شـق هـؤلاء على قلـوب الإيرانـيين، ومن تاريخهم الباكر ليحكموا عليهم بهذا الحكم الخطير؟

وهم يذكرون هذا مع أنهم يقرؤون قوله تعالى: {يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُـوا وَلَا تَقُولُـوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَـرَضَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا فَعِنْـدَ اللَّهِ مَغَـانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَـا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94) } [النساء: 94]

ويرددون معها في خطبهم ودروسهم أنها نزلت في نـاس من أصحاب رسول اللـه ﷺ ذهبـوا يتطرقـون، فلقـوا أناسـا من العـدو فحملـوا عليهم فهزمـوهم، فشـد رجـل منهم، فتبعـه رجـل يريـد متاعه، فلما غشيه بالسنان، قال: إني مسلم إني مسـلم، فـأوجره السنان، فقتله وأخذ متاعه، فرفع ذلك إلى رسـول اللـه ﷺ؛ فقـال رسول الله ﷺ للقاتل: (أقتلتـه بعـد أن قـال إني مسـلم) قـال: يـا رسول الله إنما قالها متعوذا، قال: (أفلا شققت عن قلبه) قال: لم

يا رسول الله؟ قال: (لتعلم أصادق هو أو كاذب؟)[1]

ونفس الشيء يقال لأولئك الذين يتـألون على اللـه، ويرمـون الإيرانـيين سـلفهم وخلفهم بتلـك الطامـات الكـبرى من التكفـير والتبــديع والتضــليل من غــير أن يحققــوا، ولا أن يســألوا، ولا أن يبحثوا، ولكن لمجرد الهوى، أو لمجرد بعض المتاع الذي ينـالهم إن هم فعلوا ذلك.

وللأسف فإن هذه الهجمة العنيفة على الإيرانيين لم تشـتد إلا بعد نجاح الثورة الإسلامية في الواقع الإيراني، أما قبل ذلـك، وفي عهد الشاه، خصوصا، فإنه لم يكن هناك اهتمام بإيران، ولا بــدينها، ولم يظهر حينها اعتبارهم مجوسا، ولا متآمرين على الإسـلام.. مـع أن الشــاه كــان حينهــا يمــارس دور الشــرطي عليهم، وبمعونــة أمريكية وإسرائيلية.

ولتقريب الصورة لمن لم يعايش الواقع، نذكر أن إيـران قبـل الثورة الإسلامية كانت أقرب ما تكون في مواقفهـا السياسـية إلى دولة أذربيجان، فهي دولـة ذات أغلبيـة شـيعية[2]، وفيهـا مـزارات وأضرحة[3] وحوزات علمية، ومع ذلك لا نجد من يهتم بها، أو يعتبر الأذريين مجوسا أو كفرة أو متآمرين.

والسبب بسيط، وهو تلك العلاقات الجيدة الـتي تقيمهـا دولـة أذربيجــان مــع إســرائيل، بــل إن الصــحف الإســرائيلية تــذكر أن

1() رواه ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل، انظر: الدر المنثور في التفسير بالمـأثور (2/ 635)

2() يعتبر المذهب الامامي هو الثقل الاكبر في هذا البلد حيث تبلـغ نسـبة الشـيعة اكـثر من 70 % أي ما يقارب من 6 ملايين شخص بالنسبة للعدد العام، وبنسـبة 80% للمسـلمين خاصة.

3() توجد للشيعة مزارات مهمـة في هـذا البلـد حيث يـتردد عليهـا النـاس بشـكل كبـير وملحوظ ويشد لها الرحال من كل انحاء البلاد ومن اهمها مزار اخوات الامـام الرضـا الواقـع في مدينة نارداران، ومزار بي بي هيبت الواقع في اطراف باكو، وكذلك يوجـد مـزار لهم في مدينة گنجة، وايضاً يوجد مزار واقع في مدينة بيلغان يقال انه لنبي الله جارجيس.

الإسرائيليين يخطوط لضرب إيران من خلال جارتها أذربيجان[1] .

لكن لو أن رجلا مثل الخميني ظهر في أذربيجان[2]، وأبعـدها عن ذلـك الخنـوع للغـرب، ومن تلـك التبعيـة للاسـتكبار العـالمي، وحـول وجهتهـا عن إسـرائيل ليضـعها في يـد الفلسـطينيين، فـإن الحـرب حينهـا سـتعلن على أذربيجـان لتتحـول إلى دولـة كـافرة مارقة، فالكفر عنـدهم والمـروق ليس كفـرا باللـه، ولا مروقـا عن دينه، وإنما هو الكفر بأمريكا وإسرائيل وكل المحور الاستكباري.

بنـاء على هـذا سـنحاول في هـذا الفصـل بيـان تلـك العلاقـة الشديدة التي تربط إيـران منـذ تاريخهـا البـاكر بالإيمـان والعقيـدة الإسلامية، وهو ما يؤكد شـهادة رسـول اللـه ﷺ لهم بـذلك، وذلـك عبر مظهرين كبيرين:

الأول ـ بيان علاقة العقائد التي يتبناها الإيرانيـون، وخصوصـا شـيعتهم، بالعقائـد الـتي يتبناهـا سـائر المسـلمين، وبيـان مـدى الاشتراك الـذي تشـترك فيـه العقيـدة السـنية بالعقيـدة الشـيعية، وبذلك فإن الذي يكفر المدرسة الشيعية بسبب عقائدها، عليــه أن يكفر المدرسة السنية أيضا.

الثاني ـ بيان الدور الذي قام بـه الإيرانيـون لنصـرة العقيـدة

1() انظر مقالا بعنوان [صحيفة إسـرائيلية: الحـرب مـع إيـران سـتنطلق من أذربيجـان، عربي21- يحيى عياش، السبت، 07 أبريل 2018]، وقد ورد فيه: (وأشارت صحيفة معـاريف الإسرائيلية في تقرير ترجمته [عربي21]، إلى أن الولايات المتحدة وإسرائيل وقعتـا سلسـلة من الاتفاقيات العسكرية مع بعض جيران إيران من ضمنها أذربيجان، لافتـا إلى أن الإيرانـيين يعتقدون أن باكو ستسمح للقوات الجوية لإسرائيل والولايات المتحدة بـالإقلاع من قواعـدها، لقربها من طهران)

2() ولهذا نرى الاستكبار العالمي يستعمل كل وسائله الطائفية ليحول السكان الأذريين من التشيع إلى التسنن خشية تأثرهم بإيران، وقد ورد في بعض الصحف هذا الخـبر: (انتشـر في الآونة الأخير حديث، بين الأوساط الأذربيجانيـة، بشـأن احتماليـة تحويـل سـكان البلاد من غالبية شيعية إلى أغلبية سنية، لافتين إلى أن باكو ترغب بحدوث هـذا التحـول حـتى تصـطف مـع تركيـا وكازاخسـتان، وليس مـع إيـران، وفي هـذا السـياق، يشـير المحلـل الأذري، علي عباسوف، إلى أن مثل هـذا التحـول يحـدث، بسـبب التـوترات بين الـدول الإسـلامية السـنية وإيران الشيعية ورغبة بـاكو في تفضـيل تركيـا وكازاخسـتان على إيـران)[أذربيجـان تخطـط للتحول الطائفي من دولة شيعية إلى سنية للابتعاد عن محور إيران، المصدر: حـنين الـوعري - إرم نيوز]

الإسلامية، والدعوة إليها من خلال المتكلمين الذين ظهروا فيها عبر التاريخ، والذي تشكل أبحاثهم وكتبهم أكبر مصدر في التراث الإسلامية للعقيدة والعلوم المرتبطة بها.

وبذلك فإن النتيجة التي سنخلص إليها من خلال هذا الفصل هي أن الإيرانيين ليسوا متمسكين فقط بالعقيدة الإسلامية، وإنما كان لهم دور كبير في نشرها، وصد الشبهات عنها، لا في إيران وحدها، وإنما في العالم الإسلامي أجمع، وفي جميع الفترات التاريخية.

أولا ـ تمسك الإيرانيين بالعقائد الإسلامية

لا نريد بالعقائد الإسلامية هنا تلك العقائد الكثيرة التي ولدها الصراع المذهبي، والذي أدخل الكثير من الفروع الفقهية والتاريخية ضمن العقائد مع أنه لا علاقة لها بها.

وإنما نريد بها تلك العقائد التي قررها القرآن الكريم، والتي نص على مجموعها قوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة: 177]

وهي العقائد التي اتفق أكثر العلماء على تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

1. الإلهيات، ويبحثون فيها عن وجود الله والصفات التي يتنزه عنها، والصفات التي تجب له، وما يرتبط بذلك من القضاء والقدر ونحوهما.

2. النبوات، ويبحثون فيها الرسل الكرام وما يجب عليهم، وما يجوز في حقهم، وما يستحيل، كما يبحثون عن براهين نبوتهم، وما يجب في حقهم من الطاعة والأدب ونحوهما.

3. السمعيات أو الغيبيات: ويقصدون بها ما يتوقف الإيمان به على مجرد ورود السمع أو الوحي، وليس للعقل في إثباتها أو نفيها مدخل كالملائكة والقيامة والجنة والنار، ونحوها.

وقد أشار إلى هذه الأقسام، وانحصار العقائد الإسلامية فيها كل المتكلمين من أبناء المدارس الإسلامية المختلفة، وذلك استنادا لما ورد في الحديث المعروف بحديث جبريل، فقد أجابه ﷺ عندما سأله عن أركان الإيمان بقوله: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[1]

ولم يذكر فيه تلك الإضافات الكثيرة التي أضافها السلفيون خصوصا للعقائد الإسلامية، مثل الإيمان بالصحابة، واعتقاد تفاضلهم بحسب الترتيب الذي حددوه، أو الإيمان بالمسح على الخفين، أو كما قال بعضهم: : (من لم يسمح على الخفين فاتهموه على دينكم)[2]

وهكذا فإن الإيمان الذي نريده، والذي يتميز به المسلم عن غيره هو ذلك الإيمان الوارد في القرآن الكريم، وهو نفسه ما أكدته السنة المطهرة، في نصوصها القطعية، والتي حكمت بالإيمان لكل من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، دون أن تلزمه بتلك الإلزامات الكثيرة التي ألزم بها أثناء الصراع المذهبي، حتى وصل الأمر إلى إدخال الإيمان بمعاوية في العقيدة الإسلامية، وألفت الكتب الكثيرة في ذلك [3] .

1() رواه البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (٩)

2() أخرجه أبو نعيم في الحلية 7/32..

3() من الأمثلة على إدخال معاوية في كتب العقائد ما قاله الآجري في (الشريعة)، وهو من الكتب التي يعتمد عليها السلفية في تقرير العقائد: (معاوية رحمه الله كاتب رسول الله ﷺ على وحي الله عز وجل وهو القرآن بأمر الله عز وجل وصاحب رسول الله ﷺ ومن دعا له النبي ﷺ أن يقيه العذاب ودعا له أن يعلمه الله الكتاب ويمكن له في البلاد وأن يجعله هادياً مهدياً.. وهو ممن قال الله عز وجل ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ (التحريم: 8) فقد ضمن الله الكريم له أن لا يخزيه لأنه ممن آمن برسول الله ﷺ)(الشريعة [3 / 496)

وقال ابن بطة في (الإبانة الصغرى): (تترحم على أبي عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان أخي أم حبيبة زوج النبي ﷺ خال المؤمنين أجمعين وكاتب الوحي وتذكر فضائله) (الإبانة الصغرى [ص: 299])

ونحب أن نشـير هنـا إلى أن مـا يـذكره الشـيعة في كتب عقائدهم مما يرتبط بالإمامة لا يقصدون بها ــ كمـا ينص علمـاؤهم ومراجعهم ـ [أصول الدين]، وإنما يقصدون بهـا مـا يطلقـون عليـه [أصول المـذهب]، أي أنـه لا يمكن أن يكـون الشـخص شـيعيا اثنـا عشريا، وهو لا يعرف الأئمة، أو لا يسلم بكونهم أئمة موصى بهم.

وهذا مما لا حـرج فيـه، فلكـل مـذهب خصوصـياته، وعقائـده الخاصة، التي من لم يسلم لها، أو يعتقد بها، يعتبر خارجا من ذلـك المـذهب، فالأشـعري الـذي لا يلـتزم بالعقائـد الـتي اختص بهـا الأشاعرة، ويوافق الماتريدية في مقولاتهم، لا يخرج من الإسـلام ـ كما ينص الأشاعرة ـ وإنما يخرج من الأشعرية إلى الماتريدية.

وهكذا الصوفي الـذي ينتقـل من القادريـة إلى النقشـبندية لا يخرج من الإسلام، وإنما يخرج من طريقة كان يسلم لهـا، ويعتقـد أنها المنهج الأكمل في التربية إلى طريقة أخرى.

ولو أن السـلفية الـتزموا هـذا المعـنى عنـد نصـهم على تلـك الخلافات الفرعية، واعتبروها من أصول المذهب لكان ذلك مقبولا لا حـرج فيـه، فالأمـة كمـا أتيح لهـا أن تتفـق في الكثـير من المشتركات، أتيح لها كذلك أن تختلـف في بعضـها، ولكن من غـير أن يكفر بعضها بعضا.

ولهذا، فإن الشـيعة يتفقـون مـع سـائر المسـلمين في جميـع العقائد، ويضيفون إلى ذلك اعتقـادهم في أئمتهم باعتبـارهم أئمـة هدى، وأنهم الموصى بهم من رسول الله ﷺ، وأنهم سفينة النجاة، ونحو ذلك من العقائد، التي نجدها عند الفرق الإسـلامية المختلفـة عند تعديدها لفضائل أئمتهـا، واعتبـارهم سـفينة نجـاة، وأن الهـدى في كلامهم.

وقـد ذكرنـا أن السـلفية أكـثر من يقـول بهـذا، خصوصـا عنـد ذكرهم للإمام أحمد أو ابن تيمية أو ابن عبد الوهـاب، بـل إن لقب [السلفية] لم يطلق عليهم إلا لتعظيمهم لسـلفهم، وهـو لا يختلـف عن لقب [الاثنـا عشـرية] إلا في فـارق بسـيط، وهـو أن [الاثنـا عشرية] تقصـر السـلف والهدايـة المرتبطـة بهم على اثـني عشـر

إماما، بينما [السلفية] تتجاوز ذلك الرقم بكثير، بل تصل به إلى عشرات الآلاف.. لأن كل الصحابة ومن عاصرهم أو من عاصر من عاصرهم يعتبر عندهم إماما يمكن تلقي الدين عنه.

بل إنهم لا يكتفون بذلك، وإنما يضيفون إليهم الكثير من المتأخرين الذين يعتبرونهم سلفا، ويحكمون لهم بحكم السلف رغم تلك الحواجز الزمني، ومن الأمثلة على ذلك قول عماد الدين الواسطي في ابن تيمية: (والله، ثم والله، لم يُرَ تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية، علماً، وعملاً، وحالاً، وخلُقاً، واتِّباعاً، وكرماً، وحلْماً، وقياماً في حق الله تعالى عند انتهاك حرماته، أصدق النَّاس عقداً، وأصحهم علماً وعزماً، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همةً، وأسخاهم كفّاً، وأكملهم اتباعاً لسنَّة محمد ﷺ، ما رأينا في عصرنا هذا مَن تستجلي النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة)[1]

وهذا الوصف الذي ذكره الواسطي، والذي تعتقده السلفية في ابن تيمية، هو نفسه الذي تعتقده الشيعة في أئمتها، ولذلك لا مبرر لكل تلك الشدة عليهم.

بل إن السلفية لا يكتفون بذلك، وإنما يجعلون أئمتهم قسماء للجنة والنار، فمن لم يعتقد فضلهم ولم يسلم لهم أو راح ينتقدهم، فإنه عندهم ضال كافر ليس له مأوى إلا جهنم، كما نص على ذلك الشيخ ابن عثيمين حين ذكر أنه يشهد لابن تيمية بالجنة، ويشهد لأعدائه بالنار، فقال في [شرح رياض الصالحين]: (وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أجمع الناس على الثناء عليه إلا من شذ، والشاذ شذ في النار، يشهد له بالجنة على هذا الرأي)[2]

بناء على هذا نحاول في هذا المبحث أن نذكر بعض القضايا الكبرى التي يكفر من خلالها المغرضون الإيرانيين وخصوصا

---

[1] العقود الدرية، (ص 311).

[2] شرح رياض الصالحين 4/ 570 - 573.

الشيعة منهم، معتمدين في ذلك على ما ورد في رسالة خطيرة كانت من أول السهام المسمومة المصوبة للجمهورية الإسلامية الإيرانية في بداية اعتمادها لنظام ولاية الفقيه.

وللأسف فإن مؤلف هذه الرسالة رجل من أبناء الحركة الإسلامية، ممن يزعم أنه صاحب مشروع لإقامة الدولة الإسلامية، بينما راح يغدر بالدولة التي تدعو إلى نفس ما يدعو إليه.

وهذا الداعية هو الشيخ سعيد حوى في كتابه (الخميني: شذوذ في العقائد ..شذوذ في المواقف)، والذي حمل فيه حملة الشديدة، لا على شخص الخميني فقط، وإنما على كل الشيعة، وذلك رغم أنه ينتمي لمدرسة (الإخوان المسلمين) التي كان مؤسسها، والكثير من أتباعه يتبنون التقارب بين المذاهب الإسلامية.

لكن سعيد حوى ـ رغم ما يدعيه من تصوف ــ تكلم بلسان السلفية، ولا عجب في ذلك، فقد كتب كتابه، وهو في السعودية، في فترة حقدها الشديد على إيران خشية من تصديرها للثورة إليها أو إلى سائر دول الخليج.

وكعادة الحركيين في تبنيهم لنظرية المؤامرة بشكلها المعكوس، فقد راح يتصور أن الثورة الإسلامية في إيران مؤامرة ضد الصحوة الإسلامية، فقد قال في مقدمة رسالته: (وقد تحقق أعداء الإسلام من خطورة هذه الصحوة الإسلامية الرشيدة على مصالحهم، وأنها القاضية الماحقة لغاياتهم التي خططوا لها زماناً، فأعادوا لعبتهم القديمة الجديدة، وتشاور كهنة المجوس وأحبار اليهود يريدون الكيد للإسلام وأهله، وبان لهم بأن تشويه هذه الصحوة الواعية وحرفها عن مقاصدها النبيلة الكريمة أفضل وسيلة وأنجح طريق لضربها وإخراجها من مضمونها الإسلامي السليم تحريفاً لغاياتها وتدميراً لاسسها، فسلطوا عليها من المتظاهرين بالإسلام قوماً، علّهم يحققون لهم ما خططوا له وبيتوا من سوء ليغتالوا الوليد في مهده وأول نشأته ونمائه)[1]

---

[1] () الخميني: شذوذ في العقائد ..شذوذ في المواقف، سعيد حوى، ص3.

ثم بين الآليات التي تم من خلالها تنفيذ المؤامرة؛ فقال: (وهكذا كان الأمر ؛ جاءت الخمينية المارقة تحذو حذو اسلافها من حركات الغلو والزندقة التي جمعت بين الشعوبية في الرأي والفساد في العقيدة، تتاجر بمشاهر جماهير المثقفين المتعلقين بالإسلام تاريخاً وعقيدة وتراثاً، فتتظاهر بالإسلام قولاً وتبطن جملة الشذوذ العقدي والحركي الذي كان سمة مشتركة وتراثاً جامعاً للهالكين من اسلافها من الأبامسلمية والبابكية والصفوية، فيعيدوا إلى واقع المسلمين كل نزعات الشر والدمار التي جسدتها تلك الحركات المشبوهة الساقطة في شرك الكفر والزندقة والعصيان، وتعيد إلى الأذهان كل مخططات البرامج الباطنية القائمة على التدليس والتلبيس، فتدعي نصرة الإسلام وهي حرب عليه – عقيدة ومنهجاً وسلوكاً – وتتظاهر بالغيرة على وحدة الصف الإسلامي وهي تدق صباح مساء إسفيناً بعد إسفين في أركان الأمة الواحدة، متوسلة إلى ذلك بنظرة مذهبية شاذة، وتزعم نصرة المستضعفين في الأرض وهي تجند الأطفال والصغار وتدفعهم قسراً وإلجاءً إلى محرقة الموت الزؤام، ثم هي لا تكتفي بكل هذا الشر الأسود بل تقيم فلسفتها جملة وتفصيلاً على قراءة منحرفة قوامها التلفيق والتدليس لكل تاريخ المسلمين، فتأتي على رموزه وأكابر مؤسسيه هدماً وتشويهاً وتمويهاً، وتجدد الدعوة بإصرار إلى كل الصفحات السلبية السوداء الماضية في التاريخ، والتي ظن المخلصون أنها بادت فليس من مصلحة المسلمين ولا في صالح الإسلام إعادة قراءتها من جديد، فلقد قاسى الجميع من شرها ما لا يحصره كتاب) [2]

وهكذا راح بلغة خطابية يتبنى كل الأطروحات التي نشرها السلفية حول الشيعة، مع العلم أن الخميني وجميع المؤسسين للثورة الإسلامية لم يزيدوا شيئا في التشيع، ولم ينقصوا منه، بل كل ما أضافوه هو ذلك الانفتاح على قضايا الأمة، والخوض الجاد في علاج مشكلاتها، وكانت هذه فرصة للحركيين الذين كانوا ينتقدون سلبية التشيع، لكنهم راحوا يرمون إيجابيته، في نفس الوقت الذي راحوا يفضلون عليه السلبيين من الشيعة، الذين لم

[2] الخميني: شذوذ في العقائد ..شذوذ في المواقف، سعيد حوى، ص4.

يقوموا بأي حركة تغييرية في صالح الأمة.

وعندما راح سعيد حوى يذكر المقولات التي تنسب للخميني، والتي على أساسها اتهمه بالكفر والمؤامرة، لم يزد على ما ذكره السلفية.

ولذلك سنحاول الإجابة عما ذكره من أسباب التكفير في هذا المبحث، مع إضافة بعض العقائد التي يركز السلفية من خلالها على تكفير الشيعة عموما، والإيرانيين منهم خصوصا، من غير فهم لمقاصدهم فيها، ولا مطالعة لكتبهم المعتمدة، أو مراجعهم المعتمدين.

1 ـ فرية الغلو في الأئمة:

من أكثر التهم التي يتهم بها المشروع الإسلامي الإيراني، وعلى أساسه يكفر الإيرانيون قادة وشعبا ما يطلق عليه السلفيون والحركيون، ومن تبعهم من المغرر بهم [الغلو في الأئمة]، واعتبارهم مشركين لأجل ذلك، وقد كان يمكن قبول هذه الفرية من السلفية لأنها تكفر الصوفية وكل المسلمين بهذا الاعتبار، لكن العجب أن يورد هذه الفرية من يؤمن بالتصوف، وهو يعرف أقوال الصوفية في مشايخهم ومقاماتهم.

وهم يوردون لهذا تلك الكلمة التي قالها الخميني في كتابه [الحكومة الإسلامية]، والتي اختصروا بها كل مشروعه، وكأنه لم يقل سواها، وهي قوله: : (إن للإمام مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون، وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه مَلَك مقرب ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن رسول الله الأعظم ﷺ والائمة عليهم السلام كانوا قبل هذا العالم أنواراً فجعلهم الله بعرشه محدقين، وقد ورد عنهم عليهم السلام : (إن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل)[1]

وقد مهد سعيد حوى لاقتباسه لهذه الفقرة بقوله: (فانظر

---

[1] الحكومة الإسلامية : ص 52.

إلى الخميني وهو يغلو في حق ائمته فيعطيهم العصمة والتدبير والعلم الإلهي ويرفعهم فوق مقام الأنبياء)[1]

وقد نقل هذه العبارة كل من تحدث عن الخميني، وعن مشروعه في الثورة الإسلامية، من غير أن يرجعوا إلى ما ذكره في كتبه وخطاباته الأخرى، والممتلئة بالدعوة للتوحيد، وتفريد الله بالخلق والتدبير، أو ما كتبه عن النبوة ومكانتها السامية، حتى يفهموا كلامه هذا على ضوئه كلامك ذلك.

وكان من الممكن أن نختصر للقارئ هذا، ونأتي له بما ذكره الخميني نفسه في هذا المجال، ولكنا آثرنا أن نناقش العبارة نفسها، وكأنه لم يقل سواها، فهل يستحق حقا من قال تلك العبارة أن يكفر؟.. سنجيب عن هذا من خلال الوجوه التالية:

أولا ـ الخميني قال هذه العبارة من باب المحبة والتعظيم للذين اتفقت الأمة على محبتهم وتعظيمهم، أولئك الذين أوصى بهم رسول الله ﷺ، واعتبرهم سفينة نجاة، ولذلك هو لم يذكر تلك الكلمات في حق كفرة ولا منحرفين عن الدين، أو في حق ناس مشكوك فيهم، وبناء على ذلك، قد يحمل كلامه على ما يحمل عليه كلام الصوفية في مشايخهم وتعظيمهم لهم، بل ما يحمل عليه كلام السلفية أنفسهم عندما يكتبون الكلام الكثير في فضائل أئمتهم، ويبررون ذلك بأن حبهم هو حب للسنة، والدعوة لهم هي دعوة للسنة.

ولو ذهبنا إلى النصوص التي كتبها السلفية وسلفهم في أئمتهم لوجدنا الأمر لا يختلف كثيرا، بل ربما نجد من الغلو ما لا نجده عند الخميني نفسه، ومع ذلك لم يقل أحد بكفر من قال ذلك..

ثانيا ـ أن ما ورد في كلمته من المقام الرفيع للأئمة، والذي قد يتجاوز في بعض مناحيه الأنبياء أو الملائكة المقربين، مبني على تلك القاعدة المعروفة في التفاضل، وهي أن الفضل مراتب متعددة، وليس مرتبة واحدة، ولذلك قد يفضل الشخص بالنبوة،

---

[1] الخميني: شذوذ في العقائد ..شذوذ في المواقف، سعيد حوى، ص7.

ولكن يفضل غيره عليه في صفة أخرى، أو موقف آخر..

وهو مما دلت عليه النصوص المقدسة، ففي الحديث المتفق عليه، والمروي في مجامع كثيرة من كتب الحديث عن أبى مالك الأشعرى قال : كنت عند النبى ﷺ، فنزلت عليه هذه الآية: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ } [المائدة: 101]، قال: فنحن نسأله إذ قال : (إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة)، قال: وفى ناحية القوم أعرابى، فجثا على ركبتيه، ورمى بيديه ثم قال حدثنا يارسول الله عنهم من هم؟ قال : فرأيت فى وجه النبى ﷺ البِشر، فقال النبى ﷺ: (هم عباد من عباد الله من بلدان شتى، وقبائل شتى من شعوب القبائل لم تكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولادنيا يتابذلون بها، يتحابون بروح الله، يجعل الله وجوههم نورا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الناس، ولا ينزعون، ويخاف الناس ولا يخافون)[1]

فهذا الحديث، والذي ورد بطرق كثيرة جدا في المصادر السنية، يدل على ما ذكرنا من أن الفضل مراتب متعددة، ولذلك ـ كما ورد في الحديث ـ قد ينال بعض الناس فضلا كبيرا، لم يتح لغيره ممن هو أفضل منه.. فالشهادة في سبيل الله مثلا قد تتاح لغير نبي أو لغير ولي، فيكون للشهيد فضل عليه فيها، ولكن فضله مرتبط بها لا بغيرها.

وهذا الأمر ليس خاصا بالفضائل المرتبطة بالبشر، بل هو عامة في كل الفضائل حتى المرتبطة بالأعمال، ومن الأمثلة على ذلك قوله ﷺ: (من صلى الغداة في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة، تامة تامة تامة)[2]

1() رواه أحمد (5/341،343) والبغوى فى شرح السنة (13/51) والحاكم فى المستدرك (4/170،171) وصححه وأقره الذهبى وآخر من حديث أبى هريرة عند ابن حبان فى صحيحه (2508)

2() رواه الترمذي (586).

فهذا الحديث يدل على أن هذا العمل يساوي في أجـره الحج والعمرة، لكنه لا يدل ـ باتفاق العلماء ـ على أن ذلـك العمـل مغن عن الحج والعمرة، بل يظل حكمهما خاصا.

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين عن الحـديث، فأجـاب : (.. على تقدير صحته فالثواب لا قياس فيه، قـد يثـاب الإنسـان على عمـل قليل ثواب عمل كثير ؛ لأن الثواب فضل من الله عـز وجـل يؤتيـه من يشاء)([1])

وهذا نفسه ما يجاب به على ما ذكره الخميني، ذلك أن الأمة جميعا متفقة على أن هذه الأمة أفضل من غيرها من الأمم، نتيجة تبعيتها لرسول الله ﷺ، بل هم يـذكرون أن الرسـل عليهم الصـلاة والسلام يتمنون لو كانوا أتباعا له، وبذلك فـإن فضـل هـذه التبعيـة ليس خاصا بالأئمة فقط، بل هو عام لكل المسلمين، بالإضافة إلى تلك التعبية الشريفة للأئمة لجدهم ﷺ.

ونحب أن نضيف إلى هذا المعـنى مـا ذكـره الخميـني نفسـه عند الحديث عن عبودية رسول الله ﷺ لله، وكونها أشرف مـراتب الكمال الإنساني، فقد ذكـر فيـه تلـك المسـافة الهائيـة بين النبـوة والإمامة، فقال: (لا بدّ من الإشـارة إلى أنّ العبوديّـة المطلقـة هي من أعلى مراتب الكمال ومن أرفع مقامات الإنسـانيّة، ولا نصـيب لأحد من البشر منها سوى أكمل خلق الله محمّد ﷺ أصالة وسـائر الأوليـاء الكُمّـل عليهم السـلام تبعـاً لـه، أمّـا من سـواهم فقـدم عبوديّتهم عوجاء وعبادتهم وعبوديّتهم معلّلة بأسباب أخرى)([2])

فهـذا نص صـريح في كـون المكانـة العاليـة للأئمـة، ليسـت بسبب ذواتهم، وإنما بسبب تبعيتهم لرسول الله ﷺ.. فالشرف في التبعية، وبما أن متبوعهم أشرف الرسـل، فقـد تحقـق لهم بسـببه بعض ذلك الشرف.

رابعا ـ ما ذكره سعيد وحوى غيره من تكفير الخميني بسبب

([1]) اللقاء الشهري، (74/22).

([2]) سرّ الصلاة، الإمام الخمينيّ، ص 89 ـ 90..

قوله: (إن للإمـام مقامـاً محمـوداً ودرجـة سـامية وخلافـة تكوينيـة تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون) عجيب جدا، ذلك أن هذا المعنى معنى قـرآني تمت إليـه الإشـارة إليـه في نصـوص كثيرة جدا، بل هو من مقتضيات الخلافة، وكل المسـلمين يقولـون به، حتى أبناء المدرسة السلفية نفسها.

فلو تأملنا في قوله تعالى عن صاحب سليمان عليـه السـلام، الذي أخبر الله تعالى عنه، وعن قدراته العجيبة، فقال: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْـلَ أَنْ يَرْتَـدَّ إِلَيْـكَ طَرْفُـكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَـذَا مِنْ فَضْـلِ رَبِّي} [النمـل: 40]، فالآيـة الكريمة صريحة في أنّ سليمان عليـه السـلام طلب ممّن خصّـهم بالخطـاب الإتيـان بعـرش بلقيس في لحظـات، مـع علمـه عليـه السـلام بالمسـافة الشاسـعة بين اليمن الـذى هـو مكـان عـرش بلقيس، وبين فلسطين التي كان فيها سليمان عليه السلام، فقـام إليه الـذى عنـده علم من الكتـاب، وجـاء بـذلك العـرش بأقـلّ من طرفة عين، وقد تحدث عن قدرتـه على ذلـك بثقـة عظيمـة، لأنـه يعلم أن الله تعـالى مكنـه من ذلـك، وجعـل العـرش تحت تحكمـه وسلطته يمكنـه أن يحضـره في وقت وجـيز، وهـو طبعـا لم يفعـل ذلك إلا بعد أن طلب منه.

وهـو نفس مـا أشـار إليـه القـرآن الكـريم عنـد حديثـه عن القدرات التي وهبت للعفريت من الجن، فقال: {قَالَ عِفْـرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } [النمل: 39]، فالآيـة واضـحة في أنّ اللـه تعـالى قـد أعطى لـذلك العفـريت من الجنّ القـدرة التكوينيـة الخارقـة، ولكنهـا أقـل من القدرة التي أوتيها صاحب سليمان من الإنس.

وعلى ضـوء هـاتين الآيـتين الكريمـتين يمكننـا فهم مـا ذكـره الخميـني، بـل مـا ذكـره الكثـير من الشـيعة في مسـألة الولايـة التكوينية، فمعناها أن الله تعالى يعطي المقربين من عباده، سواء كانوا رسلا، أو لم يكونوا كذلك قـدرات عجيبـة، قـد يمارسـوها في حياتهم، وقد لا يمارسوها، وهي تلك الـتي تسـمى بالكرامـة.. وهي مما اتفق عليه جميع المسلمين.

وكيف لا يتفقون عليه، وقد نص عليه القرآن الكريم، ليس في حق الرسل فقط، وإنما في حق غيرهم أيضا، فقد قال الله تعالى عن مريم عليها السلام: { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران: 37]

فالآية الكريمة تشير إلى أنه كان في قدرة مريم عليها السلام أن تحضر أي طعام تشاء في وقته وفي غير وقته، وبذلك يمكن أن يقال بأن كل ذرة في ذلك الطعام كانت خاضعة لها، ولطلبها.

ومن خلال هذه المفاهيم القرآنية يفهم قول الخميني، بل من العجيب أن ينكر أحد ذلك، فالمؤمن المرتبط بالله، لا يحمل هم الإجابة، وإنما يحمل هم الدعاء، ذلك أنه موقن أنه بمجرد صدقه في طلب شيء، يحققه الله تعالى له.

وكان في إمكاننا بالإضافة لتلك النصوص القرآنية أن نضيف إليها قوله تعالى: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران: 49]، وهي واضحة في كون المسيح عليه السلام ذكر أنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فهل كان المسيح عليه السلام مشركا بذلك؟

لكنا لم نذكر ذلك النص وغيره من النصوص الكثيرة التي ذكرها القرآن الكريم عن سليمان عليه السلام وغيره من الرسل، حتى لا يقال بأن ذلك خاص بالأنبياء دون غيرهم.

خامسا ـ من الأمور التي أنكرها سعيد حوى على الخميني قوله: (إن تعاليم الأئمة كتعاليم القرآن لا تخص جيلاً خاصاً، وإنما هي تعاليم للجميع في كل عصر ومصر إلى يوم القيامة يجب

تنفيذها واتباعها)[1] و(إنه لا يتصور فيهم – أي الأئمة – السهو والغفلة)[2]

ولست أدري ما الضرر في هذا، وهل يمكن لمؤمن أن يكفر مؤمنا بسبب هذا القول.. فالأمة جميعا تعتقد أن الملائكة عليهم السلام لا يغفلون لا يسهون، فهل يعني هذا أنهم آلهة أو أنداد لله؟

وما الضرر في أن يجعل الله في بعض عباده الصالحين من القدرات ما يجعله للملائكة عليهم السلام، أليس ذلك في قدرة الله؟

بل إن الرسول ﷺ أخبر عن نفسه ببعض ذلك، فقال ــ عند بيانه لعذره في الوصال في الصوم الذي لا يطيق أحد ــ : (إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني)[3]، وهذا يدل على أن رسول الله ﷺ مع كونه بشرا إلا أنه كان له بسبب تلك المكانة العظيمة من الله من الصفات ما لا يطيق البشر أن يشاركوه فيها، ذلك أن الروح بقدر شفافيتها وطهرها وسموها تكون قدرتها وتأثيرها على الجسد نفسه.

ثم إن ما ذكره الخميني عن تجاوز تعليمات الأئمة لعصرهم لا ضرر فيه، ولا حرج منه، بل الكل يقوله، فالسلفية لا زالوا إلى الآن يأخذون بكلام سلفهم، وهم يعتقدون أن تعاليمهم تتجاوز الزمان والمكان، وهكذا نرى أصحاب المذاهب لا زالوا يلتزمون أقوال أئمتهم على الرغم من طول المسافة بينهم.. ولست أدري لم جاز لأولئك أن يتجاوز الزمان، ولم يجز لأئمة أهل البيت الذين نهلوا من منبع النبوة الصافي هذا التجاوز؟

2 ـ فرية القول بتحريف القرآن الكريم:

---

[1] الحكومة الإسلامية : 112.

[2] المصدر نفسه : 91.

[3] البخاري، (3/ 37)، برقم: (1964)، ومسلم (2/ 774)، برقم: (1102)..

وهي الفرية الثانية التي بنى عليها سعيد حوى تكفيره للخميني ولجميع الشيعة، ومثله كل الطائفيين الذين لم يبذلوا أي جهد في التحقق من مدى صحة ذلك، وإنما اكتفوا بذلك البحث الانتقائي المبني على المزاج والرغبة، لا على التحقيق العلمي الصادق، ولذلك يظهرون ما يشاءون ويكتمون ما يشاءون.

ولهذا نجدهم كل حين يذكرون كتاب (فَصلُ الخِطابِ في تَحريفِ كِتابِ رَبِّ الأربابِ) لميرزا حسين بن محمد تقي النوري، ويتركون عشرات الكتب التي ألفت في الرد عليه، من أمثال كتاب (كشف الارتياب في عدم تحريف كتاب رب الأرباب) للطهراني، وكتاب (حفظ الكتاب الشريف على شبهة القول بالتحريف) للسيد هبة الدين الشهرستاني، وكتاب (الحجة على فصل الخطاب في إبطال القول بتحريف الكتاب) لعبد الرحمن الهيدجي، وكتاب (البرهان على عدم تحريف القرآن) للميرزا البروجردي، وكتاب (آلاء الرحمن في الرد على تحريف القرآن) للميرزا عبد الرحيم المدرس الخياباني، وكتاب (بحر الفوائد في شرح الفرائد)، للميرزا الأشتياني، وكتاب (التحقيق في نفي التحريف عن القرآن الشريف) للسيد علي الميلاني، وكتاب (حقائق هامة حول القرآن الكريم) للسيد جعفر مرتضى العاملي، وكتاب (سلامة القرآن من التحريف) لفتح الله المحمدي.. وغيرها كثير،

وهكذا نجدهم يأخذون بعض أقوال الخميني التي يبين فيها التحريف المعنوي الذي وقع للمسلمين أثناء تعاملهم مع القرآن الكريم عبر التاريخ، ويجعلون ذلك من أسباب تكفيره، مع أن ذلك من المتفق عليه بين المسلمين جميعا، فالقرآن الكريم معصوم في تنزيله، ولكن ليس معصوما في فهمه وتفسيره، وإلا أصبح التفسير نفسه منزلا من الله تعالى، ولم يقل بذلك أحد.

وهم في أثناء حملتهم عليه ينسون أنه كان لا يدع مناسبة إلا ويذكر فيها بسلامة القرآن الكريم من التحريف، ومن ذلك قوله: (إن الواقف على عناية المسلمين بجمع القرآن وحفظه وضبطه قراءةً وكتابةً يقف على بطلان تلك المزعومة – التحريف – وما

ورد فيها من أخبـــار – حســـبما تمســـكوا – إما ضـــعيف لا يصـــلح الاستدلال به أو مجعول تلوح عليه أمارات الجعل أو غــريب يقضي بالعجب أما الصحيح منها فيرمي إلى مسألة التأويل والتفسير وإن التحريف إنما حصل في ذلك لا في لفظه وعباراته)[1]

بناء على هذا، وبناء على أنه سـبق أن تحـدثنا عن رد الشـيعة على هذه الفرية في الفصل الأول من هذا الكتاب، فسـنكتفي هنـا بوجهين مهمين مرتبطين بأهل السنة أنفسـهم، وهي شـهادة كبـار أعلامهم على كــون القــول بتحريــف القــرآن فريــة موجهــة من الطائفيين ضد الشيعة، والثاني أن أمثال تلك الروايات التي يرمي من خلالها الطائفيون الشيعة يوجد في كتب المدرسة السنية.

ونرى أن هذين الوجهين وحدهما كافيـان في الـرد على هـذه الفرية، لكن للمؤمن الورع الذي يخاف الله، أما غير الورع، والذي يتجاهل أمثال هذه الردود، فندعوه بأن يـذهب إلى إيـران، ويفتش لنا عن هذه المصاحف التي يتحدث عنها، ليخرجها للعـالم، ويكـون بذلك أكبر مكتشف في التاريخ.

أ ـ رد علماء السنة على هذه الفرية:

لم يكتف علماء الشيعة وحدهم بـالرد على هـذه الفريـة، بمـا فيهم الإمام الخميني نفسه كما ذكرنا ذلك سابقا، وإنما تصدى لهـا أيضـا الكثـير من الصـادقين من العلمـاء والبـاحثين من المدرسـة السنية، وخصوصا أولئك الذين تسـنى لهم أن يرجعـوا إلى مراجـع الشيعة، أو يلتقوا بعلمائهم، أو يزوروا بلادهم.

ومنهم الشيخ رحمة اللـه الهنـدي في رده على الشـبهة الـتي يبثها المبشرون حول تحريف القرآن الكريم، والتي اعتمـدوا فيهـا للأسف على ما يفتريه السلفية على الشـيعة، فقـد قـال: (القـرآن المجيد عند جمهور علماء الشيعة الإمامية الاثني عشـرية محفـوظ من التغيير والتبديل، ومن قـال منهم بوقـوع النقصـان فيـه،فقولـه

[1] () تهذيب الأصول ج 2 ص 165 تقريرات درس الإمام الخميني.

مردود غير مقبول عندهم)[1]

ومنهم الشيخ محمد أبو زهرة الذي قال في كتابه عن الإمـام الصادق: (القرآن بإجماع المسلمين هو حجة الإسلام الأولى، وهـو مصدر المصادر له، وهو سجل شريعته، وهـو الـذي يشـتمل على كلّها وقد حفظه الله تعالى إلى يـوم الـدين كما وعـد سـبحانه إذ قـال{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}(الحجـر: 9)، وإن إخواننا الإماميـة على اختلاف منـازعهم يرونـه كما يـراه كـل المؤمـنين)[2]، وقـال في نفس الكتـاب: (إن الشـريف المرتضـى وأهل النظر الصادق من إخواننا الإثنا عشـرية قـد اعتـبروا القـول بنقص القرآن أو تغييره أو تحريفـه تشـكيكا في معجـزة النـبي ﷺ، واعتبروه إنكارا لأمر علم من الدين بالضرورة) [3]

ومنهم الشيخ محمد الغزالي الذي رد على هذه الشبهة كثـيرا في محاضراته وكتبه، ومن ذلـك قولـه: (سـمعت من هـؤلاء يقـول في مجلس علم : أن للشـيعة قرآنـا آخـر يزيـد وينقص عن قرآننـا المعـروف ! فقلت : أين هـذا القـرآن ؟ ! ولــماذا لم يطلـع الإنس والجن على نسخة منه خلال هذا الدهر الطويل ؟ لمـاذا يساق هذا الافتراء ؟ … ولمـاذا هذا الكذب على الناس وعلى الوحي)[4]

ومنهم الشـيخ محمـد علي الزعـبي الـذي قـال: (لقـد اتفـق المسلمون - ويحـز في قلـبي الألم حين أصـفهم بالسـنة والشـيعة بعد أن دعاهم الله مسلمين ورضي لهم الإسلام دينا - اتفقـوا على عصمة القرآن وحفظه منذ عهد نـزوله حـتى الآن، فالسـنيون على تعداد مذاهبهم الفقهية المعروفة، والتي أصبحت في ذمة التـاريخ،

1() إظهار الحق، ص 431 ..

2() الإمام الصادق ص296.

3() الإمام الصادق ص329.

4() دفاع عن العقيدة و الشريعة، ص220.

والشيعة، سواء أكانوا إمامية اثني عشرية أو زيدية أو إسماعيلية : بـــهرة أم موحّـــدين أم آغاخانية... جميعهم ينظـــرون كتـــاب الله الموجود بين أيدي الناس معصـوما محفوظا كما أنـزل، ويعتقـدون أنه هو نفسه الذي أنزلـه اللـه لرسـوله محمـد ﷺ، ووصـل النـاس دون زيـادة أو نقص، نعم هـذا مـا اتفـق عليـه مسـلمو العـالم في جميع عصورهم وهذا ما سجله مؤلفـوهم ومحققـوهم ومخلصـوهم ولو أردنا أن نقول للقـارئ راجـع كتـاب كـذا وصـفحة كـذا لأذهبنـا سجلا بأسماء الكتب)[1] .

ومنهم الشـيخ سـالم البهنسـاوي الـذي قـال : (إن الشـيعة الجعفرية الاثني عشرية يرون كفر من حرّف القرآن الذي أجمعت عليه الأمـة منـذ صـدر الإسـلام.. وإن المصـحف الموجـود بين أهـل السنة هو نفسه الموجود في مساجد وبيوت الشيعة وأنـه لا يوجـد منهم في عصرنا من يقـول بمـا جـاء في بعض كتبهم القديمـة عن مصحف فاطمة بل يقولون إن هذه روايات غـير صـحيحة مـردودة كما أن أئمة الشيعة في عصرنا يؤكدون ذلك)[2]

ومنهم الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز الذي قال: (ومهمـا يكن من أمر فإن هذا المصـحف هـو الوحيـد المتـداول في العـالم الإسـلامي، بـــما فيـه فـرق الشـيعة، ومنـذ ثلاثـة عشـر قرنـا من الزمان، ونذكر هنا رأي الشيعة الإمامية، أهم فرق الشـيعة)[3]، ثم ذكر كلام الشيخ الصدوق الذي سبق ذكرنا له.

ومنهم الـدكتور علي عبـد الواحـد وافي الـذي قـال: (يعتقـد الشيعة الجعفرية كما يعتقد أهل السنة أن القرآن الكريم هـو كلام الله عز وجل المنـزل على رسوله المنقول بـالتواتر والمـدوّن بين دفتي المصحف بسـوره وآياتـه المرتبـة بتوقيـف من الرسـول ﷺ،

1() لا سنة ولا شيعة ص 239 .

2() السنة المفترى عليها ص60.

3() مدخل إلى القرآن الكريم ص 39- 40.

وأنه الجامع لأصول الإسلام عقائده وشرائعه وأخلاقه، والخلاف بيننا وبينهم في هذا الصدد يتمثل في أمور شكلية وجانبية لا تمس النص القرآني بزيادة ولا نقص ولا تحريف ولا تبديل ولا تثريب عليهم في اعتقادهم)[1]

وقال: (أما ما ورد في بعض مؤلفاتهم من آراء تثير شكوكا في النص القرآني وتنسب إلى بعض أئمتهم، فإنهم لا يقرونها وتعتقدون بطلان ما تذهب إليه، وبطلان نسبتها إلى أئمتهم ولا نعدها من مذهبهم، مهما كانت مكانة رواتها عندهم ومكانة الكتب التي وردت فيها.. وقد تصدى كثير من أئمة الشيعة الجعفرية أنفسهم لرد هذه الأخبار الكاذبة وبيان بطلانها وبطلان نسبتها إلى أئمتهم وأنها ليست من مذهبهم في شيء) [2]

ومنهم الدكتور محمد عزة دروَزة الذي قال: (وبحيث يمكن القول بجزم بناء على ذلك إن ما ورد في الروايات التي جلها أو كلها غير وثيق السند مع ذلك من زيادات أو نقص في الكلمات والآيات والسور، ومن مخالفة للترتيب لم يثبت عند الملأ من أصحاب رسول الله وناتج عن وهم وخطأ، ولبس وعدم تثبت فأهمل، ومنه ما يصح القول بقوة : إنه مخترع ومدسوس بنية سيئة وقصد مغرض. وجمهور العلماء والمؤلفين مجمعون على هذه الحقائق بدون خلاف، ومن جملة ذلك علماء ومؤلفو الشيعة الإمامية)[3]

ومنهم الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي الذي قال: (والقرآن الكريم هو الموجود الآن بأيدي الناس من غير زيادة ولا نقصان، وما ورد من أنّ الشيعة الإمامية يقولون بأن القرآن قد اعتراه النقص هذا الادعاء أنكره مجموع علماء الشيعة الأعلام ..

1() بين الشيعة وأهل السنة ص35.

2() بين الشيعة وأهل السنة ص37.

3() القرآن والملحدون ص 322.

فالقرآن الكريم -إذن هو عصب الدولة الإسلامية، تتفق مذاهب أهل السنة مع مذهب الشيعة الإمامية على قداسته ووجوب الأخذ به. وهو نسخة موحدة لا تختلف في حرف ولا رسم لدى السنة والشيعة الإمامية في مختلف ديارهم وأمصارهم)[1]

ومنهم المحدث الكبير، الذي قال في بعض الحصص التلفزيونية[2] : (إنّ الشيعة من يوم أن برزوا إلى وقتنا هذا، لا نعرف لهم بين أيدينا ولا بين أيديهم، لا نعرف لهم مصحفاً آخر، فالموضوع انتهى والقضية منتهية والمعادلة صفرية ولا تحتاج إلى أخذ ورد، ولكن تحتاج إلى شيءٍ من المجهود من خلاله نبيّن للناس أن الحقيقة أنّ الشيعة ليس لهم كتاب آخر ولا مصحف آخر ولا هذه الأشياء)

ثم رد على تلك الفرية التي يتعلق بها السلفيون، والتي يطلقون عليها (مصحف فاطمة)[3]، فقال: (وحتى بعض الشيعة، هذه أمور علمية، ادّعوا بوجود مصحف اسمه مصحف فاطمة، هذا مصحف فاطمة عبارة عن أوراق سُمّيت صحفاً، وهذه الصحف كانت كثيرة، حقيقتها أنها كتبت في بيت فاطمة بعد وفاة النبي ﷺ، واتّفق علماء الشيعة قاطبة من الأولين والآخرين بالروايات الصحيحة وغير الصحيحة أنه لا يوجد في هذا المصحف، أي في هذه الصحف، آية قرآنية واحدة، ولا يوجد في هذه الصحف ما يتعلق بالتشريعات على الإطلاق، إنما هي وصايا وأسماء بعض الناس.. فمصحف فاطمة كذلك، لا يوجد شيء اسمه مصحف فاطمة إطلاقاً، هذه أكذوبة ليست حقيقية، أنا لا أدري من أين يأتي هؤلاء الناس بهذا الكلام)

1()) إسلامنا ص 75.

2() أكذوبة مصحف الشيعة، قناة الميادين، حصة ألف لام ميم بتاريخ، 5/10/2017.

3() الشيعة الإمامية يعتقدون أن لفاطمة كتابا يسمى [مصحف فاطمة]، وأنه لا يوجد به شيء من القرآن، وإنما فيه أخبار من يملك والحوادث الآتية على الناس، وليس بقرآن للشيعة كما يذكر السلفية، والمصحف في اللغة يعني ما جمع في الصحف سواء كانت صحفا كتب فيها قرآن أم غيره..

ثم تحــدث عن مصــحف علي بن أبي طــالب، فقــال: (هــو مصحف جمعه الإمام علي كما جمع غيره من الصحابة وليست فيه زيادة ولا نقصان، ولو كان هناك نوع من الزيـادة أو النقصـان فـإن الإمام علي عليه سلام الله له ذرية كبيرة ولـه أتبـاعٌ كثـيرون، ولم ينقطعوا على الإطلاق، هؤلاء كانوا سيُبرزون هـذه الاختلافـات بين المسلمين وكانوا سيبيّنون هذه السورة عندكم كذا وهـذه السـورة عنـدنا كـذا، وهـذا لم يحـدث على الإطلاق، فالمسـلمون جميعـاً مجمعـون على أن المصـحف والـذي بين دفّـتي هـذا الكتـاب، من وقت رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا)

ومنهم د. محمـد سـليم العـوا في كتابـه [العلاقـة بين السـنة والشيعة][1]، والذي حاول أن يعالج فيه بإنصـاف كبـير الكثـير من المشتركات بين السنة والشيعة، مما صب عليه وابلا من التهم بعد ذلك، بـل راح الكثـير يغيبـه عن السـاحة العلميـة والبحثيـة بسـبب موقفه ذلك.

وقد توقف طويلا أثناء بحثه ذلك عند هذه الفريـة، معللا ذلـك بأن (كثيرا من علماء أهل السنة وعـامتهم يعتقـدون اعتقـادا شـبه جازم أن الشيعة الإمامية يعتقدون أن القرآن محرف بالنقص منه)

ومن تصريحاته في الكتاب حول تكذيب فرية تحريف القــرآن الكريم عند الشيعة قوله: (ما يجمع بيننـا وبين إخواننـا من الشـيعة الإمامية الإيمان بالله تعالى ربا وبمحمد نبيا ورسولا وبكل مـا جـاء به من عند الله تبارك وتعالى، وكذلك الإيمان بـالقرآن كتابـا مـنزلا من عند الله، والالتزام بالأحكام العمليـة من صـلاة وصـيام وزكـاة وحج)

وهــو يستشــهد في الكتــاب بمــا نص عليــه الشــيخ يوســف القرضــاوي نفســه في كتابــه (مبــادئ في الحــوار والتقــريب بين المذاهب الإسلامية)، والذي قال فيه: (ولا يخـالف مسـلم سـني أو شيعي في أن ما بين الدفتين من سورة الفاتحة إلى سورة الناس

[1] أصل الكتاب محاضرة ألقيت في مقر نقابـة الصـحفيين بالقـاهرة مسـاء الأربعـاء 6 سبتمبر/أيلول 2006 بدعوة من لجنة المتابعة في النقابـة وأذاعتهـا قنـاة الجزيـرة، وهـو من منشورات دار الزمن، الرباط، الطبعة: الأولى 2007..

هو كلام الله المنزل على محمد ﷺ، به يستدل الفقهاء والمتكلمون وإليه يرجع الدعاة والمرشدون، ومنه يستمد الموجهون والمربون بلا خلاف بين أحد منهم وآخر على حرف فما فوقه أنه من كلام الله تعالى)

ب ـ روايات التحريف وكتب المدرسة السنية:

وهو وجه خطير جدا، ذلك أنه لو اعتبرنا أمثال تلك الروايات التي يعتمد عليها المفترون في ادعائهم بأن الشيعة يقولون بتحريف القرآن الكريم، فإننا سنجد أمثالها في المدرسة السنية، وبذلك تعطي الذريعة لمن يريد أن يتهم السنة بالقول بتحريف القرآن، وذلك ما حصل للأسف في الواقع الإسلامي، وجعل الكثير من المبشرين والمستشرقين والحداثيين، يشككون في القرآن الكريم.

وقد قال الأستاذ محمد المديني عميد كلية الشريعة بجامعة الأزهر معبرا عن هذه الحقيقة: (وأمّا أن الإمامية يعتقدون نقص القرآن، فمعاذ الله. إنما هي روايات رويت في كتبهم، كما روي مثلها في كتبنا. وأهل التحقيق من الفريقين قد زيّفوها، وبينوا بطلانها وليس في الشيعة الإمامية أو الزيدية من يعتقد ذلك كما أنه ليس في السنة من يعتقده)

ثم ذكر مثالا على ذلك، فقال: (وقد ألّف أحد المصريين كتابا اسمه (الفرقان) حشاه بكثير من أمثال هذه الروايات السقيمة المدخولة المرفوضة، ناقلا لها عن الكتب والمصادر عند أهل السنة، وقد طلب الأزهر من الحكومة مصادرة هذا الكتاب بعد أن بين بالدليل والبحث العلمي أوجه البطلان والفساد فيه، فاستجابت الحكومة لهذا الطلب وصادرت الكتاب، فرفع صاحبه دعوى يطلب فيها تعويضا، فحكم القضاء الإداري في مجلس الدولة برفضها)

ثم تساءل بناء على هذا قائلا: (أفيقال أنّ أهل السنة ينكرون قداسة القرآن ؟ أو يعتقدون نقص القرآن لرواية رواها فلان ؟ أو لكتاب ألفه فلان ؟ فكذلك الشيعة الإمامية، إنما هي روايات في

بعض كتبهم كالروايات التي في بعض كتبنا)[1]

وما ذكره للأسف صحيح، فقد روى ابن أبي داود بسنده إلى ابن شهاب الزهري، أنه قال: (بلغنا أنه كان أنزل قرآن كثير، فقتل علماؤه يوم اليمامة الذين كانوا قد وعوه ولم يعلم بعدهم ولم يكتب)[2]

وروى عبد الرزاق الصنعاني في المصنف عن سفيان الثوري، وهو من أئمة السلف قوله: (وبلغنا أن أناسا من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقرؤون القرآن أصيبوا يوم مسيلمة فذهبت حروف من القرآن)[3]

وروى الحافظ ابن عبد البر عن مجاهد قال : (كانت الأحزاب مثل سورة البقرة أو أطول، ولقد ذهب يوم مسيلمة قرآن كثير، ولم يذهب منه حلال ولا حرام)[4]

وروى الذهبي في [تاريخ الإسلام] عن الزهري أنه سئل عن التقديم والتأخير في الحديث، فقال : (هذا يجوز في القرآن فكيف به في الحديث إذا أصيب معنى الحديث فلا بأس)[5]

وروى عبد بن حميد عن محمد بن سيرين أنه سئل كيف تقرأ هذه الآية {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ}(سبأ: 23)، أو (فرغ عن قلوبهم) قال : {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ}، قال : فإن الحسن

1() مجلة رسالة الإسلام العدد الرابع من السنة الحادية عشرة ص 382 و 383.

2() المصاحف لأبي بكر بن أبي داود ص31، وفي طبعة قطر المحققة من محب الدين واعظ في المجلد1ص216ح81 نص على صحة الأثر عن الزهري.

3() المصنف للصنعاني ج7ص330.

4() التمهيد في شرح الموطأ ج 4ص275 شرح حديث رقم 21.

5() تاريخ الإسلام حوادث (121-140هـ) ص241 ..

يقول بـرأيه أشياء أهاب أن أقولـها)[1]

وروى الطـبري عن الحسـن البصـري أنـه قـال : في قولـه تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْـرٍ مِنْهَـا}(البقـرة:106) قـال : إن نـبيكم ﷺ أقـرئ قرآنـا، ثم نسـيه فلم يكن شـيئا، ومن القرآن ما قد نسخ وأنتم تقرءونه)[2]

وروى ابن الضريس في فضائله عن حماد بن سـلمة ــ الـذي يعتبره السلفية إماما كبيرا من أئمتهم ـ قال : (قرأنـا في مصـحف أبي بن كعب (اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك)، قال حماد : هـذه الآن سـورة، وأحسبه قال : (اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد واليـك نسـعى ونحفد نخشى عذابك ونرجو رحمتك إن عذابك بالكفار ملحق)[3]

وروى الطبري في تفسيره عن الربيـع في قولـه تعـالى:{وَإِذْ أَخَـذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ النَّبِيِّينَ}(آل عمـران:81) يقـول : (وإذ أخـذ اللـه ميثاق الذين أوتوا الكتاب)، وكذلك كـان يقرؤهـا الربيـع (وإذ أخـذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) إنــما هي (أهـل الكتـاب)، قـال : وكذلك كان يقرؤها أبي بن كعب. قال الربيـع : ألا تـرى أنـه يقـول {ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَـدِّقٌ لِمَـا مَعَكُمْ لَتُـؤْمِنُنَّ بِـهِ وَلَتَنْصُـرُنَّهُ }(آل عمـران:81) يقـول : لتـؤمنن بمحمـد ولتنصـرنه، قـال : هم أهـل الكتاب)[4]

وروى أبو عبيد في قوله تعالى:{قَـالُوا إِنْ هَـذَانِ لَسَـاحِرَانِ} (طــه: 63) عن أبي عمــرو وعيســى ويــونس : (إن هــذين لساحران) في اللفظ وكُــتب { هَـذَانِ } كمـا يزيـدون وينقصـون

1() الدر المنثور ج5ص237.

2() جامع البيان للطبري ج1ص665ح1448.

3() الدر المنثور ج6 ص420.

4() تفسير الطبري ج3ص331.

في الكتاب [1].

هذه مجـرد نمـاذج عن النصـوص الـواردة في كتب المدرسـة السـنية، والـتي لـو شـاء أي أحـد أن يـواجههم بهـا لكـان لـه بعض الحجة في ذلك، لذلك كان الأجدر بالمؤمن الورع ألا يحملـه حقـده على الآخـر على تقـويض دينـه ومصـادره المقدسـة، وإلا كـان من المكتالين بالمكاييل المزدوجة، فهو إمـا أن يقـر بمـا في كتبـه من ورود النقص والزيادة في القرآن الكريم على حسب ما تدل عليـه تلك الروايات، أو ينكرها، وعليه حينهـا أن يتعامـل بنفس المعاملـة مع ما ورد في كتب المدرسة الشيعية.

وأحب أن أذكر هنا أن المـيرزا النـوري صـاحب ذلـك الكتـاب الذي يشهره السلفيون، ويبشرون به، ليفتروا من خلاله مثل هــذه الفريــة الخطــيرة على الشــيعة، لم يكتــف بالروايــات من كتب الشيعة، وإنما ذكر الكثير منها من كتب السـنة، وبـذلك فـإن الـذي يساهم في إشهار الكتاب والدعوة إليه هو في الحقيقـة يـرمي كلا المدرستين بهذه الفرية الخطيرة.

3 ـ فرية الموقف من الصحابة:

وهي فريـة عجيبـة يسـتند فيهـا المغرضـون والحاقـدون على إيران، وخاصة في ثوبهـا الإسـلامي الجديـد إلى بينـات لا تمت لهـا بصلة، بل هي بعيدة عنها، ولا علاقة لها بها، بـل إنهـا تـدخل ضـمن مؤامرات أعدائها، في نفس الـوقت الـذي يغفلـون فيـه عن آلاف، بل عشرات آلاف الوثائق التي تـبين الموقـف الصـحيح للإيرانـيين، ولقادة الثـورة الإسـلامية خصوصـا من هـذه القضـية، الـتي جعلهـا الأعداء قميص عثمان الذي به يعلنون الحرب عليها.

فالكثير ممن يتحدث عن سب الصحابة، ولعنهم يستند لياســر الحبيب وقنواته التي تبث من لندن، أو للهيـاري، وقناتـه الـتي تبث من واشنطن، وكلاهما ليسا من إيران، وكلاهما يعـادي الجمهوريـة الإسلامية الإيرانية، وكلاهما يعادي نظام ولايـة الفقيـه، بـل كلاهمـا يعتبر قادة الجمهورية الإسلامية من النواصب الذين يجب حربهم.

---

[1] () مجاز القرآن ج2ص21 لأبي عبيدة المتوفى 210هـ ..

فهل يمكن عقلا أن نستند لمثل هؤلاء في دعاوانـا، في نفس الوقت الذي نترك فيه المراجـع الكبـار لإيـران والعـراق وغيرهمـا، والذين يصدرون كل يوم الفتاوى في تحريم أمثال تلك التصـرفات البشعة التي تهدد الوحـدة الإسـلامية، بـل يعتبرونهـا مـؤامرة على الإسلام؟

وقبل أن أذكر بعض الوثائق الكبرى للدلالة على المدى الـذي يحترم به الإيرانيون الصحابة، قادة وشـعبا، أتحـدى أي شـخص أن يأتيني بشاهد واحد من قنـاة من القنـوات الـتي تبث من إيـران أو العراق، فيـه لعن أو سـب لأحـد من الصـحابة، أو لأي مقـدس من مقدسات المدرسة السنية.

لن يجد ذلك أبدا، لأن ذلك محـرم على كـل من يـؤمن بولايـة الفقيه التي أصدرت فتاواها المشددة في تحريم التعرض للصحابة بما لا يليق مع مكانتهم، وقد تبنى هـذه الفتـاوى كـل قادتهـا ابتـداء من الخميني وانتهاء بالخامنئي، ومعهما كل المراجـع الكبـار الـذين يحظون بملايين الأتباع، لا في إيران وحـدها، بـل في جميـع العـالم الإسلامي.

ولـذلك فإنـه لـو أحصـينا ذلـك الجمهـور الـذي يسـتند إليـه المغرضون في سب الصحابة، فلن يجدوا إلا فئـات محـدودة جـدا، وهي من الشواذ الذين لا يقاس عليهم.

ولهـذا، لا يصـح ــ دينـا وخلقـا ــ أن يحملـوا على الجمهوريـة الإسلامية الإيرانية أوزار أعدائها، كما لا تحمل الجمهورية الإسلامية أوزار أولئك الذين يسيئون إلى السنة في المدرسة السنية، سـواء بتلك الأفكار الشاذة التي نسمعها كل حين، أو بـذلك العنـف الـذي تأسست منه الكثير من الجماعات، وهي تـدعي نسـبتها للمدرسـة السنية.

وقبـل أن أذكـر بعض النمـاذج من أقـوال القـادة السياسـيين والفكريين للجمهورية الإسلامية الإيرانيـة حـول الصـحابة، أحب أن أذكر أن لهم دعاء خاصا للصحابة، يدعون به كل حين، مثلهم مثـل جميع الشيعة في العالم، وهو دعـاء لا نجـد نظـيرا لـه للأسـف في

المدرسة السنية.

ونص الدعاء هـو: (اللهم وأصـحاب محمـد (صـلى اللـه عليـه وآله) خاصة الذين أحسنوا الصحبة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصـره، وكـانفوه وأسـرعوا إلى وفادتـه، وسـابقوا إلى دعوتـه، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوتـه، وانتصـروا به، ومن كـانوا منطـوين على محبتـه، يرجـون تجـارة لن تبـور في مودته، والذين هجـرتهم العشـائر إذ تعلقـوا بعروتـه، وانتفت منهم القرابات إذ سكنوا في ظـل قرابتـه، فلا تنس لهم اللهم مـا تركـوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك، وبما حاشوا الخلق عليـك وكـانوا مـع رسـولك دعـاة لـك إليـك، واشـكرهم على هجـرهم فيـك ديـار قومهم، وخروجهم من سعة المعـاش إلى ضـيقه، ومن كـثرت في إعزاز دينك من مظلومهم. اللهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا)[1]

بل إن المتدينين منهم يخصونهم بالدعاء كل يـوم ثلاثـاء، فمن أدعية يوم الثلاثاء في المدرسة الشيعية: (اللـهم صـل على محمـد خاتم النبيين، وتمام عدة المرسلين وعلى آله الطيـبين الطـاهرين، واصحابه المنتجبين)

بالإضـافة إلى ذلـك، فهم يـرددون في مسـاجدهم كـل حين بأصواتهم الشجية ذلـك الثنـاء العطـر الـذي قالـه الإمـام علي عن الصادقين السابقين من الصحابة، والذي يقـول فيـه: (أين إخـواني الذين ركبـوا الطريـق ومضـوا على الحـق ؟ أين عمـار ؟ وأين ابن التيهان ؟ وأين ذو الشهادتين ؟ وأين نظراؤهم من إخـوانهم الـذين تعاقـدوا على المنيـة وأبـرد برؤوسـهم إلى الفجـرة ؟ أوه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه وتدبروا الفرض فأقاموه. أحيوا السنة وأماتوا البدعة، دعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه)[2]

1() الصحيفة السجادية، الدعاء 4..

2() نهج البلاغة، الخطبة 182..

ويرددون معها قوله يوم صفين، يوم فرض عليه الصلح: (ولقد كنا مع رسول الله ﷺ نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما، ومضيا على اللقم، وصبرا على مضض الألم، وجدا في جهاد العدو، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرة لنا من عدونا، ومرة لعدونا منا. فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر، حتى استقر الإسلام ملقيا جرانه ومتبوئا أوطانه، ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم ما قام للدين عمود، ولا اخضر للإيمان عود)[1]

ويقرؤون معها قوله في تلك الخطبة العصماء، التي لا نجد لها نظيرا في المدرسة السنية في وصف الصحابة، فقد قال عنهم: (لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فما أرى أحداً يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجّداً وقياماً يراوحون بين جباهِهِم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين أعينهم رُكب المعزي من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبُلَّ جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب)[2]

وهكذا نجد النصوص الكثير في التراث الشيعي، وخصوصا ذلك الذي يتعبدون به، ويقرؤونه في مساجدهم ودورهم وفي كل محل.

ونقطة الخلاف بين السنة والشيعة في المسألة لا تعدو أمرين:

الأول: أن الشيعة لا يرون عصمة الصحابة، ولذلك يجوزون نقدهم، وخصوصا في إعراضهم عن الإمام علي باعتباره عندهم هو وصي رسول الله ﷺ، ولذلك هم لا ينكرون كون الذين أعرضوا عنه من الصحابة، ولا أن لهم فضل الصحبة، ولكن ينكرون عليهم

1() نهج البلاغة، الخطبة 56..

2() نهج البلاغة للشريف الرضى شرح محمد عبده ص 225..

ذلك الإعراض.

وهكذا هم لا ينكرون كون عائشة زوجة لرسول الله ﷺ، وأنها أم المؤمنين، وأن لها الكثير من الفضل بسبب ذلك، ولكن ينكرون عليها خروجها على الإمام علي، وحربها له، ولهذا يروون في مصادرهم المعتبرة أن عليا بعد انتصاره في معركة الجمل لم يسئ إليها ولم يؤذها، بل ردها مكرمة إلى بيتها، بعد أن عاتبها على خروجها الذي سبب فتنة للمسلمين.

وهو ما تتفق معهم فيه المدرسة السنية، فقد قال الذهبي: (روى إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس قال: قالت عائشة وكانت تحدث نفسها أن تدفن في بيتها، فقالت: إني أحدثت بعد رسول الله ﷺحدثا، ادفنوني مع أزواجه فدفنت بالبقيع)، ثم علق على ذلك بقوله: (تعني بالحدث: مسيرها يوم الجمل؛ فإنها ندمت ندامة كلية وتابت من ذلك، على أنها ما فعلت ذلك إلا متأولة قاصدة للخير، كما اجتهد طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وجماعة من الكبار)[1]

وقال الزيلعي: (وأجمعوا على أن عليا كان مصيبا في قتال أهل الجمل، وهم طلحة، والزبير، وعائشة، ومن معهم، وأهل صفين، وهم معاوية، وعسكره، وقد أظهرت عائشة الندم، كما أخرجه ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب عن ابن أبي عتيق، وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، قال: قالت عائشة لابن عمر: يا أبا عبد الرحمن، ما منعك أن تنهاني عن مسيري؟! قال: رأيت رجلا غلب عليك - يعني ابن الزبير- فقالت: أما والله لو نهيتني ما خرجت)[2]

وقال الألباني ـ والذي يزعم السلفية أنهم شيعة له ــ بعد ذكره لحديث الحوأب: (وجملة القول أن الحديث صحيح الإسناد، ولا إشكال في متنه.. فإن غاية ما فيه أن عائشة لما علمت

1() سير أعلام النبلاء: 3/ 462.

2() نصب الراية (4/ 69)

بالحوأب كان عليها أن ترجع، والحديث يدل أنها لم ترجع! وهذا مما لا يليق أن ينسب لأم المؤمنين. وجوابنا على ذلك أنه ليس كل ما يقع من الكمل يكون لائقا بهم، إذ لا عصمة إلا لله وحده. والسني لا ينبغي له أن يغالي فيمن يحترمه حتى يرفعه إلى مصاف الأئمة الشيعة المعصومين! ولا نشك أن خروج أم المؤمنين كان خطأ من أصله، ولذلك همت بالرجوع حين علمت بتحقق نبوءة النبي ﷺ عند الحوأب، ولكن الزبير أقنعها بترك الرجوع بقوله: (عسى الله أن يصلح بك بين الناس) ولا نشك أنه كان مخطئا في ذلك أيضا. والعقل يقطع بأنه لا مناص من القول بتخطئة إحدى الطائفتين المتقاتلتين اللتين وقع فيهما مئات القتلى. ولا شك أن عائشة المخطئة لأسباب كثيرة، وأدلة واضحة، ومنها ندمها على خروجها، وذلك هو اللائق بفضلها وكمالها، وذلك مما يدل على أن خطأها من الخطأ المغفور بل المأجور)[1]

ولهذا عندما نرجع إلى أعلام الشيعة الكبار ومراجعهم، وعلى مدار التاريخ، نجدهم يحترون عرض رسول الله ﷺ، بل عرض جميع الأنبياء، بل يرون من عصمة النبي عصمة عرضه، ولذلك لم يسيئوا لرسول الله ﷺ في عرضه، حتى لو اختلفوا مع بعض أمهات المؤمنين بسبب حربهم للإمام علي.. لأن أمهات المؤمنين وإن عصموا في أعراضهم بسبب ارتباطهم بالمعصوم إلا أنهم ليسوا معصومين فيما عدا ذلك، وقد نص القرآن الكريم على ذلك، بل ذكر أن من نساء الأنبياء من وقع في الكفر ذاته.. وفرق كبير بين الكفر والفاحشة.. فالفاحشة ترتبط بعرض النبي، بخلاف الكفر وغيره، فلا علاقة لذلك بعرض النبي.. بل إن القرآن الكريم ذكر أن أبناء الأنبياء أنفسهم ليسوا معصومين من الكفر، وقد قص علينا من قصة ابن نوح عليه السلام ما يثبت ذلك، وقص علينا من أمر امرأة نوح ولوط ما يدل على ذلك أيضا.

وقد قال العلامة السيد شرف الدين الموسوي، وهو من أعلام الشيعة الكبار في هذا العصر، في أجوبة مسائل جار الله: (من الوجوه التي اعتمد عليها الناصب موسى جار الله في تكفير

[1]() نصب الراية (4 / 69 - 70)

الشيعة الإمامية أنهم يطولون ألسنتهم على عائشة، ويتكلمون في حقها من أمر الافك والعياذ بالله ما لا يليق بشأنها.. إلى آخر افكـه وبهتانه.. والجواب أنها عند الامامية، وفي نفس الأمر والواقع أنقى جيبا، وأطهـر ثوبـا وأعلى نفسـا وأغلى عرضـا وامنـع صـوتا وارفـع جنابا وأعز خدرا واسمى مقاما من أن يجوز عليها غـير النزاهـة أو يمكن في حقها الا العفة والصيانة، وكتب الامامية قديمها وحـديثها شاهد عدل بما أقول، على أن أصولهم في عصمة الانبياء تحيل ما بهتها به أهل الافك بتاتا، وقواعدهم تمنـع وقوعـه عقلا ولـذا صـرح فقيه الطائفة وثقتها أسـتاذنا المقـدس الشـيخ محمـد طـه النجفي أعلى اللـه مقامـه بمـا يسـتقل بحكمـه العقـل من وجـوب نزاهـة الأنبياء عن أقل عائبة ولـزوم طهـارة أعراضـهم عن أدنى وصـمة، فنحن والله لا نحتاج في براءتها الى دليل، ولا نجوز عليهـا ولا على غيرها من أزواج الأنبياء والأوصياء كل ما كان من هذا القبيل)

ثم نقـل عن الشـريف المرتضـى علم الهـدى ردا على من نسب الخنا الى امرأة نوح ـ كما يقول بـذلك ابن تيميـة نفسـه ــ : (إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب عقلا ان ينـزهوا عن مثـل هذه الحال لأنها تعر وتشين وتغض من القدر، وقد جنب الله تعالى أنبياءه عليهم الصلاة والسلام ما هو دون ذلك تعظيما لهم وتوقـيرا لكل ما ينفر عن القبول منهم)

ثم نقل الإجماع على ذلك، فقال: (وعلى ذلك اجماع مفسري الشيعة ومتكلميهم وسائر علمائهم)

ثم بين موضع انتقاد الشيعة لهـا، وهـو ممـا يتفقـون فيـه مـع السنة، فقال: (نعم ننتقد من أفعال أم المؤمنين خروجها من بيتهـا بعد قوله تعـالى: ﴿وَقَـرْنَ فِي بُيُـوتِكُنَّ ﴾ [الأحـزاب: 33] وركوبهـا الجمـل بعـد تحـذيرها من ذلـك ومجيئهـا الى البصـرة تقـود جيشـا عرمرما تطلب على زعمها بـدم عثمـان، وهي الـتي أمـالت حربـه وألبت عليه وقالت فيه ما قالت، ونلومها على أفعالها في البصــرة يوم الجمل الأصغر مع عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلـة ونسـتنكر أعمالها يوم الجمـل الأكـبر مـع أمـير المؤمـنين ويـوم البغـل حيث ظنت أن بني هاشم يريـدون دفن الحسـن المجتـبى عنـد جـده ﷺ

فكان ما كان منها ومن مروان، بل نعتب عليها في سائر سيرتها مع سائر أهل البيت عليهم السلام)

وهذا الذي قاله شرف الدين الموسوي هو نفسه الذي تنص عليه كل المراجع الشيعية المعتمدة.. أما الروايات الباطلة التي اعتمدها عليها المغرضون فهي مرفوضة من جميع المراجع لمعارضتها العقل والفطرة والقرآن الكريم.

الثاني: هو أن الشيعة يقصرون لقب الصحبة وشرفها على من صحبوا رسول الله ﷺ حقيقة، وورد الثناء عليهم في القرآن الكريم، واعتبارهم من المهاجرين والأنصار، وهو خلاف ما تتبناه المدرسة السنية التي تجعل الصحابة كل من رأى رسول الله ﷺ، وهي بذلك لا تفرق بين قوم رسول الله ﷺ، وبين أصحابه، مع أن الصحبة في الأصل لا تكون إلا لعدد محدود.

والمشكلة ليست في مجرد اللقب، وإنما في اعتبار كل من رأى رسول الله ﷺ، وهم عشرات الآلاف من الناس، ثقات وعدول، يمكن أن يؤخذ عنهم الدين حتى لو لم يكن حظهم من الصحبة إلا رؤية رسول الله ﷺ.

مع أننا لو عدنا للقرآن الكريم، فإننا نجده يصنف قوم رسول الله ﷺ إلى أصناف متعدد، حيث نجد فيه الحديث عن السابقين الأولين، والمبايعين تحت الشجرة، والمهاجرين المهجرين عن ديارهم وأموالهم، وأصحاب الفتح، وهؤلاء جميعا يثني عليهم ويذكر فضلهم.

لكنه في نفس الوقت يذكر أصنافا أخرى، وضعت للأسف بعد ذلك جميعا ضمن الصحابة، كالمنافقين.. أو المنافقين المتسترين الذين لا يعرفهم النبي ﷺ، كما قال تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة: 101]، أو مرضى القلوب وضعفاء الإيمان الذين ذكروا كثيرا في القرآن الكريم.. أو السماعين لأهل الفتنة، أو الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا.. أو المشرفين على الارتداد عندما

دارت عليهم الــدوائر .. أو الفســاق الــذين لا يصــدق قــولهم ولا فعلهم.. أو المســلمين الــذين لم يــدخل الإيمــان في قلــوبهم.. أو المؤلفة قلوبهم الذين يظهرون الإسلام ويتـآلفون بـدفع سـهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم.. أو المولين أمام الكفار.

وبـذلك فـإن القـرآن الكـريم يـذكر لنـا أن المسـلمين الـذين عاصروا رسول الله ﷺ لم يكونوا صنفا واحـدا، بـل كـانوا مختلفين في قوة الإيمان وضعفه، وفي مدى طاعة رسول اللـه ﷺ.. لـذلك لا يصح عند الشيعة اعتبارهم جميعا عدولا وثقات، أو القـول بـأنهم جميعـا هـداة ومهتـدين، وأنـه يصـح الاقتـداء بـأي منهم، لأن ذلـك سيعرض الدين للتحريف والتشويه.

وأحب أن أنبه هنا إلى الخطأ الكبـير الـذي يـذكره الكثـير من المغرضين إما جهلا أو عن سوء قصـد، وهي اعتبـارهم أن الشـيعة يقولون بردة جميـع الصـحابة، وأنـه لم يبـق منهم إلا عـدد محـدود جدا، وهذا ناتج عن عدم مراجعة كتبهم، أو عدم التحقيق فيها، بــل عن عـدم الرجـوع لكتب المدرسـة السـنية نفسـها، فقـد ورد في الصحيحين قال النبي ﷺ: (إني فرطكم على الحوض من مر علي شـرب، ومن شـرب لم يظمـأ أبـدا، لـيردن علي أقـوام أعـرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، فأقول : إنهم مني، فيقـال : إنـك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول : سحقا، سحقا، لمن غير بعــدي)[1]

وفي روايــة أخــرى عن النــبي ﷺ أنــه قــال : (لــيردن علي الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رأيتهم ورفعـوا إلي اختلجـوا دوني، فلأقولن : أي رب أصيحابي أصيحابي، فليقـالن لي : إنـك لا تدري ما أحدثوا بعدك)[2]

ولذلك فإن الشيعة ــ في مدرسـتهم الأصـولية ــ لا يقصـدون بـالردة مفهومهـا الحقيقي، الـذي هـو الكفـر، وإنمـا يقصـدون بهـا

1() رواه البخاري (6212) ومسلم (2290).

2() رواه البخاري (6211) ومسلم (2304).

تضييع وصية رسول الله ﷺ، ومخالفتها، وهم يقولون بأن الكثير من الصحابة تداركوا ذلك بعد ذلك، ولذلك يضعونهم من جملة الصحابة المرضي عنهم، خاصة بعد وقوفهم مع الإمام علي، واستماتتهم في الدفاع عن خلافته الراشدة.

ولو أننا رجعنا إلى كتب الطبقات لديهم، لوجدنا كما كبيرا جدا من الصحابة، كلهم ممن يقبلونه ويترضون عنه، ومن الأمثلة على ذلك كتاب (الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة)، وهو لصدر الدين السيد على خان المدنى الشيرازي الحسيني (توفي 1120 هـ)، وهو علم من أعلام إيران الكبار في علم الرجال، وقد رتب كتابه على اثنتي عشرة طبقة، تبتدئ بالصحابة، وقد ذكر فيه الكثير من كبارهم وأعلامهم.

وحتى أوضح الأمر أكثر أنقل خطابا واجه به الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء بعض الكتاب الذين أشاعوا مثل هذه الفريقة في عصره، حيث قال لهم: (.. ولكنّا نريد أنْ نسأل من ذلك الكاتب : أي طبقات الشِّيعة أراد هدم الإسلام ؟ الطبقة الأولى وهم أعيان صحابة النَّبي ﷺ وأبرارهم : كسلمان المحمَّدي ـ أو الفارسي ـ وأبي ذر، والمقداد، وعمّار، وخُزيمة ذي الشَّهادتين، وأبي التيهان، وحذيفة بن اليمان، والزُّبير، والفضل بن العبَّاس، وأخيه الحبر عبد الله، وهاشم بن عتبة المرقال، وأبي أيوب الأنصاري، وأبان، وأخيه خالد ابني سعيد العاص الأمويين، وأُبي بن كعب سيِّد ألقرّاء، وأنس بن الحرث بن نبيه ..)[1]

ثم قال: (ولو أردتُ أنْ أعدَ عليك الشِّيعة من الصحابة، وإثبات تشيّعهم من نفس كتب السنَّة لأحوجني ذلك إلى إفراد كتاب ضخم، وقد كفاني مؤونة ذلك علماء الشَيعة .. وقد جمعتُ ما وجدتُه في كتب تراجم الصحابة (كالإصابة) و(أُسد الغابة) و(الاستيعاب) ونظائرها من الصحابة الشَيعة زهاء ثلاثمائة رجل من عظماء أصحاب النبي ﷺ كلّهم من شيعة علي عليه السَّلام، ولعل المتتبع يعثر على أكثر من ذلك)

1() أصل الشيعة وأصولها، الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، ص161.

وهذا العدد الذي ذكره كبير جدا، ذلك أنه محصور في كبار الصحابة، وطبعا هو لا يقصد بهم أولئك الذين حاربوا الإمام علي، لأن ذلك عندهم من الكبائر التي تخرج صاحبها من العدالة، بنص رسول الله ﷺ نفسه، فقد قال مخاطبا الإمام علي: (لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق)[1]

بل إن الإمام أحمد الذي يزعم السلفية أنه إمامهم، بل إمام أهل السنة يقول بذلك، فقد حدث محمد بن منصور الطوسي قال: كنّا عند أحمد بن حنبل فقال له رجل: يا أبا عبد الله، ما تقول في هذا الحديث الذي يروى أنّ علياً قال: (أنا قسيم النار)؟ فقال: وما تنكرون من ذا؟ أليس روينا أنّ النبي ﷺ قال لعلي: (لايحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق)؟ قلنا: بلى. قال: فأين المؤمن؟ قلنا: في الجنة. قال: وأين المنافق؟ قلنا: في النار، قال: فعليٌّ قسيم النار [2].

ولذلك لا يرى الشيعة ـ مثل الكثير من أهل السنة ـ حرمة لمعاوية ومن تبعه، ويروون في ذلك الأحاديث الكثيرة المحذرة منه، وهي نفسها موجودة في مصادر السنة[3] .

وأحب أن أنبه هنا كذلك أن هناك من الصحابة الكبار الذين يعتبرهم الشيعة، لكن المدرسة السنية ترفضهم، بل تقول بكفرهم، وعلى رأسهم أبو طالب عم رسول الله ﷺ الذي لم يبذل أحد من الصحابة من الجهد والمال ما بذله، لكن حظه في المدرسة السنية للأسف صار أدنى من حظ أبي سفيان العدو اللدود للإسلام، الذي صاروا يترضون عليه وعلى ابنه في نفس الوقت الذي يحرمون فيه الترضي على أبي طالب، بل يحكمون عليه بكونه من أهل جهنم.

1() رواه أحمد في فضائل الصحابة 2 / 650، وغيره.

2() طبقات الحنابلة:1/320.

3() أوردنا الكثير منها في كتاب معاوية بن أبي سفيان في الميزان.

بناء على هذه التوضيحات الضرورية، سأذكر هنا نموذجين من المواقف الإيرانية ضد من يسبون الصحابة، وخصوصا ياسر الحبيب، ومن يقف معه من المتآمرين على وحدة الأمة الإسلامية.. أما النموذج الأول، فيتعلق بالدفاع عن عرض رسول الله ﷺ، وأما النموذج الثاني، فيتعلق بمواجهة الفلم المزمع إنتاجه لإثارة الفتنة بين المسلمين.

النموذج الأول: الموقف من اتهام أم المؤمنين عائشة:

وهذا النموذج يبين مدى المظلومية التي يوجهها من يضعون أنفسهم موضع الناطق الرسمي باسم الأمة، حين يتركون عشرات، بل مئات، بل آلاف العلماء، ومعهم القنوات الفضائية الكثيرة، ليستمعوا لمراهق، ليست له شهادة علمية وغير معترف به، في أمر خطير جدا هو عرض رسول الله ﷺ.

وقد كان أول من تصدى لذلك كل مراجع الشيعة الكبار في إيران والعراق ولبنان والبحرين وباكستان والهند وغيرها.. فكلهم استنكروا ذلك الموقف الشنيع، وأصدروا البيانات في الرد عليه.

ومن أمثلتهم السيد علي الخامنئي الذي يعتبر أكبر مرجع للشيعة في إيران والعالم الإسلامي، بالإضافة إلى كونه الولي الفقيه الذي يعتبر الموالون له طاعته واجبة شرعيا، فقد سئل هذا السؤال: (تمر الأمة الإسلامية بأزمة منهج يؤدي إلى إثارة الفتن بين أبناء المذاهب الإسلامية، وعدم رعاية الأولويات لوحدة صف المسلمين، مما يكون منشأ لفتن داخلية وتشتيت الجهد الإسلامي في المسائل الحساسة والمصيرية، ويؤدي إلى صرف النظر عن الإنجازات التي تحققت على يد أبناء الأمة الإسلامية في فلسطين ولبنان والعراق وتركيا وإيران والدول الإسلامية، ومن إفرازات هذا المنهج المتطرف طرح ما يوجب الإساءة إلى رموز ومقدسات أتباع الطائفة السنية الكريمة بصورة متعمدة ومكررة، فما هو رأي سماحتكم فيما يطرح في بعض وسائل الإعلام من فضائيات وانترنت من قبل بعض المنتسبين إلى العلم من إهانة صريحة وتحقير بكلمات بذيئة ومسيئة لزوج الرسول ﷺ أم المؤمنين

السيدة عائشة واتهامها بما يخل بالشرف وو الكرامة لأزواج النبي أمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهن.. لذا نرجو من سماحتكم التكرم ببيان الموقف الشرعي بوضوح لما سببته الإثارات المسيئة من اضطراب وسط المجتمع الإسلامي وخلق حالة من التوتر النفسي بين المسلمين من أتباع مدرسة أهل البيت وسائر المسلمين من المذاهب الإسلامية، علما أن هذه الإساءات استغلت وبصورة منهجية من بعض المغرضين ومثيري الفتن في بعض الفضائيات والإنترنت لتشويش وإرباك الساحة الإسلامية وإثارة الفتنة بين المسلمين)[1]

فأجاب بقوله: (يحرم النيل من رموز إخواننا السنة فضلا عن اتهام زوج النبي ﷺ بما يخل بشرفها، بل هذا الأمر ممتنع على نساء الأنبياء، وخصوصا سيدهم الرسول الأعظم ﷺ)

ولم يكتف بذلك، بل هو يشير في خطبه كل حين إلى حرمة ذلك، وينبه إلى أنه دسائس أجنبية، ويسمي التشيع المرتبط بمثل هذا تشيعا بريطانيا، وليس تشيعا علويا، مثلما يسمى التسنن الداعي إلى الفتنة تسننا أمريكيا لا تسننا نبويا.

ونفس الفتوى التي أصدرها السيد علي الخامنئي أصدرها الكثير من مراجع الشيعة الكبار في إيران وغيرها، ومنهم الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الذي حمل حملة شديدة على ياسر الحبيب ومن يقف معه وخلفه[2]، حيث قال: (سمعتم مؤخرا أن شخصا جاهلا يرتدي زي علماء الشيعة ويقيم في لندن أساء باسم الشيعة إلى مقدسات بعض المذاهب، واتهم أحدى زوجات النبي ﷺ تهمة عجيبة باطلة، وتكلم بكلمات بذيئة حول بعضهن)

وأكد على أن مثل هؤلاء الأشخاص لا يمثلون الشيعة، بل هم لا يعدون كونهم عملاء أو سفهاء، فقال: (إن هذا الشخص إما أن

1() الاستفتاء جاء بتوقيع: جمع من علماء ومثقفي الأحساء، بتاريخ 4 شوال 1434 هـ.

2() انظر مقالا بعنوان: الشيخ مكارم الشيرازي: ياسر الحبيب سفيه، والوهابيون أشد سفاهة منه.

يكون عميلا، أو هو سفيها أحمق، لكن الأشد سفاهة وحماقة منه هم بعض علماء الوهابية، حيث استندوا إلى أقواله، وقالوا متبجحين: لقد انكشف ما يضمره الشيعة من عقائد! مع أن عددا كبيرا من علماء الشيعة في إيران ولبنان والدول العربية وأوروبا أدانوا تصريحات هذا المتلبس بزي رجال الدين، وقالوا إنه سفيه)

وأضاف المرجع الشيرازي قائلا: (والدليل على عدم منطقية الوهابيين أنهم تجاهلوا جميع الإدانات التي صدرت عن علماء الشيعة لتصريحات الحبيب، واستندوا إلى كلام هذا الأحمق أو العميل وجعلوه الدليل الوحيد لإصدار حكمهم، ونحن نقول إن هذا الشخص المنحرف هو كاذب وجاهل، إلا أن الوهابيين تمسكوا بكلامه لا غير)

وتحدث عن نفسه مشيرا إلى ذلك الغبن الذي يلقاه، وتلقاه مؤلفاته، في نفس الوقت الذي يلقى فيه ياسر الحبيب كل تلك الأهمية، يقول في ذلك: (لقد ألفت أنا ما يقارب 140 كتابا في العقائد، والتفسير، وسائر العلوم، ولم تشتمل على أي نسبة مشينة لزوجات النبيﷺ، إلا أنهم لم يعتمدوا عليها، وذهبوا وراء كلام هذا الإنسان العميل)

وقال ـ مشيرا إلى المؤامرات المعقدة التي يحوكها الاستكبار العالمي ضد الإسلام ـ: (يمكن أن تكون الدوافع وراء هذا الشخص وتصريحاته هي مؤامرة أجنبية، ويكون الوهابيون في الحجاز انساقوا وراء هذه المؤامرة، وبذلك يكونون متواطئين مع هذه المؤامرة من أجل الوقيعة بين المسلمين، وبذلك يخلوا لهم الجو لتحقيق مصالحهم في المنطقة)

ثم أشار إلى تلك الأعذار التي يذكرها بعض أصحاب الدعايات المغرضة قائلا: (ويطرحون هنا شبهة أخرى تقول: إذا كان مراجع الشيعة يدينون هذا السلوك فلما لم صمتوا تجاهه؟! وهذا باطل لأننا أدنا هذا السلوك، وقلنا إننا لا نرتضي توجيه الإساءة إلى زوجات النبي ﷺ وتكون هذه الإساءة موجهة للنبي الأكرم ﷺ نفسه، ونشرنا هذا الكلام في قناة الولاية)

ثم ذكر هؤلاء المغرضين بموقف الإمـام الخميـني من عـرض رسول الله ﷺ، فقـال: (هـل نسـي الوهـابيون أن الإمـام الخميـني حكم على سلمان رشدي بالارتداد لأن قسما كبيرا من كتابه [آيات شـيطانية] يوجـه فيـه الإسـاءة إلى زوجـات النـبي ﷺ، إلا أنهم لم تصـدر عنهم أي إدانـة لكتابـه، والآن نـراهم يتجـاهلون كـل هـذه الشواهد ويستندون الى كلام هذا المجنـون، وهـذا يكشـف عن أن هـؤلاء لا يمتلكـون أي منطـق. وطبعـا هنـاك من علمـاء السـنة المنصفين من أشاد بإدانتنا لهذا الشخص)

النمـوذج الثـاني: الموقـف من الفيلم المسـيء للصحابة

لم يكتـف ياسـر الحـبيب المتـآمر على الإسـلام والوحـدة الإسلامية بتلك السباب واللعنات التي يوجهها للصـحابة، وإنمـا راح بـدعم غـربي يبشـر بإنتـاج فيلم يسـيء للصـحابة، ويسـيء بعـدها للشـيعة في العـالم الإسـلامي جميعـا، ويضـعهم في حـرب مـع إخوانهم من أهل السنة.

ولذلك وقف كـل مراجـع الشـيعة، وخصوصـا الإيرانـيين منهم في وجه هذا المشروع قبل بروزه، واسـتعماله وسـيلة للفتنـة، ولا يمكننـا اسـتعراض كـل فتـاواهم في ذلـك، فلـذلك نكتفي ببعض كبارهم هنا [1].

فمنهم المراجع الكبير ناصر مكـارم شـيرازي، الـذي أكـد في معرض إجابته على استفتاء بهذا الخصوص على حرمته، بقوله: (لا شك في أن من يدعم انتاج ونشر ومشاهدة هـذا الفلم قـد ارتكب معصـية كبـيرة، لا سـيما في الظـروف الراهنـة حيث أن إثـارة أي اختلاف بين المسـلمين سيصـبّ في خانـة أعـداء الإسـلام والمتربصـين بـه. كمـا أنـه يـترتب على هكـذا تصـرفات مسـيئة مسؤولية شـرعية ثقيلـة، وباحتمـال قـوي فـإن يـد أعـداء الإسـلام (الـذين ينتجـون الفلم) فيـه مبسـوطة، وسـيتحمّل كـل من أسـهم

[1] انظـر مقـالا بعنـوان: مراجـع الـدين في قم يفتـون بحرمـة اي تـبرع لهـذا العمـل المشبوه، ما هـو مشـروع ياسـر الحـبيب الفتنـوي الجديـد ؟ قنـاة العـالم، الجمعـة ٠٨ يوليـو ٢٠١٦ ..

بشكل من الأشكال في دعم هذا الفلم، الدماء التي قد تراق جراء ردود الأفعال الغاضبة المحتملة.. يجب عليكم أن تبلّغوا الجميع أن القائمين على إنتاج هكذا برامج تثير الفرقة بين المسلمين، ليسوا منّا، ولا يمتون إلينا بصلة، بل إنهم نفر قليل يستغلون مشاعر طائفة من محبي أهل البيت لا سيما محبي السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء؛ لتحقيق مآربهم، وإن رسالة هكذا أفلام هي ليست رسالة الإسلام وشيعة أهل البيت إطلاقاً)

وهكذا أفتى المرجع الكبير الشيخ نوري همداني، على الاستفتاء الخاص بهذا، بقوله: (نحن ضد هذه الأنشطة ولا نعتبرها أبدا لصالح الإسلام، ونرى في أي مساعدة أو إبداء اي اهتمام أو مشاهدة للفيلم، حراما وخلافا للشرع)

ومثلهما أفتى المرجع الكبير الشيخ جعفر سبحاني، فقد قال: (في الظروف التي تعيشها البلدان الإسلامية في الوقت الحاضر والفتنة الكبرى التي أثارها الأجانب والتي أدت الى تقاتل المسلمين وتشريد الملايين من العراقيين والسوريين من منازلهم وأوطانهم ليلجأوا إلى الغرب، فإن إنتاج هكذا فيلم لا يحقق إلا مطالب الأعداء، وهو بعيد كل البعد عن العقل والتقوى وعلى هذا فإن انتاجه حرام وأي مساعدة مالية له، تعاون على الإثم)

وجاء في فتوى الشيخ لطف الله صافي كلبايكاني: (لقد قلنا مرارا وتكرارا إن الشيعة ومحبي أهل البيت يجب أن يكونوا دائما حذرين وأن يحرصوا على نشر المعارف القرآنية والعترة النبوية وأن يتجنبوا القيام بأي عمل قد يؤدي الى الإساءة للإسلام والمذهب ويسبب في قتل أو جرح الشيعة المضطهدين على يد أعداء الإسلام أو ينتهي بتشريد البعض من أوطانهم)

هذه أمثلة عن البيانات والفتوى التي أصدرها كبار مراجع الشيعة في إيران، ومثلها فتاوى كثيرة في العراق ولبنان والهند وباكستان وغيرها، لكن للأسف سنرى أنه في حال إنتاج الفلم، كيف تثار الفتنة من جديد، وكيف يزعم المغرضون أن الشيعة هم الذين جمعوا المال، وهم الذين حرضوا، وأن يد إيران الخفية هي وراء كل ذلك.

4 ـ فرية الموقف من البداء:

من التهم الـــتي يتهم بهـــا الشـــيعة بنـــاء على عـــدم فهم مصطلحاتهم ما يمكن تسميته فرية البداء، وهي مـع كـون الشـيعة يقولون بهـا، بـل لهم نصوصـهم الكثـيرة الـتي تـدل عليهـا، إلا أننـا سميناها فرية، لأن المغرضين الذين يتهمون الشيعة بها، يفهمونهـا بحسب أهوائهم، لا بحسب ما ينص عليه المفترى عليهم.

وقد أشار الشـيخ العلامـة ناصـر مكـارم الشـيرازي إلى تلـك الفهوم السيئة التي يحملها الكثير من المدرسة السنية حول البداء عند الشيعة [1]، فقال ـ يحدث عن بعض ما حصل له معهم ــ: (إن من العقائد الثابتة عند الشيعة الإماميـة، هـو القـول بالبـداء.. وقـد أنكـرت عليهم السـنة أشـد الإنكـار خصوصـا في مسـألة البـداء، ولكنهم لو كانوا واقفين على مراد الشـيعة من تجـويز البـداء على الله لتوقفوا عن الاستنكار، ولأعلنـوا الوفـاق، وأقـول عن جـد: لـو أتيحت الفرصة لعلماء الفريقين للبحث عن النقاط الخلافيـة بعيـدا عن التعصب والتشنج لتجلى الحق بأجلى مظاهره، ولأقروا بصـحة مقالة الشيعة، غير أن تلك أمنيـة لا تتحقـق إلا في فـترات خاصـة، وقد سألني أحد علماء أهل السنة عن حقيقة البداء فأجبته بإجمال ما أفصله في هذا المقام، فتعجب عن إتقان معنـاه، غـير أنـه زعم أن ما ذكرته نظرية شخصية لا صلة بها بنظرية الإمامية في البداء، فطلب مـني كتابـا لقـدماء علمـاء الشـيعة، فـدفعت إليـه أوائـل المقالات، وشرح عقائد الصـدوق لشـيخ الأمـة محمـد بن النعمـان المفيد (336 ـ 413 هـ) فقرأهما بدقـة، وجـاء بالكتـاب بعـد أيـام وقال: لو كان معنى البداء هو الذي يذكره صاحب الكتاب فهـو من

---

[1] () للأسف فإن هذه الشبهة مع وفرة الردود عليها من متكلمي الشـيعة الأوائـل إلا أننـا نجـد الكثـير يـذكرها، ينقلهـا بعضـهم عن بعض، ومن الأمثلـة على ذلـك مـا قالـه الـرازي في تفسيره: (قالت الرافضة : البداء جائز على الله تعالى ، وهو أن يعتقد شـيئا ثم يظهـر لـه أن الأمر بخلاف ما اعتقده ، وتمسكوا فيه بقوله : { يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَـاء وَيُثْبِتُ } ، ثم قـال : إن هذا باطل ، لأن علم الله من لـوازم ذاتـه المخصوصـة ، ومـا كـان كـذلك كـان دخـول التغـير والتبدل فيه باطلا) [تفسير الرازي 4 : 216]،مع كونه كان يعيش في ذلك الحين في مدينـة الري، وكان فيها الكثير من أعلام الشيعة الذين ينكرون هـذا، ومنهم الشـيخ محمـود بن علي بن الحسن سديد الدين الحمصـي الـرازي صـاحب كتـاب [المنقـذ من التقليـد والمرشـد إلى التوحيد]، وقد سبقه إلى هذا البلخي (319 هـ)، ونقله الأشعري (260 ـ 324 هــ) ونقلـه أبو الحسن النوبختي في فرق الشيعة عن بعض فرق الزيدية.

صميم عقيدة أهل السنة ولا يخالفون الشيعة في هذا المبدأ أبدا) [1]

ثم أجاب على ذلك بوجوه كثيرة نحاول اختصارها وإعادة صياغتها هنا، مع العلم أن كل ما ذكره من المتفق عليه عند الشيعة جميعا، وإنما خصصنا بالذكر والاقتباس باعتباره من كلام المراجع الإيرانيين في العصر الحديث، ولكونه كذلك من القادة الفكريين للمشروع الحضاري الجديد للجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وأحب أن أذكر هنا أنني قد تناولت البداء بتفصيل في كتابي [أسرار الأقدار]، من خلال ما ورد حوله من النصوص المقدسة، ذلك أن البداء بالمفهوم الشيعي، يرتبط بما يسميه أهل السنة بمنازعة الأقدار، أو مدافعتها، وكذلك بما يمكن أن يطلق عليه المقادير المؤقتة.

وقد ذكرت فيه أنه[2] لا يشبه التأكيد الذي وردت به النصوص في الحث على الإيمان بقدر الله وقضائه ومشيئته إلا التأكيد الذي وردت به في الحث على مدافعة ما نتوهمه من أقدار، فالشرع الذي أمرنا بالإيمان بالقدر هو الذي أمرنا بمنازعة القدر.

بل إن الذي ينازع القدر أعرف بالله من الذي يستسلم له وأكثر تواضعا وأعظم أدبا، فالذي يستسلم للقدر الذي يتصوره يجعل من نفسه خبيرا بأقدار الله، فلذلك يستسلم لأي عقبة تحصل له في حياته ويسميها قدر الله، بينما الذي ينازع القدر يدرك أن أي حركة يفعلها أو أي اتجاه اتجه إليه هو قدر الله: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (البقرة: 115)، فلذلك يعرف الحق لأهله، فيتأدب مع عالم الحكمة كما تأدب مع عالم القدرة.

وهو أكثر معرفة لأنه يعرف الله بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا، بينما المستسلم لا يعرف من أسماء الله إلا ما يبرر

[1] أضواء على عقائد الشيعة الإمامية وتاريخهم، ص 428..

[2] النص المقتبس هنا بطوله من كتابي: أسرار الأقدار، ص74.

تواكله وعجزه.

ولهـذا جمـع ﷺ بين حقـائق التوحيـد في القـدر، وبين القـوة، فقــال ﷺ:(المــؤمن القــوي خــير وأحب إلى اللــه من المــؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعـك واسـتعن باللـه ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقـل: لـو أني فعلت لكـان كـذا وكـذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[1]

وقد حض ﷺ على هذه المنازعة ليرد الأوهـام عن التطبيقـات الخاطئة للإيمان بالقدر لما قيل له:(أرأيت أدوية نتداوى بهـا ورقى نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قـدر اللـه شـيئا؟) فقـال ﷺ: (هي من قدر الله تعالى)[2]

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما ينزل، فإن البلاء ينزل فليقاه الـدعاء فيعتلجـان إلى يوم القيامة)[3]

وإلى هذا المعنى أشار قولـه ﷺ:(يقـول اللـه يـا ابن آدم انمـا هى أربع واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينـك وواحـدة بينـك وبين خلقى، فأما التى لى فتعبدنى لاتشـرك بى شـيئا، وأمـا الـتى لك فعملك أجزيك بـه أحـوج مـا تكـون اليـه، وأمـا الـتى هى بيـنى وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة، وأما التى بينك وبين خلقى فأت الى الناس بما تحب أن يأتوه اليك) [4]

فهذا الحديث نظم علاقات المؤمن حتى لا يطغى بعضها على بعض، ومن أهم ما نظمه علاقـة المـؤمن باللـه.. فاللـه هـو الـرب

1() رواه أحمد ومسلم وابن ماجة.

2() رواه ابن حبان وغيره.

3() رواه ابن عدي والحاكم وتعقب والخطيب.

4() رواه الطبرانى.

الإله.. والعبد هو المربوب المتوجه لله بالعبودية.. وأول ما يقتضيه هذا التوجه أن لا ينازع العبد ربـه في ربوبيتـه فينفي قـدره، وأن لا يتخلى عن وظائف عبوديته، بحجة قدر ربه.

أما ما يقال بأن الكمـال في التسـليم للأقـدار، وأن من نـازع الأقدار كان خصما لله، وللنظام الذي أراد الله، فالجواب عليه هــو أن الذي أمر الشرع بالتسليم لـه تسـليما مطلقـا، وعـدم منازعتـه في شــيء، هــو القــدر الــذي ليس للإنســان فيــه أي اختيــار، لأن منازعته لا دور لها إلا تحطيم قلب صـاحبها من غـير أن يكـون لهـا أي تأثير عملي.

أمـا النـوع الثـاني، وهـو مـا يـدخل من التسـليم فيمـا يرتبـط بــالجوانب الاختياريــة، والــتي للإنســان فيهــا الإرادة المطلقــة.. فمرادهم من ذلك المزاوجة والجمع بين الإقبال على العمـل بهمـة المكتسب الـذي يعتقـد تـأثير العمـل في حصـول المطلـوب، وبين الاعتقاد بقدر الله، وأن كسب الإنسان أقصـر من أن يحقـق نفعـا، أو يدفع ضرا.

فبكلتا النظرتين يسـتقيم السـلوك بجانبيـه: السـلوك الظـاهر بالعمل الصالح، والسلوك الباطن بأدب الباطن.

وسر التعامل مع الأقدار بهذا النوع من التعامل هو أن الأقدار نوعان، منها ما هو ثابت قطعي، ومنها مـا هـو محتمـل مـؤقت، أو مرتبـط بأوقـات معينـة محـدودة، ولـذلك قـد يلحـق كتبهـا التغيـير والتبديل، وهذه المقادير مما يطلـع اللـه عليـه الملائكـة المـوكلين بالعبــاد، أو من تقتضــي وظيفتــه التعــرف على هــذا النــوع من المعارف، كالأنبياء والمرسلين والمحدثين والملهمين.

وإلى هذا النوع من المقادير الإشـارة بقولـه تعـالى: يَمْحُـوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (الرعد:39)

وإليها الإشارة كـذلك بالنصـوص الـواردة في منازعـة الأقـدار كقوله ﷺ:(لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفـع ممـا نـزل وممـا لم

ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء، فيعتلجان الى يوم القيامة)[1]، وقوله ﷺ:(لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر الا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) [2]

وقد ذكر ابن عباس في تفسير الآية السابقة:(من أحد الكتابين هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أي جملة الكتاب)[3]

ومن النصوص المقدسة التي تشير إلى هذا قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (المائدة:65)، فهذه الآية الكريمة تذكر تأثير الأعمال في جانب علاقة هؤلاء العباد بربهم تعالى.

ومثلها قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (لأعراف:96) أي أن أرزاق الله مفتوحة على العباد، ولكن العباد هم الواقفون دون نزولها.

ومثال هذا مثل من تفرض له جهة ما مبلغا محددا أو جائزة معينة، وتشترط عليه الحضور لتسلمها، ولكنه يظل راضيا بفقره شاكيا منه غافلا عما قدر له.

لذلك، فإن النصوص المقدسة تدل على أن المقادير المشتملة على مصالح العباد متوقفة على أعمال العباد، ومن الأمثلة على ذلك أنه مع كون الأعمار بآجالها إلا أن رسول الله ﷺ أخبرنا بما يزاد فيه العمر المقدر، فقال ﷺ:(من سره أن يعظم الله رزقه، وأن يمد في أجله، فليصل رحمه)[4]

1() رواه ابن عدي والحاكم وتعقب والخطيب.

2() رواه النسائي وابن ماجه وأحمد وأبي يعلى وابن منيع والطبراني.

3() رواه ابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

4() رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

وقد أشار ابن عباس إلى هذا المعنى عندما قيل له:(كيف يزاد في العمر والأجل؟)، فقال:(قال الله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (الأنعام:2)، فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثاني ـ يعني المسمى عنده ـ من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في البرزخ)، فهذه الزيادة في نفس العمر وذات الأجل كما هو ظاهر اللفظ.

بناء على هذا تفسر كل النصوص الواردة في البداء عن أئمة الشيعة، والتي جعلتهم يهتمون كثيرا به باعتباره من العقائد الكبرى التي لها تأثيرها السلوكي الكبير.

وأحب أن أسوق هنا باختصار بعض ما ذكره العلامة ناصر مكارم الشيرازي في الرد على هذه الشبهة من وجوه [1].

أولا ـ اتفاق الشيعة على أنه سبحانه عالم بالحوادث كلها غابرها وحاضرها، ومستقبلها، لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء، فلا يتصور فيه الظهور بعد الخفاء، ولا العلم بعد الجهل، بل الأشياء دقيقها وجليلها، حاضرة لديه، وهذا وحده كاف في الرد على الشبهة من جذورها ذلك أن المغرضين يتصورون أن البداء يعني عدم علم الله بالأحداث قبل وقوعها، وهذا لم يقل به الشيعة، ولا نص عليه أئمتهم، فقد قال الإمام علي: (من زعم أن الله عز وجل يبدو له من شئ لم يعلمه أمس، فابرأوا منه)[2]

وبناء على هذا وردت النصوص الكثيرة عن أئمة أهل البيت في بيان علم الله تعالى المطلق بالأشياء، فعن الإمام علي قال: (كل سر عندك علانية، وكل غيب عندك شهادة)، وقال: (لا يعزب

---

[1] () أضواء على عقائد الشيعة الإمامية وتاريخهم، ص 425 فما بعدها.

[2] () انظر الروايات الواردة في حول علمه تعالى في بحار الأنوار: 4 : 121 ..

عنه عدد قطر الماء، ولا نجوم السماء، ولا سوافي الريح في الهواء، ولا دبيب النمل على الصفا، ولا مقيل الذر في الليلة الظلماء، يعلم مساقط الأوراق، وخفي طرف الأحداق)

وقال الإمام موسى الكاظم: (لم يزل الله عالما بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء، كعلمه بالأشياء بعد ما خلق الأشياء)

وقال الإمام الصادق في تفسير قوله: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: 39]: (فكل أمر يريده الله، فهو في علمه قبل أن يصنعه، ليس شئ يبدو له إلا وقد كان في علمه، إن الله لا يبدو له من جهل)، وغيرها من الروايات التي تدل على إحاطة علمه بكل شئ قبل خلقه وحينه وبعده، وأنه لا يخفى عليه شئ أبدا.

ثانيا ــ أن النصوص المقدسة تدل على أن مصير العباد يتغير، بسبب حسن أفعالهم أو سوئها، ومن ذلك قوله تعالى حاكيا عن نوح عليه السلام: {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا } [نوح: 10-12]، فقد اعتبر نوح عليه السلام الاستغفار علة مؤثرة في نزول المطر، وكثرة الأموال والبنين، وجريان الأنهار.

وهكذا أخبر القرآن الكريم على أن للأعمال السيئة تأثيرها في المقادير، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [النحل: 112]، وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: 53]

ومن هذا الباب يفسر قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد: 11]، وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال: 53]، وقوله: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا

وَاتَّقَــوْا لَفَتَحْنَــا عَلَيْهِمْ بَرَكَــاتٍ مِنَ السَّــمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَــذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأعراف: 96]، وغيرها من الآيــات الكريمة التي تربط الجزاء بالعمل.

ومن هذا الباب ما ورد في الروايات الكثيرة عن رسـول اللــه ﷺ وأئمة أهل البيت، والتي توضع في كتب الشيعة في باب البداء، ومنها ما روى الصـدوق في الخصـال عن أنس قـال: قـال رسـول الله ﷺ: (أكـثر من صـدقة السـر، فإنهـا تطفئ غضـب الـرب جـل جلاله)

ومنها ما روى في عيون الأخبار عن الرضا عن آبائه قال: قال رسول الله ﷺ: (باكروا بالصدقة، فمن باكر بها لم يتخطاها البلاء)

وروى الشيخ الطوسي في أماليه عن الباقر قـال: قـال أمـير المؤمنين: (أفضل ما توسل به المتوسلون الإيمـان باللـه، وصـدقة الســر، فإنهــا تــذهب الخطيئــة، وتطفئ غضــب الــرب، وصــنائع المعروف، فإنها تدفع ميتة السوء، وتقي مصارع الهـوان)، وغيرهـا من الروايات الكثيرة التي يتفقون فيها مع المدرسة السنية.

ثالثا ـ أن للاعتقاد في البداء تأثيرا تربويا وسلوكيا كبيرا، كمـا نص على ذلـك ناصـر مكـارم الشـيرازي بقولـه: (الاعتقـاد بـالمحو والإثبات، وأن العبد قادر على تغيير مصيره بأفعاله وأعمالـه، لا بـد من أن يبعث الرجــاء في قلب من يريــد أن يتطهــر، وينمي نــواة الخير الكامنة في نفسه، فتشريع البداء، مثل تشريع قبول التوبــة، والشفاعة، وتكفير الصغائر بالاجتناب عن الكبائر، كلهـا لأجـل بعث الرجاء وإيقاد نوره في قلوب العصاة والعتـاة، حـتى لا ييأسـوا من روح الله، ولا يتولوا بتصور أنهم من الأشقياء وأهل النار قدرا، وأنه لا فائدة من السعي والعمل، فلعلم الإنسان أنـه سـبحانه لم يجـف قلمه في لوح المحو والإثبـات، ولـه أن يمحـو مـا يشـاء ويثبت مـا يشاء، يسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، وليست مشيئته جزافيـة غير تابعة لضـابطة عقليـة، لأن العبـد لـو تـاب، وعمـل بـالفرائض، وتمسك بالعروة الوثقى، فإنه يخـرج من سـلك الأشـقياء، ويـدخل في صنف السعداء، وبالعكس.. وهكذا فإن كـل مـا قـدر في حقـه من المــوت والمــرض والفقــر والشــقاء يمكن تغيــيره بالــدعاء،

والصدقة، وصلة الرحم، وإكرام الوالدين، وغير ذلك، فجميع هذا من باب الرحمة الإلهية لأجل بث الأمل في قلب الإنسان، وعلى هذا فالاعتقاد بذلك من ضروريات الكتاب وصريح آياته)[1]

ثم ساق الروايات التي تبين مدى اهتمام أئمة أهل البيت ببثت العقيدة في نفوس المؤمنين حتى لا يضعفوا أو يكلوا، ومن ذلك ما روي عن الباقر والصادق أنهما قال: (ما عبد الله عز وجل بشئ مثل البداء)[2]

وروى عن الصادق أنه قال: (لو يعلم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا من الكلام فيه)[3]

وروى عن أبي عبد الله قال: (ما عظم الله عز وجل بمثل البداء)[4]، ثم علق عليه بقوله: (إذ لولا الإقرار بالبداء بهذا المعنى ما عرف الله حق المعرفة، بل ويبدو سبحانه في نظر العبد (بناء على عقيدة بطلان البداء) أنه مكتوف الأيدي، لا يقدر على تغيير ما قدره، ولا محو ما أثبته) [5]، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى عن اليهود: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: 64]

5 ـ فرية التقية وعلاقتها بالنفاق:

لا نكاد نجد مصدرا من المصادر التي تحدثت عن الشيعة أو

1() أضواء على عقائد الشيعة الإمامية وتاريخهم، ص 447..

2() البحار 4 : 107.

3() الكافي 1 : 115 ، التوحيد للصدوق ، باب البداء ، الحديث 7 ..

4() التوحيد للصدوق ، باب البداء ، الحديث 2 ..

5() أضواء على عقائد الشيعة الإمامية وتاريخهم، ص 448..

إيـران إلا وتحـدثت معهمـا عن التقيـة، واعتبرتهـا من النفـاق[6]، واعتبرت على أساسها كل الإيرانيين قـادة وشـعبا من المنـافقين، حتى أنهم يعتبرون كل تضحياتهم في مواجهـة الاسـتكبار العـالمي، أو في خدمة القضية الفلسطينية مجـرد تقيـة ونفـاق لا علاقـة لهـا بالحقيقة والواقع.

بل إن الأمر بلـغ بهم إلى حـد اعتبـار جهـود إيـران في خدمـة الوحدة الإسلامية أو في التقـريب بين المـذاهب الإسـلامية مجـرد تقية تريد منها التمدد والسيطرة، ولا تريد منها أن تـؤدي مـا كلـف بـه كـل مـؤمن من السـعي إلى إصـلاح ذات الـبين وتوحيـد صـف المسـلمين، وهم يقولـون ذلـك مـع علمهم بالأضـرار الشـديدة والتضـحيات العظيمـة الـتي قـدمها الشـعب الإيـراني جـراء تلـك المواقف.

وهكـذا لا نجـد موقفـا من المواقـف الطيبـة إلا ويـؤول تـأويلا خبيثا، والمرجع في ذلك التأويـل هـو التقيـة.. حيث نجـد المخـالف المتمـدد على أريكتـه، يتثـاءب بكسـل، ثم يقـول: مـا ترونـه أو تسمعونه مجرد تقية.. ألم يقل إمامهم: (التقية ديني ودين آبائي)؟

ولهذا لا نجد عند هؤلاء المغرضين الطائفيين سوى الاسـتنكار والنقـد الممتلئ بالحقـد، فهم إذا مـا رأوا سـيئة أضـافوا إليهـا مـا شاءت لهم أهواؤهم من الكذب والبهتان، وإن رأوا حسـنة غمطـوا أصحابها، وزعموا أن دافعهم إليها مجرد تقية.

وللأسف فإن هؤلاء الذين يطلقـون مثـل هـذه الافـتراءات لم يكلفـوا أنفسـهم أن يطـالعوا مـا كتبـه أعلام الشـيعية في القـديم

6() من الأمثلة على ذلك: الشيعة والتشيع ، إحسان إلهي ظهير : 79 و84، وتبديد الظلام ، إبراهيم سليمان الجبهان : 483 و483، والشيعة وتحريف القرآن ، محمّد مال اللّه : 35 و36، والتشيّع بين مفهوم الأئمّة والمفهوم الفارسي ، الدكتور محمّد البنداري : 235، ورجال الشيعة في الميزان ، عبد الرحمن الزرعي : 6 و17 و18 و50 و51 و126 و148 و 173، والثورة الايرانية في ميزان الإسلام ، الشيخ محمّد منظور نعماني : 122 و180 و182 و183 و184 و185 و186 و187 و222، والصراع بين الإسلام والوثنية ، القصيمي : 458 و 459، والشيعة في التصوّر الإسلامي ، علي عمر فريج : 150 و151 و152 و154 و165 و 183، والخطوطة العريضة ، محبّ الدين الخطيب : 9 و10، والشيعة معتقداً ومذهباً ، الدكتور صابر عبد الرحمن طعيمة : 5 و88 و118، وبطلان عقائد الشيعة ، محمّد عبد الستار التونسي : و72 و73 و78 و79، والوشيعة ، موسى جار اللّه : 104.

والحـديث، ولم يكلفـوا أنفسـهم أن يسـألوا أعلامهم أو مـراجعهم ليفهموا منهم حقيقة التقية، وحظهـا من الشـرعية، بـل لم يكلفـوا أنفسهم ليقرؤوا تراثهم الـذي يؤمنـون بـه لـيروا مـا ورد فيهـا من النصوص المقدسة، ومن شروح العلماء لها.

وبناء على ذلـك، سـنحاول هنـا ــ باختصـار شـديد ــ أن نـذكر أهداف التقية، ونبين مدى شرعيتها، وقـد رأينـا من خلال اسـتقراء النصـوص المقدسـة، أن لهـا غرضـان شـرعيان ممتلئـان بـالقيم الأخلاقية، أولهما حفظ الوحدة الإسلامية، وثانيهما حفـظ القـائمين على الإسلام والدعاة إليه.

أ ـ حفظ الوحدة الإسلامية:

ويشير إلى هذا المقصـد من التقيـة قولـه تعـالى على لسـان هارون عليه السلام في حواره مع أخيه موسى عليـه السـلام: { لَا تَأْخُـذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِـي إِنِّي خَشِـيتُ أَنْ تَقُـولَ فَـرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي } [طه: 94]

وذلك جوابا عن ذلك العتاب الذي تلقاه من أخيه بسبب عـدم شدته مع السامري وأصـحابه، وقـال لـه في ذلـك: { يَاهَـارُونُ مَـا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَـيْتَ أَمْـرِي} [طـه: 92، 93]

وقد قبل موسى عليه السلام العلة التي ذكرها هارون، لكونها علة شرعية، فالفتنة الناتجة من التفرقة والصـراع كـانت أكـبر من تلك الوثنية التي وقع فيها السامري وأصحابه.

وهكذا نجد رسول الله ﷺ يمارس هذا النوع من التقية حرصـا على وحـدة الأمـة الإسـلامية في بدايـة نشـأتها، ومن الأمثلـة على ذلك ما ورد في الحديث عن عائشة قالت: سـألت رسـول اللّـه ﷺ عن الحِجرِ، فقال: هو من البيت، قلت: ما منعهم أن يدخلوه فيـه؟ قال: عجزت بهم النفقة، قلت: فما شأن بابه مرتفعاً، لا يُصعد إليه إلا بسلّم؟ قال: (ذلك فعل قومك، ليدخلوه من شاءوا ويمنعوه من شاءوا، ولولا أنّ قومك حديثو عهد بكفـر مخافـة أن تنفـر قلـوبهم، لنظرت هل أغيّره فأدخل فيه ما انتقص منه، وجعلت بابه بالأرض)

(1)

ومثله ما ورد في مداراة بعض الناس خشية من شرهم، فعن عروة بن الزبير أنّ عائشة أخبرته أنّ رجلاً استأذن في الدخول إلى منزل النبيّ ﷺ، فقال: (ائذنوا له فبئس ابن العشيرة، أو بئس أخو العشيرة)؛ فلمّا دخل ألآن له الكلام. فقلت له: يا رسول اللّه قلت ما قلت ثمّ ألنت له في القول؟ فقال: (أي عائشة، إنّ شرّ الناس منزلة عند اللّه من تركه ـ أو ودَعَهُ الناس ــ اتّقاء فُحشه) (2)، فقد صرح رسول الله ﷺ في هذا الحديث بأنه ترك مصارحة ذلك الشخص، اتقاء لفحشه، مع أن رسول الله ﷺ لم يخف على نفسه منه، وإنما حرص على الوحدة وتآلف القلوب، ولو في الظاهر.

ويدخل في هذا الباب كل الأحاديث الواردة في الدعوة للمداراة والصبر والتحمل، كما في الحديث المعروف عن رسول الله ﷺ أنه قال: (المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)(3)، ولا يمكن للمؤمن أو غيره أن يصبر على الناس دون أن يداريهم أو يتعامل معهم بما يشتهون من المعاملة، وإن لم يكن راضيا عن ذلك.

ومثله ما روي عنه ﷺ أنّه قال: (كيف أنتم في قوم مرجت عهودهم وأماناتهم وصاروا حثالة؟ وشبّك بين أصابعه. قالوا: كيف نصنع؟ قال: (اصبروا وخالقوا الناس بأخلاقهم، وخالفوهم بأعمالهم)(4)، وهو حديث صريح في الدعوة للتقية في مخالطة

1() صحيح البخاري 2 : 179 ، سنن ابن ماجة 2 : 985 / 2955.

2() صحيح البخاري 8 ـ 38 ، سنن أبي داود 4 ـ 251 / 4791 و4792 و4793، ورواه محدّثو الشيعة باختلاف يسير كما في اُصول الكافي: 2 : 245 / 1..

3() سنن ابن ماجة 2 : 1338 / 4032، والسنن الكبرى / البيهقي 10 : 89.

4() كشف الأستار، الهيثمي 4 : 113 / 2324..

الناس، ومخالقتهم بأخلاقهم.

وقد ورد في النصوص ذم أمثال هؤلاء الناس الذين يحتاج المؤمن إلى ممارسة التقية عند صحبته لهم، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (بئس القوم قوم يمشي المؤمن فيهم بالتقية والكتمان)[1]

وبناء على هذه النصوص وغيرها، نجد أئمة الشيعة يجيزون أن يترك الموالي لهم ما يراه من أحكام شرعية حتى لو كانت مبطلة لعمله حرصا على عدم صدع وحدة الأمة.. فالتقية بمفهومها عندهم لا تعني الحرص على النفس فقط حتى لا تؤذى، بل تعني كذلك الحرص على حفظ وحدة صف الأمة، وعدم التسبب في وقوع الشقاق بينها.

فمن الروايات في ذلك ما رواه جابر الجعفي، قال: سألت أبا جعفر الباقر: (إن لي جيراناً، بعضهم يعرف هذا الأمر ــ أي ولاية أهل البيت ﷺ ـ وبعضهم لا يعرف، قد سألوني أن أؤذّن لهم، وأصلي بهم، فخفت أن لا يكون ذلك موسَّعاً لي؟ فقال: (أذّن لهم، وصلِّ بهم، وتحرَّ الأوقات)[2]

وروي عن الصادق أنه قال: (من صلى معهم في الصف الأول كان كمَنْ صلى خلف رسول الله ﷺ في الصف الأول)[3]، وقال: (إذا صلَّيت معهم غفر لك بعدد مَنْ خالفك)[4]

وعن أبي علي قال: قلت لأبي عبدالله الصادق: إن لنا إماماً مخالفاً، وهو يبغض أصحابنا كلهم؟ فقال: (ما عليك من قوله،

---

[1] () رواه الديلمي في مسند الفردوس، نقلا عن الجامع الصغير للسيوطي 1 : 491..

[2] () جامع أحاديث الشيعة، حديث رقم 10996.

[3] () وسائل الشيعة، حديث رقم10717.

[4] () المرجع السابق ، حديث رقم 10718.

والله لئن كنت صادقاً لأنت أحق بالمسجد منه، فكُنْ أول داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس، وقُلْ خيراً)(1)

وعن إسحاق بن عمار، قال: قال لي أبو عبدالله الصادق: (يا إسحاق، أتصلي معهم في المسجد؟ قلت: نعم، قال: (صلِّ معهم؛ فإن المصلي معهم في الصف الأول كالشاهر سيفه في سبيل الله)(2)

وعن عبدالله بن سنان قال: سمعت أبا عبدالله يقول: (أوصيكم بتقوى الله عز وجل، ولا تحملوا الناس على أكتافكم فتذلّوا، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾، ثم قال: عودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، واشهدوا لهم وعليهم، وصلّوا معهم في مساجدهم) (3)

وعن زيد الشحّام، عن جعفر بن محمد، أنه قال له: (يا زيد، خالقوا الناس بأخلاقهم، صلّوا في مساجدهم، وعودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، وإن استطعتم أن تكونوا الأئمة والمؤذِّنين فافعلوا، فإنكم إذا فعلتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية، رحم الله جعفراً ما كان أحسن ما يؤدِّب أصحابه. وإذا تركتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية، فعل الله بجعفر ما كان أسوأ ما يؤدِّب أصحابه) (4)

وهكذا يفتي كبار علماء الشيعة ومراجعهم في القديم والحديث، فمن المتقدمين قال الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي: (ويستحبّ حضور جماعة العامة، كالخاصة، بل أفضل، فقد روي: من صلى معهم في الصف الأول كان كمَنْ صلى خلف

(1) المرجع السابق ، حديث رقم 10721.

(2) المرجع السابق ، حديث رقم 10723.

(3) المرجع السابق ، حديث رقم 10724.

(4) جامع أحاديث الشيعة، حديث رقم 10995.

رسول الله، فيه. ويتأكد مع المجاورة. ويقرأ في الجهرية سرّاً، ولو مثل حديث النفس، وتسقط لو فجأه ركوعهم، فيتمّ فيه إن أمكن، وإلا سقط)[1]

ومن المتأخرين قال السيد شرف الدين الموسوي: (حاشا أمير المؤمنين ـ علياً ـ أن يصلّي إلا تقرُّباً لله وأداءً لما أمره الله به، وصلاته خلفهم ــ أي الخلفاء ــ ما كانت إلا خالصة لوجهه الكريم، وقد اقتدينا به ع، فتقرّبنا إلى الله عزّ وجلّ بالصلاة خلف كثير من أئمّة جماعة أهل السنّة، مخلصين في تلك الصلوات لله تعالى. وهذا جائز في مذهب أهل البيت. ويُثاب المصلّي منّا خلف الإمام السني كما يُثاب بالصلاة خلف الشيعي. والخبير بمذهبنا يعلم أنّا نشترط العدالة في إمام الجماعة إذا كان شيعيّاً، فلا يجوز الائتمام بالفاسق من الشيعة، ولا بمجهول الحال، أمّا السنّي فقد يجوز الائتمام به مطلقاً)[2]

ونفس الموقف نجده عند الكثير من أئمة المدرسة السنية، فقد روي عن الشافعي أنه صلى الصبح في مسجد أبي حنيفة، وكان الشافعي يرى القنوت في صلاة الصبح، ويرى الجهر بالبسملة، لكنه لم يقنت ولم يجهر ببسم الله تأدباً مع أبي حنيفة واحتراما لأصحابه[3]..

وقد ذكر القرطبي أن ذلك كان شأن أئمة المذاهب الفقهية، فقال: (كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم يصلون خلف أئمة أهل المدينة من المالكية وإن كانوا لا يقرؤون البسملة لا سراً ولا جهراً.. وصلى أبو يوسف خلف الرشيد وقد احتجم وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ فصلَّى خلفه أبو يوسف ولم يُعد، رغم أنه يرى

---

[1] محمد بن مكي العاملي، الدروس الشرعية، ضمن سلسلة الينابيع الفقهية، الصلاة 10: 651.

[2] أجوبة مسائل موسى جار الله 4: 73.

[3] طبقات الحنفية (1/433)

أن خروج الدم بحجامة أو غيرها ينقض الوضوء)[1]

ب ـ حفظ الدعاة إلى الإسلام:

وقد اخترنا أن نعبر بهذا التعبـير للتفرقـة بين سـعي الإنسـان لحفـظ نفسـه من أجـل نفسـه، والـذي قـد يكـون مـذموما إن لم يصادف محله المناسب، وبين التقية التي يقصـد صـاحبها الحفـاظ على نفسـه، حـتى يسـتطيع أن يـؤدي دوره الـدعوي في أكمـل صوره.

وقد ذكر القرآن الكريم مثالا لذلك بمؤمن آل فرعـون، الـذي أخبر أنه كان يكتم إيمانه، واستطاع بسبب ذلـك أن يثـني فرعـون عمّا عزم عليه من جرم عظيم.

ومن هـذا البـاب ورد في النصـوص المقدسـة إجـازة التقيـة للمؤمـنين الـذين يتعرضـون للبلاء حرصـا عليهم، لأنـه لا يمكن أن تسـتمر الـدعوة الإسـلامية من دونهم، قـال تعـالى: {لَا يَتَّخِـذِ الْمُؤْمِنُـونَ الْكَـافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ الْمُـؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَـلْ ذَلِـكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَـيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُـوا مِنْهُمْ تُقَـاةً } [آل عمـران: 28]

ولهذا مارس الصحابة المستضعفون التقيـة في عهـد رسـول الله ﷺ، فقد روي في كتب السـيرة في شـأن تعـذيب المشـركين للمستضعفين من المسلمين: (.. فأخـذهم المشـركون وألبسـوهم أدراع الحديـد وصـهروهم في الشـمس، فمـا منهم أحـد إلا وقـد وآتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً)[2]

وفي حديث آخـر: (أخـذ المشـركون عمّـار بن ياسـر فعـذّبوه حتّى باراهم في بعض ما أرادوا، فشـكا ذلـك إلى النـبيّ ﷺ، فقـال النبيّ ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنّاً بالإيمـان، قـال النـبيّ ﷺ:

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (23/375)

[2] سنن ابن ماجة 1 : 53.

(فإن عادوا فعد)[1]

وفي رواية أنه قيل لرسول الله ﷺ عن عمّار: يا رسـول اللّـه إنّ عماراً كفر، فقـال: (كلا، إنّ عمّـاراً مليء إيمانـاً من فرقـه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمـه)، فـأتى عمّـار رسـول اللّـه ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول اللّه ﷺ يمسح عينيه ويقـول: مـا لـك؟ إن عادوا لك، فعد لهم بما قلت)[2]

وهكذا استمرت ممارستهم لهـا في كـل المراحـل حـتى بعـد مرور مرحلـة الاستضـعاف؛ فقـد روى الحسـن البصـري أنّ عيونـاً لمسيلمة الكذّاب أخذوا رجلين من المسـلمين فـأتوه بهمـا، فقـال لأحدهما: أتشهد أنّ محمّداً رسـول اللّـه؟ قـال: نعم. قـال: أتشـهد انّي رسول اللّه، فأبى ولم يشهد، فقتلـهُ. وقـال مثـل ذلـك للثـاني فشهد لمسيلمة الكذّاب بما أراد، فأطلقه، فأتى النبيّ ﷺ، وأخـبره بما جرى، فقـال ﷺ: (أمّـا صـاحبك فمضـى على إيمانـه، وأمّـا أنت فأخذت بالرخصة)[3]

وقد استمر الصحابة في ممارسـة هـذا النـوع من التقيـة بعـد وفاة رسول الله ﷺ، فقد روي عن أبي الدرداء أنّه كان يقول: (إنّـا لنكشّر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم)[4]

وروي عن أبي هريـرة قـال: (حفظت من رسـول اللّـه ﷺ وعـاءين: فأمّـا أحـدهما فبثثتـه، وأمّـا الآخـر فلـو بثثتـه قطـع هـذا البلعوم)[5]

---

[1] جامع البيان، الطبري 14 : 122.

[2] سنن ابن ماجة 1 : 53.

[3] تفسير القرطبي (10/ 189)

[4] رواه البخاري 8 : 37.

[5] رواه البخاري 1 : 41.

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني (توفي 852هـ) أن التقية هي التي حملت أبا هريرة على فعل ذلك، فقد قال: (وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أُمراء السوء، وأحوالهم، وزمنهم. وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضه ولا يصرح به خوفاً على نفسه منهم، كقوله: (أعوذ باللّه من رأس الستين، وإمارة الصبيان). يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية، لانّها كانت سنة ستين من الهجرة)، ثم نقل عن ابن المنير قوله: (وانما أراد أبو هريرة بقوله: (قُطع) أي: قَطع أهل الجور رأسه، إذا سمعوا عيبه لفعلهم، وتضليله لسعيهم)[1]

وحكى السرخسي ممارسة حذيفة بن اليمان للتقية، فقال: (وقد كان حذيفة رضي اللّه عنه ممن يستعمل التقية على ما روي أنّه يداري رجلاً، فقيل له: إنّك منافق!! فقال: لا، ولكني أشتري ديني بعضه ببعض مخافة أن يذهب كلّه)[2]

وهكذا وردت في الروايات ممارسة الكثير من الصحابة وغيرهم التقية في عهد معاوية ومن بعده من الأمراء الظلمة، فعن سعيد بن جبير قال: (كنت مع ابن عباس بعرفات، فقال ما لي لا اسمع الناس يلبون؟ قلت: يخافون من معاوية، فخرج ابن عباس من فسطاطه، فقال: لبيك اللهم لبيك، لبيك فإنهم تركوا السنة من بغض علي)[3]

وهكذا استمر القول بالتقية والعمل بها عند التابعين ومن بعدهم، وبناء على ذلك أجازها الفقهاء من جميع المذاهب الإسلامية.

وكنموذج على ذلك من المذهب الحنفي ما ذكره السرخسي (توفي 490هـ)، وهو من كبار فقهاء الحنفية، فقد ذكر تقيّة عمّار

1() فتح الباري، 1 : 175.

2() المبسوط ، السرخسي 24 : 46..

3() سنن النسائي 5 : 253.

بن ياسر وأصحابه، ثم علـق عليهـا بقولـه: (هـذا النـوع من التقيـة يجوز لغير الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام)[1]، وعلّـق على كلام الحسن البصري: (إنّ التقيّة جائزة إلى يوم القيامـة)، بقولـه: (وبه نأخذ، والتقية أن يقي نفسه من العقوبة بما يظهره وإن كـان يضمر خلافـه. وقـد كـان بعض النـاس يـأبى ذلـك، ويقـول إنّـه من النفاق، والصحيح انّ ذلك جائز، لقوله تعالى: { لَا يَتَّخِـذِ الْمُؤْمِنُـونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِـكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً } [آل عمران: 28]، وإجراء كلمة الشرك على اللسان مكرهاً مع طمأنينة القلب بالإيمـان، من بـاب التقيّة) [2]

ومثله ذهب أبو حامد الغـزالي (تـوفي 505هـ)، وهـو من كبـار فقهاء الشافعية، حيث قال في إحيائه عند (بيان ما رخّص فيـه من الكـذب): (إعلم إنّ الكـذب ليس حرامـاً لعينـه، بـل لمـا فيـه من الضرر على المخاطب أو على غـيره، فـإنّ أقـلّ درجاتـه أن يعتقـد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً، وقد يتعلّق به ضرر غيره. ورُبَّ جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب محصّل لـذلك الجهل، فيكون مأذوناً فيه، وربّما كـان واجبـاً.. والكلام وسـيلة إلى المقاصـد، فكـلّ مقصـود محمـود يمكن التوصّـل إليـه بالصـدق والكذب جميعاً، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصّل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً، وواجب إن كان المقصود واجباً، كما انّ عصمة دم المسلم واجبـة. فمهمـا كـان في الصـدق سـفك دم امـرئ مسـلم قـد اختفى من ظالم، فالكذب فيه واجب)[3]

وبيّن الغـزالي الأحكـام المرتبطـة بـذلك، وهي نفس الأحكـام التي يذكرها الشيعة عنـد حـديثهم عن التقيـة، فقـال: (فلـو صـدق

1() المبسوط ، السرخسي 24 : 25.

2() المرجع السابق : 24 : 45.

3() إحياء علوم الدين، الغزالي 3 : 137.

الإنسان في مواضع الضرر تولّد من صدقه محذور، فكان عليـه أن يقابـل أحـدهما بـالآخر، ويـزن بـالميزان القسـط، فـإذا علم انّ المحذور الذي يحصل بالصدق أشدّ وقعاً في الشـرع من الكـذب فلـه أن يكـذب، وإن كـان المقصـود أهـون من مقصـود الصـدق، فيجب الصدق. وقد يتقابل الأمران بحيث يتردّد فيهما، وعنـد ذلـك، الميل إلى الصدق أولى، لأنّ الكذب يباح لضرورة، أو حاجة مهمّة)[1]

ومثلهمـا نجـد أعلام المـذهب الحنبلي يـذكرون التقيـة، ويجيزونها في محالها المناسـبة لهـا، فقـد نص ابن قدامـة الحنبلي (توفي 620هـ) على عدم جواز الصلاة خلـف المبتـدع والفاسـق إلا إذا (خاف ممّا يلحقه من ضـرر إن تـرك الصـلاة خلفـه، ففي هـذه الحالة يمكنه أن يصلّي خلفه تقية ثمّ يعيد الصلاة)، واحتج عليه بما روي عن جابر بن عبد اللّه الأنصـاري أنـه قـال: سـمعت النـبيّ ﷺ على منبره يقول: (لا تؤمّنّ امـرأة رجلاً، ولا يـؤمّ أعـرابي مهـاجراً، ولا يؤمّ فاجر مؤمنـاً إلا أن يقهـره بسـلطان، أو يخـاف سـوطه، أو سيفه)[2]

ومثلهم جميعـا أعلام المدرسـة المالكيـة الـذين اتفقـوا على جواز التقية في محالها، فقد ذكر الإمـام مالـك (تـوفي 279هـ) في المدوّنة الكبرى عدم وقوع طلاق المكره على نحو التقيـة، محتجّـاً بـذلك بقـول ابن مسـعود: (مـا من كلام يـدرأ عنّي سـوطين من سلطان إلا كنت متكلّماً به)[3]

وهكـذا نـرى كـل المـذاهب الفقهيـة تقـول بالتقيـة، وتجيزهـا للضرورة بناء على ما ورد في ذلك من النصوص المقدسة، بل قـد حكي الإجماع في ذلك، فقـد قـال جمـال الـدين القاسـمي: (ومن

1() المرجع السابق: 3 : 138.

2() المغني، ابن قدامة 2 : 186 و192..

3() المدونة الكبرى: 3 : 29.

هذه الآية: { إِلاَّ أَن تَتَّقُـواْ مِنْهُمْ تُقَـاةً } استنبط الأئمة مشروعية التقية عند الخوف، وقد نقل الإجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليماني في كتابه [إيثار الحق على الخلق])[1]

وهو يشير بذلك إلى قوله: (وزاد الحق غموضاً وخفاءً أمران: أحدهما: خوف العارفين ـ مع قلتهم ـ من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن، واجماع أهل الإسلام، وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق، ولا برح المحق عدوّاً لأكثر الخلق، وقد صحّ عن أبي هريرة أنّه قال في ذلك العصر الأوّل: حفظت من رسول اللّه ﷺ وعاءين، أمّا أحدهما فبثثته في الناس وأمّا الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم)[2]

ولم يخرج الشيعة عن إجماع العلماء في ذلك، ولذلك أفتوا بما أفتى به سائر الأئمة، وربما يكون سبب شهرة التقية عنهم ما تعرضوا له من البلاء طيلة التاريخ الإسلامي، مما لم تتعرض له سائر المذاهب، ذلك أنهم كانوا يعتبرون من المعارضة، ولهذا اضطروا إلى حفظ أنفسهم ودعوتهم من ظلم الظلمة.

وقد أشار إلى هذه الضرورة العلامة المرجع الشيخ جعفر السبحاني في كتابه عن التقية، فقال: (الذي دفع بالشيعة إلى التقية بين اخوانهم وأبناء دينهم إنّما هو الخوف من السلطات الغاشمة فلو لم يكن هناك في غابر القرون ــ من عصر الأمويين ثمّ العباسيين والعثمانيين ــ أي ضغط على الشيعة، ولم تكن بلادهم وعقر دارهم مخضّبة بدمائهم والتاريخ خير شاهد على ذلك، كان من المعقول أن تنسى الشيعة كلمة التقية وأن تحذفها من ديوان حياتها، ولكن ياللأسف إنّ كثيراً من إخوانهم كانوا أداة طيّعة بيد الأمويين والعباسيين الذين كانوا يرون في مذهب الشيعة خطراً على مناصبهم، فكانوا يؤلّبون العامة من أهل السنّة على الشيعة يقتلونهم ويضطهدونهم وينكلون بهم، ولذا ونتيجة لتلك

[1] جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل 4 : 82..

[2] المرجع السابق : 4 / 82..

الظروف الصعبة لم يكن للشيعة، بل لكل من يملك شيئاً من العقل وسيلة إلاّ اللجوء إلى التقية أو رفع اليد عن المبادئ المقدسة التي هي أغلى عنده من نفسه وماله)[1]

ثم ذكر الشواهد التاريخية الكثيرة الدالة على ذلك، وعلق عليها بقوله: (ونتيجة لذلك شهدت أوساط الشيعة مجازر بشعة على يد السلطات الغاشمة، فقتل الآلاف منهم، وأمّا من بقي منهم على قيد الحياة فقد تعرض إلى شتى صنوف التنكيل والارهاب والتخويف، والحق يقال إنّ من الأُمور العجيبة أن يبقي لهذه الطائفة باقية رغم كل ذلك الظلم الكبير والقتل الذريع)[2]

ثم خاطب السنيين الذين ينكرون على الشيعة ممارسة التقية، فقال: (فلو كان الأخ السنّي يرى التقية أمراً محرّماً فليعمل على رفع الضغط عن أخيه الشيعي، وأن لا يضيق عليه في الحرية التي سمح بها الإسلام لأبنائه، وليعذره في عقيدته وعمله كما هو عذر أُناساً كثيراً خالفوا الكتاب والسنّة وأراقوا الدماء ونهبوا الدور فكيف بطائفة تدين بدينه وتتفق معه في كثير من معتقداته، وإذا كان معاوية وأبناء بيته والعباسيون كلّهم عنده مجتهدين في بطشهم وإراقة دماء مخالفيهم فماذا يمنعه عن إعذار الشيعة باعتبارهم مجتهدين؟)[3]

ورد على تلك الافتراءات التي تصور التقية باعتبارها تنظيمات سرية، بقوله: (إنّ أكثر من يَعيبُ التقية على مستعملها، يتصور أو يصوِّر أن الغاية منها هو تشكيل جماعات سرية هدفها الهدم والتخريب، كما هو المعروف من الباطنيين والأحزاب الإلحادية السرية، وهو تصور خاطئ ذهب إليه أُولئك جهلا أو عمداً

---

[1] التقية (مفهومها، غايتها، دليلها، حدها في ضوء الكتاب والسنة)، جعفر السبحاني، ص17.

[2] المرجع السابق، ص18.

[3] المرجع السابق، ص18.

دون أن يركّزوا في رأيهم هذا على دليل ما أو حجة مقنعة، فأين ما ذكرناه من هذا الذي يذكره، ولو لم تُلجئ الظروف القاهرة والأحكام المتعسفة هذا الجموع المستضعفة من المؤمنين لما كانوا عمدوا إلى التقية، ولما تحمّلوا عبء اخفاء معتقداتهم ولدعوا الناس إليها علناً ودون تردّد، إلاّ أنّ السيف والنطع سلاح لا تتردد كل الحكومات الفاسدة من التلويح بها أمام من يخالفها في معتقداتها وعقائدها) [1]

هكذا عرض الشيخ جعفر السبحاني التقية بمفهومها الإسلامي الأصيل، والذي دلت عليه النصوص المقدسة، ودلت عليه قبل ذلك الفطرة الإنسانية السليمة، والذي يعارضه للأسف يكيل بالمكاييل المزدوجة، لأنه يجوز لنفسه، ولطائفته ما لا يجوزه لغيرها، وهو الظلم بعينه.

ثانيا ـ نصرة الإيرانيين للعقيدة الإسلامية

لا يمكن لمن يؤرخ للجهود التي قام بها علماء المسلمين في التعريف بالعقيدة الإسلامية ونصرتها ورد الشبه المختلفة عنها أن يلغي ذلك التراث الكبير الذي تركه كبار العلماء الإيرانيين من مختلف المدارس الإسلامية، ولا أن ينكره، ذلك أنه جزء مهم جدا لا يمكن الاستغناء عنه.

فأكبر الكتب في التوحيد وأصول الدين ألفت في مدن إيرانية تنعت اليوم للأسف بكونها أرضا للمجوس، وكون أهلها لم يسلموا طواعية ورغبة، وإنما أسلموا لينفذوا مؤامرتهم على الأمة، ولست أدري هل يمكن اعتبار تلك الكتب التي لم يؤلف مثلها في نصرة العقيدة الإسلامية من أدوات تلك المؤامرة المزعومة، أم لا؟

قد يستغرب القارئ الكريم هذا، ولكن هذا هو الواقع، ويمكن لمن شاء التأكد أن يبحث عن علماء التوحيد وأصول الدين في كتب الطبقات والرجال، وليس عليه سوى أن يكتب النسبة إلى المدن الإيرانية التي لا تزال إلى الآن تسمى بأسمائها القديمة، وسيجد العجب العجاب.

1() المرجع السابق، ص3.

ومثلما فعلنا في الفصول السابقة، فسنكتفي هنا بذكر نماذج عن كبار علماء التوحيد الإيرانيين الذين أثروا الساحة العقدية الإسلامية بمنتجاتهم العلمية، والتي لا تزال تدرس إلى الآن، والتي يمكن الاستغناء عن كثير من غيرها، ولا يمكن الاستغناء عنها، وقد اخترنا تقسيمها بحسب المدارس العقدية الكبرى إلى الطائفتين الكبيرتين الكريمتين في الإسلام: السنة والشيعة.

1 ـ علماء العقيدة من المدرسة السنية:

من أهم المزايا التي نجدها في التراث العقدي المؤلف في إيران ذلك التنوع الكبير في المدارس التي ينتمي إليها أصحاب ذلك التراث، وهو ما يدل على أن الروح العلمية كانت سائدة في المدن الإيرانية ومدارسها المختلفة، وهي ميزة لا نزال نجدها إلى الآن، فالمكتبات الإيرانية تحوي جميع أصناف الكتب، ومن جميع المدارس الإسلامية، والمجامع العلمية الإيرانية تدرس جميع المذاهب، ولا تضيق بواحد منها.

ومن الأمثلة على ذلك أننا نجد علماء التوحيد من مدرسة أهل الحديث يعيشون في بلاد واحدة مع الذي يختلفون معهم اختلافا شديدا من علماء الكلام، فابن خزيمة مثلا، والذي يعتبره السلفية وأهل الحديث إمام أئمتهم كان يعيش في نيسابور تلك البلدة التي خرج منها كبار المتكلمين في الإسلام من أمثال أبي القاسم القشيري وأبي سعد النيسابوري وغيرهم كثير.

بناء على هذا سنذكر هنا نماذج مختصرة لكبار المتكلمين المناصرين للعقيدة الإسلامية، مع التعريف بأهم آثارهم التي تركوها في المجال العقدي، وذلك من خلال نسبتهم إلى المدن الإيرانية، كما فعلنا ذلك سابقا.

المتكلمون من طهران:

ونبدأ بطهران التي كانت في ذلك الحين قرية صغيرة من قرى الري، حيث نجد الكثير من الرازيين ممن اشتهروا بالبحث في العقيدة الإسلامية، ونصرتها، وعلى رأسهم أكبر متكلم في الإسلام، ممن كتب في العقيدة وناظر فيها، وترك فيها المؤلفات

الكثيرة، وهو **فخر الدين الرازي** (توفي 606 هـ)

ومیزته التي أتاحت له أن ينتصر للعقيدة الإسلامية ورد الشبه عنها هو امتلاكه للكثير من الأدوات التي تخول له ذلك، فهو متكلم أصولي ومفسـر ومؤرخ وعالم لغة وطبيب وفيلسوف[1].

ولد الفخر الرازي في مدينة الري قـرب طهـران، في أسـرة اشتهرت بالعلم والفضل؛ فقد كان أبوه أحـد علمـاء الشـافعية في مدينة الري، وكان هـو الآخـر أحـد أئمـة الإسـلام ومقـدما فِي علم الكلام، حيث درســه على ابن القاســم الأنصــاري تلميــذ إمــام الحرمين الجويني.

وقد ترك لنا الكثير من المصادر العقدية الكبرى بالإضافة إلى تفسيره الكبير الـذي يعتـبر نموذجـا مثاليـا عن التفاسـير العقديـة، ومنها الأربعين في أصول الدين، وأساس التقديس، ومحصل أفكار المتقـدمين والمتـأخرين من الحكمـاء والمتكلمين في علم الكلام، وشــرح عيــون الحكمة لابن ســينا، واعتقــادات فــرق المســلمين والمشــركين، ونهاية العقــول في دراية الأصــول، وكتــاب القضــاء والقدر، وعصمة الأنبياء، ورســالة الحــدوث، والمبــاحث المشــرقية في العلم الإلهي، والمطـــــــالب العالية في الكلام، والملخص في المنطق والحكمة.

وهــذه كلهــا مراجــع كــبرى لا يمكن للبــاحثين في العقيــدة الإسلامية أن يستغنوا عنها، ولهـذا أثـنى الكثـير من العلمـاء عليـه، وعلى جهوده في جميـع المجـالات، وخصوصـا في نصـرة العقيـدة الإسلامية.

فقد وصفه الصفدي بقوله [2]:

1() انظر في ترجمة الرازي: وفيات الأعيـان، لابن خلكـان 248-249/4، تـاريخ الإسـلام للذهبي، 137/13، البداية والنهاية لابن كثير،13 /65، شـذارات الـذهب لابن عمـاد الحنبلي، 7 /40، الإمام الفخر الرازي حياته وآثاره للعماري،11-16.

2() الوافي بالوفيات (4/ 175)

عَلامَة الْعلمَاء وَالْبَحْر لَا يَنْتَهِي وَلكُل بحرٍ
مَا دَار فِي الحنك قَلما بِأَحْسَن من

وقال عنـه: (كـان شـديد الحـرص جـدا في العلـوم الشـرعية والحكمة، اجتمع له خمسة أشياء ما جمعها الله لغيره فيما علمتــه من أمثالــه، وهي سـعة العبــارة في القــدرة على الكلام، وصــحة الــذهن، والاطلاع الــذي مــا عليــه مزيــد، والحافظــة المســتوعبة، والذاكرة التي تعينـه على مـا يريـده في تقريـر الأدلـة والـبراهين، وكان فيه قوة جدلية، ونظره دقيق، وكان عارفـا بـالأدب لـه شـعر بالعربي ليس في الطبقة العليا ولا السفلى، وشعر بالفارسي لعله يكون فيه مجيدا) [1]

وهكـذا نجـد الكثـير من المتكلمين في الـري، والـذين يغـني عنهم جميعا الفخر الرازي.

المتكلمون من نيسابور:

وهم كثيرون جدا، ومن مدارس مختلفة، وعلى رأسهم **إمـام الحرمين أبي المعالي الجويني** (419هـ - 478هـ)، الذي ولد ـ مثل الفخر الرازي ـ في أسرة علمية، فقد كان فـأبوه واحـدا من علماء وفقهاء نيسابور المعروفين، وله مؤلفات كثيرة في التفسير والفقه والكلام.

ويعتــبر من علمــاء الكلام الكبــار، وقــد قــال عنــه د. محمــد الزحيلي في كتابه الـذي ألفـه عنـه: (كـان الـدافع لدراسـة أصـول الدين أولا، وتأكيده بدراسة الفلسفات المتنوعة، هو الحــرص على الإسـلام والـدعوة إليـه، ورد شـبهات الأعـداء عنـه، وتفنيـد حجج الطـاعنين بـه من الكفـار والمشـركين خـارج الـدعوة الإسـلامية، والملحدين الذين انضووا تحت لواء المسلمين، وتستروا بالباطنيــة وغيرها من الفرق الضـالة، للـدس على الإسـلام، والتشـكيك فيـه، وإثارة الشـبه بين المسـلمين.. فصـار دراسـة أصـول الـدين وعلم الكلام وتدريسـه والتـأليف فيـه السـبيل القـويم أمـام المسـلمين،

1() الوافي بالوفيات (4/ 176)

فانكب العلماء على دراسته وتدريسه والتصنيف فيه، وهو ما سلكه إمام الحرمين الجويني)[1]

وقال عنه الحافظ أبو محمد الجرجاني: (هو إمام عصره، ونسيج وحده، ونادرة دهره، عديم المثل في حفظه، وبيانه ولسانه)[2]

وقال عنه تلميذه عبد الغافر الفارسي: (إمام الحرمين، فخر الإسلام، إمام الأئمة على الإطلاق، حبر الشريعة، المجمع على إمامته شرقا وغربا، المقر بفضله السراة والحداة، عجما وعربا، لم ترى العيون مثله قبله، ولا ترى بعده، رباه حجر الإمامة وحرك ساعده السعادة مهده، وأرضعه ثدي العلم والورع، إلى أن ترعرع فيه وينع، أخذ من العربية وما يتعلق بها أوفر حظ ونصيب، فزاد فيها على كل أديب، ورزق من التوسع في العبارة وعلوها ما لم يعهده من غيره)[3]

وقد ألف الكتب الكثيرة في الفقه والأصول وعلم الكلام والسياسة الشرعية والجدال وغيرها، ومما كتبه في نصرة العقيدة الإسلامية: الشامل في أصول الدين، والإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ولمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، والعقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، وشفاء العليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، وقصيدة على غرار قصيدة ابن سينا في النفس، وغيرها.

ومنهم **أبو القاسم الأنصاري النيسابوري**[4] (توفي 511 هـ) الملقب بالأستاذ الإمام، ناصر السنة، إمام المتكلمين،

1() الجويني لمحمد الزحيلي، ص: 94-96.

2() طبقات الشافعية الكبرى: 5/173..

3() طبقات الشافعية الكبرى: 5/174..

4() انظر في ترجمته: طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي 7/96-99.

سيف النظر [1]، وقد كان من كبار علماء الكلام الأشاعرة بالإضافة إلى اهتمامه بعلم التفسير، وعلم الحديث والتصوف.

ومن مؤلفاته في علم الكلام [شرح الإرشاد]، وهو من أشهر كتبه، وقد نهج فيه على طريقة الأشاعرة، وخصوصا على طريقة شيخه أبي المعالي الجويني؛ الذي لا يذكره إلا بأجل الألقاب المشعرة بتوقيره واحترامه والاعتراف له للإمامة والفضل[2].

وقد قال بعض الباحثين عن مدى تأثيره في الثقافة الإسلامية: (حاز أبو القاسم الأنصاري على السبق في الإمامة في الدين والعلم والزهد والورع؛ وفي علم الأصول، والسلوك، والتفسير. ففي الأخلاق والسلوك: هو الصوفي، الإمام، الورع، فريد عصره في الفقه، بيته بيت الصلاح والتصوف الزهد.. وفي أصول الدين: صنف تصانيف حسنة، وأخذ في الإفادة، وكان حسن الطريقة، دقيق النظر، واقفاً على مسالك الأئمة وطرقهم في علم الكلام، بصيراً بمواضع الإشكال.. وفي أصول الحديث: فقد كان العالم المؤصل للمسائل ذا منهج قويم، وقد ظهر تأثير هذه الثقافة التأصيلية في كتابه الغنية؛ فنجده يناقش قضايا في منهجية الحديث؛ مثل: مراتب نقل الأخبار، وإفادة خبر الواحد العلم، والاستدلال بالخبر فرع ثبوته، وغيرها. والأنصاري كذلك صاحب رواية؛ له روايات حكى بعضها ابن عساكر. كما أن عناية الأنصاري بالحديث في كتابه الغنية دراية أمر راسخ في استدلالاته.. وفي التفسير: هو الإمام المقدم؛ الذي يعتمد المفسرون ما أثر عنه من أقوال في التفسير، مطمئنين مستأنسين بما رجحه، كما ذكر عنه أنه صنف في التفسير)[3]

ولعل أحسن صفة فيه بالإضافة إلى كل ما ذكر سابقا هو

1() الغنية في الكلام، أبو قاسم الأنصاري، المقدمة التعريفية بالمؤلف: مصطفى حسنين عبد الهادي، ج1، ص: 27.

2() المرجع السابق، ص49.

3() المرجع السابق، ص27.

ذلك البعد المتسامح في شخصه، والذي جعله ينأى عن التعصب والتكفير، فقد روي أنه سُئل عن تكفير المعتزلة، فقال لا؛ لأنهم نزهوه، ثم سئل عن أهل الحديث، فقال لا؛ لأنهم عظموه[1].. فقد اعتذر لكلا الفريقين مع البعد الشديد بينهما.

ومنهم **أبو عثمان الصابوني النيسابوري** [2] (373 هـ - 449 هـ)، وهو من كبار علماء العقيدة في المدرسة السلفية، وصاحب أشهر كتبها [عقيدة السلف أصحاب الحديث]

وصفه عبد الغافر الفارسي في كتابه [السياق لتاريخ نيسابور] بأنه (الإمام شيخ الإسلام الخطيب المفسّر المحدث الواعظ، أوحد وقته في طريقته، وعظ المسلمين في مجالس التذكير سبعين سنة، وخطب وصلى في الجامع -يعني: بنيسابور- نحواً من عشرين سنة)

وقال: (كان أكثر أهل العصر من المشايخ سماعاً وحفظاً ونشراً لمسموعاته وتصنيفاته، وجمعاً وتحريضاً على السماع، وإقامة لمجالس الحديث، سمع الحديث بنيسابور وبسرخس وبهراة وبالشام وبالحجاز وبالجبال، وحدث بكثير من البلاد، وأكثر الناس في السماع منه)

قال: (أقعد بمجلس الوعظ مقام أبيه، وحضر أئمة الوقت مجالسه، وأخذ الإمام أبو الطيب سهل بن محمد الصعلوكي في تربيته وتهيئة أسبابه، وكان يحضر مجالسه ويثني عليه، وكذلك سائر الأئمة كالأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني والأستاذ الإمام أبي بكر بن فورك، وسائر الأئمة كانوا يحضرون مجلس تفسيره، ويتعجبون من كمال ذكائه وعقله وحسن إيراده الكلام عربيه وفارسيه، وحفظه للأحاديث، حتى كبر وبلغ مبلغ الرجال ولم يزل يرتفع شأنه حتى صار إلى ما صار إليه، وهو في جميع أوقاته

1() انظر: فخر الدين الرازي، تفسير مفاتيح الغيب 323/1..

2() قال في شرح عقيدة السلف للصابوني، ناصر العقل (1/ـ 2): وأما لفظ (الصابوني) فقد ذكر السمعاني في كتاب (الأنساب) أنه نسبة إلى عمل الصابون، وقال: هو بيت كبير بنيسابور الصابونية.

مشتغل بكثرة العبادات ووظائف الطاعات، بالغ في العفاف والسداد وصيانة النفس، معروف بحسن الصلاة وطول القنوت واستشعار الهيبة حتى كان يُضرب به المثل)

ومنهم **أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي النيسابوري**[1] [384 ـ 458هـ]، الذي وصف بأنه (الإمام، العلامة، الحافظ)، وقد ولد في ولد في خسروجرد، وهي قرية من قرى بيهق بنيسابور، ونشأ في بيهق التي كانت تموج حينها بالحركة العلمية الواسعة، ولذلك تسنى له أن يلتقي بالكثير من علماء عصره، في سن مبكرة، ويكتب عنهم الحديث.

وقد قال متحدثا عن نفسه، وعن مرحلة طلبه للعلم: (كتبت الحديث من سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وأدركت بعض أصحاب الشرقيين، وابن الأعرابي، والصفار والرزاز والأصم وابن الأخرم.. وإني منذ نشأت، وابتدأت في طلب العلم أكتب أخبار سيدنا المصطفى ﷺ، وأجمع آثار الصحابة الذين كانوا أعلام الدين، وأسمعها ممن حملها، وأتعرف أحوال رواياتها من حفظها، وأجتهد في تمييز صحيحها من سقيمها، ومرفوعها من موقوفها، وموصولها من مرسلها، ثم أنظر في كتب هؤلاء الأئمة الذين قاموا بعلم الشريعة، وبنى كل واحد منهم مذهبه على مبلغ علمه من الكتاب والسنة، فأرى كل واحد منه رضي الله عنهم جميعهم قصد الحق فيما تكلف واجتهد في أداء ما كلف)

من أشهر مؤلفاته في العقائد: إثبات عذاب القبر، والأسماء والصفات، والاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، والبعث والنشور، وشعب الإيمان، وحياة الأنبياء في قبورهم بعد وفاتهم، والقضاء والقدر، والإيمان (مختصر شعب الإيمان)، وأحكام القرآن، ودلائل النبوة.

ومنهم **أبو سهل محمد بن سليمان الصعلوكي النيسابوري** (296هـ-369هـ)، وهو فقيه شافعي ومتكلم ونحوي

---

[1] () انظر في ترجمته: ابن خلكان وفيات الأعيان1/75، طبقات الشافعية للسبكي 1/124، الوافي بالوفيات للصفدي 2/316..

ومفسر ولغوي وصوفي.

وقد وصفه الحاكم بقوله: (هو حبر زمانه، وبقية أقرانه.. وناظر وبرع، ثم استدعي إلى أصبهان.. أفتى ودرس بنيسابور نيفاً وثلاثين سنة)، وقال الفقيه أبو بكر الصيرفي: (لم يَرَ أهل خراسان مثل أبي سهل)، وقال الصاحب بن عباد: (ما رأينا مثل أبي سهل، ولا رأى مثل نفسه)، وقال أبو عبد الله الحاكم: (أبو سهل مفتي البلدة وفقيهها، وأجدل من رأينا من الشافعية بخراسان، وهو مع ذلك أديب شاعر نحوي كاتب عروضي، صحب الفقراء)[1]

المتكلمون من أصفهان:

باعتبار أصفهان كانت مركزا من مراكز الحضارة الإسلامية، فقد ظهر فيها الكثير من أعلام العقيدة، ومن المدارس المختلفة، ولعل أشهرهم أبو بكر بن فُورَك الأصفهاني[2]، العالم في المجالات المختلفة، فهو متكلم ومفسر وفقيه وأصولي ونحوي وأديب، له ما يقرب من المائة كتاب في أصول الدين وأصول الفقه ومعاني القرآن وعلم الحديث.

وهو من كبار من ردوا على السلفية المجسمة، وكان قد رأى أن السبب في وقوعهم في التشبيه ما ورد في النصوص المقدسة من المتشابه الذي لم يفهموه حق فهمه، لذلك راح يشتغل برد المحكم إلى المتشابه في أكثر كتبه، والتي يمكن اعتبارها مصادر في هذا الباب، وقد أعانه عليه كونه نحويا وأديبا وله ذوق كبير في اللغة العربية.

وقد ذكر سبب ذلك الاهتمام برد المتشابه إلى المحكم، فقال: (كان سبب اشتغالي بعلم الكلام أني كنت بأصفهان أختلف

1() انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء، الذهبي، الطبقة العشرون، الصعلوكي.

2() انظر في ترجمته: الجوهر الثمين في بعض من اشتهر ذكره بين المسلمين، أبو بكر بن فورَك رأس الأشاعرة وشيخ المتكلمين، ص: 346-351، المجددون في الإسلام: من القرن الأول إلى الرابع عشر، تأليف الشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، طبعة مكتبة الآداب، ص: 11.

إلى فقيه، فسمعت أن (الحجر يمين الله في الأرض)[1]، والمعنى أنه وضع في الأرض للتقبيل والاستلام تشريفًا له كما شرفت اليمين وأكرمت بوضعها للتقبيل دون اليسار في العادة، فاستعير لفظ اليمين للحجر لذلك، وأضيف الحجر إلى الله إضافة تشريف وإكرام، فسألت ذلك الفقيه عن معناه فلم يُجب بجواب شاف، فأرشدت إلى فلان من المتكلمين فسألته فأجاب بجواب شاف، فقلت لابد لي من معرفة هذا العلم فاشتغلت به)

وقد جعله ذلك يتعرض لكثير من المحن من طرف المجسمة الذين كانت تمثلهم في ذلك الحين فرقة الكرامية، فقد وشوا به إلى السلطان محمود بن سبكتكين مدعين أنه أنكر رسالة محمد ﷺ بعد موته[2]، فعظم الأمر عند السلطان فأمر بإحضاره، ولما حضر بين يديه ظهر كذب المفترين عليه، فأمر السلطان بإعزازه وإكرامه وإرجاعه إلى وطنه.. لكن الكرامية لما أيست منه، وعلمت أن الوشاية به لم تتم، وأن مكايدها وحيلها لن تؤت نتيجة، سعت إلى قتله فدفعت إليه من دس له السم فمات على أثره[3].

وقد قال يحدث عن نفسه وعن بعض المحن التي مر بها منطرف المجسمة: (حملت مقيدا إلى شيراز لفتنة في الدين، فوافينا باب البلد مصبحا، وكنت مهموما، فلما أسفر النهار وقع بصري علي محراب في مسجد على باب البلد، مكتوب عليه

1() يشير إلى ما ورد في الحديث: (الحجر الأسود يمين الله في أرضه).

2() ذكر تاج الدين السبكي وغيره من الأشاعرة أن هذه التهمة من التهم التي اتهم بها الأشاعرة، فقال: (والمسئلة المشار إليها وهي انقطاع الرسالة بعد الموت مكذوبة قديمًا على الإمام أبي الحسن الأشعري نفسه. وقد مضى الكلام عليها في ترجمته. إذا عرفت هذا فاعلم أن أبا محمد بن حزم الظاهري ذكر في النصائح أن ابن سبكتكين قتل ابن فورك بقوله لهذه المسئلة ثم زعم ابن حزم أنها قول جميع الأشعرية، قلت وابن حزم لا يدري مذهب الأشعرية ولا يفرق بينهم وبين الجهمية لجهله بما يعتقدون، وقد حكى ابن الصلاح ما ذكره ابن حزم ثم قال: ليس الأمر كما زعم بل هو تشنيع على الأشعرية أثارته الكرامية فيما حكاه القشيري)

3() أبو بكر بن فورَك رأس الأشاعرة وشيخ المتكلمين، ص: 349-350..

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: 36]، فحصل لي تعريف بـاطني أني أكفى عن قريب، فكان كذلك، وصرفوني بالعز)

ومن مؤلفاته في العقيدة: مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، وشرح أوائل الأدلة للكسبي في الأصول، والحدود في الأصول، والنظامي في أصول الدين، ومُشْكِل الحديث وغريبه. وهو كتاب يتناول فيه عددًا من الأحاديث المتشابهة فيؤولها ويبين معانيها، ومشكل الآثار، ودقائق الأسرار، وطبقات المتكلمين.

وقد أثنى عليه الكثير من العلماء، وخصوصا من الأشاعرة، فقد قال عنه الحاكم النيسابوري: (أحيا الله به بلدنا أنواعًا من العلوم لما استوطنها، وظهرت بركته على جماعة من المتفقهة وتخرجوا به)

وقال ابن عساكر: (أخبرنا الشيخ أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل في كتابه إليَّ من نيسابور قال: سمعت الشيخ أبا صالح أحمد بن عبد الله المؤذن يقول: كان الأستاذ أوحد وقته أبو علي الحسن بن علي الدقاق يعقد المجلس ويدعو للحاضرين والغائبين من أعيان البلد وأئمتهم فقيل له: قد نسيت ابن فورك ولن تدع له، فقال أبو علي: كيف أدعو له وكنت أقسم على الله البارحة بإيمانه أن يشفي علتي. وكان به وجع البطن تلك الليلة)[1]

وقال ابن خلكان في الوفيات: (هو الأستاذ أبو بكر المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ الأصبهاني، درس بالعراق مدة، ثم توجه إلى الري، فسمعت به المبتدعة، فراسله أهل نيسابور، فورد عليهم، وينوا له بها مدرسة، ودارا، وظهرت بركته على المتفقهة، وبلغت مصنفاته قريبا من مائة مصنف، ودعي إلى مدينة غزنة، وجرت له بها مناظرات، وكان شديد الرد على ابن كرام، ثم عاد إلى نيسابور، فَسُمَّ في الطريق، فمات بقرب بست، ونقل إلى نيسابور، ومشهده بالحيرة ظاهر يزار، ويستجاب الدعاء عنده)

وقال التاج السبكي: (ابن فورك الأستاذ أبو بكر الأنصاري

1() تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري.

الأصبهاني الإمام الجليل، والحبر الذي لا يجاري فقها، وأصولا، وكلاما، ووعظا، ونحوا مع مهابة، وجلالة، وورع بالغ، رفض الدنيا وراء ظهره، وعامل الله في سره وجهره، وصمم على دينه)[1]

المتكلمون من شيراز:

حظيت شيراز بالكثير من علماء العقيدة الكبار، ومنهم **ناصر الدين البيضاوي الشيرازي**[2] الشافعي (توفي 685 هـ)، وقد وصف بأنه (أحد علماء أهل السنة والجماعة، وهو فقيه وأصولي شافعي، ومتكلم ومحدث ومفسر ونحوي)[3]

ولد في أسرة علمية، فأبوه أبو القاسم عمر بن محمد بن أبي الحسن علي البيضاوي كان عالما تقلّد القضاء بشيراز سنين عديدة ودرسّ وأسمع وحدثّ، وقد ذكر البيضاوي أنه أخذ الفقه عن والده فقال: (اعلم أني أخذت الفقه عن والدي مولى الموالي الصدر العالي ولي الله الوالي قدوة الخلف وبقية السلف إمام الملة والدين أبو القاسم عمر قدسّ الله روحه وهو عن والده قاضي القضاة السعيد فخر الدين: محمد بن الإمام الماضي صدر الدين: أبي الحسن علي البيضاوي قدس الله أرواحهم)[4]

ومن مؤلفاته في العقيدة الإسلامية [طوالع الأنوار من مطالع الأنظار]، والذي اعتبره السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (أجل مختصر في علم الكلام)، وذكر أن العلماء اعتنوا به كثيرا

1() طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي، ترجمة: محمد بن الحسن بن فورك..

2() لقب بالشيرازي نسبة إلى مدينة شيراز التي نشأ بها وتولى فيها منصب قاضي القضاة، ولقب بالتبريزي نسبة إلى تبريز حيث توفي بها، وبالبيضاوي نسبة إلى مدينة البيضاء بفارس قرب شيراز.

3() انظر: بغية الوعاة للسيوطي (2/ـ 50)كشف الظنون حاجي خليفة (1/ـ 186) شذرات الذهب لابن العماد (5/393-392) طبقات المفسرين للداودي (1/ـ 242) طبقات المفسرين للأدنهوي (255- 254) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي (5/59).

4() مقدمة الغاية القصوى.(1/ 184).

وشرحوه شروحا عديدة، وقد وضع لهذا الكتاب مختصرا سماه [مصباح الأرواح]

ومن مؤلفاته كذلك: مختصر الكشاف، والمنهاج في الأصول، وشرحه أيضا، وشرح مختصر ابن الحاجب في الأصول، وشرح المنتخب في الأصول للإمام فخر الدين، وشرح المطالع في المنطق، والإيضاح في أصول الدين.

ومنهم **جلال الدين الدَّوَّاني** (830هـ - 918هـ) وهو قاض، وفقيه شافعي، ومتكلم، ومفسر، وفيلسوف، وقد شرح عدداً من الكتب المشهورة في الفلسفة والتصوف.

ومن مؤلفاته: شرح العقائد العضدية، وشرح هياكل النور للسهروردي، وحاشية على شرح آداب الفاضل للشرواني، وحاشية على شرح القوشجي لتجريد الكلام، وحاشية على تحرير القواعد المنطقية للقطب الرازي، و(رسالة في إثبات الواجب) تحتوي على مسائل من كل علم[1].

ومنهم القاضي **عضد الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن ركن الدين الشيرازي**[2] (680 ــ)، وهو قاض ومتكلم وفقيه ولغوي، ومن كبار علماء الأشاعرة، وقد وصف بأنه كان (إماماً في المعقولات، محقّقاً، مدقّقاً، قائماً بالأصول والمعاني والعربية، مشاركاً في الفقه وغيره من الفنون، وأنجب تلاميذ عظاماً اشتهروا في الآفاق)

ومن أشهر مؤلفاته في العقيدة الإسلامية: كتاب المواقف في علم الكلام، والذي اعتنى به العلماء عناية بالغة، بل ظل عمدة في تدريس علم الكلام بالأزهر وغيره من معاهد العلم فترات طويلة، وما زال كذلك إلى يومنا هذا وعليه شروح كثيرة.

---

[1] انظر:: لوائح الأنوار السنية ولواقح الأفكار السنية، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، 2/ 221.

[2] انظر في ترجمته: الدرر الكامنة 2/ 196، البدر الطالع 1/ 227، شذرات الذهب 6/ 174، طبقات الشافعية للأسنوي 2/ 109، بغية الوعاة: 296.

ومنها: جـواهر الكلام، وهـو مختصـر لكتابـه المواقـف، ومنهـا الكواشـف في شـرح المواقـف، ومنهـا العقائـد العضـدية، وهي مشهورة لاختصارها، ومنها عيـون الجـواهر، ومنهـا بهجـة التوحيـد، ومنها تحقيق التفسير في تكثير التنوير في تفسـير القـرآن، ومنهـا الرسالة العضدية في الوضع ضـمن مجمـوع من مهمـات المتـون، ومنها شرح المقالة المفردة في صفة الكلام.

قال عنه تاج الدين السـبكي في طبقـات الشـافعية الكـبرى: (قاضي القضاة عضد الدين الشيرازي كان إمامـا في المعقـولات، عارفا بالأصلين، والمعاني، والبيان، والنحو، مشاركا في الفقه، لــه في علم الكلام كتاب (المواقف) وغيره. وفي أصول الفقه (شــرح المختصـر) وفي المعـاني والبيـان (الفوائـد الغياثيـة). وكـانت لـه سـعادة مفرطـة، ومـال جزيـل، وإنعـام على طلبـة العلم، وكلمـة نافذة)[1]

المتكلمون من شهرستان:

وهي مدينة من المـدن الواقعـة في إقليم فـارس في إيـران، وإليهـا ينسـب الكثـير من الأعلام وخصوصـا من الشـيعة، وإليهـا ينتسـب كـذلك أبـو الفتح الشهرسـتاني (479هــ - 548هــ) الـذي يعتبر من كبار المؤرخين للأديان والمذاهب الإسلامية.

وقد ألف في التفسير والفقه وعلم الكلام والفلسفة والتاريخ الفرق، وقد بلغ عدد مؤلفاته ما يزيـد على عشـرين مؤلفـاً، ومنهـا الملـل والنحـل وهـو أشـهر كتبـه، ونهايـة الإقـدام في علم الكلام، ومصـــارعة الفلاســـفة، ومجلس في الخلـــق والأمـــر، وبحث في الجـوهر الفـرد، ومفـاتيح الأسـرار ومصـابيح الأبـرار، ورسـالة في المبدأ والمعاد، والمناهج في علم الكلام، ودقائق الأوهام، وشبهات أرسطو وبرقلس وابن سينا ونقضها.

المتكلمون من طوس:

وهي ـ كما ذكرنا سابقا ـ من المدن التاريخية الأثريـة بـإيران،

1() طبقات الشافعية الكبرى للسبكي.

وتسمى اليـوم (مشـهد الرضـا)، وقـد ظهـر فيهـا الكثـير من أعلام المتكلمين من المــدارس الإســلامية المختلفــة، وأشــهرهم على الإطلاق أبو حامد محمد الغـزّالي الطوسـي النيسـابوري الصـوفي الشافعي (450 هـ - 505 هـ)، والذي اشـتهر في الفنـون العلميـة المختلفة.

وبالإضـافة إليهـا، فقـد كتب في نصـرة العقيـدة الإسـلامية مجموعـــة كتب لا تـــزال تـــدرس إلى الآن منهـــا [الاقتصـــاد في الاعتقاد]، وهو كتاب في عقيدة أهل السنة على طريقة الأشاعرة، وهو آخر كتاب ألفه الغزالي قبل تخليه عن التدريس في المدرسة النظامية ودخول العزلة، وقد شرح من قبل كثير من العلماء، ومن شروحه كتاب الاقتصاد في كفاية الاعتقـاد، لمؤلفـه شـهاب الـدين أحمد بن عماد الأقفهسي.

ومن كتبه المهمة والرائدة في العقيدة (المقصـد الأسـنى في شرح أسماء الله الحسـنى)، وهـو كتـاب فريـد في بابـه تكلم فيـه كلام الذائق المشاهد الذي عاش الإيمـان، واسـتولى على قلبـه، لا كلام من غلبت عليه صناعة المتكلمين وتدقيقاتهم.

ومنها (إلجام العوام عن علم الكلام)، وقـد رد فيـه على غلـو المجسمة كـ (الكرامية)[1]و(المشـبهة)[2] وغـيرهم، ولـذلك فـإن الغزالي ناصر، بالنسبة للعامة، في هذا الكتاب منهج التفويض، بعد

1() أتباع محمد بن كرام ـ ت 869 م ـ وهي من الفرق المجسمة القائلة بأن الله تعـالى محل للحوادث، انظر: عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص202، 214.

2() وهو طوائف شتى اجتمعت على القول بتشبيه ذات الله تعالى صفاته بغيرها، انظـر: عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص214.

أن ناصر في كتبه الأخرى منهج التأويل [1].

ولعل أهم كتبه في هذا المجال كتابه الـذي واجـه بـه ظـاهرة التكفير التي استشـرت في زمانـه، وأعطى قـوانين مهمـة لـذلك، وهو كتابه المعروف [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة]، والذي يقول في مقدمته: (إني رأيتك أيها الأخ المشفق منقسم الفكر لما قــرع ســمعك من طعن طائفــة من الحســدة على بعض كتبنــا المصنفة في أسرار معاملات الـدين، وزعمهم أن فيهـا مـا يخـالف مـذاهب الأصـحاب المتقـدمين والمشـايخ المتكلمين، وأن العـدول عن مذهب الأشعري ولو في قيد شبر كفر، ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر)[2]

ثم يسأل هؤلاء المتعصبين عن الميزان الذي رأوا به أن الحق قاصر على الأشعري أو غيره مع أن الباقلاني نفسه، وهو من أتباع الأشعري، يخالفه في صفة البقاء لله تعالى، وأنه ليس وصفا زائدا على الذات، (لم صار الباقلاني أولى بالكفر بمخالفته الأشعري من الأشعري بمخالفته الباقلاني؟ ولم صـار الحـق وقفـا على أحـدهما دون الثـاني؟ أكـان ذلـك لأجـل السـبق في الزمـان، فقـد سـبق

1() دعا في كتابه هذا إلى معاملة المتشابهات بسبع وظائف هي:

التقديس: وهو تنزيه الله تعالى عن الجسمية وتوابعها من صفات الحوادث.

التصديق: وهو الإيمان بأن ما ورد من النصوص حق، وأنه أريد بها معنى يليـق بجلال اللـه وعظمته.

الاعتراف بالعجز عن معرفة حقيقتها.

السكوت عن السؤال عن معناه، لأن كل ذلك بدعة، كما نص عليه الإمام مالك.

الإمساك عن التصرف في ألفاظها بالتصريف والتبديل للغة أخرى والزيادة فيها والنقصان منها والجمع والتفريق...بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ وعلى ذلـك الوجـه من الإيـراد والإعـراب والصيغة.

كف الباطن عن البحث عنها والتفكير فيها.

التسليم لأهلها ممن يعلمون ما تشابه منه من الأنبياء والراسـخين في العلمـانظر تفصـيل ذلك في: الغزالي، إلجام العوام عن علم الكلام، ص:54 ـ 85.

2() الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص147.

الأشعري غيره من المعتزلة، فليكن الحق للسابق عليه، أم لأجل التفاوت في الفضل والعلم؟ فبأي ميزان ومكيال قدر درجات الفضل؟)[1]

ثم يعقب على ذلك بقوله:(فإن رخص للباقلاني في مخالفته فلم حجر على غيره؟)[2]

وهو يبين أن سبب هذه الظاهرة، والتي لم يخلو منها عصر من العصور الإسلامية، غلبة الجهل، أو ما يسمى بالجهل المركب، وخاصة ممن بضاعتهم الفقه المجرد، يقول في ذلك:(فإذا رأيت الفقيه الذي بضاعته مجرد الفقه يخوض في التكفير والتضليل، فأعرض عنه، ولا تشغل به قلبك ولسانك، فإن التحدي بالعلوم غريزة في الطبع لا يصبر عنه الجهل، ولأجله كثر الخلاف بين الناس)[3]

ويمثل لهؤلاء ببعض المتكلمين في العقائد الذين كفروا عوام المسلمين، و(ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده، وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين)[4]

ولذلك يتشدد الغزالي في شروط من له حق التكفير والتضليل حتى لا يبقى مشاعا بين العامة، أو من هو في حكمهم، يقول الغزالي:(ولا ينكشف هذا إلا لقلوب طهرت عن وسخ أوضار الدنيا أولا، ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانيا، ثم نورت بالذكر الصافي ثالثا، ثم غذيت بالفكر الصائب رابعا، ثم زينت بملازمة

1() المرجع السابق، ص47.

2() المرجع السابق، ص171.

3() المرجع السابق، ص171.

4() المرجع السابق، ص145.

حدود الشرع خامسا حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة)[1]

وبناء على ذلك وضع قوانين مهمة جدا يمكنهـا لـو طبقت في عصرنا الحاضر أن تقي المجتمعات الإسلامية من ظـاهرة التكفـير بصورها المختلفة.

وبذلك يمكن اعتبار الغزالي رائدا في نواح كثـيرة، مثلـه مثـل الفخر الرازي وابن فورك والكثير من الأعلام الذين أنجبتهم إيـران طيلة تاريخها.

2 ـ علماء العقيدة من المدرسة الشيعية:

يتصور الكثير من النـاس بسـبب الهجمـة الإعلاميـة الشرسـة على إيران والشيعة عموما، أن العقائد الشيعية مختلفة تمامـا عن العقائد السنية، وأن المسافة بينهما هائلـة جـدا، وهـذا خطـأ كبـير، وهو ناتج من عـدم المطالعـة والبحث، وإلا فـإن البـاحث المنصـف يجد أن المسـافة الـتي تربـط مدرسـة كبـيرة كالأشـعرية مثلا مـع الشيعة أكبر بكثير من المسـافة الـتي تربـط بينهـا وبين المدرسـة السـلفية، وخاصـة في أمهـات العقائـد، ولا يعـدو الخلاف بينهمـا مسألة الإمامة، ومن هم الأئمة، كما ذكرنا ذلك في المبحث الأول.

وحتى لا يقال: إن هـذه المسـافة القريبـة ناشـئة عن التقيـة، وأنها من فعل المعاصرين، فسأسوق نصوصا من المتـون العقديـة الشـيعية الـتي يتبناهـا في العـالم الإسـلامي جميعـا، مثلمـا تتبـنى المدرسـة السـنية العقيـدة الطحاويـة أو الخريـدة أو الجـوهرة أو الواسطية، وغيرها.

وأول تلك المتون العقدية ما كتبه الإمـام الرضـا، وهـو الإمـام الثامن من أئمة الشـيعة، والـذي كـان لـه تـأثيره الكبـير في نشـر التشيع خاصـة بعـد رحلتـه إلى طـوس، وقـد كتب في رسـالته في العقيـدة الـتي لا يـزال يحفظهـا الشـيعة، ويشـرحونها، يقـول: (إن محض الإسلام شهادة أن لا إلـه إلا اللـه وحـده لا شـريك لـه، إلهـا واحدا، أحدا، فردا، صـمدا، قيومـا، سـميعا، بصـيرا، قـديرا، قـديما،

---

[1] () المرجع السابق، ص176.

قائما، باقيا، عالما لا يجهل، قـادرا لا يعجـز، غنيـا لا يحتـاج، عـدلا لا يجور، وأنه خالق كل شئ، ليس كمثلـه شـئ، لا شـبه لـه، ولا ضـد له، ولا ند له، ولا كفو له، وأنه المقصود بالعبـادة والـدعاء والرغبـة والرهبة، وأن محمدا عبـده ورسـوله وأمينـه وصـفيه وصـفوته من خلقه، وسيد المرسـلين وخـاتم النبـيين وأفضـل العـالمين، لا نـبي بعده ولا تبـديل لملتـه ولا تغيـير لشـريعته، وأن جميـع مـا جـاء بـه محمد بن عبد اللـه هـو الحـق المـبين، والتصـديق بـه وبجميـع من مضى قبلـه من رسـل اللـه، وأنبيائـه، وحججـه، والتصـديق بكتابـه الصادق العزيز الذي {لَا يَأْتِيـهِ الْبَاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَلَا مِنْ خَلْفِـهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصـلت: 42]، وأنـه المهيمن على الكتب كلها، وأنه حق من فاتحته إلى خاتمته، نـؤمن بمحكمـه ومتشـابهه، وخاصـه وعامـه، ووعـده ووعيـده، وناسـخه ومنسـوخه، وقصصـه وأخباره، لا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله)[1]

وهذا النص وحده كاف في تقرير جميع المسائل العقدية التي يتفق فيها المسلمون مع الشيعة، ذلك أن مبنى العقائد هو الإيمان باللـه وبرسـوله وبـالقرآن الكـريم، أمـا سـائر العقائـد كالإيمـان بالملائكة واليوم الآخر وغيرهـا فهي موجـودة في القـرآن الكـريم، ولا يمكن لمن يؤمن بالقرآن الكريم ألا يؤمن بها.

ثم ذكـر لهم مــا اختص بــه الشــيعة من العقائــد المرتبطــة بالولاية، وهي كما ذكرنا موجودة عنـد كـل طائفـة، ولـو لم ينصـوا عليها، ذلك أنه لا يمكن لأحد أن يتبنى أي مـذهب دون أن يثـق في الأئمة المؤسسين له.

ومن المتون العقدية التي لا يزال الشـيعة يتـداولونها مـا نص عليـه السـيد عبـد العظيم الحسـنى[2] عنـد عرضـه لعقيدتـه على

1() عيون أخبار الرضا 2: 121 - 122.

2() هو عبد العظيم بن عبد الله بن علي، من أصحاب الإمام الهادي، قـال النجاشـي: لـه كتاب خطب أمير المؤمنين، ورد الري هاربا من السلطان وسكن سربا (حفـيرا تحت الأرض) في دار رجل من الشيعة في سكة الموالي فكان يعبد اللـه في ذلـك السـرب ويصـوم نهـاره ويقوم ليله، وكان يخرج مستترا، فيزور القبر المقابل قبره وبينهما الطريق، ويقول: هـو قـبر رجل من ولد موسى بن جعفر (عليه السلام). فلم يزل يـأوي إلى ذلـك السـرب ويقـع خـبره

الإمام الهادي، فقد روي عنه أنه قال: دخلت على سيدي علي بن محمد، فلما بصر بي، قال لي: مرحبا بك يا أبا القاسم أنت ولينا حقا، فقلت له: يا بن رسول الله إني أريد أن أعرض عليك ديني، فإن كان مرضيا أثبت عليه حتى ألقى الله عز وجل. فقال: هاتها أبا القاسم، فقلت: إني أقول: إن الله تبارك وتعالى واحد ليس كمثله شئ، خارج من الحدين، حد الإبطال، وحد التشبيه، وأنه ليس بجسم ولا صورة ولا عرض ولا جوهر، بل هو مجسم الأجسام ومصور الصور، وخالق الأعراض والجواهر، ورب كل شئ ومالكه وجاعله ومحدثه، وإن محمدا عبده ورسوله، خاتم النبيين فلا نبي بعده إلى يوم القيامة)[1]

وفي هذا النص رد على تلك الشبهة التي يثيرها الكثير من المغرضين ويصورون فيها أن الشيعة يقولون بالتجسيم، وهذا ما ترفضه جميع مصادرهم، والنصوص الثابتة عن أئمتهم.

ومن المتون العقدية التي لا يزال يتبناها الشيعة رسالة موجزة ألفها الشيخ الصدوق (306 ـ 381 هـ) جاء فيها: (اعلم أن اعتقادنا في التوحيد: أن الله تعالى واحد أحد، ليس كمثله شئ، قديم، لم يزل، ولا يزال سميعا بصيرا، عليما، حكيما، حيا، قيوما، عزيزا، قدوسا، عالما، قادرا، غنيا، لا يوصف بجوهر ولا جسم ولا صورة ولا عرض.. وأنه تعالى متعال عن جميع صفات خلقه، خارج عن الحدين: حد الإبطال، وحد التشبيه، وأنه تعالى شئ لا كالأشياء، أحد صمد لم يلد فيورث، ولم يولد فيشارك، ولم يكن له كفوا أحد، ولا ند ولا ضد، ولا شبه ولا صاحبة، ولا مثل ولا نظير، ولا شريك له، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولا الأوهام، وهو يدركها، لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو اللطيف الخبير، خالق كل شئ لا إله إلا هو، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، ومن قال بالتشبيه فهو مشرك، ومن نسب إلى الإمامية غير ما وصف في التوحيد فهو كاذب، وكل خبر يخالف ما ذكرت في التوحيد فهو

إلى الواحد بعد الواحد من شيعة آل محمد (عليهم السلام) حتى عرفه أكثرهم. رجال النجاشي (2: 65 - 66)، ومات عبد العظيم بالري.

1() التوحيد: باب التوحيد والتشبيه: 81 / 37..

موضوع مخترع، وكل حديث لا يوافق كتـاب اللـه فهـو باطـل، وإن وجد في كتب علمائنا فهو مدلس.. واعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد هو ما بين الـدفتين، وهـو مـا في أيـدي الناس ليس بأكثر من ذلك.. ومن نسب إلينا أنا نقول إنه أكـثر من ذلك فهو كاذب)[1]

بعـد هـذا العـرض المـوجز للعقيـدة الإسـلامية الـتي يتبناهـا الشيعة، نحب أن نلخص هنا بعض ما ذكره الشيخ جعفر السبحاني ـ وهو من كبار علماء العقائد المعاصرين في إيران، بل في العـالم الإسـلامي أجمـع ـــ من مواضـع الاتفـاق والاختلاف بين الشـيعة وغيرهم من المدارس الإسلامية، فقد عقد مطلبـا بعنـوان [الفـرق بين الشـيعة الإماميـة والمعتزلـة] في كتابـه [أضـواء على عقائـد الشيعة الإمامية وتاريخهم]، ومن مواضـع الاتفـاق والاختلاف الـتي ذكرها [2]:

الشفاعة: أجمع المسلمون كافة على ثبوت أصل الشفاعة، وأنهـا تقبـل من الرسـول الأكـرم ﷺ، إلا أنهم اختلفـوا في تعـيين المشفع، فقالت الإمامية والأشاعرة: إن النبي يشفع لأهل الكبـائر بإسقاط العقاب عنهم أو بإخراجهم من النار، وقـالت المعتزلـة: لا يشفع إلا للمطيعين المسـتحقين للثـواب، وتكـون نتيجـة الشـفاعة ترفيع الدرجة.

حكم مرتكب الكبيرة: هو عند الإماميـة والأشـاعرة مـؤمن فاسق، وقالت المعتزلة: بل منزلتـه بين المنزلـتين، أي بين الكفـر والإيمان.

الجنة والنار: قـالت الإماميـة والأشـاعرة: إنهمـا مخلوقتـان الآن بدلالة الشرع على ذلك، وأكثر المعتزلة يذهب إلى أنهمـا غـير موجودتين.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: اتفـق المسـلمون

[1] رسالة الصدوق في الإعتقادات.

[2] أضواء على عقائد الشيعة الإمامية وتاريخهم، ص378.

على وجوبهما، فقالت الإمامية والأشاعرة: يجبان سمعا، ولولا النص لم يكن دليل على الوجوب، خلافا للمعتزلة الذين قالوا: بوجوبهما عقلا.

الإحباط: اتفقت الإمامية والأشاعرة على بطلان الإحباط، وقالوا: لكل عمل حسابه الخاص، ولا ترتبط الطاعات بالمعاصي ولا المعاصي بالطاعات، والإحباط يختص بذنوب خاصة كالشرك وما يتلوه، بخلاف المعتزلة حيث قالوا: إن المعصية المتأخرة تسقط الثواب المتقدم، فمن عبد الله طول عمره ثم كذب فهو كمن لم يعبد الله أبدا.

الشرع والعقل: تشددت المعتزلة في تمسكهم بالعقل، وتشدد أهل الظاهر في تمسكهم بظاهر النص، وخالفهما الإمامية والأشاعرة، فأعطوا للعقل سهما فيما له مجال القضاء، نعم أعطت الإمامية للعقل مجالا أوسع مما أعطته الأشاعرة.

قبول التوبة: اتفقت الإمامية والأشاعرة على أن قبول التوبة بفضل من الله ولا يجب عقلا إسقاطها للعقاب، وقالت المعتزلة: إن التوبة مسقطة للعقاب على وجه الوجوب.

التفاضل بين الأنبياء والملائكة: اتفقت الإمامية على أن الأنبياء أفضل من الملائكة، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك.

الجبر والتخيير: اتفقت الإمامية على أن الإنسان غير مسير ولا مفوض إليه، بل هو في ذلك المجال بين أمرين، بين الجبر والتفويض، وأجمعت المعتزلة على التفويض.

حاجة التكليف لرسول: اتفقت الإمامية والأشاعرة على أنه لا بد في أول التكليف وابتدائه من رسول، وخالفت المعتزلة وزعموا أن العقول تعمل بمجردها عن السمع.

هذه جملة الأصول التي خالفت الإمامية فيها المعتزلة ووافقت فيها الأشاعرة، أما الأصول التي وافقت فيها الإمامية المعتزلة وخالفت الأشاعرة، فمنها:

اتحاد الصفات الذاتية مع الذات: إن لله سبحانه صفات

ذاتية كالعلم والقدرة، فهي عند الأشاعرة صفات قديمة مغايرة للذات زائدة عليها، وهي عند الإمامية والمعتزلة متحدة مع الذات.

أفعال العباد: هي عند الإمامية صادرة من نفس العباد، صدورا حقيقيا بلا مجاز أو توسع، فالإنسان هو الضارب، هو الآكل، هو القاتل، هو المصلي، واستعمال كلمة [الخلق] في أفعال الإنسان استعمال غير صحيح، فلا يقال: خلقت الأكل والضرب والصوم والصلاة، وإنما يقال: فعلتها، وأما الأشاعرة فذهبوا إلى أن أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه، فليس للإنسان فيها صنع ولا دور، وليس لقدرته أي تأثير في تحقق الفعل، وتحاشيا من الجبر قالوا بنظرية الكسب، أي: إن الله هو الخالق والإنسان.

الاستطاعة: نص الشيعة على أن الاستطاعة في الإنسان على فعل من الأفعال تقارنه تارة، وتتقدم عليه أخرى، فلو أريد من القدرة العلة التامة فهي مقارنة، ولو أريد العلة الناقصة فهي متقدمة، خلافا للأشاعرة فقد قالوا بالتقارن مطلقا.

رؤية الله بالأبصار في الآخرة: مستحيلة عند الإمامية والمعتزلة، ممكنة عند الأشاعرة..

الكلام: كلامه سبحانه عند الإمامية هو فعله، فهو حادث لا قديم، وهذا خلافا للأشاعرة: فكلامه عبارة عن الكلام النفسي القائم بذاته، فهو قديم كقدم الذات.

التحسين والتقبيح: ذهبت الإمامية إلى أن العقل يدرك حسن بعض الأفعال أو قبحها، خلافا للأشاعرة، فقد عزلوا العقل عن إدراك الحسن والقبيح، وبذلك خالفوا الإمامية والمعتزلة في الفروع المترتبة عليه.

بناء على هذا التمهيد الذي لابد منه، سنذكر هنا ـ باختصار ـ كبار أعلام المدرسة الشيعية من الإيرانيين، وإن كان من الصعب تصنيفهم بهذا الاعتبار لأن لأكثر علماء الشيعة مساهماتهم في العقائد بالإضافة إلى مساهماتهم في سائر العلوم، ولهذا يمكن اعتبار جميعهم ـ فقهاء كانوا أو محدثين أو مفسرين ـ من علماء الكلام، لأنهم عادة ما يحتاجون إلى الحوار مع الآخر ومناظرته،

وهو ما يستدعي إلمامهم بعلم الكلام.

ومن الأمثلة على ذلك العلامة الكبير **محمد بن الحسن الجهرودي الطوسي**، المشهور بالخواجة نصير الدين الطوسي (597 – 672 هـ)، الذي يعتبر أحد أبرز الشخصيات في تاريخ الفكر الإسلامي.

فله بالإضافة لما كتبه في علوم الأخلاق، والمنطق، والفلسفة، والرياضيّات والنجوم، مشاركات مهمة جدا في نصرة العقيدة الإسلامية، منها كتابه [تجريد الاعتقاد]، وهو كتاب في تحرير عقائد الإمامية، ويتصف بالعمق والإحكام مع الاختصار، فهو من أخصر النصوص الكلامية الشيعية، ومن هنا اشتهر ومنذ الأيام الأولى لتأليفه بين أعلام المسلمين بشتّى مذاهبهم، وحظي باهتمام كبير من قبلهم شرحا وتعليقا وباللغتين العربية والفارسية.

وسبب ذلك هو أنه يمكن اعتباره نقلة مهمة في تاريخ علم الكلام، حيث تمكن الطوسي من التلفيق بين الفلسفة المشائية والكلام الشيعي مما أدى إلى التقارب بين الفلسفة والكلام في الوسط الفكري الشيعي[1].

وقد أشار إلى هذا المعنى الشيخ مرتضى مطهري، فقال: (تمكن الفيلسوف والحكيم المتبحر الخواجة نصير الدين من تصنيف كتاب كلامي يعد من أعمق الكتب الكلامية وأتقنها، وقد حظي الكتاب باهتمام المتكلمين من الفريقين وتمكن -الى حد ما- من نقل الكلام من أسلوب الحكمة الجدلية، والاقتراب به من أسلوب الحكمة البرهانية)[2]

وقد كان لهذا المنهج الذي اتبعه الطوسي أثره في بعض الكتابات الكلامية السنية، وخاصة فيما كتبه القاضي عضد الدين الايجي (المتوفى 756 ه) في كتابه المواقف، والتفتازاني

1() أحمد احمدي،نظرة إجمالية على مسيرة الفلسفة بعد ابن رشد، ص224.

2() دراسة تعريفية بالعلوم الإسلامية، مطهري، ج 2، ص 68..

(المتوفى 792ه) في كتابه المقاصد.

وقد حظي الكتاب باهتمام كبير من لدن جميع المسلمين سنتهم وشيعتهم، ولذلك شرح شروحا كثيرة منها شرح العلامة الحلي والمعروف بـ [كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد]، ومنها [تعريد الاعتماد في شرح تجريد الإعتقاد]، للشيخ شمس الدين محمد الأسفراييني البيهقي (المتوفي 746)، ومنها [تسديد أو تشييد القواعد في شرح تجريد العقائد]، المعروف بالشرح القديم، لشمس الدين محمود بن عبد الرحمان بن أحمد العامي الأصفهاني، ومنها شرح الفاضل القوشجي (المتوفي 879) الموسوم بالشرح الجديد، وغيرها من الشروح.

وأحب أن أذكر هنا بأن ابن تيمية، وفي أثناء هجمته على الشيعة لم يكتف بإنكار الأحاديث الصحيحة وتضعيفها وتأويلها، وإنما راح إلى أعلام المتكلمين الشيعة يرميهم بالإلحاد مثلما فعل مع الصوفية والأشاعرة وغيرهم.

ومن تلك الشخصيات التي نالتها سهام ابن تيمية التكفيرية نصير الدين الطوسي، والذي رماه بالإلحاد والخيانة والكثير من التهم التي صارت في عصرنا، وكأنها حقائق مع أنها مجرد مفتريات لا تختلف عن مفترياته على سائر علماء وفرق المسلمين.

ونحن لا نريد أن نرد عليه انطلاقا مما كتبه الشيعة، بل نرد عليه من خلال علم كبير من أعلام الحديث في المدرسة السنية، وهو بالشيخ جمال الدين القاسمي (ت 1332هـ)، وهو من علماء الحديث والتفسير، ولا يمكن للسلفية أن يزايدوا عليه في ذلك، فقد قال: (لا عبرة برمي شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وأمثالهما رحمهم الله بالإلحاد مثل النصير الطوسي وابن عربي وبعض الأشاعرة المتأولين لآيات الصفات وآثارها فإن ذلك منه ومن أمثاله حمية مذهبية وغيرة على نصرة ما قوي لديه. وقد عهد في العالم الغيور الذي لا يتسع صدره لخلاف الخصم أن يحمل عليه أمثال هذا وأعظم. وإلا فالنصير قد علم أن له مؤلفات في فن الكلام خدمت وشرحت، وكلها مما يبرئه عن الإلحاد والزندقة.

وعقيدته ومشربه وترجمته المحفوظة تبرئه من مثل ذلك. وابن عربي حق الباحث معه المنكر عليه أن ينكر عليه موضعا لا يحتمل التأويل، ويقول ظاهره إلحاد. إلا أن الرجل له عقيدة نشرها أولا، ومذهب في الفقه حسن. فمثله لا يسوغ رميه بالإلحاد)[1]

وقد كان هذا الموقف سببا في رمي السلفية له وطعنهم فيه [2] مع إقرارهم بكونه عالما في التفسير والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية، وأنه ينهل من نفس المنابع التي ينهلون منها، لكنه تميز عنهم بكونه لا يعتقد بعصمة ابن تيمية، ولا يخضع له خضوعا مطلقا مثلما يفعلون.

ومثلما فعل القاسمي، فعل باحث سعودي متحرر هو أ. د. سعد بن حذيفة الغامدي أستاذ التاريخ الإسلامي ودراساته الشرقية في كلية الآداب قسم التاريخ جامعة الملك سعود الذي رد على الكثير من الأوهام التي يتعلق بها السلفية هذا الجانب، وذلك في كتابه (سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والإتهام)، والذي نال بسببه حظه من النقد والطرد والحرمان السلفي الذي لا يفرق في الطرد بين المسائل العقدية والتاريخية.

ومن أمثلة ذلك ما كتبه سليمان بن صالح الخراشي في منتدى صيد الفوائد وردا على كتاب الدكتور الغامدي فقد كتب مقالا بعنوان: (دكتور في جامعة الملك سعود يردد أكذوبة شيعية)، ومما جاء فيه: (سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والإتهام) كتابٌ للأستاذ الدكتور سعد بن حذيفة الغامدي أحد منسوبي جامعة الملك سعود قسم التاريخ، صدر قريبًا وكتب على طرته (دراسة جديدة لفترة حاسمة من تاريخ أمتنا)وهذا ما أغراني لاقتنائه منتظرًا ماسيجود به قلم الدكتور من جديد في هذه القضية، إلا أنني تفاجأت عندما رأيته يردد ما ردده الشيعة

1() نقلا عن: كتاب جمال الدين القاسمي وعصره ص ٢٧٤.

2() انظر أقوال الشيخ ربيع بن هادي في جمال الدين القاسمي في [بيان مافي نصيحة إبراهيم الرحيلي من الخلل والإخلال] ص (١٤-١٥)]

الرافضة من تكذيب لأي خيانة لأسلافهم، وهو ما تتابع عليه ثقات المؤرخين، فهذا الجديد عنده، يقول الدكتور محاولاً دفع تهمة الخيانة عن الرافضة: (ومع هذا فإن سؤالاً يتبادر إلى الذهن وهذا السؤال هو: هل كان هولاكو محتاجاً إلى مساعدة المسلمين الشيعة ضد المسلمين السنة حتى نقبل أنهم كانوا أحد العوامل التي أدت إلى سقوط بغداد؟ في الحقيقة لم يكن هولاكو محتاجاً إلى مساعدة من أي فرد شيعياً كان أم سنياً، لذلك فإننا نجد كما يظهر لنا أنه من غير المحتمل إن لم يكن من المستحيل أن يكون لهذه الطائفة من المسلمين أي دور فعال، سواء من داخل أو من خارج بغداد في هجوم المغول ضد العاصمة العباسية بغداد وخلافتها السنية)

بالإضافة إلى الكم الكبير من المتكلمين في التاريخ الإسلامي، والذين نجد أسماءهم في كتب الطبقات والرجال، فقد اهتمت إيران الحديثة، وخاصة في مشروعها الحضاري الجديد بالعقيدة الإسلامية، وتيسيرها، وعرضها بثوب يتناسب مع حاجات العصر وتساؤلاته.

ومن المتكلمين المعاصرين الكبار الشيخ مرتضي المطهري (1919م ـ 1979م) الفيلسوف والمتكلم الذي استطاع أن يصيغ العقائد الإسلامية بلغة علمية بسيطة سهلة متناسبة مع العصر، بالإضافة إلى مساهمته في نجاح الثورة الإسلامية الإيرانية التي عرفت كيف تختار قادتها ورجالها في الفكر والسياسة.

وقد كان من أبرز تلامذة العلامة الكبير محمد حسين الطباطبائي وروح الله الخميني، وحسين البروجردي، ومحمّد تقي الخونساري، ومحمد صدوقي، والسيد شهاب الدين المرعشي النجفي، وهاشم الحداد، ومحمد الحسين الحسيني الطهراني، وغيرهم من أعلام الفلسفة والعرفان وعلم الكلام.

وكل مؤلفاته ــ حتى الفلسفية منها ــ يمكن اعتبارها من الكتب المناصرة للعقيدة، ذلك أنه يطرح كل المسائل وفق رؤية إسلامية أصيلة.

ومن أهم مؤلفاته: وعلم الكلام والحكمة العملية، وأصول الفلسفة والمذهب الواقعي (5 أجزاء)، ونقد الماركسية، والحركة والزمان، ومسألة المعرفة، والعدل الإلهي، والإنسان والمصير، والدوافع نحو المادية، ومقدمة حول الرؤية الكونية الإسلامية، ويشمل: (الإنسان والإيمان، والمفهوم التوحيدي للعالم، والنبوة والوحي، والإنسان في القرآن، والمجتمع والتاريخ، والحياة الخالدة، والإمامة والقيادة، والخاتمية، والفطرة، والمعاد، وفي السيرة والتاريخ)، وغيرها من الكتب.

وقد كان الشيخ مطهري من المقربين جدا من الخميني، وقد أشاد به كثيرا في مؤلفاته التي يمكن اعتبارها جميعا شرحا لفكر الخميني، وأسسا نظرية لنظام ولاية الفقيه، وقد قال عنه في كتابه (حول الثورة الإسلامية): (إنني درست اثنتي عشرة سنة تقريباً عند هذا الرجل العظيم (الخميني)، لكن ذهبت إلى لقائه في سفري الأخير إلى باريس، فكشفت أموراً في معنوياته لم تزد في حيرتي فحسب، بل ازداد إيماني به أيضاً. وعندما رجعت سألني الزملاء: ماذا رأيت؟ فقلت: رأيت فيه أربعاَ: آمن بهدفه، فلو تكالبت عليه الدنيا، لم تصرفه عن هدفه.. وآمن بسبيله، فلا يمكن صرفه عنه، وهو أشبه بإيمان الرسول بهدفه وسبيله.. وآمن بقومه، فمن بين من أعرفهم، لم أجد أحداً يؤمن بمعنويات الشعب الإيراني مثله، فينصحونه أن تمهّل قليلاً، فالناس قد تعبوا وفتروا، فيقول: كلاّ، ليس الناس كما تقولون، إنني أعرف الشعب أفضل منكم. ونرى صحة كلامه تتجلى يوماً بعد يوم.. وأخيراً، والأسمى منها جميعاً، آمن بربّه)

وهكذا نجد الخميني يشيد كثيرا بتلميذه الوفي، ومن ذلك ما ذكره عنه بعد استشهاده: (إنني أعزي وأهنئ الإسلام والأولياء الكرام والأمة الإسلامية وخاصة الشعب الإيراني المجاهد، بمصابهم المؤسف بالشهيد الجليل والمفكر الفيلسوف والفقيه الكبير المرحوم الحاج الشيخ مرتضى مطهري قدس سره؛ أما العزاء فباستشهاد ذلك الرجل الفذّ الذي قضى حياته الكريمة الغالية في سبيل تحقيق الأهداف الإسلامية المقدسة والكفاح المتواصل مع كل الأفكار الملتوية المنحرفة. ذلك الرجل الذي عزّ

له مثيل في معرفة الدين الإسلامي والمعارف الإسلامية المختلفة وتفسير القرآن الكريم. أما أنا فقد فقدتُ ولداً عزيزاً، وقد فُجعت بوفاته فكان من الشخصيات التي أعدّها ثمرة حياتي، وقد ثلم في الإسلام باستشهاد هذا الولد البار والمفكر الخالد ثلمة لا يسدّها شيء.. وأما التهنئة فلأننا نحظى بوجود أمثال هؤلاء الرجال الذين يضحّون بأنفسهم ويشعون بالنور في حياتهم وبعد وفاتهم. إنني أهنّئ الإسلام العظيم مربّي الأجيال واهنّئ الأمة الإسلامية بتربية رجال يفيضون بالحياة على القلوب الميّتة وبالنور على الظلمات. وإني وان خسرت ابناً عزيزاً كان كبضعة مني، ولكني أفتخر؛ بأنه كان وسيكون في الإسلام وسيكون مثله)

وهكذا قال عنه السيد علي الخامنئي مبينا آثاره الفكرية على نظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية: (يوجد القلائل من العلماء من أمثال الشهيد مطهري، بهذه القوة الفكرية والروحية، إن كل خطبة من خطبه يمكن أن تكون عنوانا وعملا تخصصيا كاملا، ولهذا لابد من العمل على مبانيه وخطه الفلسفي وبشكل كبير، إن آثار الشهيد مطهري تمثل المباني الفكرية للجمهورية الإسلامية)

ومنهم **العلامة الكبير جعفر السبحاني التبريزي** الذي له مشاركات في العلوم الكثيرة، وقد سبق ذكره عند الحديث عن مساهماته المميزة في تفسير القرآن الكريم، وله بالإضافة لها كتب كثيرة في العقائد الإسلامية.

لكن العمل الأهم الذي قام به هو تأسيسه لمؤسسة الإمام الصادق، وهي مؤسسة إسلامية ثقافية تربوية يتركز نشاطها في مجال التأليف والتحقيق، وتربية الكوادر المتخصّصة في الرد على الشبهات المثارة، من أجل نشر الإسلام المحمدي الأصيل والتصدّي للأفكار المنحرفة والشبهات، بأُسلوب علمي، وبلغة هادئة بعيدة عن التشنج والتطرّف.

ومن أهم المراكز التابعة لهذه المؤسسة المعهد المتخصص في الدراسات الكلامية، الذي أسسه الشيخ جعفر السبحاني عام 1412 هـ، لتخريج كوادر علمية متخصّصة في علم الكلام.

ومن أهداف المؤسسة ـ حسبما ذكر في موقعها الرسمي ــ: (إعداد كوادر متخصّصة في علم الكلام، وإحياء التراث الإسلامي الَّذي تركه القدماء من علمائنا، الإجابة عن الاستفسارات الكلامية والشبهات الّتي يثيرها الغرب)[1]

ومن نشاطات هذه المؤسسة في هذا المجال إصدار مجلة الكلام الإسلامي، وهي مجلة كلامية فصلية، وقد استمرت بالصدور منذ عام 1413 هـ، إلى يومنا هذا.

1() موقع الشيخ السبحاني..

من أهم مظاهر التدين الإيراني ذلك الاهتمام بالشريعة الإسلامية سواء على مستوى الالتزام الشخصي والاجتماعي، أو على مستوى الاهتمام العلمي والتربوي والثقافي، فإيران، وخاصة في ثوبها الإسلامي الجديد، لم ترتض شريعة سوى الإسلام، ولم ترتض نظاما سوى ذلك النظام الذي استنطبه الفقهاء من المصادر المقدسة المعصومة.

ولهذا لم تسم نفسها باسم [الجمهورية الفارسية]، كما تسمي الكثير من الدول العربية أسماءها بحسب لغتها وقوميتها، وإنما اختارت أن تتسمى باسم الإسلام، فسمت نفسها [الجمهورية الإسلامية]، لا كمجرد شعار، وإنما كمشروع كبير تسعي كل جهدها لتحقيقه في الواقع.

وتجليات الاهتمام بالشريعة الإسلامية في الواقع الإيراني كثيرة جدا، أهمها ذلك الحرص على التمسك بكل جزئية من جزئيات الدين، سواء على مستوى الشعائر التعبدية، أو على مستوى المعاملات بمختلف أصنافها، أو على مستوى الاهتمام العلمي بحضور دورس العلماء والمراجع والالتزام بتعليماتهم.

وهذا طبعا لا يعني عصمة الإيرانيين، فذلك لم يتحقق في أي عصر من العصور، ولأي دولة من الدول، ولكن يمكن اعتبار إيران الحالية، وبمناهجها التربوية والثقافية، وبمؤسساتها العلمية والإعلامية، تسير نحو تحقيق نسبة عالية من التدين الوسطي الصحيح الذي لم يمتزج بالعنف ولا التشدد، وإنما اكتفى بتلك السماحة النبوية، وامتزج بتلك القيم التي ورثها الإيرانيون عن آل بيت النبوة الذين امتلأوا عشقا لهم.

ومن خلال هذه المعاني نحاول في هذا الفصل أن نثبت مدى تمسك الإيرانيين بالشريعة الإسلامية، وخاصة في ظل نظامها الجديد، والذي اختار فيه الشعب الإيراني عبر انتخابات حرة نزيهة أن يحكمه الولي الفقيه، ذلك الولي المجتهد الذي لا يكتفي

باجتهاده فقط، وإنما يستشير الخبراء في جميع المجالات حتى يطبق الفقه الإسلامي في الواقع تطبيقا صحيحا متناسبا مع حاجات العصر وتغيراته.

وبناء على ذلك الاجتهاد الواقعي المبني على المصادر الشرعية استطاع الإيرانيون أن يجدوا الكثير من الحلول الشرعية للكثير من النوازل الواقعية في الاقتصاد والسياسة والإعلام والدفاع والمجتمع والتربية وكل المجالات، وهي اجتهادات جديرة بأن يطلع عليها المقاومون للعلمانية، والدعاة للدولة الإسلامية من أبناء الحركات الإسلامية، ليجدوا فيها من الرؤى التي تفيدهم في تحقيق أهدافهم.

وقد قسمنا هذا الفصل بحسب ما ذكرنا إلى قسمين:

الأول: تناولنا فيه مدى تمسك الإيرانيين بالشريعة الإسلامية، ودوافعهم لذلك، وحاولنا أن نرد فيه بالأدلة القطعية على تلك الهجمات المغرضة التي تصورهم بصورة المجوس والملاحدة الذين لا يعيرون الشريعة الإسلامية أي اهتمام، وتعتبر التشيع سبب ذلك، مع أن التشيع في الواقع هو سبب التزامهم الديني.

الثاني: تناولنا فيه انفتاح إيران على المذاهب الإسلامية جميعا، ذلك الانفتاح الذي تجلى في الثروة الفقهية والأصولية الكبيرة التي أنتجها علماء إيرانيون عبر المراحل التاريخية المختلفة، وكلها لا تزال مصادر معتبرة لدى جميع المذاهب الفقهية، وفي هذا أيضا رد على تلك الهجمات التي تصور إيران بكونها دولة المؤامرة على الإسلام، لا الدولة التي خدمت الإسلام في جميع المجالات، وفي جميع العصور.

أولا ـ تمسك الإيرانيين بالشريعة الإسلامية:

عندما نسلم عقولنا لوسائل الإعلام المغرض، ونسلمها لرجال الدين الطائفيين الذين يخدمون أهداف أعداء الإسلام، نخرج بنتيجة خطيرة جدا هي أن لإيران وللإيرانيين دينا آخر مختلفا تماما عن الإسلام، وأن شرائعهم وشعائرهم مختلفة تماما.

بينما إذا تركنا المغرضين والحاقدين، وعملنا بما أمرنا به ربنـا من استعمال العقل والحجة والبرهان، وطبقنا ما أمرنا الله تعـالى به من استعمال المنهج العلمي، عندما قال: { قُلْ هَـاتُوا بُرْهَـانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ} [البقـرة: 111]، وقـال مخاطبـا اليهـود: {قُـلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران: 93]

إذا فعلنا ذلك، وذهبنـا إلى إيـران، أو إلى مراجعهـا الكبـار، أو إلى وليها الفقيه، أو إلى تراثها الضخم في الشـريعة الإسـلامية، أو إلى أبنـاء شـعبها الـذي يرتـادون المسـاجد، ويحيـون المناسـبات الدينية المختلفة، فإننا نجد الأمر مختلفا تماما.

فالإيرانيون يطبقون نفس الشـريعة الـتي نص عليهـا القـرآن الكريم ابتداء من الصلاة الـتي تقـام في مسـاجدها الكثـيرة، وفي كل مدينة أو قرية من قراها، ولا ينسون بعد الصلاة أن يستمعوا أو يقرؤوا من نفس المصاحف التي يقـرأ فيهـا سـائر المسـلمين، ولا ينسون كذلك أن يؤدوا المعقبات التي يعقب بها سـائر المسـلمين صلاتهم.. والكثير منهم لا يغفـل عن أداء الـرواتب المسـتحبة قبـل الصلاة وبعدها كسائر المسلمين.

وأغنياؤهم لا يغفلون عن أداء ما وجب في أمـوالهم من زكـاة أو خمس، بحسب ما ينص عليه فقه أئمتهم، والذي لا يختلف كثيرا عن فقه سائر أئمة المسلمين.

ومن اسـتطاع منهم الحج، فإنـه لا يقصـر في ذلـك، بـل إنهم يعـدون أنفسـهم للحج قبـل فـترة طويلـة جـدا، وربمـا يقيمـون مجسـمات للحج[1] ، حـتى تيسـر عليهم تطـبيق المناسـك بنفس الطريقـة الـتي طبقهـا رسـول اللـه ﷺ، والـتي رووهـا عن أئمتهم، وهي لا تختلـف إلا في بعض الفـروع البسـيطة عن سـائر مـا نص

---

[1] () وقد أثار هذا للأسف نقمة المغرضي، فبدل أن يشيدوا به راحوا يصورون للنـاس أن إيران وضعت كعبة أخرى بدل الكعبة التي يحج إليهـا سـائر المسـلمين، ومن ذلـك مـا نشـره موقع [البوابة] السعودي، حيث نشر فيديو وصوراً وخبراً تحت عنوان (بالفيـديو.. إيـران تبـني كعبة على أراضيها وتدعو الناس للحج)، مع أن الفيديو والصـور خاصـة بـدروس تعليم أحكـام الحج يلقيها وبشكل تفـاعلي عملي تطـبيقي رؤسـاء بعثـات الحج لتسـهيل فريضـة الحج حين وصول الحاج الإيراني إلى الديار المقدسة، كما أن هذا التقليـد متبـع في العديـد من البلـدان الإسلامية لتهئية حجاجها لكي يؤدوا مناسك الحج بشكل صحيح.

عليه الفقهاء من سائر المذاهب.

بل إننا نجد فوق ذلك كله أن كل فرد من الإيرانيين ــ مثل سائر الشيعة ـ يتخذ عالما من العلماء إماما في الفتوى، يرجع إليه، ويقلده، حتى لا يختلط عليه دينه، وحتى لا يبحث عن الرخص من خلال تجوله في الكتب أو بين الفقهاء، وهي ميزة لا نجدها للأسف في المدرسة السنية، وهو ما تسبب في ظهور الكثير من الفتاوى الشاذة، بل أتاح الفتوى لكل من هب ودب من غير أن تكون له الآليات التي تسمح له بذلك.

ولهذا نجد الإيرانيين يستفتون عن دينهم في كل المسائل ابتداء من المعاملات المالية، والمحظورات من المأكولات والمشروبات والملبوسات، وسائر أمور الدين، وعند الرجوع إلى أمهات الكتب الفقهية، أو الرسائل العملية نجدها تتفق مع سائر المسلمين في أكثر الأصول، وإن اختلفت معها في بعض الفروع البسيطة.

لكن الأنظار الحاقدة للأسف لا تنظر لكل هذا، وتنظر فقط إلى ما يسمى بزواج المتعة أو الزواج المؤقت، مع كونه ليس سوى فرع بسيط من فروع الشريعة، ويوجد مثله في المدارس السنية، حيث نرى زواج المسيار والزواج العرفي، وزواج فرند، وزواج المحلل، وغيرها من أنواع الزواج التي أجازها الفقهاء من باب الضرورة، والتي لا يطبقها أكثر الناس في حياتهم إلا الشاذ والنادر منهم.

وهكذا الأمر بالنسبة للزواج المؤقت في إيران، حيث لا يكاد يسمع به إلا أصحاب الضرورات، وفي المواضع المحدودة جدا، فالآباء الإيرانيون ــ كسائر الآباء في الدنيا ــ حريصون على أن يزوجوا بناتهم زواجا دائما، ومن الأكفاء، ولا يسمحون أبدا بممارسة ذلك النوع من الزواج، وإن كان الفقهاء ينصون على جوازه للضرورة، حماية للمجتمع من أن ينتشر فيه أبناء الفاحشة.

وللأسف، فإن الذين يرمون إيران، والشيعة بهذا يسمعون في بلادهم بمن يُسمون [الأمهات العازبات]، ويسمعون كذلك

بالأبناء غير الشرعيين، ويشكون من كثرتهم، ومن تحمل الدولة لأعباء تكاليفهم، ولو أنهم طبقوا ما نص عليه الفقهاء ــ بالنسبة لهؤلاء ـ ما يسمى بالزواج المؤقت، لعُرف آباء هؤلاء، ولما وقعت المجتمعات الإسلامية ضحية لانتشار الفاحشة.

ولهذا، فإن الفقه الذي يستند إليه الإيرانيون فقه واقعي يعالج المشكلات الواقعية، ولا يغض الطرف عنها، ولا يتهرب منها بالمثاليات التي لا يمكن أن ينسجم معها الكثير من الناس.

ولهذا استطاع فقهاؤهم أن يضعوا الحلول لكل المشكلات، بما فيها مشكلة الانحراف الأخلاقي، حيث أتاحوا لهؤلاء ــ بحسب ما تنص عليه أدلتهم ــ أن يتزوجوا زواجا مؤقتا بشرط التوثيق، حتى إذا ما نتج عن ذلك الزواج أولاد نسبوا إلى آبائهم وأمهاتهم، وربما يكون ذلك سببا لتحول الزواج المؤقت إلى زواج دائم.

وهكذا نجدهم يضعون الحلول ـ بناء على ما ورد في المصادر المقدسة ـ لكل المشكلات الواقعية في جميع أبواب الفقه من غير خروج منهم عن مصادر الشريعة، ولهذا نراهم ــ مثل سائر الشيعة ــ ينصون على وجوب تقليد المجتهد الحي الذي يعيش الواقع، ويعرف ملابساته جيدا، حتى يفتي فيها بما يتناسب معها.

وفوق ذلك كله نرى الإيرانيين يسعون للتمسك بالشريعة في الجوانب السياسية والعلاقات الدولية، وكل الشؤون الكبرى التي لا نرى للفقهاء في المدرسة السنية أي حضور فيها.

ولهذا فإن للولي الفقيه عندهم سلطة فوق كل سلطة، ذلك أنه يمكنه أن يلغي أي قرار تخرجه الحكومة أو مجلس الشعب أو القضاء، أو غيرها إن عارض الشريعة، ولم يكن هناك أي مسوغ شرعي لقبوله.

وبناء على هذا نجد الفقيه حاضرا في كل المجالات .. فهو في البنوك يراقب معاملاتها ومصارفها بدقة لتتناسب مع الشريعة.. وفي استديوهات السينما يراقب السيناريوهات والحوارات والملابس والديكور حتى يتناسب مع الشريعة.. وهكذا نجده حاضرا في كل محل، حتى الشرطة الأخلاقية المؤتمرة

بـأوامر الفقيـه، تنتشـر في الشـوارع والأزقـة لـتراقب سـلوكات الناس، حتى لا تصطدم بالشريعة.

بنــاء على هــذا نحــاول في هــذا المبحث أن نــذكر الملامح الكــبرى للتــدين الإيــراني، والــتي لا يمكن أن يجحــدها إلا حقــود مغرض، أما العاقل، فإنه إن لم يتسن له الثقة بما نقول، أو بالأدلة الـتي نوردهـا، فإنـه يمكن أن يراجـع الفقـه الشـيعي من مصـادره المعتمدة، أو يذهب إلى إيران نفسها ليتأكد، وقبل ذلـك، واحترامـا لدينه وورعه يكف لسانه عن الخوض في أعراض المسلمين، وفي ثلبهم بما هم بريئون منه.

وقد حاولنا أن نرجع فيما نذكره من أدلة إلى القادة الفكريين المؤسسين للجمهورية الإسلامية الإيرانية، ذلـك أنهم يمثلـون نـوع التمسك بالشـريعة الموجـود في إيـران في الـوقت الحـالي، كمـا يقال [النـاس على دين ملـوكهم] ، وهـو نفس التوجـه الـذي كـان عليه الكثير من الإيرانيين قبل الثورة الإسلامية، ولهـذا أتيح لهـا أن تنجح.

وقــد ذكرنــا هــذا ردا على أولئــك المغرضــين الــذين يــأتون بالفتــاوى من كــل مصــدر، وأحيانــا يــأتون بالنصــوص من [بحــار الأنوار]، وغيره متجاهلين أن ذلك تراث فيه الغث والسمين، وفيــه ما يقبل ما يرفض، ومثله موجود في المدرسة السنية، والعاقل هو الذي لا يحمل أي جهة جريرة من انتسب إليها.

وللأســف فــإن كــل الــذين يــردون على القــادة الفكــريين للجمهورية الإسلامية، لا يستندون إلى أحـاديثهم، أو مـا كتبـوه في كتبهم، وإنما يستندون لجهـات أخـرى، وهـذا من الظلم المجحـف، الذي لا يرتضيه عاقل، فالعاقل هو الذي يطبق في كل شيء قولـه تعالى: { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الأنعام: 164]، ومعهـا قولـه تعالى عن أهل الكتاب: { لَيْسُوا سَوَاءً} [آل عمران: 113]، فهذه المقولة شعار للباحث المؤمن الذي لا يحمل أحدا مسؤولية أحد.

وكمثال على ذلك ما ذكرناه سابقا من ترك أولئك المغرضـين لعشرات النصوص والتصـريحات من الإمـام الخميـني عن القـرآن

الكريم، وخلوه من التحريف والتبديل، ودعوته لتفعيله في الحيـاة، ثم الرد عليه من خلال مقولات غيره.. وهذا ظلم كبير.

فلكل مذهب أو مدرسة من انحرف بها أو عنهـا انحرافـا كليـا أو جزئيا، ولا يصح أن نحمّـل المعتـدلين وزر المنحـرفين.. وكـذلك الأمر بالنسبة لإيران التي لم تكتـف فقـط بتصـحيح مسـار الدولـة السياسي، وإنما صـححت قبـل ذلـك فهمهـا للـدين، وتصـورها لـه، ولذلك يمكن اعتبار التشيع الإيراني عملية تصحيحية كبيرة، جعلتـه أقرب إلى المصادر المقدسة، من كل العصـور السـابقة، حـتى أن الطبقة المثقة من إيران الآن لا ترتضي تسمية التشيع، بل تعتـبره نوعـا من التسـمية الطائفيـة، وإنمـا تسـميه [الإسـلام المحمـدي الأصيل]

1 ــ الرجــوع للفقهــاء المجتهــدين للتعــرف على الأحكام الشرعية:

المرجع ـ في المصطلح الشيعي ـ هـو العـالم المجتهـد الـذي بلغ أقصى درجات العلم والاجتهاد التي تخـول لـه الإفتـاء، ورعايـة بعض المصالح الدينية لمن يثقون فيه من عامة النـاس؛ فيعتبرونـه واسطة للتعرف على أحكام الشريعة الإسلامية، وتنفيذها[1].

وميزة هذا النظام هـو تنظيم الحيـاة الدينيـة للعامـة الـذين لا يسـتطيعون الاجتهـاد، وفي نفس الـوقت لا يجـدون في أنفسـهم القدرة على التمييز بين الأقوال الفقهية والاختلافات الواردة فيهـا، ولذلك يتاح لهم ـ بكل حرية ـ أن يبحثوا عن الفقهاء الـذين وصـلوا إلى درجـة المرجعيـة والاجتهـاد، ليجعلـوهم مراجـع لهم، يرجعـون إليهم في أمور دينهم.

والذي ينتقد هذا النظام مثل الذي ينتقد المريض الـذي يبحث

---

[1] كما نص على ذلك السيد الخوئي في كتاب [الاجتهـاد والتقليـد/119و203]، فقـال: (يجب تقليـد الأعلم مـع الإمكـان على الأحـوط، ويجب الفحص عنـه.. المـراد من الأعلم من يكون أعرف بالقواعد والمدارك للمسألة وأكـثر اطلاعـاً..وأجـود فهمـاً للأخبـار، والحاصـل أن يكون أجـود اسـتنباطاً. والمرجـع في تعيينـه أهـل الخـبرة والإسـتنباط.. ولا يجـوز تقليـد غـير المجتهد وإن كان من أهل العلم، كما أنه يجب على غير المجتهد التقليـد، وإن كـان من أهـل العلم).

في الأطباء، ليجد طبيبا واحدا ثقة يرى فيه القدرة على علاجه، أو الإشارة عليه، فيتخذه طبيبه الشخصي الدائم الذي يلجأ إليه كلما احتاج إلى ذلك، أو الذي يختار محاميا واحدا يعالج كل مشكلة تحل به.

والشيعة يستندون في هذا النظام إلى ما ورد عن أئمتهم الذين كانوا يرشدون أتباعهم إلى فقهاء بلادهم، فقد روي عن الإمام الباقر أنه قال لأبان بن تغلب: (اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس، فإني أحب أن يرى في شيعتي مثلك)[1] أي أن الإمام اعتبره مرجعا لأهل ذلك المسجد.

وروي عن الإمام الصادق أنه قال لبعض أتباعه: (إئت أبان بن تغلب فإنه قد سمع مني حديثاً كثيراً، فما رواه لك فاروه عني) [2]

ومثله روي عن الإمام الرضا عندما قال لبعض أتباعه: (خذ معالم دينك من زكريا بن آدم القمي المأمون على الدين والدنيا) [3]

وغيرها من النصوص الكثيرة التي استنبط منها الشيعة أنه يجب على العامي المقلد ألا يكتفي بما في الكتب من فتاوى، وإنما عليه أن يرجع إلى المجتهدين الأحياء، لأنهم أدرى بالواقع، وبكيفية تنفيذ الأحكام الشرعية، ذلك أن باب الاجتهاد عند الشيعة لم يغلق مثلما حصل في المدرسة السنية، بسبب التدخل السياسي.

والميزة الأخرى لهذا النظام هو بعض الصلاحيات التي تتاح للمرجع، بحيث يصبح قاضيا بين أتباعه، يساهم في فك النزاعات بينهم بحسب الأحكام الشرعية، بالإضافة إلى توليه أو تولي وكلائه

1() وسائل الشيعة، ج 30، ص 291.

2() وسائل الشيعة، ج 27، ص 147.

3() وسائل الشيعة، ج 27، ص 146.

حل المشاكل التي قد يقعون فيها.

وهم لذلك يضعون له قداسة خاصة تخول له أن يكون له من السلطة في قلوب الناس ما يجعلهم يخضعون لـه ولأوامـره، كمـا قال العلامة محمد رضا المظفر: (عقيـدتنا في المجتهـد الجـامع للشرائط، أنه نائب للإمام في حال غيبتـه، وهـو الحـاكم والـرئيس المطلـق، لـه مـا للإمـام في الفصـل في القضـايا والحكومـة بين الناس، والـراد عليـه راد على الإمـام والـراد على الإمـام راد على الله تعالى، وهو على حد الشرك بالله)[1]

ومن مزاياها أيضا ـ والتي أساء فهمهما المغرضون ـ استقبال المرجـع للمسـاهمات الماليـة، لا لشخصـه، وإنمـا لتوزيعهـا على الأصـناف الـتي ورد الأمـر الشـرعي بتوزيعهـا لهـا، ومن بينهـا المؤسسـة الدينيـة نفسـها، من المـدارس الدينيـة، ونشـر الكتب ونحوها[2].

وهو ما جعل النظام الـديني عنـد الشـيعة مسـتقلا تمامـا عن الساسة والسياسيين، على خلاف ما نراه في المؤسسات الدينيـة السنية، والتي تأخـذ أموالهـا من الدولـة، والـتي تفـرض بعـد ذلـك سلطتها عليها لكونها تابعة لها.

وهذا لا يعني استقلالية هذه المؤسسـة عن الشـعب، بـل هي تابعة لـه، وتخـدم مصـالحه، وهـو يراقبهـا بعـد إعطائهـا من مالـه، وكيفية توزيعه.

وهي لذلك تسعى في مصـالح الشـعب، وتتعـرض للكثـير من

1() عقائد الإمامية، المظفر، ص 45..

2() ولهذا نرى للحوزات العلمية التابعة للمراجع أوقافاً عديدة، كالمـدارس، والمكتبـات، وبيوت سكن للطلبـة، والعلمـاء، وغيرهـا، والطـابع العـام لإدارة هـذه الأوقـاف:احـترام إرادة الواقف ومتولي الوقف فيها، وغالباً ما تشترط وقفيتها إشراف المرجع العام، أي الذي يرجـع اليه أكثريـة الشـيعة في العـالم، والـذي يحـترم رأيـه وتوجيهاتـه في إدارة الحـوزة وطلبتهـا.. ويقوم المرجع عادة برعاية هذه الأوقاف ومساعدتها مالياً، لتواصل العمل لهدفها الذي نصت عليه وقفيتها، كما يقـوم بتأسـيس المشـروعات اللازمـة للحـوزة من مـدارس أو مسـاكن أو مكتبات.

الأذى من الحكومات المتعاقبة بسبب ذلك، فهي ليست واسطة الحكومة لإرضاء الشعب، وإنما هي واسطة الشعب لإخضاع الحكومة.

وبناء على هذا المعنى استطاع الشعب الإيراني بمساندة المراجع والحوزة العلمية أن ينجح في تحقيق ثورته؛ فلم يكن الخميني سوى مرجع من المراجع الكبار الذين قدسهم الشعب واحترمهم، وكانوا في مستوى ذلك التقديس والاحترام.

ولذلك يمكن اعتبار نظام ولاية الفقيه نوعا من تفعيل المرجعية، وإعطائها الصلاحيات الحقيقية التي أتاحتها لها الشريعة[1]، كما نص على ذلك الخميني بقوله: (المستفاد من المقبولة كما ذكرناه هو أن الحكومة مطلقاً للفقيه، وقد جعلهم الإمام حكاماً على الناس، ولا يخفى أن جعل القاضي من شؤون الحاكم والسلطان في الإسلام، فجعل الحكومة للفقهاء مستلزم لجواز نصب القضاة، فالحكام على الناس شأنهم نصب الأمراء والقضاة وغيرهما مما تحتاج إليه الأمة)[2]

ومثله قال الخامنئي القائد الحالي للجمهورية الإسلامية الإيرانية، والذي يعتبر أكبر مرجع فيها: (ولاية الفقيه في قيادة المجتمع وإدارة المسائل الإجتماعية في كل عصر وزمان من أركان المذهب الحق الإثني عشري، ولها جذور في أصل الإمامة، ومن أوصله الإستدلال إلى عدم القول بها فهو معذور، ولكن لا يجوز له بث التفرقة والخلاف)[3]

ومن مزايا هذا النظام كذلك تلك الحرية الدينية التي تجعل

1() هناك اتجاه آخر في المدرسة الشيعية يرى أنه ليس للفقيه سوى الفتوى، وممن يمثلونه في الواقع الشيعي السيد السيستاني مرجع العراق الأكبر، والذي أفتى بأن يحكم الشعب العراقي نفسه عن طريق الإنتخابات، وأعطى الشرعية لمن ينتخبه الشعب، ونصح العلماء وطلبة العلم أن لايدخلوا في الحكم ومؤسساته، إلا بقد الضرورة التشريعية أحياناً..

2() الخميني، الاجتهاد والتقليد، ص 53..

3() الخامنئي، أجوبة الإستفتاءات، ج 1، ص 23..

عامة الناس أحرارا في اختيار المراجع الـذين يقلـدونهم، وتجعلهم كذلك يتسامحون مع المختلفين معهم من سائر الفقهاء والمراجع.

ومن أحسن الأمثلة على ذلك التسـامح الـديني الـذي نفتقـده للأسف في المدرسة السنية ـ بسبب التعصب بين المـذاهب ــ مـا أجاب به الخميني على رسالة أرسلها له بعضهم يعترض عليه فيهـا قبوله بـالاختلاف بين المجتهـدين، وكيـف أن الخميـني بمـا لـه من سـلطة لم يمـل إلى أحـد الطـرفين، أو لم يسـتعمل السـلطات المتاحة له لتكميم أفواه الطرف الذي يخالفه، وقـال لـه: (.. لعـل الأكثر من ذلك أن الطرفين يحظيـان بتأييـدكم، ولم نـر حـتى الآن تأييدا لطرف منهما، بل نلاحظ أنكم قد تؤيدون طرفا في مناسـبة، ثم تؤيدون طرفـا آخـر في مناسـبة أخـرى.. والشـواهد على ذلـك كثيرة، مثلا إنكم دافعتم عن أفراد جماعـة المدرسـين أو مؤسسـة الإعلام الإسلامي، في الـوقت الـذي دافعتم فيـه عن أفـراد مكتب الإعلام الإسلامي، وإذا دافعتم عن شورى المحافظة على الدستور فإنكم دافعتم عن شورى تشخيص المصلحة)[1]

فأجابـه الخميـني بقولـه: (إني انصـحك وأمثالـك الكثـيرين، وأذكركم بأن كتب فقهاء الإسلام العظام مملوءة باختلاف وجهـات النظـر، وكـل منهم لـه رأي في المجـالات العسـكرية والثقافيـة والسياسـية والاقتصـادية والعباديـة.. ففي بعض المسـائل هنـاك إجماع للفقهاء، وحتى في المسائل التي فيها إجماع هناك قـول أو أقوال تخالف الإجمـاع، وفي الماضـي فـإن هـذه الاختلافـات كتبت باللغة العربية مما جعل اطلاع أكثر الناس عليها قليلا، والـذي يعلم بها فإنه لا يتابع إلا المسائل التي تهمه)

وبعد أن أصل له المسألة من الناحية الشـرعية، وبحسـب مـا يـدل عليـه تـاريخ الفقهـاء في المدرسـة الشـيعية، بـل في جميـع المدارس الإسـلامية، قـال لـه: (والآن هـل نسـتطيع أن نتصـور أن هؤلاء الفقهاء عندما اختلفت وجهات نظرهم كـانوا يعملـون خلافـا

[1] النصوص المذكورة في رسالة الشيخ الأنصـاري وجـواب الإمـام عليهـا مـأخوذة عن جريدة اطلاعات الصادرة في طهران عدد 18799 بتاريخ 9ذي الحجة 1409هـ ، انظر مقـالا بعنوان: الاجتهاد المتنوع في الدولة الإسلامية في فكر الإمام الخميني، محمـد حسـين فضـل الله، من كتاب: الإمام الخميني الفكر والثورة.

لما يريد الله سبحانه وتعالى وخلافا للدين الإسلامي وللحق؟!.. أبدا!!.. واليوم، والحمد لله، فإن كلام الفقهاء وأصحاب النظر يبث في الراديو والتلفزيون أو يكتب في الصحف، لأن الناس يحتاجون إليه في حياتهم العملية)

ثم ذكر له أن هناك الكثير من النوازل، وأنه لا يمكن أن يجتمع الفقهاء فيها على قول واحد، لأن لكل منهم وجهة نظره الخاصة، فقال: (.. مثلا، في مسألة تحديد الملكية وفي تقسيم الأراضي، وفي الثروات العامة والإنفاق وفي المسائل المعقدة للأموال والعملة الصعبة في البنوك، وفي الأمور المالية والتجارة الداخلية والخارجية والمزارعة والمضاربة والإجارة والرهن واقامة الحدود والديات والقوانين المدنية والمسائل الثقافية والمسائل الفنية أمثال الرسم والتصوير والنحت والموسيقى والسينما والمسرح والخط وغيره، وفي حفظ الطبيعة سالمة من التلوث ومنع قطع الأشجار، حتى الموجودة في البيوت والممتلكات الخاصة، وفي مسائل الأطعمة والألبسة والأشربة، وفي مسألة تحديد النسل في حالات الضرورة أو تعيين فواصل بين وليد وآخر، وفي حل المشاكل الطبية وأمثال زرع أعضاء جسم إنسان لإنسان آخر، وفي مسألة المعادن داخل طبقات الأرض وفوقها وفي تغيير موضوعات الحلال والحرام وتوسيع وتضييق دائرة بعض الأحكام في الأزمنة والأمكنة المختلفة، وفي المسائل الحقوقية حسب نظر الشريعة الإسلامية، ودور المرأة في المجتمع الإسلامي، وحدود حرية الفرد داخل المجتمع، والتعامل مع الكفار والمشركين والأفكار الالتقاطية والمعسكرات التابعة لها، وكيفية انجاز الفرائض في الرحلات الهوائية والفضائية. والأهم من ذلك حاكمية ولاية الفقيه في الحكومة والمجتمع، وكل هذه المسائل جزء من آلاف المسائل التي هي محل ابتلاء الناس والحكومة، والتي كانت مورد بحث الفقهاء واختلاف وجهات نظرهم)

وقد دعا في رسالته تلك إلى البحث الجاد من طرف الفقهاء جميعا للتعرف على حكم الشريعة في تلك النوازل وغيرها، وأنه لا يجوز أن يصادر رأي أي مجتهد، فقال: (لذا ففي الحكومة الإسلامية يجب أن يكون باب الاجتهاد مفتوحا دائما، لأن طبيعة

الثـورة تقتضـي أن تطـرح وجهـات النظـر الفقهيـة في مختلـف المجالات، ولا يحق لأحد الحيلولة دون ذلك، ولكن بشرط أن يكون الطرح بصورة صحيحة على الأمور في نطاق الحكومـة والمجتمـع من أجل بناء مجتمع إسلامي يمكنه أن يخطـط لصـالح المسـلمين ويدعو إلى الوحدة والاتحاد)

ولهذا فإن من أكـبر دلائـل التسـامح الـديني في إيـران عـدم مصادرة المرجعيات الفقهية المختلفة، حتى الـتي لا تـرى مسـوغا لولاية الفقيه، ولهذا نرى الخميني يـدعو عامـة النـاس لا إلى تبـني مرجعيته في الأقـوال الفقهيـة، والاكتفـاء برسـالته العمليـة، وإنمـا يدعوهم إلى الرجوع إلى المراجع والفقهـاء، للتعـرف على أحكـام الدين.

ومن الأمثلة على ذلك قوله في الرسالة التي وجههـا للحجيج بعـد بيانـه للنـواحي العرفانيـة والذوقيـة في الحج: (إن المـراتب المعنوية للحج هي رأسمال الحيـاة الخالـدة، وتقـرب الإنسـان من أفق التوحيد والتنزيه، وسوف لن نحصل على النتيجـة مـا لم ننفـذ أحكام وقوانين الحج العبادية بشكل صحيح ولائق وشعرة بشـعرة، على الحجّـاج المحـترمين والعلمـاء المعظّمين مسـؤولي قوافـل الحجّـاج أن يصـرفوا وقتهم ويكـون كـل همّهم هـو تعليم وتعلّم مناسك الحج وعلى العارفين مراقبة من يـرافقهم حـتى لا يتخلـف أحد عن الأوامر.. على أيّة حـال هـذه وظيفـة العلمـاء الموجـودين في القوافـل يعـني هي إحـدى وظـائفهم، وإن إحـدى الوظـائف المهمة أيضاً هي تعريف الناس بمسـائل الحج، إننـا نـرى الكثـيرين من الأشخاص الذين يذهبون إلى الحج ويتحملـون المصـاعب وهم لا يعرفون مسائل الحج ويصبحون مقيّدين بحركتهم هناك، وعنـدما يعـودون وبعـد عـدة سـنوات يسـألون أننـا قـد أنجزنـا علمنـا على الشكل التالي، فهـل حجّنـا صـحيح أم لا؟ فهـل نحن مـا زلنـا على إحرامنا أيضاً أم لا؟ فيجب على السادة العلماء أن يعقدوا جلسات للتـدريس ويدرّسـوا النـاس آداب الحج، واجبـات الحج، محرّمـات الحج، فـإذا لم يتعلّمـوا الآداب، فليس في ذلـك إشـكال، أمـا المحرمـات والواجبـات فيجب تعليمهـا للنـاس يوميـاً، ويجب على الناس أيضاً الذهاب عند السادة العلماء لحضور هذه الدروس، فإذا

مـا انعقـدت هـذه الـدروس فيجب أن يـذهبوا إليهم ويسـتمعوا ويتعلموا مسـائل الحج حـتى لا يصـبحوا مأسـورين فيمـا بعـد عنـد عودتهم ويتساءل أحدهم كيف كان طـوافي، هـل كـان صـحيحاً أم لا؟)[1]

هـذه بعض مزايـا المرجعيـة الدينيـة، والـتي تمنينـا لـو أن المدرسة السنية تبنتها لتقضي على تلك الفوضى التي يسببها ترك المجتمـع لأهـواء المتعـالمين ممن لم تتحقـق فيهم الشـروط الشرعية للفتوى، فيضلون ويُضلون.

2 ـ شمولية الشريعة لكل جوانب الحياة:

عند مطالعتنا لأي كتـاب فقهي شـيعي، أو رسـالة علميـة لأي مرجع من المراجع المعتمدين، نجد الأبواب الفقهيـة تشـمل جميـع مناحي الحياة، ذلـك أنـه لا يكـون المرجـع مرجعـا إلا إذا وصـل بـه الاجتهاد إلى الإجابة عن كل الأسئلة الفقهية التي ترد عليه، والـتي تتعلق عموما بجميع مناحي الحياة.

وبذلك؛ فإن الشـريعة الإسـلامية الـتي يتبناهـا الإيرانيـون هي نفسها الشريعة التي يتبناها جميـع أبنـاء العـالم الإسـلامي، فهي لا تقتصـر على التشـريعات المرتبطـة بالعبـادات، وإنمـا تضـم إليهـا التشريعات المرتبطة بجميع شؤون الحياة.

ومـا يمـيز الشـيعة بالإضـافة إلى ذلـك هـو تبـنيهم للمشـروع السياسـي الإسـلامي في جميـع مراحـل تـاريخهم، خلافـا لبعض المذاهب في المدرسة السنية، والتي أجازت علمانية الدولـة، وأن للحاكم شؤون الدنيا، وللفقيه شؤون الدين.

وسبب تبني الشيعة لذلك هو توليهم لأئمة أهل الـبيت، الـذين كانوا يعتـبرون من المعارضـة السياسـية إبـان الفـترات المختلفـة للدولـة الإسـلامية، ولهـذا شـن عليهم وعلى أتبـاعهم كـل صـنوف الأذى.

وانطلاقا من هذا؛ فإن الشيعة بإحيائهم لعاشوراء ونحوهـا من

[1] أبعاد الحج في كلام الإمام الخميني، ص20.

المناسبات يعيدون التذكير بأن الدين ليس شعائر تعبدية فقط، وإنما يدخل في كل شؤون الحياة، دقيقها وجليلها، وقد قال الخميني ـ مشيدا بدور عاشوراء في نجاح الثورة الإسلامية ـ : (إن كل ما لدينا هو من عاشوراء)

وبناء عليه نرى اهتمام الجمهورية الإسلامية الإيرانية بعد الثورة وقبلها بإحياء عاشوراء بأبعادها الثورية الحقيقية، حتى (تخدم بشكل مباشر خصوصية الثورة، وتذكر بمضمونها التاريخي .. وتحمي الثورة الكربلائية من عوارض الزمن، حيث تبقى عاشوراء على طول الخط مؤججة لروح الثورة والمناعة)[1]

ولم تكتف الجمهورية الإسلامية الإيرانية بذلك، بل راحت تقوم بعملية تصحيحية كبيرة للتدريس الديني، ليتناسب مع تفعيل الشريعة الإسلامية في كل شؤون الحياة، فلا يمكن أن يطبق الشريعة بصيغتها الشاملة الفقيه الذي يكتفي بالدراسة التقليدية للفقه الإسلامي.

وقد قال الخميني في الرسالة التي أشرنا إليها سابقا مبينا هذا المعنى: (ومن هنا، فان الاجتهاد في الاصطلاح الحوزوي وحده لا يكفي، وإذا كان هناك شخص أعلم في علوم الحوزة ولكن لا يستطيع تشخيص المصلحة العامة أو لا يستطيع تشخيص الأفراد الصالح ومن الطالح، والمفيد من غير المفيد، وبشكل عام فإنه فاقد التشخيص في المجالات السياسية والاجتماعية وفاقد القدرة في اتخاذ القرار؛ إن هذا الشخص لا يعتبر مجتهدا في المسائل الحكومية والاجتماعية ولا يستطيع أن يمسك زمام أمور المجتمع بيده) [2]

وهكذا نجد القائد الحالي للجمهورية الإسلامية السيد علي الخامنئي يوجه النصائح الكثيرة للحوزة لتتناسب مع الواقع،

---

[1] انظر مقالا بعنوان: عاشوراء الحسين وثورة الإمام الخميني ، من كتاب: الإمام الخميني.. الفكر والثورة.

[2] انظر مقالا بعنوان: الاجتهاد المتنوع في الدولة الإسلامية في فكر الإمام الخميني، محمد حسين فضل الله، من كتاب: الإمام الخميني الفكر والثورة.

ولتعالج مشكلاته وفق رؤية الإسلام الأصيل، لا وفق الرؤية العلمانية التي تفصل الدين عن الحياة والسياسة، ومن توجيهاته في ذلك قوله: (إنّ الدين الإسلامي يدعو إلى إصلاح الدين والدنيا ولا يقتصر على طقوس دينية يمارسها المتديّن من أجل الخلاص في الآخرة. فهذه الخصوصية تتطلب من الحوزيين أن ينطلقوا في تقديرهم للأمر وفي تخطيطهم للعمل التعليمي والتربوي من هذا الاعتبار وأنّ الطرح الإسلامي متبنٍ على أساس أن الدين هو رسالة الحياة، والطريق الوحيد للخلاص من المشاكل والمصاعب التي حلّت بالعالم والتي ستحلُّ فيما بعد، وهو القادر على إعطاء الحلول الناجعة للمعضلات الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات البشرية)[1]

ويقول: (يجب الاهتمام بقضية الوحدة بين الدين والسياسة، في التفقه وفي العمل. وليعلم الأخوة أن فكرة فصل الدين عن السياسة هي آفة لم تستأصل بشكل كامل، ولا تزال إلى الآن موجودة في الحوزات مع الأسف.. يجب تأصيل وترسيخ فكرة وحدة الدين والسياسة في الحوزة بحيث تكون الفقاهة، والاستنباط الفقهي على أساس إدارة النظام والمجتمع لا مجرد الإدارة الفردية)[2]

بالإضافة إلى هذا، نرى قادة الثورة الإسلامية يصبغون كل حكم من الأحكام الشرعية بتلك الصبغة الشمولية للإسلام، حتى تؤدي كل جزئية فيه دورها في خدمة الشريعة، وتكون أساسا من الأسس التي يقوم عليها النظام الإسلامي.

ومن الأمثلة على ذلك ما نراه من تركيز الخميني على الحج

---

[1] () من خطاب ألقي الإمام الخامئي في بداية العام الدراسي في الحوزة العلمية في 9 ربيع الثاني 1416هـ..

[2] () خطاب بمناسبة بدء العام الدراسي في الحوزة العلمية في 12 ربيع الأول 1412هـ..

باعتبـاره مناسـبة لتحقيـق الوحـدة الإسـلامية، وبث الـوعي بين المسلمين بضرورة مواجهـة الاسـتكبار العـالمي، وتحقيـق العدالـة الاجتماعية وفق الشريعة الإسلامية.

فبعد أن ذكر الكثير من الجوانب العرفانية التي تصل المؤمن بالله أثنـاء أدائـه للمناسـك، راح يـذكر الجـوانب الأخـرى المغيبـة، فالحج ـ بحسب طروحاته ـ ليس مجـرد شـعائر تـؤدى، وإنمـا هـو مناسبة عظيمة لتحقيق الكثير من القضايا التي تدل عليها شمولية الإسلام لجميع مناحي الحياة.

ومن أقوالـه في ذلـك، عنـد حديثـه عن سـر المناسـك، وبعـد ذكره للجوانب العرفانية منها: (إن الطواف حول الكعبة المشـرّفة يعني أن الإنسـان لن يطـوف لغـير اللـه، ورجم العقبـات هـو رجم شــياطين الإنس والجن، وأنتم عنــدما ترجمــون عاهــدوا اللــه أن تقتلعــوا شــياطين الإنس والقــوى العظمى من البلاد الإسـلامية.. اليوم كل العالم الإسلامي أسير بيد أمريكا، احملوا من الله رسالة إلى مسـلمي القـارات المختلفـة للعـالم الإسـلامي، رسـالة أن لا تخضعوا لغير الله ولا تكونوا عبيداً لأحد) [1]

ولمزيـد من التفصـيل راح يـبين لهم المعـاني الـتي تختزنهـا شعائر الحج؛ فقال: (عنـدما تلفظـون لبّيـك لبّيـك، قولـوا لا لجميـع الأصـنام، واصـرخوا لا لكـل الطـواغيت الكبـار والصـغار، وأثنـاء الطواف في حرم اللـه حيث يتجلى العشـق الإلهي، خلّـوا قلـوبكم من الآخــرين، وطهّــروا أرواحكم من أي خــوف لغــير اللــه، وفي مــوازاة العشــق الإلهي، تــبرأوا من الأصــنام الكبــيرة والصــغيرة والطواغيت وعملائهم وأزلامهم، حيث إن الله تعالى ومحبّيه تـبرأوا منهم، وأن جميع أحرار العالم بريئون منهم. وحين تلمسون الحجر الأسود أعقدوا البيعة مع الله أن تكونوا أعداء لأعداء الله ورسـوله والصالحين والأحرار، ومطيعين وعبيداً له، أينما كنتم وكيفمـا كنتم. لا تحنوا رؤوسكم، واطردوا الخوف من قلوبكم، واعلموا أن أعـداء الله وعلى رأسهم الشيطان الأكـبر جبنـاء وإن كـانوا متفـوقين في قتـل البشـر وفي جـرائمهم وجنايـاتهم. أثنـاء سـعيكم بين الصـفا

1() أبعاد الحج في كلام الإمام الخميني، ص17.

والمروة اسعوا سعي من يريد الوصول إلى المحبوب، حتى إذا مـا وجـدتموه هـانت كـل الأمـور الدنيويـة، وتنتهي كـل الشـكوك والترددات، وتزول كل المخاوف والحبائل الشيطانية، وتـزول كـل الارتباطـات القلبيـة الماديـة، وتزدهـر الحريـة، وتنكسـر القيـود الشيطانية والطاغوتية التي أسرت عباد الله. سـيروا إلى المشـعر الحرام وعرفات وأنتم في حالة إحساس وعرفـان، وكونـوا في أي موقف مطمئني القلب لوعد الله الحق بإقامة حكم المستضعفين. وبسـكون وهـدوء فكّـروا بآيـات اللـه الحـق، وفكـروا بتخليص المحرومين والمستضعفين من براثن الاستكبار العـالمي، واطلبـوا من الحق تعالى في تلك المواقف الكريمـة تحقيـق سُـبل النجـاة، بعد ذلك عندما تذهبون إلى منى واطلبوا هنـاك أن تتحقـق الآمـال الحقّة حيث التضحية هناك بأثمن وأحب شيء في طريق المحبوب المطلق، واعلموا أنه ما لم تتجـاوزوا هـذه الرغبـات والـتي أعلاهـا حب النفس وحب الدنيا التابع لها، فسوف لن تصلوا إلى المحبوب المطلق. وفي هذه الحال ارجمـوا الشـيطان، واطـردوا الشـيطان من أنفسكم وكرروا رجم الشيطان في مواقـع مختلفـة بنـاء على الأوامر الإلهية، لدفع شر الشياطين وأبنائهم عنكم) [1]

وهكذا راح يذكر بالوحـدة الإسـلامية في الحج، والـتي تتعـالى على كل الخلافـات الفرعيـة، يقـول مخاطبـا الحجيج: (ينبغي على جميـع الإخـوة والأخـوات المسـلمين والمسـلمات الانتبـاه إلى أن إحدى مهمات فلسفة الحج إيجاد التفاهم وتوثيق عرى الأخـوة بين المسـلمين، وينبغي على المفكـرين والمعممين طـرح مسـائلهم الأساسية، السياسية والاجتماعية مع الآخرين من إخوانهم، وتقديم الاقتراحات من أجـل رفعهـا وحلهـا ووضـعها بتصـرّف وتحت نظـر العلماء وأصحاب الرأي عند عـودتهم إلى بلادهم، يجب أن نعلم أن إحدى الفلسفات الاجتماعية لهذا التجمّـع العظيم من جميـع أنحـاء العالم توثيق عـرى الوحـدة بين أتبـاع نـبي الإسـلام، أتبـاع القـرآن الكريم في مقابل طواغيت العـالم، وإذا لا سـمح اللـه أوجـد بعض الحجّاج من خلال أعمالهم خللاً في هذه الوحدة أدّت إلى التفرقـة،

---

(1) المرجع السابق، ص18.

فذلك سيوجب سخط رسول الله ﷺ وعذاب الله القادر الجبار)[1]

وهو ـ خلافا لتلك الطروحات المغرضة التي تصف الإيرانيين بالتعالي ـ يدعو حجاج شعبه إلى أن يخالطوا جميع حجاج الشعوب المسلمة، ويتعارفوا عليهم، ويطبقوا معهم جميع آداب الأخوة الإيمانية التي تتعالى على الأعراق والألوان واللغات والمذاهب، فيقول: (الحجّاج المحترمون الموجودون في جوار بيت الله ومحل رحمته، تعاطوا برفق ومروءة وأخوة إسلامية مع جميع عباد الله، واعتبروا الجميع ــ ودون النظر إلى اللون واللسان والمنطقة والمحيط ـ منكم، وكونوا جميعاً يداً قرآنية واحدة حتى تسيطروا على أعداء الإسلام والإنسانية) [2]

ويقول: (إن الحج هو أفضل مكان لتعارف الشعوب الإسلامية حيث يتعرّف المسلمون على إخوانهم وأخواتهم في دين الإسلام من جميع أنحاء العالم، ويجتمعون في ذلك البيت المتعلّق بجميع المجتمعات الإسلامية، وباتباع دين إبراهيم الحنيف وبعد أن يضعوا جانباً المفردات والألوان والعرقية والقومية، يرجعون إلى أرضهم وبيتهم الأول، ومع مراعاة الأخلاق الكريمة الإسلامية واجتناب الجدال والتجملات يتجلى ويتمظهر صفاء الأخوة الإسلامية وأبعاد تنظيم الأمة المحمدية في جميع أنحاء العالم) [3]

بل إنه يدعو الحجاج الشيعة لالتزام جميع المناسك مثلما يفعل إخوانهم من المدرسة السنية، ويدعوهم إلى الصلاة خلفهم، وعدم الانفراد بالصلاة، أو إقامة جماعات بديلة، ويعتبر كل التصرفات التي تسيء إلى الوحدة الإسلامية من الجهل، فيقول: (طوفوا حول الكعبة بالطواف المتعارف على النحو الذي يقوم به جميع الحجّاج. واحترزوا من الأعمال التي يفعلها الأشخاص

1() المرجع السابق، ص26.

2() المرجع السابق، ص26.

3() المرجع السابق، ص27.

الجاهلون، واحترزوا بالمطلق من الأعمال التي زكون موجبة لوهن المذهب وفي الوقوفين فإن أتباع حكم قضاة أهل السنّة لازم ومبرئ ما لم يُقطع بالخلاف، ويجب على الأخوة الإيرانيين وشيعة سائر الدول الاحتراز من الأعمال الجاهلة التي تؤدي لتفرقة المسلمين، وينبغي الحضور بين جماعات أهل السنّة. واجتناب الصلاة جماعة في المنازل، والاحتراز من وضع مكّبرات الصوت خلاف المتعارف، واجتناب الارتماء على القبور المطهرة والأعمال التي تكون أحياناً مخالفة للشرع الحنيف) [1]

وهكذا نجد الخامنئي يردد نفس المعاني حيث يتحدث عن دور الشعائر التعبدية في تحقيق القيم الإسلامية في واقع الحياة، ويقدم لذلك بقوله: (إنّ الحياة مدرسة ومختبر لابدّ أن نطبق فيها جميع القوانين والنظريات التي أوجدها خالق العالم والحياة، ليمكن الوصول إلى نتيجة عالية ومرضية. هذه القوانين التي هي سنن الله في خلقه، يجب معرفتها وصياغة حياتنا وفقاً لها، ولابد أيضاً من معرفة النفس واستكشاف ذخائرها واحتياجاتها. تلك هي مسؤولية الإنسان وواجبه العظيم الذي بمجرد أدائه يكون الإنسان قادراً على التحرك الواعي الناجح، ولولاه لا يمكن التحرك، أو يكون عن غير وعي، فلا يحالفه التوفيق)[2]

وانطلاقا من ذلك يبين دور الشعائر التعبدية في تحقيق هذا الهدف، فيقول: (والدين عبر تحديده للهدف والاتجاه والطريق والوسيلة يمنح الإنسان أيضاً القدرة والزاد الضروري لقطع الطريق، وإنّ أهم متاع يحمله سالكو هذا الطريق هو ذكر الله، وإنّ روح الطلب والرجاء والاطمئنان ـ وهي أجنحة هذا التحليق ـ إنّما تتفرع وتتولد من ذكر الله)[3]

---

[1] المرجع السابق، ص33.

[2] من أعماق الصلاة، السيد علي الخامنئي، ص9.

ويبين الآلية التي يقوم بها ذكر الله في تحقيق الانصياع التام لشريعته بصيغتها الشمولية، فيقول: (إنّ ذكر الله يجعل الهدف، وهو الاتصال به تعالى، أي منتهى الكمال والحسن، نصب العين دوماً، ويحول دون الضياع، ويجعل السائر حاساً وحذراً بالنسبة إلى الطريقة والوسيلة، ويمنحه قوّة القلب والاطمئنان والنشاط، ويحفظه من الانزلاق والانخداع بالمظاهر الخلابة، أو الخوف من المنغصات)[1]

وبذلك، فإن تلك الشعائر ـ بحسب ما ينص عليه الخامنئي ـ تجعل (المجتمع الإسلامي وكل مجموعة أو فرد مسلم، يخطو في الطريق الذي حدده الإسلام ودعا إليه جميع الأنبياء، باستقامة ودون توقف أو تراجع إذا لم ينس الله، ومن هنا يسعى الدين جاهداً وبمختلف الطرق والوسائل لإحياء ذكر الله في قلوب المتدينين بشكل دائم)[2]

وهو يعتبر الاهتمام بالصلاة اهتماما بالشريعة جميعا، فالصلاة ـ كما يذكر ـ (جرس منبّه، ومنذر في مختلف ساعات اللّيل والنهار، إنها تزود الإنسان ببرنامج وتريد منه عهداً، وتعطي لليله ونهاره معنى وتشعره بقيمة الزمن. إنّها تدعوه خلال الزمان الذي يكون فيه منشغلاً غير ملتفت إلى مضي الزمن وانقضاء العمر وترشده إلى انقضاء يوم وشروع آخر، وأنّ عليه أن يجدّ ويتحمل مسؤولية أكبر وأن يفعل ما هو أهم؛ لقد انقضى جزء من العمر بلا استثمار فيجب أن يكون أكثر سعياً وعطاءً، إذ انّ الهدف عظيم، فلنسع

3() المرجع السابق، ص9.

1() المرجع السابق، ص10.

2() المرجع السابق، ص10.

لنيله قبل فوات الأوان)[1]

وهو يشبه الصلاة بالسلام الوطني للدول، (مع فارق في المعنى ونوع العطاء، لأجل أن ترسّخ الدولة أصولها ومتبنياتها الفكرية في ذهن الشعب، وبنائه على هذا النمط الفكري، تعمد إلى تكرار قراءة السلام الوطني الذي يمثل خلاصة الشكل المقبول لنمط الحياة وأهدافها لدى الدولة، فتكرار السلام الوطني سبب لتثبيت الناس على هذا النحو من الفكر، وتلقينهم أنهم أتباع هذا الوطن، والسائرون باتجاه تلك الأهداف؛ إذ إنّ نسيان أصول وأهداف الدولة، يعني تغيير المسار وعدم انتهاجه. هذا التكرار يجعلهم مستعدين للخدمة في هذه الجبهة، ويعلمهم المخططات والطرق، ويرشدهم إلى المسؤوليات والواجبات ويحيي في أذهانهم أسس الدولة، ويعيّن لهم الوظيفة، ويزودهم ــ حينئذ ـ بالشجاعة والجرأة والإقدام، ويهيّئهم للعمل)[2]

ولهذا نرى الاهتمام الكبير الذي توليه الجمهورية الإسلامية الإيرانية للمساجد، ليس باعتبارها محال لأداء الشعائر التعبدية فقط، وإنما باعتبارها وسائل لبث الوعي الديني ومواجهة كل أنواع العداء التي تشن عليها وعلى الإسلام، كما قال الخميني معبرا عن ذلك: (أحيوا الثورة من خلال المساجد، التي تعتبر حصون الإسلام المنيعة)[3]

وقال شارحا لعبارته تلك: (اسعوا في إعادة المساجد إلى ما كانت عليه في صدر الإسلام، ولتنتبهوا إلى أنه ليس في الإسلام

1() المرجع السابق، ص11.

2() المرجع السابق، ص12.

3() الكلمات القصار، ص65..

عزلة أو اعتزال)[1]

ويوضح في كلمة أخرى ما هـو المقصـود بالضـبط من إعـادة المسـجد إلى مـا كـان عليـه في صـدر الإسـلام، فيقـول: (كـان المسـجد في الإسـلام وفي صـدر الإسـلام دومـا مركـزا للتحـرك الإسـلامي، وكـان الإعلام الإسـلامي يبـدأ من المسـجد، وتنطلـق الجيوش وقوى المسلمين منـه لـدحر الكفـار المعتـدين وإدخـالهم تحت لواء الإسلام، فالمسجد في صدر الإسلام كان مركزا للتحرك والانطلاق دوما)[2]

ويقول: (كان المسجد الحـرام والمسـاجد في زمن الرسـول الأكرم ﷺ مركزا للحروب، ومركزا للقضايا الاجتماعية والسياسية، فلم يقتصر دور مسجد الرسول ﷺ على المسائل العبادية كالصلاة والصوم، بل كانت المسائل السياسية أكثر من ذلك وكان يبـدأ من المسجد متى ما أراد تعبئة الناس وإرسال الجيوش)[3]

هـذه مجـرد نمـاذج عن تصـريحات قـادة الثـورة الإسـلامية الإيرانية، والتي تبين مدى سعيهم لتطبيق الشـريعة الإسـلامية في جميع مجالات الحياة، وهي نفس مـا تتبنـاه الحركـة الإسـلامية في المدرسـة السـنية، والـتي تـرى شـمولية الإسـلام لجميـع منـاحي الحياة، كما نص على ذلك الشيخ حسن البنـا في الأصـل الأول من ركن الفهم من رسـالة التعـاليم بقولـه: (الإسـلام نظـام شـامل، يتناول مظاهر الحياة جميعـا. فهـو: دولـة ووطن أو حكومـة وأمـة، وهـو خلـق وقـوة أو رحمـة وعدالـة، وهـو ثقافـة وقـانون أو علم وقضاء، وهو مـادة وثـروة أو كسـب وغـنى، وهـو جهـاد ودعـوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة، سواء بسواء) [4]

1() الكلمات القصار ص64..

2() منهجية الثورة، ص478.

3() منهجية الثورة، ص478.

لكن الفرق بينهما هو أن ما تذكره الحركات الإسلامية مجرد أدبيات وشعارات وطروحات نظرية، لكنها تحولت عند الإيرانيين إلى واقع ملموس، يتقدم كل حين ليحقق الإسلام في الواقع، ويقضي على المقولات التي يرددها العلمانيون بعدم صلاحية الإسلام للتطبيق في مجالات الحياة عدا مجال الشعائر التعبدية.

وكان الأحرى بأبناء الحركات الإسلامية الاستفادة من هذه التجربة الواقعية، ومحاولة تصحيحها لتنسجم مع رؤاهم ومدرستهم، لكنهم للأسف راحوا يشنون الحرب عليها، ولست أدري لم.. أرجو ألا يكون ذلك فقط حسدا لكون قادة الثورة الإسلامية نجحوا في تحقيق ما عجز عنه كل قادة الحركات الإسلامية، وعبر تاريخهم الحركي الطويل.

ثانيا ـ خدمة الإيرانيين للشريعة الإسلامية:

لا يمكن لأي مؤرخ للتشريع الإسلامي أن يهمل الأداور الكبيرة التي قام بها كبار الفقهاء والأصوليين من الإيرانيين، ومنذ العصور الأولى للإسلام، ذلك أن المذاهب الفقهية جميعا تدين بالكثير من مصادرها وتراثها في هذه الناحية لجميع المدن الإيرانية، وخصوصا المدن الكبرى التي كانت مراكز للحضارة الإسلامية.

وسنحاول هنا أن نذكر نماذج من الفقهاء والأصوليين في المدارس الإسلامية الكبرى تدل على ذلك، مقتصرين على ترجماتهم المختصرة، ولمن شاء أن يبحث عن المزيد عنهم، يمكنه أن يراجع الهوامش التي وضعنا فيها مصادر ترجمتهم، ليتبين له من خلالها الأيادي البيضاء لهذا الشعب الكريم في خدمة الإسلام والمسلمين طوال التاريخ.

1 ـ إيران .. والمدرسة الشافعية:

يمكننا الجزم بأن أكبر المصادر الفقهية والأصولية في المدرسة الشافعية ألفت في إيران، وبأياد إيرانية، وللدلالة على

(4) نقلا عن : في التدريب التربوي، مصطفى محمد الطحان ، ص- 25.

ذلك نذكر نماذج مختصرة جدا عن أسماء بعض هؤلاء الإيرانيين مع أسماء بعض كتبهم في هذا المجال، ولمن شاء التفصيل، يمكنه أن يبحث عن تـأثير تلـك المصـادر في الكتب المؤلفـة في تـاريخ التشريع الإسلامي.

فمنهم **أبو بكر أحمد بن الحسـين الـبيهقي**[1] (384 - 458 هـ)، وهو من كبار فقهاء الشافعية ومحدثيهم، وهـو كمـا ذكـر في ترجمته: (حافظ كبير، وأصـولي نحريـر، ومكـثر من التصـنيف، غلب عليه الحديث واشـتهر بـه ورحـل في طلبـه، وكـان من أكـثر الناس نصرا لمذهب الشافعي)

وقد قال إمام الحرمين في حقه: (ما من شافعي المذهب إلا وللشـافعي عليـه منـة إلا أحمـد الـبيهقي، فـإن لـه على الشـافعي منة)، وسبب ذلك كونه أول من جمع نصوص الإمام الشافعي، في عشر مجلدات، ومن مؤلفاته: (السنن الكبير)، و(السنن الصـغير)، و(كتاب الخلاف)، و(مناقب الشافعي)، وغيرها كثير.

ومنهم **أبـو المحاسـن عبـد الواحـد بن إسـماعيل الرويـاني**[2] (415 -ـ 502 هــ)، وهـو فقيـه شـافعي، درس بنيسابور وميافارقين وبخارى، ويعتبر أحد أئمـة مـذهب الشـافعي، اشتهر بحفظ المذهب حتى يحكى عنه أنه قال: (لو احـترقت كتب الشافعي لأمليتها من حفظي) ؛ وقيل فيه: (شافعي عصـره)، ولي قضاء طبرستان ورويان وقراهـا، ومن مؤلفاتـه: (البحـر) وهـو من أوسع كتب المـذهب الشـافعي؛ و(الفـروق) ؛ (الحليـة) ؛ و(حقيقـة القولين)

ومنهم **القاضـي أبـو الطيب طـاهر بن عبـد اللـه**

[1] () وهو منتسب إلى بيهق وهي قرى مجتمعة بنواحي نيسابور، انظر في ترجمته: طبقات الشافعية 3 /ـ 3، وفيات الأعيان 1 /ـ 75، وشذرات الـذهب 3 / 304، واللباب 1 / 202، والأعلام للزركلي 1 / 131.

[2] () طبقات الشافعية للسبكي 4 / 264، والأعلام للزركلي 4 / 324؛ وسير النبلاء.

الطبري[1] (348 - 450هـ)، وهو فقيه، أصولي جدلي، من أعيان الشافعية، ولد في آمل، وهي مدينة في محافظة مازندران في إيران، ومن مؤلفاته: (شرح مختصر المزني)، في فروع الفقه الشافعي، و(شرح ابن الحداد المصري) وكتاب في (طبقات الشافعية)، و(المجرد)

ومنهم **فخر الدين الرازي** [2] (544 - 606 هـ) الذي سبق ذكره في علماء العقيدة الإسلامية، ومن مؤلفاته في الشريعة الإسلامية: (معالم الأصول) ؛ و(المحصول) في أصول الفقه.

ومنهم **أبو الفتح سليم بن أيوب الرازي الشافعي**[3] (360 - 447 هـ)، وهو فقيه، مقرئ، محدث، قال ابن عساكر: وكان فقيها مشارا إليه صنف الكثير في الفقه وغيره، ودرس، وهو أول من نشر هذا العلم بصور، وانتفع به جماعة، منهم الفقيه نصر حدث عن: محمد بن عبد الملك الجعفي ومحمد بن جعفر التميمي والحافظ أحمد بن محمد بن البصير الرازي وأبي حامد الإسفراييني وتفقه به وغيرهم، ومن مؤلفاته: (البسملة)، و(غسل الرجلين)، وله تفسير كبير شهير وغير ذلك.

ومنهم **أبو المظفر منصور بن محمد المعروف بابن السمعاني**[4] (426 - 489 هـ)، وهو من أهل مرو، وكان فقيها أصوليا مفسرا محدثا متكلما، تفقه على أبيه في مذهب أبي حنيفة النعماني حتى برع، ثم ورد بغداد ومنها إلى الحجاز، ولما عاد إلى خرسان دخل مرو وألقى عصا السفر، رجع عن مذهب أبي حنيفة وقلد الشافعي، وتسبب ذلك في قيام العوام عليه، فخرج إلى طوس ثم قصد نيسابور، ومن مؤلفاته (القواطع في أصول

1() طبقات الشافعية 3 / 176، وتهذيب الأسماء واللغات 2 / 247، والأعلام 3 / 321، ومعجم المؤلفين 5 / 37.

2() طبقات الشافعية الكبرى 5 / 33؛ والفتح المبين في طبقات الأصوليين 2 / 47؛ والأعلام للزركلي 7 / 203.

3() سير أعلام النبلاء 17 / 645، تهذيب الأسماء واللغات 1 / 231، وطبقات السبكي 4 / 388.

4() طبقات الشافعية لابن السبكي 4 / 21؛ والنجوم الزاهرة 5 / 160؛ ومعجم المؤلفين 13 / 20.

الفقه)، و(البرهان) في الخلاف وهو يشتمل على قريب من ألف مسألة خلافية؛ و(تفسير القرآن)

ومنهم **محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري**[1] (242 ـ 319 هـ)، وهو من كبار الفقهاء المجتهدين، لم يكن يقلد أحدا؛ لكن عده الشيرازي في الشافعية، ولقب بشيخ الحرم، وأكثر تصانيفه في بيان اختلاف العلماء، ومن مؤلفاته: (المبسوط) في الفقه؛ و(الأوسط في السنن) ؛ و(الإجماع والاختلاف) ؛ و(الإشراف على مذاهب أهل العلم) و(اختلاف العلماء).

ومنهم **أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأسفراييني**[2] (- 418 هـ)، وهو منسوب إلى (إسفرايين) وهي بلدة بنواحي نيسابور، وهو فقيه وأصولي شافعي، قيل إنه بلغ رتبة الاجتهاد وكان شيخ أهل خراسان في زمانه، أقام بالعراق مدة ثم رحل إلى أسفرايين فبني له بها مدرسة، فلزمها ودرس فيها، وبه تفقه القاضي أبو الطيب الطبري، وعنه أخذ الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور، ومن مؤلفاته: (الجامع في أصول الدين) خمس مجلدات وتعليقته في أصول الفقه.

ومنهم **أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الإسفرائيني**[3] (344 ـ 406 هـ)، وقد كان إمام الشافعية في زمانه، وانتهت إليه رئاسة المذهب، ومن مؤلفاته (شرح المزني) في تعليقة نحو من خمسين مجلدا، وله تعليقة في أصول الفقه.

ومنهم **عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه، الجويني**[4] (- 438 هـ)، وهو منسوب إلى (جوين) بنواحي

1() تذكرة الحفاظ 3 / 4، 5؛ والأعلام للزركلي 6 / 84؛ وطبقات الشافعية 2 / 126.

2() طبقات الفقهاء للشيرازي ص106، وطبقات الشافعية لابن هداية ص45، وشذرات الذهب 3 / 209، واللباب 1 / 43.

3() طبقات الفقهاء للشيرازي ص103؛ وطبقات الشافعية لابن هداية ص 42؛ وشذرات الذهب 3 / 178.

4() طبقات السبكي 3 / 208؛ 209؛ والأعلام للزركلي 4 / 290.

نيسابور، وهو من كبار فقهاء الشافعية، أخذ عن القفـال المـروزي وأبي الطيب الصـعلوكي، قـال عنـه الصـابوني: (لـو كـان من بـني إسرائيل لنقلوا إلينا شمائله، ولافتخروا به)، وهو والـد عبـد الملـك الجويــني الملقب بإمــام الحــرمين، ومن مؤلفاتــه: (الفــروق) ؛ و(السلسلة) ؛ و(التبصرة) ؛ و(التفسير)

ومنهم **أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، إمام الحرمين**[1] (419 -ـ 478 هـ)، وهو كمـا ذكـر في ترجمتـه: (من أعلم أصـحاب الشـافعي، مجتمـع على إمامتـه وغزارته، تفقه على والده، وأتى على جميع مصنفاته وتصرف فيها حـتى زاد عليـه في التحقيـق والتـدقيق. جـاور بمكـة أربـع سـنين وبالمدينة يدرس ويفتي ويجمع طرق المذهب، فلهذا قيل لـه إمـام الحـرمين. وتـولى الخطابـة بمدرسـة النظاميـة بمدينـة نيسـابور، وفـوض إليـه الأوقـاف وبقى على ذلـك ثلاثين سـنه)، لـه مؤلفـات كثيرة منها: (نهاية المطلب في دراية المذهب) في فقه الشافعية، و(الشامل) و(الإرشاد) في أصول الـدين، و(البرهـان) في أصـول الفقه.

ومنهم **أبـــو الحســـن علي بن أحمـــد الواحـــدي النيسابوري**[2] (- 468 هـ)، وهو فقيه شافعي، واحد عصـره في التفسير، وكان إماما عالما بارعا محدثا، ومن مؤلفاته: (البسيط) ؛ و(الوسيط) ؛ و(الوجيز) كلها في التفسير؛ و(أسباب النزول)

ومنهم **أبو الفتح ناصر بن سلمان النيسـابوري**[3] (489 ـ 552 هـ)، وهو من علماء الشافعية. كان محدثا إماما مناظرا بارعــا في الكلام، حــاز قصــب الســبق فيــه على أقرانــه، ومن مؤلفاته: (كتاب في علم الكلام)

1() وفيات الأعيان 3 / 341، وطبقات الشافعية 3 / 249، والأعلام 4 / 306.

2() طبقات الشافعية لابن السبكي 3 / 289؛ والنجوم الزاهرة 5 / 104؛ ومعجم المؤلفين 7 / 26.

3() طبقات الشافعية 4 / 317، والأعلام للزركلي 8 / 311، ومعجم المؤلفين 13 / 70، وهدية العارفين 6 / 488.

ومنهم **محمـــد بن عبـــد اللـــه بن حمدويـــه، الشـــهير بالحاكم، يعرف بابن البيع**[1]: (321 ـ 405)، وهو من حفاظ الحديث والمصنفين فيه. من أهل نيسابور. سمع بنيسـابور وحـدها من نحو ألف شيخ، وبغيرها من نحو ألف، كان يرجع إليه في علـل الحديث وصحيحه وسـقيمه. وحفـظ نحـو 300 ألـف حـديث، ومن مؤلفاتـــه: (المســـتدرك على الصـــحيحين)؛ و(تـــاريخ نيســـابور)؛ و(معرفة علوم الحديث)

ومنهم **أبـو سـعد عبـد الـرحمن بن مـأمون بن علي النيسابوري** [2] (426 ـ 478 هـ)، وهو ـ كما ذكر في ترجمته ـ أحد الأئمة الرفعاء من فقهاء الشافعية، كـان فقيهـا محققـا وحـبرا مـدققا، بـرع في الفقـه والأصـول والخلاف، ومن مؤلفاتـه: (تتمـة (الإبانــة) للفــوراني)، وكتــاب في الفــرائض مختصــر، وكتــاب في أصول الدين مختصر.

ومنهم **أحمـد بن محمـد، أبـو سـهل، الـزوزني** [3] **، ويعرف بابن عفريس**[4] (؟ - 362 هــ)، وهـو فقيـه من فقهـاء الشـــافعية، ومن مؤلفاتـــه: (جمـــع الجوامـــع) اختصـــره من كتب الشافعي، وذكر السبكي في الطبقـات أنـه جمـع في هـذا الكتـاب القـديم والمبسـوط والأمـالي وروايـة المـزني في الجـامع الكبـير والمختصر.

ومنهم **أبـــو نعيم عبـــد الملـــك بن محمـــد بن عـــدي، الجرجاني الاستراباذي**[5] (242 ـ 323 هـ)، وهو فقيه محدث، حافظ، أصولي، قال عنه أبو الوليد حسان بن محمـد: (لم يكن في

1() طبقات الشافعية للسبكي 3 / 64؛ وميزان الاعتدال 3 / 85؛ وتاريخ بغداد 5 / 473.

2() طبقات الشافعية للسبكي 3 / 223، وطبقات الشافعية لابن الهداية ص 62؛ شذرات الذهب 3 / 388؛ ومعجم المؤلفين 5 / 166، والأعلام 4 / 98.

3() نسبته إلى زوزن (وهي بلدة كبيرة حسنة بين هراه ونيسابور)

4() طبقات الشافعية الكبرى 2 / 227، وطبقات الشافعية لابن هداية ص 28، والأعلام 1 / 201، ومعجم المؤلفين 2 / 103.

عصرنا أحفظ للفقهيات، وأقاويل الصحابة بخراسان منه)، وقال أبو علي النيسابوري: (ما رأيت بخراسان بعد ابن خزيمة مثل أبي نعيم كان يحفظ الموقوفات والمراسيل كلها كما نحفظ نحن المسانيد). قال حمزة السهمي: (كان مقدما في الفقه والحديث)

ومنهم **أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن النيسابوري القشيري الشافعي**[1] (376 - 465 هـ)، وهو شيخ خراسان في عصره. فقيه، أصولي، محدث. حافظ، مفسر، متكلم، أديب، ناثر، ناظم، ومن مؤلفاته: (التيسير في التفسير)، ويقال له (التفسير الكبير)، و(الرسالة القشيرية)، و(لطائف الإشارات)

ومنهم أحمد بن الحسين بن سهل، أبو بكر، الفارسي[2] (توفى في حدود 350 هـ)، وهو فقيه شافعي. تفقه على المزني وابن سريج. تولى قضاء بلاد فارس وأقام مدة ببخارى، ثم بنيسابور. ومن مؤلفاته: (عيون المسائل في نصوص الشافعي)، و(الذخيرة في أصول الفقه)، " كتاب الانتقاد على المزني) ومنهم.

هو عبد الله بن أحمد بن عبد الله، أبو بكر، المعروف بالقفال المروزي[3] (327 - 417 هـ)، وهو فقيه شافعي، شيخ الخراسانيين من الشافعية، ومن مؤلفاته (شرح فروع ابن الحداد) في الفقه.

ومنهم **أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد السرخسي المروزي الشافعي**[4] (432 - 494هـ)، قال فيه ابن

5() البداية والنهاية 11 / 183، وتذكرة الحفاظ 3 / 816، وطبقات الشافعية 3 / 335، وشذرات الذهب 2 / 299، الأعلام، 4 / 309، ومعجم المؤلفين 6 / 191.

1() طبقات السبكي 3 / 243، وتاريخ بغداد 11 / 83، والأعلام 4 / 180، ومعجم المؤلفين 6 / 6.

2() طبقات الشافعية الكبرى 1 / 286 - 287، وطبقات الشافعية لابن هداية ص (23)، والأعلام 1 / 111، ومعجم المؤلفين 1 / 192.

3() طبقات الشافعية لابن الهداية ص 45؛ وهدية العارفين 1 / 45؛ ومعجم المؤلفين 6 / 26؛ واللباب 3 / 127.

السمعاني: (أحد أئمة الإسلام، ومن يضرب به المثل في الآفاق بحفظ مذهب الشافعي)، ومن مؤلفاته: (كتاب الأماني) في الفقه.

ومنهم **محمد بن الحسن بن فورك الأصفهاني**[1] (- 406 هـ)، وهو متكلم فقيه، أصولي، ولغوي، ومن مؤلفاته: (مشكل الآثار)، (تفسير القرآن) ؛ و(النظامي) في أصول الدين.

ومنهم **أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي**[2] (؟ - 340 هـ) ، وهو فقيه شافعي، انتهت إليه رئاسة الشافعية بالعراق بعد ابن سريج، ومن مؤلفاته: (شرح مختصر المزني)

ومنهم **أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي**[3] (توفي 340هـ)، وهو أحد الأئمة من فقهاء الشافعية، شرح المذهب ولخصه، وأقام ببغداد دهرا طويلا يدرس ويفتي. وتخرج به أئمة كأبي زيد المروزي، والقاضي أبي أحمد أحمد بن بشر المروروذي مفتي البصرة.

ومنهم **أبو علي الحسين بن شعيب بن محمد السنجي، الشافعي**[4] (توفي 430 هـ)، وهو فقيه مرو في عصره، أخذ الفقه بخراسان عن أبي بكر القفال المروزي وأبو محمد الجويني وغيرهما، ومن مؤلفاته: (شرح التلخيص) لأبي العباس بن القاص، وكتاب (المجموع)، و(شرح مختصر المزني)، و(شرح الفروع)، لابن الحداد. وكلها في فروع الفقه الشافعي، وجمع مسند الشافعي.

4() طبقات الشافعية 3 / 221، وشذرات الذهب 3 / 400، وتهذيب الأسماء واللغات 2 / 263، ومعجم المؤلفين 5 / 121.

1() الطبقات الكبرى لابن السبكي 4 / 21؛ والنجوم الزاهرة 4 / 240؛ ومعجم المؤلفين 9 / 208.

2() الأعلام 1 / 22؛ وشذرات الذهب 2 / 255؛ والوفيات 1 / 4.

3() تاريخ بغداد 6 / 11، سير أعلام النبلاء 15 / 429.

4() وفيات الأعيان 1 / 401 وطبقات الشافعية لابن هداية 48، والأعلام 2 / 258، ومعجم المؤلفين 4 / 11.

ومنهم **أبو زيد محمد بن أحمد الفاشاني الشافعي**[1] (301 ـ 371 هـ)، والفاشان نسبة إلى قرية من قرى مرو، حدث عن محمد بن يوسف الفربري، وعمر بن علك المروزي، ومحمد بن عبد الله السعدي وغيرهم. وروى عنه الهيثم بن أحمد الصباغ، وعبد الوهاب الميداني، وأبو عبد الله الحاكم وغيره. وقال الخطيب: (كان أحد أئمة المسلمين حافظا لمذهب الشافعي)

ومنهم **أبو حامد محمد بن محمد الغزالي**[2] (450 - 505 هـ)، وهو فقيه شافعي أصولي، بالإضافة إلى كونه متكلما، ومتصوفا، من مؤلفاته الفقهية المشهورة في المذهب الشافعي: (البسيط) ؛ و(الوسيط) ؛ و(الوجيز) ؛ و(الخلاصة)، ومن كتبه في أصول الفقه المستصفى من علم الأصول، والمنخول من تعليقات الأصول، وشفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل.

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب الغزالي [المستصفى من علم الأصول] أحد الكتب الأربعة التي على أساسها كتبت كل كتب أصول الفقه على طريقة المتكلمين، وثانيهما [البرهان] لأستاذه إمام الحرمين الجويني النيسابوري(م. 478 هـ)، وقد قام بجمعها وتلخيصها الإمام فخر الدين الرازي (م . 606 هـ) في كتابه (المحصول)

ومنهم **أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي**[3] (393 ـ 467 هـ)، وهو فقيه شافعي، كان مناظرا فصيحا ورعا متواضعا، انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي، بنيت له النظامية ودرس بها إلى حين وفاته، ومن مؤلفاته: (المهذب) في الفقه، و(النكت) في الخلاف، و(التبصرة) في أصول الفقه.

ومنهم **أبو عبد الله نصر بن علي الشيرازي الفارسي**

---

[1] شذرات الذهب 3 / 76، والنجوم الزاهرة 4 / 141، وطبقات الشافعية 2 / 108.

[2] طبقات الشافعية 4 / 101 - 180؛ والأعلام للزركلي 7 / 247؛ والوافي بالوفيات 1 / 277.

[3] طبقات الشافعية الكبرى 3 / 88، وشذرات الذهب 3 / 349، واللباب 2 / 451، ومعجم المؤلفين 1 / 68.

الفسوي المعروف بابن أبي مريم [1] (توفي بعد 565 هـ)، خطيب شيراز وعالمها وأديبها والمرجوع إليه في الأمور الشرعية والمشكلات الأدبية، أخذ عنه محمود بن حمزة الكرماني، ومن مؤلفاته: (تفسير القرآن)؛ و(الموضح في القراءات الثمان)

ومنهم **أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الفوراني، المروزي** [2] (388 - 461 هـ)، وهو فقيه، أصولي، كان مقدم الشافعية بمرو، ومن مؤلفاته: (الإبانة) في مذهب الشافعية، و(تتمة الإبانة) و(العمدة)

ومنهم **أبو بكر أحمد بن محمد بن محمد الشيرازي الشافعي الشهير بابن الجزري** [3] (780 -؟)، وهو مقرئ، مجود، حافظ، مشارك في بعض العلوم. وأجاز له الصلاح ابن أبي عمر والحافظ أبو بكر ابن المحب وابن قاضي شهبه وغيرهم، ومن مؤلفاته: (شرح طيبة النشر)، و(شرح مقدمة التجويد)، و(شرح مقدمة علوم الحديث)

ومنهم **أبو سعيد عبد الله بن عمر ناصر الدين البيضاوي، الشيرازي، الشافعي** [4] (توفي 685هـ)، وهو فقيه، مفسر، أصولي، محدث، ولي قضاء القضاة بشيراز، أخذ الفقه عن والده ومعين الدين أبي سعيد وعن زين الدين حجة الإسلام أبي حامد الغزالي وغيرهم، ومن مؤلفاته: (منهاج الأصول إلى علم الوصول)، و(الغاية القصوى في دراسة الفتوى) في فروع الفقه الشافعي، و(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، وهو المشهور بتفسير البيضاوي، و(شرح مصابيح السنة) للبغوي.

1() معجم الأدباء 19 / 224؛ وبغية الوعاة 2 / 314؛ وهدية العارفين 6 / 491؛ ومعجم المؤلفين 13 / 90.

2() لسان الميزان 3 / 433، وطبقات السبكي 3 / 225، والأعلام 4 / 102.

3() غاية النهاية في طبقات القراء 1 / 129، والضوء اللامع 2 / 193.

4() طبقات الشافعية 5 / 59، والبداية والنهاية 13 / 309، ومرآة الجنان 4 / 220، ومعجم المؤلفين 6 / 97.

ومنهم **أبو القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني**[1] (557 ـ 623 هـ)، وهو من كبار الفقهاء الشافعية، ومن مؤلفاته: الشرح الكبير الذي سماه (العزيز شرح الوجيز للغزالي)، وقد تورع بعضهم عن إطلاق لفظ العزيز مجردا على غير كتاب الله فقال (فتح العزيز في شرح الوجيز) ؛ و(شرح مسند الشافعي)

ومنهم **أبو حاتم محمد بن الحسن القزويني، الطبري الشافعي**[2] (توفي 414 هـ)، وهو فقيه، أصولي، ومن مؤلفاته: (كتاب الحيل) في الفقه، و(تجريد التجريد)

ومنهم **عبد الغفار بن عبد الكريم القزويني**[3] (توفي 665 هـ)، وهو فقيه عالم بالحساب، من فقهاء الشافعية، ومن مؤلفاته: (الحاوي الصغير)، و(العجائب في شرح اللباب)، وكلاهما في فروع الفقه الشافعي، وكتاب في (الحساب)

ومنهم **أبو علي الحسين القاسم الطبري**[4] (350 هـ)، وهو فقيه وأصولي شافعي، كان إماما عالما بارعا في عدة فنون، سكن بغداد ودرس فيها وتوفي بها كهلا، ومن مؤلفاته: (الإفصاح) في فروع الفقه الشافعي، و(المحرر) وهو أول كتاب صنف في الخلاف المجرد.

ومنهم **أحمد بن أبي أحمد، الطبري الشافعي، المعروف بابن القاص**[5] (توفي 335)، وهو فقيه شافعي،

1() الأعلام للزركلي 4 / 179؛ وطبقات الشافعية للسبكي 5 / 119؛ وفوات الوفيات 2 / 3.

2() طبقات الشافعية 4 / 12، وتهذيب الأسماء واللغات 2 / 207، ومعجم المؤلفين 12 / 158.

3() طبقات الشافعية 5 / 118، ومرآة الجنان 4 / 167، والأعلام 4 / 157، ومعجم المؤلفين 5 / 267.

4() طبقات الشافعية لابن السبكي 2 / 217، والنجوم الزاهرة 3 / 328، ومعجم المؤلفين 3 / 270.

5() شذرات الذهب 2 / 339، والأعلام 1 / 86، ومعجم المؤلفين 1 / 149، وتهذيب الأسماء واللغات 2 / 252، ومعجم المطبوعات ص 479.

ومن مؤلفاته: (التخليص في فروع الفقه الشافعي)، و(أدب القاضي)، و(كتاب المواقيت)، و(فتاوى)

ومنهم **محمد بن عبد الملك بن خلف، الطبري السلمي الشافعي**[1] (توفي 470هـ)، وهو فقيه، صوفي، ومن مؤلفاته: (الكناية) في الفقه، و(شرح المفتاح لابن القاص) في فروع الفقه الشافعي، و(المعين على مقتضى الدين)

ومنهم **القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري**[2] (348 - 450هـ)، وهو فقيه، أصولي جدلي، من أعيان الشافعية، ولد في آمل بطبرستان، واستوطن بغداد، سمع الحديث بجرجان، ونيسابور، وبغداد، ومن مؤلفاته: (شرح مختصر المزني)، في فروع الفقه الشافعي، و(شرح ابن الحداد المصري) وكتاب في (طبقات الشافعية)، و(المجرد)

ومنهم **عبد القادر بن محمد الحسيني، الطبري، الشافعي**[3] (976 - 1033هـ)، وهو عالم، أديب، ناظم، ناثر، مشارك في أنواع العلوم، ومن مؤلفاته: (عيون المسائل من أعيان الرسائل)، و(الآيات المقصورة على الأبيات المقصورة)، و(حسن السريرة على حسن السيرة)، وله رسائل علمية منها: (إفحام المجاري في أفهام البخاري)، و(سل السيف على حل كيف) وغيرها.

ومنهم **أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله الحناطي الطبري الشافعي**[4](توفي بعد 400 هـ)، وهو فقيه، محدث، ومن مؤلفاته: (الكفاية في الفروق)، و(الفتاوى)

1() طبقات الشافعية 3 / 76، ومعجم المؤلفين 10 / 256، والأعلام 7 / 127.

2() طبقات الشافعية 3 / 176، وتهذيب الأسماء واللغات 2 / 247، والأعلام 3 / 321، ومعجم المؤلفين 5 / 37.

3() خلاصة الأثر 2 / 457، والبدر الطالع 2 / 371، والأعلام 4 / 168، ومعجم المؤلفين 5 / 303.

4() طبقات الشافعية 3 / 160، وتهذيب الأسماء واللغات 2 / 254، ومعجم المؤلفين 4 / 48.

ومنهم **أبو الحسن علي بن محمد الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بإلكيا الهراسي**[1] (450 - ـ 504 هـ)، وهو فقيه شافعي، مفسر، أصولي، متكلم، وتفقه على (إمام الحرمين) وهو أجل تلامذته بعد الغزالي، وحدث عن (إمام الحرمين) وأبي علي الحسن ابن محمد الصفار وغيرهما. ودرس بالنظامية، ووعظ. ومن مؤلفاته: (أحكام القرآن)، و(لوامع الدلائل في زوايا المسلسل)، و(شفاء المسترشدين في مباح المجتهدين)، و(التعليق في أصول الفقه)

ومنهم **أبو علي الحسن بن محمد الزجاجي، الطبري، المعروف بالزجاجي**[2] (توفي 400 هـ)، وهو محدث وفقيه شافعي، تولى القضاء، أخذ العلم عن ابن القاص، والقاضي أبي الطيب الطبري، وأخذ عنه فقهاء آمل، ومن مؤلفاته: (التهذيب) في فروع الفقه الشافعي، و(زيادة المفتاح)، و(كتاب الدر)

ومنهم **أبو عبد الله الحسين بن علي الطبري**[3] (418 ـ 498 هـ)، وهو فقيه شافعي، نزيل مكة ومحدثها، وفقيهها، وكان يدعى إمام الحرمين، تفقه على ناصر العمري بخراسان، وعلى القاضي أبي الطيب الطبري ببغداد، ثم لازم أبا إسحاق الشيرازي حتى برع في المذهب، والخلاف، وصار من أكابر أصحابه ودرس بنظامية بغداد.

هذه مجرد نماذج عن كبار الفقهاء والأصوليين الإيرانيين من من المدرسة الشافعية، ومن شاء المزيد يمكنه الرجوع لكتب الرجال، وخاصة ما تعلق منها برجال المذهب الشافعي.

2 ـ إيران .. والمدرسة الحنفية:

مثلما كان للإيرانيين اهتمام بدراسة المذهب الشافعي الذي

1 () طبقات الشافعية 4 / 241، وشذرات الذهب 4 / 8، ومعجم المؤلفين 7 / 220، والأعلام 5 / 149.

2 () طبقات الشافعية 3 / 146، وطبقات الفقهاء ص 36، ومعجم المؤلفين 3 / 284.

3 () طبقات ابن الصلاح 2 / 744، الطبقات للسبكي 4 / 349، طبقات ابن هداية الله ص 66، 79.

يعتبر من أكثر المذاهب الإسلامية انتشارا، نراهم يهتمون بالمذهب الحنفي، ولو بدرجة أقل.

فمن كبار الحنفية من الإيرانيين **زفر بن الهذيل بن قيس العنبري**[1] (110 ـ 158 هـ)، وأصله من أصبهان، وهو من كبار فقهاء الحنفية، بل من تلاميذ أبي حنيفة المباشرين، ومن أكثرهم أخذا بالقياس، وقد قال متحدثا عن نفسه: (ما خالفت أبا حنيفة في قول إلا وقد كان أبو حنيفة يقول به)

ومما روي في مناقبه عن إبراهيم بن سليمان، قال: (كان إذا جالسناه ـ أي زفر ـ لم نقدر أن نذكر الدنيا بين يديه، وإذا ذكرها واحد منا قام عن مجلسه وتركه فى موضعه، وكنا نحدث فيما بيننا أن الخوف قتله)

وقال شداد: (سألت أسد بن عمرو أأبو يوسف أفقه أم زفر؟ فقال: (زفر أورع) قلت: عن الفقه سألتك، قال: (يا شداد بالورع يرتفع الرجل)

ومنهم **أبو بكر إبراهيم بن رستم، المروزي**[2] (توفي 211هـ)، وهو فقيه حنفي من أصحاب محمد بن الحسن، أخذ عن محمد وغيره من أصحاب أبي حنيفة، وسمع من مالك والثوري وحماد بن سلمة وغيرهم، وعرض المأمون عليه القضاء فامتنع، ومن مؤلفاته: (النوادر) كتبها عن محمد.

ومنهم **أبو سهل موسى بن نصير، أو ابن نصر الرازي،** [3] (كان حيا قبل 189 هـ)، وهو فقيه من أصحاب محمد بن الحسن الشيباني، تفقه عليه أبو علي الدقاق وأبو سعيد البردعي، روى الحديث عن عبد الرحمن بن مغراء أبي زهير، وهو

1() الجواهر المضية 1 / 243؛ 244؛ والفوائد المضية؛ والأعلام للزركلي 3 / 78.

2() الجواهر المضيئة 1 / 38، والفوائد البهية ص9.

3() الجواهر المضية 2 / 188، وتاج التراجم ص 74، والفوائد ص 216، ومعجم المؤلفين 13 / 49.

آخر من روى الحديث عنه، ومن مؤلفاته: (كتاب الشفعة)، و(كتاب المخارج)

ومنهم **عبـد اللـه بن المبـارك، أبـو عبـد الـرحمن، الحنظلي بالولاء، المروزي**[1] (118 - 181 هـ)، كان فقيهـا كثير الحديث، صاحب أبا حنيفة وسمع السفيانين وسليمان الـتيمي وحميدا الطويل، حدث عنه خلق لا يحصون من أهل الأقـاليم منهم عبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل عد جماعة من أصـحابه خصـالة فقـالوا: (جمـع العلم والفقـه والأدب والنحـو واللغة والشـعر والزهـد والفصـاحة والـورع وقيـام الليـل والعبـادة والسداد في الرواية وقلة الكلام فيمـا لا يعنيـه وقلـة الخلاف على أصحابه)، ومن مؤلفاته: (تفسير القرآن)، و(الدقائق في الرقائق)، و(رقاع الفتاوى)

ومنهم **أبـو يعلى معلى بن منصـور الـرازي**[2] (تـوفي 211 هـ)، وهو من رجال الحديث المصنفين فيه، ومن أصحاب أبي يوسف ومحمـد بن الحسـن صـاحبي أبي حنيفـة، حـدث عن مالـك وسليمان بن بلال ومحمد بن ميمون الزعفـراني والهيثم بن حميـد الغساني وأبي يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهم، وروى عنه ابنـه يحيى وأبو خيثمة وأبو بكر بن أبي شيبة وأبو ثـور وغـيرهم. وطلب للقضاء غير مـرة فـأبى، ومن مؤلفاتـه: (النـوادر)، و(الأمـالي) في الفقه.

ومنهم **علي بن موسى بن يزداد**[3] (توفي 305 هـ)، من أهل قم، ثم قدم نيسابور، إمام الحنفية في عصـره، ولـه كتب في الرد على أصحاب الشافعي، ومن مؤلفاته (كتاب الضحايا)

1() الجواهر المضية 1 / 281؛ والفوائد البهية ص 103؛ وتذكرة الحفاظ 1 / 253؛ وشذرات الذهب 1 / 295؛ وهدية العارفين 5 / 438.

2() تهذيب التهذيب 10 / 238، والجواهر المضيئة 2 / 177، والفوائد البهية ص 215، والأعلام 8 / 189.

3() الجواهر المضية 1 / 380؛ وطبقات الفقهاء للشيرازي ص 119.

ومنهم **أبـــو بكـــر محمـــد بن إبـــراهيم الضـــرير الميداني**[1] ، نسبة إلى ميدان، موضـع بنيسـابور، قـال الـذهبي: من أئمة الحنفية، وقال اللكنوي: هـو شـيخ كبـير عـارف بالمـذهب قلما يوجد مثله في الأعصار، حدث عن أبي محمـد المـزني، وعنـه ميمـون بن علي الميمـوني. ولـه منـاظرات مـع أحمـد بن نصـر العياضي أخي أبي بكر العياضي.

ومنهم **أبـــو الحســـن علي بن موســـى النيســـابوري الحنفي**[2] (توفي 305 هـ)، وهو إمام الحنفية في عصره، تصـدر بنيسابور للإفادة، وتخرج به الكبار وبعد صيته، وطال عمره، وكـان صاحب رحلة ومعرفة، سمع من محمـد بن محمد بن حميـد الـرازي ومحمـد بن معاوية بن مالح، وتفقه بمحمد بن شجاع الثلجي، حدث عنه أبو بكر أحمد بن محمد بن نصر وغيره، ذكره الحاكم فعظمه وفخمـه، وقال: (هذا وأبو سعيد الخرشاني كانا عالمي خراسان في مـذهب أبي حنيفة، تخرج بهما جماعة من الكبـار)، ومن مؤلفاتـه: (أحكـام القرآن)

ومنهم **أبو الفضل محمد بن محمد المروزي، السلمي البخلي**[3] (توفي 334 هـ)، الشـهير بــ (الحـاكم الشـهيد)، وكـان عالم مرو وإمام الحنيفـة في عصـره، ولي قضـاء بخـارى، ثم ولي الــوزارة لبعض الأمــراء الساســانية، ومن مؤلفاتــه: (الكــافي) ؛ و(المنتقى) كلاهما في الفقه الحنفي.

ومنهم **الحسن بن منصـور بن محمـود الأوزجنـدي**[4]

1() الجواهر المضيئة 2 / 6، والفوائد البهية ص155، واللبان 3 / 281.

2() سير أعلام النبلاء 14 / 236، والأعلام 5 / 178، والجواهر المضية 1 / 380، وتاج التراجم ص 31.

3() الجواهر المضية 2 / 112؛ والفوائد البهية ص 195؛ والأعلام للزركلي 7 / 242.

4() (أوزجند) بلدة بنواحي أصبهان قرب فرغانة.

المشـهور بقاضـيخان[1] (- 592 هــ)، وهــو من كبــار فقهــاء الحنفية في المشـرق، وفتـاواه متداولـة دائـرة في كتب الحنفيـة، ومن مؤلفاته: (الفتاوى) و(الأمالي) و(شرح الجامع الصغير)

ومنهم **عبـد اللـه بن أحمـد بن محمـود، أبـو البركـات حافظ الدين النسفي الأصفهاني**[2] (701 هــ)، وهــو فقيـه حنفي كان إماما كاملا مدققا رأسا في الفقه والأصـول، بارعـا في الحديث ومعانيه، عده ابن كمال باشا من طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين القوي والضعيف، وعده غيره من المجتهــدين في المــذهب، ومن مؤلفاتــه (كــنز الــدقائق)، وهــو متن مشــهور في الفقــه؛ و(الــوافي) في الفــروع؛ و(الكــافي) في شــرح الــوافي؛ (والمنار) في أصول الفقه.

ومنهم **أبــو بكــر أحمــد بن علي، الــرازي المعــروف بالجصاص**[3] (305 -ـ 370 هـ)، وهو من فقهاء الحنفيـة، انتهت إليه رئاسة الحنفية في وقتـه. كـان إمامـا، رحـل إليـه الطلبـة من الأفاق. خوطب في أن يلي القضاء فـامتنع، وأعيـد عليـه الخطـاب فلم يقبل، ومن مؤلفاته: (أحكام القرآن) ؛ و(شرح مختصر شـيخه أبي الحسن الكرخي) ؛ و(شرح الجامع الصغير)

ومنهم **أبو العباس أحمد بن محمد بن عمـر النـاطفي الطبري**[4] (توفي 446هـ)، وهو فقيه حنفي من أهل الـري، ومن مؤلفاته: (الواقعات)، و(الأجناس والفروق) و(الهدايـة) و(الأحكـام) كلها في فروع الفقه الحنفي.

1() الجواهر المضية 1 / 205؛ والفوائد البهية ص 64؛ والأعلام للزركلي.

2() الفوائد البهية ص 101؛ والجواهر المضية ص 270؛ والأعلام 4 / 192.

3() الجواهر المضية 1 / 84؛ والأعلام 1 / 156؛ والبداية والنهاية 11 / 256؛ و(الإمام أحمد بن علي الرازي الجصاص) للدكتور عجيل جاسم النشمي.

4() الجواهر المضيئة 1 / 113، والفوائد البهية 36، والأعلام 1 / 207، ومعجم المؤلفين 2 / 140.

3 ـ إيران .. والمدرسة المالكية:

من أعلام المالكية الكبار الذين أنجبتهم إيـران، والـذين كـانوا من أوائل من ألف في الفقــه المــالكي **أبو عبـد اللـه أسـد بن الفـرات الخراسـاني النيسـابوري**[1] (142 ـ 213 هـ)وهـو الأمـير، القاضـي، الفقيـه، فـاتح صـقلّية، سـمع من مالـك بن أنس الموطأ وغيره.

وقد ذكر في ترجمتـه أنـه (تفقـه بعلي بن زيـاد التّونسـي، ثم ارتحـل إلى المشـرق فسـمع مالكـا، وكـانت لـه رغبـة كبـيرة في الغـوص في المسـائل وتفريعاتهـا ولم يكن مالـك يـرغب في مثـل ذلك، فانتقل أسد إلى العراق، فلقي أبـا يوسـف، ولازم محمـد بن الحسن وتفقه به وأخـذ بمذهبـه، ثم عـاد إلى مـذهب مالـك ولـزم أصحابه المصريين، وجمع مسائله لمحمـد بن الحسـن ومـا سـمعه من علم أبي حنيفة بالعراق، وسأل ابن القاسم أن يجيبه فيها على مذهب مالك فأجابه إلى ما طلب، وسـميت تلـك الكتب بالأسـدية، كتبها عنه أهل مصر وأهل القيروان، واشـتهر بهـا، وقـد منعهـا من سـحنون، لكن سـحنون حصـل عليهـا، وحملهـا إلى ابن القاسـم بمصر، فعرضها عليه، وكاشفه عنها مكاشفة فقيه، فغـير فيهـا ابن القاسم أشياء كثيرة لأنه كان أملاها على أسد من حفظـه، وهـذّبها مع سحنون، وكتب إلى أسد بأن يعـارض كتبـه بكتب سـحنون لمـا أجرى فيها من تعديل، فلم يرض أسد بذلك، وقد اقتصر الناس بعد ذلك على تهذيب سحنون، وتركوا الأسدية حسب سماع أسد، وهذا ما حمل أسدا على الميل أخيرا إلى كتب أبي حنيفة، وسمعها منـه أكثر من كان يميل إلى مذهب الكوفيين بالقيروان)

قــال الشّــيرازي: (واقتصــر النــاس على التفقــه في كتب سـحنون، ونظـر سـحنون فيهـا نظـرا آخـر، فهـذبها وبوبهـا ودونهـا وألحق فيها من خلاف كبار أصـحاب مالـك مـا اختـار ذكـره، وذيـل أبوابهـا بالحـديث والآثـار، إلا كتبـا منهـا مفرقـة بقيت على أصـل اختلاطهــا في الســماع، فهــذه هي كتب ســحنون: المدونــة والمختلطة؛ وهي أصل المذهب، المرجح روايتهـا على غيرهـا عنـد

[1] ترتيب المدارك: 3/ 291 - 309.

المغاربة، وإياها اختصر مختصروهم، وشرح شارحوهم، وبها مناظرتهم ومذاكرتهم، ونسيت الأسدية فلا ذكر لها الآن)

ومنهم **أبو زكريا يحيى بن يحيى الحنظلي، النيسابوري**[1] (142 -ـ 226 هـ)، وهو من تلاميذ الإمام مالك المباشرين، حيث قرأ عليه الموطأ ولازمه مدة للاقتداء به، وهو معدود في الفقهاء من أصحاب مالك، كان من سادات أهل زمانه علما ودينا ونسكا وإتقانا، روى عن مالك وسليمان بن بلال والحمادين وأبي الأحوص وأبي قدامة وغيرهم. وعنه البخاري ومسلم وروى الترمذي عن مسلم عنه وغيرهم.

ومنهم **القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن الجهم، يعرف بابن الوراق المروزي**[2] (توفي 329هـ)، وقد ذكر في ترجمته أنه (الإمام الثقة، الفاضل، العالم بأصول الفقه القاضي العادل، سمع القاضي إسماعيل وتفقه به، ألف كتبا جليلة في مذهب مالك منها كتاب في بيان السنة، وكتاب مسائل الخلاف، والحجة في مذهب مالك)

ومنهم **أبو الحسن علي بن أحمد البغدادي، الأبهري الشيرازي، المعروف بابن القصار**[3] (توفي 398 هـ)، وهو فقيه، مالكي أصولي، حافظ، ولي قضاء بغداد. تفقه بأبي بكر الأبهري وغيره، وبه تفقه أبو ذر الهروي والقاضي عبد الوهاب ومحمد بن عمروس وغيرهم. قال أبو ذر: هو أفقه من رأيت من المالكيين، وقال الشيرازي: لا أعرف للمالكيين كتابا في الخلاف أكبر من كتابه، ولعله يعني كتابه المسمى: (عيون الأدلة وإيضاح الملة في الخلافيات)

1() تهذيب التهذيب 11 / 296، وشجرة النور الزكية ص 58، والديباج المذهب ص 349، والأعلام 9 / 223.

2() شجرة النور الزكية 1 / 78 – 79.

3() شجرة النور الزكية ص 92، والديباج 199، ومعجم المؤلفين 7 / 12.

ومنهم **إبــراهيم بن محمــود بن حمــزة أبــو إســحاق النيسابوري المعـروف بالقطّـان** [1] (تـوفي 299 هــ) وهـو فقيه مالكي، تفقه بعبد الله بن عبد الحكم، وسمع يـونس بن عبـد الأعلى، وأحمد بن منيع، وغيرهما، قال القاضي عياض: (وكـان من فقهــاء المالكيــة، وأئمــة الخراســانيين فيهم، ودرس المــذهب بنيسابور، وهو آخر من درس بها مذهب مالك رحمه الله ذكر ذلـك أبو نصر بن ماكولا الحافظ)

ومنهم **حامد بن أحمد المروزي ثم النيسابوري** [2](142 ـ 226 هـ)، وهـو فقيـه، حافـظ، عـالم خراسـان، صـحب مالـك، وحمل عنه الموطأ ، وروى عن اللّيث بن سعد، وسـليمان بن بلال، وغيرهمـا، وروى عنـه البخـاري، ومسـلم، وإسـحاق بن راهوايـه، وغيرهم.

قال إسـحاق بن راهويـه: (لم أكتب العلم عن أحـد أوثـق في نفسي منه، ومن الفضل بن موسى السّيناني)، وقال أبـو عمـر بن عبد البر: (كانت له حال بنيسابور، وله حظ من الفقـه، وكـان ثقـة مأمونا مرضيا، روى عنـه جماعـة من أهـل بلـده وغـيرهم)، وكـان أحمد بن حنبل يثني عليه، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يذكر يحيى بن يحيى النيسابوري فأثنى عليه خـيرا، وقـال: مـا أخرجت خراسان بعد ابن المبارك مثـل يحـيى بن يحـيى، كـان من ورعه يشك في الحديث كثيرا، حتى سموه الشكاك.

وقال أبو بكر بن إسحاق: (لم يكن بخراسان أعقل من يحـيى بن يحيى، وكان أخذ تلك الشمائل من مالـك بن أنس رحمـه اللـه، أقام عليه لأخذها سنة بعد أن فرغ من سماعه، فقيل لـه في ذلـك فقـال: إنمـا أقمت مسـتفيدا لشـمائله، فإنهـا شـمائل الصـحابة والتابعين)

4 ـ إيران .. ومدرسة الحنابلة:

[1] ترتيب المدارك: 4/ـ 429، ومختصر المدارك لابن رشيق: 91. تاريخ ابن الفرضـي: 1/ 25، وجذوة المقتبس: 141، وبغية الملتمس: 224.

[2] جمهرة تراجم الفقهاء المالكية (3/ 1369)

من المـذاهب الفقهيـة الـتي اهتم بهـا الإيرانيـون منـذ بدايـة تأسيسها المذهب الحنبلي، حتى أن بعضهم ينسـب إمـام المـذهب نفسه إلى مدينة مرو الإيرانية، كمـا قـال الـزركلي في الأعلام في ترجمته: (الإمام ابن حَنْبَل (164 - 241 هـ) أحمـد محمـد بن بن حنبل، أبو عبد الله، الشيبانيّ الوائلي، إمام المذهب الحنبليّ، وأحد الأئمة الأربعة. أصله من مرو، وكان أبوه والي سرخس)[1]

ومن أعلام الحنابلـة الـذين أنجبتهم المـدن الإيرانيـة **أبـو يعقوب إسحاق بن إبـراهيم النيسـابوري**[2] (218 - 275 هـ)، وهو من تلاميذ الإمام أحمد المباشرين، قال أبـو يعلى: (خـدم إمامنا أحمد بن حنبل، وهو ابن تسع سنين)

ومنهم **أبـو يعقـوب إسـحاق بن منصـور الكوسـج المروزي**[3] (تـوفي 251 هـ)، وهـو كـذلك من أصـحاب الإمـام أحمـد المباشـرين، ومن رجـال الحـديث، سـمع سـفيان بن عيينـة ويحيى بن سعد القطان، وعبد الرحمن بن مهـدي وغـيرهم، وروى عنه إبـراهيم بن إسـحاق الحـربي وعبـد اللـه بن أحمـد بن حنبـل، والبخاري ومسلم في الصحيحين، وأبو زرعة، وأبو عيسى الترمذي وغـيرهم. قـال مسـلم بن الحجـاج وأبـو عبـد الـرحمن النسـائي: إسحاق بن منصور ثقة مأمون. وقال أبو يعلى: كان إسحاق عالمـا فقيها وقد دون عن الإمام أحمد المسائل في الفقه، ومن مؤلفاته: (المسائل) في الفقه.

ومنهم **أبو إسـحاق إبـراهيم بن هـاني النيسـابوري**[4]

1() الأعلام للزركلي (1/ 203).

2() طبقات الحنابلة 1 / 108 – 109.

3() طبقات الحنابلة لأبي يعلى 1 / 113، وشذرات الذهب 2 / 123، والأعلام 1 / 289، ومعجم المؤلفين 2 / 239.

4() طبقات الحنابلة لأبي يعلى 1 / 27، وشذرات الذهب 2 / 149، والنجم الزاهرة 3 / 41.

(توفي 265 هـ)، وهو من كبار أصحاب الإمام أحمد، كان أحد أئمة الحديث، وحدث عن أبي عبيد اللـه العيشـي، ويعلى ومحمـد ابـني عبيد وغيرهم، نقل عن الإمام أحمد بن حنبل مسائل كثـيرة. وكـان أحمد يقـول: (إن كـان في البلـد رجـل من الأبـدال، فـأبو إسـحاق النيسابوري)، ويروى أن الإمام أحمد اختفى في داره أيام المحنة.

ومنهم **أبو بكر عبد اللـه بن سـليمان بن الأشـعث بن إسحاق، بن أبي داود، السجسـتاني**[1] (230 -ـ 316 هــ)، وهو ـ كما يذكر في ترجمته ـ (الإمام العلامة الحافظ شـيخ بغـداد، صاحب التصانيف. رحل به والده من سجستان، فطوف بـه شـرقا وغربا وأسمعه من علماء ذلك الـوقت، سـمع بخراسـان، والجبـال وأصبهان وفارس، والبصرة، وبغـداد، والكوفـة، والمدينـة والشـام، ومكـة، ومصـر، والجزيـرة. واسـتوطن بغـداد وكـان فهمـا عالمـا حافظا. وحدث عن علي خشـرم المـروزي وأبي داود سـليمان بن معبد السنجي وسلمة بن شبيب ومحمد بن يحـيى الـذهلي وأحمـد بن الأزهـر النيسـابوري وغـيرهم. روى عنـه أبـو بكـر بن مجاهـد المقرئ وأبو بكر الشافعي والدارقطني وغيرهم)

ومن مؤلفاتـــه: (المســـند)، و(الســـنن)، و(التفســـير)، و(القراءات)، و(الناسخ والمنسوخ)

5 ـ إيران.. والمدارس السنية الأخرى:

بالإضافة إلى تلك المدارس السنية الكـبرى ظهـر الكثـير من الفقهاء في إيران، ومن المدرسة السنية نفسـها، لكنهم لم يتسـن لهم أن يكـون لهم تلاميـذ ينشـرون مـذاهبهم، أو كـان لهم تلاميـذ، وكانت لهم مذاهب، ولكنها اندثرت، ولم يعد لها وجود.

وذلـك لا يعـني إلغـاءهم تمامـا، فلا تـزال أقـوالهم الفقهيـة، تـدرس في الفقـه المقـارن، وهنـاك من يأخـذ بهـا في الـترجيح والاختيار.

ومن هؤلاء مؤسسـي المـذهب الظـاهري، الـذي كـان إيرانيـا

1 () طبقات الحنابلة 2 / 51، وميزان الاعتدال 2 / 433، وسير أعلام النبلاء 13 / 221، والنجوم الزاهرة 3 / 222.

بامتياز، فأكثر أئمته إيرانيـون[1]، وأولهم **أبـو سـليمان داود بن علي بن خلف الأصـبهاني**[2] (201 - ـ 270 هــ)، وهـو الـذي تنسب إليه المدرسة الظاهرية، والتي سميت بذلك لأخذها بظـاهر الكتاب والسنة وإعراضها عن الرأي والقياس، وكـان داود أول من جهر بهذا القول.

قـال النـووي عنـه: (فضـائل داود، وزهـده، وورعـه، ومتابعتـه للسنة مشهورة)

وقال الصّفَدي: (كان زاهداً متقلِّلاً كثير الورع...وكان من أكثر النـــاس تعصُّـــباً للشـــافعي، وصـــنَّف في فضـــائله والثنـــاء عليـــه كتـابين،وكـان صـاحب مـذهب مسـتقل وتبعـه جمـع كثـير من الظاهرية،وانتهت إليه رئاسـة العلم ببغـداد. قيـل إنـه كـان يحضـر مجلسه أربعمائة صاحب طيلسان أخضر، وكان من عقلاء الناس)

وقال شمس الدين محمد بن علي الدّاوودي: (الإمام الحافظ المجتهد الكبير... كان إماماً فاضلاً صادقاً ورعاً)

وقال الذهبي: (الإمـامُ، البحـرُ، العلامـة، عـالمُ الـوقت رئيس أهل الظاهر بصـيرٌ بالفقـه، عـالمٌ بـالقرآن،حافـظٌ للأثـر، رأسٌ في معرفة الخلاف، من أوعيةِ العلمِ، له ذكاءٌ خارقٌ، وفيه دِينٌ متينٌ)

وقال السـيوطي: (صـنّف التصـانيف، وكـان بصـيراً بالحـديث صـحيحه وسـقيمه، إمامـاً ورعـاً ناسـكاً زاهـداً. كـان في مجلسـه أربعمائة صاحب طَيْلَسان أخضر)

وقال السبكي: (وكان أحد أئمـة المسـلمين وهـداتهم... وقـد كان موصوفاً بالدين المتين)

---

[1] () حتى ابن حزم ذكر في ترجمته أنه فارسي الأصل.

[2] () الأعلام 3 / 8، والأنساب للسمعاني ص 377، والجواهر المضية 2 / 419.

ومنهم **أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني، الظاهري**[3]، (255 - 297هـ)، كان فقيها على مذهب أبيه مناظرا، وعالما أديبا، وشاعرا فصيحا إخباريا، تصدر للفتيا بعد والده وخلفه في حلقته، قال الذهبي: (له بصر تام بالحديث، وبأقوال الصحابة، وكان يجتهد ولا يقلد أحدا)، ومن مؤلفاته: الزهرة في الآداب والشعر، والتقصي في الفقه، والوصول في معرفة الأصول، والفرائض والمناسك.

ومنهم **أبو عاصم أحمد بن عمرو النبيل قاضي أصبهان** [2] (206 - 287)، كان إماما حافظا فقيها ظاهريا صالحا ورعا، له رحلة واسعة في طلب الحديث. وكان مذهبه القول بالظاهر وترك القياس. وقيل ذهبت كتبه في فتنة الزنج فأعاد من حفظه خمسين ألف حديث، ومن مؤلفاته: (المسند الكبير)، و(الآحاد والمثاني)، وكتاب (السنة) و(الديات)

ومن الفقهاء الذين أنجبتهم إيران، وكانت لهم مدارسهم الخاصة **الليث بن سعد**[3] (94 ـ 175 هـ)، فأصله فارسي من أصفهان، ومما قيل في ترجمته: (كان أحد أشهر الفقهاء في زمانه، فاق في علمه وفقهه إمام المدينة المنورة مالك بن أنس، غير أن تلامذته لم يقوموا بتدوين علمه وفقهه ونشره في الآفاق، مثلما فعل تلامذة الإمام مالك، وكان الإمام الشافعي يقول: (الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به).. بلغ مبلغا عاليا من العلم والفقه الشرعي بحيث إن متولي مصر، وقاضيها، وناظرها كانوا يرجعون إلى رأيه، ومشورته، عرف بأنه كان كثير الاتصال بمجالس العلم)

وقال يحيى بن بكير: (ما رأيت أحدا أكمل من الليث)، وقال:

3() الفهرست ص460، تاريخ بغداد 5 / 256، سير أعلام النبلاء 13 / 109.

2() تذكرة الحفاظ 2 / 193؛ وشذرات الذهب 2 / 195؛ والبداية والنهاية 11 / 184؛ والأعلام للزركلي 1 / 182

3() الأعلام 6 / 115؛ ووفيات الأعيان 1 / 438؛ وتذكرة الحفاظ 1 / 207.

(كان الليث فقيه البدن، عـربي اللسـان، يحسـن القـرآن والنحـو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة)

ومنهم **محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري**[1] (242 -ـ 319 هـ)، وهو من كبـار الفقهـاء المجتهـدين، لم يكن يقلـد أحـدا؛ لكن عـده الشـيرازي في الشـافعية، ولقب بشـيخ الحـرم، وأكثر تصانيفه في بيان اختلاف العلماء، ومن مؤلفاته: (المبسوط) في الفقـــه؛ و(الأوســـط في الســـنن) ؛ و(الإجمـــاع والاختلاف) ؛ و(الإشراف على مذاهب أهل العلم) و(اختلاف العلماء)

قال فيه النووي: (ابن المنذر النيسابوري الإمام المشهور أحد أئمة الإسلام، المجمع على إمامته وجلالته ووفور علمه، وجمعه بين التمكن في علمي الحديث والفقه، وله المصنفات المهمة النافعة في الإجماع والخلاف وبيان مذاهب العلماء، وله من التحقيق في كتبه ما لا يقاربه فيه أحد، وهو في نهاية من التمكن من معرفة الحديث، وله اختيار فلا يتقيّد في الاختيار بمذهب بعينه، بل يدور مع ظهور الدليل)[2]

وقال السبكي: (ابن المنذر النيسابوري أحد أعلام هذه الأمة وأحبارها، كان إمامًا مجتهدًا، حافظًا ورعًا)[3]

ومنهم **أبو محمـد يحـيى بن أكثم بن محمـد بن قطن المروزي**[4] (159 ـ 242 هـ)، وهو القاضي المشهور، ومما قيل في ترجمتـه: (فقيـه صـدوق، عـالي الشـهرة، كثـير الأدب، حسـن المعارضة)

1() تذكرة الحفاظ 3 / 4، 5؛ والأعلام للزركلي 6 / 84؛ وطبقات الشافعية 2 / 126.

2() النووي كتاب تهذيب الأسماء واللغات 2\197.

3() طبقات الشافعية 2/126.

4() وفيات الأعيان 5 / 197، وتهذيب التهذيب 11 / 179، وتاريخ بغداد 14 / 191، والأعلام 5 / 167.

قـال ابن خلكـان: كـانت كتب يحـيى في الفقـه أجـل كتب، فتركها الناس لطولهـا.. ولـه كتب في الأصـول وكتـاب أورده على العراقيين سماه [التنبيه]، وبينه وبين داود بن علي مناظرات.

ومنهم **أبو جعفر محمـد بن جريـر الطـبري**[1] (224 - 310 هــ)، وكـان لـه مـذهب فقهي خـاص، ولـه اختيـار من أقـوال الفقهاء، وقد تفـرد بمسـائل حفظت عنـه، ومن مؤلفاتـه: (اختلاف الفقهاء)، و(كتاب البسيط في الفقـه)، و(جـامع البيـان في تفسـير القرآن)، و(التبصير في الأصول)

ومنهم **إسحاق بن راهويه**[2] (161 -ـ 238 هـ)، وهـو من نيسابور، طاف البلاد لجمع الحديث، وأخـذ عنـه أحمـد والشـيخان، قال فيه الخطيب البغدادي: (اجتمـع لـه الفقـه والحـديث والحفـظ والصدق والورع والزهد)

ومنهم **أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي**[3] (202 - 294 هــ)، وهـو إمـام في الفقـه والحـديث. كـان من أعلم النـاس باختلاف الصحابة فمن بعدهم في الأحكام، نشـأ بنيسـابور، ورحـل رحلة طويلة استوطن بعدها سمرقند وتـوفي بهـا. روى عن يحـيى بن يحيى النيسابوري وإسـحاق بن راهويـه، وإبـراهيم بن المنـذري وغــيرهم. وعنــه ابنــه إســماعيل، ومحمــد بن إســحاق الرشــادي وغيرهمـا. ومن مؤلفاتـه: (القسـامة) في الفقـه، و(المسـند) في الحديث، و(ما خالف به أبو حنيفة عليا وابن مسعود)، و(السنة)

ومنهم **أبــو أحمــد محمــد بن عبــد الوهــاب الفــراء**

1() تذكرة الحفاظ 2 / 251؛ والبداية والنهاية 11 / 145؛ وميزان الاعتدال 3 / 498؛ والأعلام للزركلي 6 / 294.

2() الأعلام للزركلي؛ وتهذيب التهذيب 1 / 216؛ والانتقاء ص 108.

3() تهذيب التهذيب 9 / 489، وتاريخ بغداد 3 / 315، والأعلام 7 / 346.

النيسابوري[1] (بعد 180 ـ 272 هـ)، ذكر في ترجمته أنه كان وجه مشايخ نيسابور عقلا وعلما وجلالة وحشمة، سمع حفص بن عبد الرحمن الفقيه جعفر بن عون وعبيد الله بن موسى ويعلى بن عبيد وغيرهم، وحدث عنه بشرين الحكم وأحمد بن الأزهر والنسائي في سننه وابن خزيمة وغيرهم، قال الحاكم: كان يفتي في الفقه والحديث والعربية ويرجع إليه فيها. قال علي بن الحسن الدرابجردي: أبو أحمد عندي ثقة مأمون. ووثقه مسلم، وذكره ابن حبان في الثقات.

6 ـ إيران.. والمدرسة الشيعية:

مما يدل على مدى تغلغل التشيع في إيران، وأنه ليس وليد الفترة الصفوية فقط ـ كما يزعم المرجفون ــ هو أن الكثير من الفقهاء والمحدثين والمفسرين من الشيعة ظهروا في إيران، وفي العصور الأولى من الإسلام، وقبل أن يظهر الصفويون بمدة طويلة، بل ظهروا في ظل دول كانت تقمع الشيعة، وتحاصرهم.

ولا يمكننا في هذا المحل الإحاطة بهم، فقد ألفت فيهم المؤلفات الكثيرة، ولذلك نكتفي بذكر بعضهم هنا، ثم نعقب عليهم بذكر بعض المعاصرين الذين ازدهر في عهدهم التأليف في العلوم المرتبطة بالشريعة، كما لم يزدهر في جميع العصور السابقة.

فمنهم **أبو القاسم سعد بن عبد الله القمي** (المتوفى 299 هـ)، ومما ذكر في ترجمته: (شيخ هذه الطائفة وفقيهها ووجهها، كان قد سمع من حديث العامى ـ أي أهل السنة ــ شيئا كثيرا، وسافر لطلب الحديث، لقى من وجوههم، وصنف كتبا كثيرة)[2]

ومن مؤلفاته: كتاب الرحمة وهو يشتمل على كتب، منها: كتاب الطهارة، وكتاب الصلاة، وكتاب الزكاة، وكتاب الصوم،

1() تهذيب التهذيب 9 / 388، 319، وشذرات الذهب 2 / 163، وسير أعلام النبلاء12 / 606، وطبقات الحفاظ ص 262.

2() الرجال للنجاشي: برقم 465.

وكتاب جوامع الحج(1).

ونقل النجاشي، عن الحسين بن عبيد الله (ابن الغضائري) قال: جئت بالمنتخبات إلى أبي القاسم بن قولويه أقرأها عليه، فقلت: حدثك سعد، فقال: لا، بل حدثني أبي وأخي عنه، وأنا لم أسمع من سعد إلا حديثين(2).

ومنهم **أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي** (3) (المتوفى 369 هـ)، وهو ـ كما ذكر في ترجمته ـ من مشايخ الإمامية وأعيانها، قال النجاشي: أبو القاسم من خيار أصحاب سعد، وكان من ثقات أصحابنا وأجلائهم في الحديث والفقه، روى عن: أبيه وأخيه عن سعد، وعليه قرأ شيخنا أبو عبد الله المفيد الفقه، ومنه حمل، وكل ما يوصف به الناس من جميل وفقه فهو فوقه، ثم ذكر أسماء كتبه، وقال: قرأت أكثر هذه الكتب على شيخنا أبي عبد الله المفيد رحمه الله وعلى الحسين ابن عبيد الله رحمه الله(4).

وقال الشيخ الطوسي: جعفر بن محمد بن قولويه القمي يكنى (أبا القاسم) ثقة، له تصانيف كثيرة على عدد أبواب الفقه(5).

ومنهم **محمد بن علي بن الحسين الصدوق** (306-381 هـ)، وهو رئيس المحدثين الشيعة على الإطلاق، وهو كذلك فقيه الإمامية ووجههم، وقد قيل في ترجمته: (صدوق الطائفة،

1() الفهرست للطوسي: برقم 318.

2() الرجال للنجاشي: برقم 465.

3() موسوعة طبقات الفقهاء، 1/ 243.

4() الرجال للنجاشي: برقم 316.

5() الفهرست للطوسي: برقم 141.

المولود بدعوة صاحب الأمر، المخصوص بحق رعايته وألطافه، الشيخ الفقيه المحدث أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، ولد في محتد طيب وبلدة عريقة في مدينة قم، وتربى في بيت رفيع عرف بالصلاح والعلم وزعامة الدين، وقد تتلمذ على أبيه وتخرج على يديه، ثم هاجر من قم واختلف إلى حواضر العلم لتبادل السماع والاسماع مع المحدثين وأئمة العلم) [1]

قال النجاشي عنه: (أبو جعفر، نزيل الري، شيخنا وفقيهنا، ووجه الطائفة بخراسان، وكان ورد بغداد سنة 355 هـ، وسمع منه شيوخ الطائفة وهو حدث السن، ثم ذكر أسماء كتبه وذكر أنه ينقل كتب الصدوق عن طريق والده وهو علي بن أحمد ابن العباس النجاشي، وهو الواسطة الوحيدة بينه وبين الصدوق، فإن الوالد قد تتلمذ على الصدوق وسمع كتبه)(2)

وقال الطوسي عنه: (جليل القدر، حفظة، بصير بالفقه والأخبار والرجال، له مصنفات كثيرة)(3)

و قال في فهرسته: (محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، يكنى أبا جعفر، كان جليلا، حافظا للأحاديث، بصيرا بالرجال، ناقدا للأخبار، لم ير في القميين مثله في حفظه وكثرة علمه، له نحو من ثلاثمائة مصنف وفهرست كتبه معروف) (4)

وقال الخطيب البغدادي: (كان من شيوخ الشيعة ومشهوري

1() موسوعة طبقات الفقهاء، 1/ 244.

2() الرجال للنجاشي: 311، برقم 1050.

3() الطوسي: الرجال: 495.

4() الفهرست للطوسي: 184، برقم 709.

الرافضة، حدثنا عنه محمد بن طلحة النعالي)(1)

و قال الذهبي: (رئيس الإمامية، أبو جعفر محمد بن العلامة علي بن الحسين ابن موسى بن بابويه القمي، صاحب التصانيف السائرة بين الرافضة، يضرب في حفظه المثل، يقال له (300) مصنف)(2)

وقال ابن إدريس: (كان ثقة، جليل القدر، بصيرا بالأخبار، ناقدا للآثار، عالما بالرجال، حفظة، وهو أستاذ شيخنا المفيد محمد بن محمد بن النعمان)(3)

ومنهم **محمد بن الحسن الطوسي** (385- 460 هـ)، وهو من الفقهاء الذين جمعوا بين الحديث والفقه، ومما قيل في ترجمته: (يمتاز الشيخ محمد بن الحسن الطوسي عن أكثر معاصريه بأنه كان ذا مواهب كثيرة، ففي حين أنه محدث كبير، وألف للشيعة الإمامية الجامعين الكبيرين (التهذيب) و(الاستبصار) فهو فقيه متضلع في الفقه.. وقد تتلمذ على علمين كبيرين للشيعة هما: المفيد والمرتضى، فصار علما للفقه، ومرجعا للشيعة على الإطلاق بعد رحيل أستاذه الشريف المرتضى، وصارت كتبه مرجعا ومصدرا لرواد العلم، حتى أضحى كتابه (النهاية) في مجرد الفقه كتابا دراسيا عدة قرون) (4)

قال النجاشي في حقه: (محمد بن الحسن بن علي الطوسي، أبو جعفر، جليل من أصحابنا، ثقة، عين، من تلامذة شيخنا أبي عبد الله)

1() الخطيب: تاريخ بغداد: 3/ 89.

2() الذهبي: سير أعلام النبلاء: 16/ 303.

3() ابن إدريس: السرائر: 2/ 529.

4() موسوعة طبقات الفقهاء، 1/ 270.

و قال العلامة: (شيخ الإمامية، ورئيس الطائفة، جليل القــدر، عظيم المنزلة، ثقة، عين، صدوق، عارف بالأخبار والرجال والفقــه والأصول والكلام والأدب، وجميع الفضائل تنسـب إليـه، صـنف في كل فنـون الإسـلام، وهـو المهـذب للعقائـد في الأصـول والفـروع، والجامع لكمالات النفس في العلم والعمل)(1)

وقال المحقق البروجردي: (وأنت إذا نظـرت إلى كلماتـه في الكتابين (الطهارة والصلاة) وما جادل به المخـالفين في المسـائل الخلافية، كمسألة مسح الرجلين، وما أفـاده في مقـام الجمـع بين الأخبار واختياراته في المسائل، وما يسـتند فيـه إليهـا، ومـا يـورده من الأخبار في كل مسألة، تخيلته من أبنـاء السـبعين وأنـه صـرف عمره الطويل في تحصـيل العلـوم الأدبيـة والأصـولين والقـراءات والتفســير ومســائل الخلاف والوفــاق، وطــاف البلاد في طلب أحاديث الفريقين وما يتعلق بها من الجرح والتعديل، حتى صار لــه قدم راسخ في جميع العلوم الدينية، ولـو قيـل لـك إنـه كـان شـابا حدثا من أبناء أربع أو ثمان وعشـرين لأنكـرت ذلـك وقلت ان هـذا لشي عجاب)(2)

و قد خـدم الشـيخ الطوسـي علم الفقـه بأسـاليب شـتى(3)، فتارة ألف في الفقـه على مسـلك الأخبـاريين وأصـحاب الحـديث، فجــرد النصــوص عن الأســانيد وأســماه ب [النهايــة] في مجــرد الفتاوى، وكان الكتاب كتابا دراسـيا إلى زمن المحقـق الحلي قبـل تـأليف الشـرائع، كمـا ألــف في الفقــه على مسـلك المجتهـدين وأسـماه ب [المبسـوط] وآثـر فيـه طريـق المجتهـدين، وقـال في مقدمته: إنه كتاب لم يصنف مثله، ولا نظير له بين كتب الأصحاب، ولا في كتب المخالفين، إلى أن قال: إن أصحابنا ألفوا الأخبار ومـا رووه من صريح الألفاظ، حتى أن مسألة لو غير لفظهـا وعـبر عن

1() الخلاصة: 148.

2() الخلاف: مقدّمة السيد المحقّق البروجردي، ص 2، الطبعة الأولى.

3() موسوعة طبقات الفقهاء، 1/ 270.

معناها بغير اللفظ المعتاد لهم، تعجبوا منهـا، وقصـر فهمهم عنهـا. (1)

كما انه خدم الفقه بتأليف كتاب على نمـط ثـالث، وهـو العلم بالخلافيات، فكتابه [الخلاف] يعد فقها مقارنـا يوقـف القـارئ على آراء فقهاء مختلف النحـل، وهـو ليس ممن يجمـع الآراء المختلفـة في المسـائل الفقهيـة دون إجـراء موازنـة بينهـا، بـل يـذكر الآراء ويقومها ويوازنها بترجيح ما اختاره على غيره من الآراء.

وقـد ذكـر الشـيخ جعفـر السـبحاني خصـائص فقـه الشـيخ الطوسي ودوره في الفقه الشيعي، فذكر منها[2]:

1. اتبـع الشـيخ الطوسـي في فتـاواه وتآليفـه الفقهيـة نهج أستاذيه المفيد والمرتضـى، وقـد أتيحت لـه فرصـة الوقـوف على الكتب الفقهية أكثر مما وقف عليه أستاذاه، فأحاط بآراء المذاهب الأخرى إحاطة تامة لا نجد مثيلها في كتب المفيد والمرتضى.

2. بلغ التفريع والتخريج على يده القمـة، فمـا تـرك فرعـا إلا خاضه ويعد كتابه المبسوط خير شاهد على ذلك، وقد مضـى على تأليفه قرابة عشرة قرون ومع ذلك لم يؤلف كتاب مثله، والكتـاب مع كونـه يحتـوي على دورة فقهيـة كاملـة، لكنـه سـلس الألفـاظ، سهل التناول، موجز في النقل، مختصر في الاستدلال، على خلاف ما نراه في كتابي (التذكرة) و(المنتهى)

3. استخرج قواعـد عقليـة واعتمـد عليهـا في مقـام التفريـع، وبذلك رد على خصماء الشـيعة وصـمة العـار الـتي ألصـقوها بهم، قال في أول (المبسوط): (إني لا أزال أسمع معاشر مخالفينـا من المتفقهة والمنتسـبين إلى علم الفـروع يسـتحقرون فقـه أصـحابنا الإمامية، ويستنزرونه، وينسبونهم إلى قلة الفروع وقلـة المسـائل، ويقولـون: إنهم أهـل حشـو ومناقضـة، وإن من ينفي القيـاس والاجتهاد لا طريق له إلى كثرة المسائل ولا التفريع على الأصـول،

1() المبسوط: 1/ 2.

2() موسوعة طبقات الفقهاء، 1/ 275.

لأن جل ذلك وجمهوره مأخوذ من هذين الطريقين؛ وهذا جهل منهم بمذهبنا، وقلة تأمل لأصولنا، ولو نظروا في أخبارنا وفقهنا لعلموا أن جل ما ذكروه من المسائل موجود في أخبارنا ومنصوص عليه تلويحا عن أئمتنا الذين قولهم في الحجة يجري مجرى قول النبي ﷺ إما خصوصا، أو عموما، أو تصريحا، أو تلويحا، وأما ما كثروا به كتبهم من مسائل الفروع، فلا فرع من ذلك إلا وله مدخل في أصولنا ومخرج على مذهبنا لا على وجه القياس، بل على طريقة يوجب علما ويجب العمل عليها ويسوغ الوصول إليها من البناء على الأصل، وبراءة الذمة، وغير ذلك مع أن أكثر الفروع لها مدخل فيما نص عليه أصحابنا، وإنما كثر عددها عند الفقهاء لتركيبهم المسائل بعضها على بعض وتعليقها والتدقيق فيها، حتى أن كثيرا من المسائل الواضحة دق لضرب من الصناعة وإن كانت المسألة معلومة واضحة)

ومنهم **أبو علي بن شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي** (توفى 515 هـ) (1)، قرأ على أبيه جميع تصانيفه، وروى عنه، وعن سلار بن عبد العزيز الديلمي وغيره، وكان من كبار العلماء، فقيها، محدثا، راوية للأخبار، قال عنه ابن حجر مثنيا عليه: (الحسن بن محمد بن الحسن بن علي الطوسي، أبو علي سمع من والده وأبي الطيب الطبري والخلال والتنوخي، ثم صار فقيه الشيعة وإمامهم بمشهد علي، سمع منه: أبو الفضل بن عطاف، وهبة الله السقطي، ومحمد بن محمد النسفي، وهو في نفسه صدوق مات في حدود 500 هـ كان متدينا)(2)

و من آثاره الفقهية: شرح النهاية لأبيه أبي جعفر، والمرشد إلى سبيل التعبد، ورسالة في الجمعة، وكتاب الأنوار(3).

1() موسسه امام صادق (ع). گروه علمى، موسوعة طبقات الفقهاء، 14جلد، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام) - ايران - قم، چاپ: 1، 1418 هـ.ق.

2() لسان الميزان: ج 2 الترجمة 1046.

3() لاحظ أعيان الشيعة: 5/ 246.

ومنهم **أمين الـدين أبـو علي الفضـل بن الحسـن بن الفضـل الطبرسي** (471-ـ 548 هــ)، وقـد قيـل في ترجمتـه: (الشيخ الإمـام الطبرسـي، ثقـة، فاضـل، دين، عين، لـه تصـانيف، منهـا: (مجمـع البيـان) في تفسـير القـرآن في عشـرة أجـزاء، (الوسيط) في التفسـير في أربعـة أجـزاء، (الوجـيز) في التفسـير أيضا، (إعلام الورى بأعلام الهدى)، إلى غير ذلـك من الآثـار ذكرهـا منتجب الدين قال: شاهدته وقرأت بعضها عليه، يـروي عن الشـيخ أبي الوفـاء المقـري الـرازي، وعن الشـيخ أبي علي الطوسـي، والشيخ حسكا جد منتجب الدين، إلى غير ذلك من الأسانيد)(1)

قال عنه الذهبي في كتابه [التفسـير والمفسـرون]: (والحـق أن تفسير الطبرسي، بصرف النظر عما فيه من نزعـات تشـيعية، وآراء اعتزالية، كتاب عظيم في بابـه، يـدل على تبحـر صـاحبه في فنون مختلفة من العلم والمعرفة، والكتـاب يجـري على الطريقـة التي أوضحها لنا صاحبه في تناسق تام، وترتيب جميل، وهـو يجيـد في كـل ناحيـة من النـواحي الـتي يتكلم عنهـا، فـإذا تكلم عن القراءات ووجوهها أجاد، وإذا تكلم عن المعاني اللغوية للمفـردات أجـاد، وإذا تكلم عن أسـباب الـنزول وشـرح القصـص اسـتعرض الأقوال وأفاض، وإذا تكلم عن الأحكـام، تعـرض لمـذاهب الفقهـاء وجهر بمذهبه ونصـره إن كـانت هنـاك مخالفـة منـه للفقهـاء، وإذا ربط بين الآيـات آخى بين الجمـل، وأوضـح لنـا عن حسـن السـبك وجمال النظم، وإذا عرض لمشكلات القرآن أذهب الإشـكال وأراح البال، وهو ينقل أقوال من تقدمه من المفسرين معزوة لأصـحابها ويرجح ويوجه ما يختار منهـا... إلى أن قـال: والحـق أن يقـال انـه ليس مغاليا في تشيعه، ولا متطرفا في عقيدته)(2)

ومنهم **الشيخ عمـاد الـدين الحسـن بن علي الطـبري** (كان حيا عـام 698 هــ)، وممـا قيـل في ترجمتـه: (متكلم، فقيـه،

1() أنظر ترجمته في روضات الجنات: 5/ 357، أعيان الشيعة: 8/ 398، طبقات أعلام الشيعة؛ مستدرك الوسائل: 3/ 387، الذريعة: 20/ 24، و قد ترجم له في مقدمة تفسير(مجمع البيان).

2() التفسير و المفسرون للذهبي: 2/ 104.

معاصر للمحقق الطوسي والمحقق الحلي، وأقواله منقولة في كتب الفقه، ويعبرون عنه فيها بالعماد الطبري، وبعماد الدين الطبري، وقد نقل شيخنا الشهيد الثاني رأيه في رسالة الجمعة، وليس رأيه إلا أن وجوب الجمعة موقوف على حضور السلطان العادل المبسوط اليد)(1)

و قال الأفندي التبريزي: (هو عالم، فاضل، متبحر، جامع، دين، كان من أفاضل علماء طبرستان، ومن المعاصرين لنصير الدين الطوسي، وقد ألف في غير واحد من الموضوعات تربو على 17 كتابا، ففي الفقه ألف (المنهج) في فقه العبادات، والأدعية والآداب الدينية، وكتاب (العمدة) في أصول الدين وفروعه الفرضية والنقلية، و(نهج الإيمان إلى هداية الإيمان) وهو أيضا في الفروع الفقهية، إلى غير ذلك من التآليف)(2)

ومن المتأخرين من علماء الشيعة في الفقه والأصول وغيرهما **السيد محمد حسن بن محمود بن إسماعيل الحسيني الشيرازي**[3] (1224 ـ 1312 هـ)، ومما قيل في ترجمته: (كان فقيها، عالما، ماهرا، محققا، مدققا، ورعا، تقيا، انتهت إليه رئاسة الإمامية العامة في عصره وطار صيته واشتهر ذكره ووصلت رسائله التقليدية وفتاواه إلى جميع الأصقاع)

من مؤلفاته الأصولية: رسالة في اجتماع الأمر والنهي، وتلخيص إفادات أستاذه الأنصاري، ورسالة في المشتق.

ومنهم **عبد الله الرشتي**[4] (1234ـ 1312 هـ)، ومما قيل

1() السيد الأمين: أعيان الشيعة: 5/ 212.

2() اقرأ ترجمته الوافية في روضات الجنات برقم 194، و رياض العلماء.

3() موسوعة طبقات الفقهاء، 1/ 445.

4() موسوعة طبقات الفقهاء، 1/ 440

في ترجمته: (هو الشيخ حبيب الله بن محمد علي الرشتي، أحد الأكابر من تلاميذ شيخنا الأنصاري، تلقى دروسه في مسقط رأسه رشت، ثم ارتحل إلى قزوين، فمكث فيها مدة حتى برز في الفقه والأصول، ثم غادرها إلى النجف الأشرف فحضر درس صاحب الجواهر، ولما توفي أستاذه تردد إلى أندية دروس شيخنا الأنصاري، وقد وقف على منزلته ومكانته في العلم ولازمه طيلة عمره، ولما لبى شيخنا الأنصاري دعوة ربه استقل بالتدريس والتأليف)

ومن كتبه في الفقه والأصول: (بدائع الأصول) في أصول الفقه، و(المشتق)، و(القضاء والشهادات)، و(الإجارة)[1]

ومنهم **السيد أبو القاسم الخوئي** (1317 ـ 1413هـ)، وهو من مدينة خوي الإيرانية، ويعد من أبرز فقهاء الشيعة ومراجع التقليد في القرن الرابع عشر الهجري، تتلمذ على يد كبار العلماء في النجف الأشرف وتخرج على يديه الكثير من الأعلام والشخصيات العلمية، تسلم البعض منهم سدّة المرجعية الشيعية بعد رحيل أستاذه الخوئي.

وقد تعلّم الكثير من العلوم الرائجة في الحوزة العلمية وكان أستاذاً بارزاً فيها، وتعدّ نظرياته الأصولية والفقهية والرجالية والتفسيرية من النتاجات الفكرية التي يشار إليها بالبَنان.

تسلم السيد الخوئي مقام مرجعية الشيعة العامة لسنين عديدة صبّ اهتمامه خلالها على نشر الإسلام في سائر بقاع المعمورة، كما شيّد الكثير من المؤسسات العلمية والثقافية في شتّى بلدان العالم.

ومن مؤلفاته التي كتبت على شكل تقريرات لدروسه كتبها تلاميذه: دراسات في علم الأصول بقلم تلميذه السيد علي الهاشمي الشاهرودي قرر فيها الدورة الأصولية الثالثة لمحاضراته، ومنها محاضرات في أصول الفقه بقلم الشيخ محمد

1() له ترجمة ضافية في مقدّمة كتابه(القضاء) بقلم السيد أحمد الحسيني.

إسحاق الفياض وهي دورة أصولية امتدحها السيد الخوئي كثيراً، ومنها مباني الاستنباط بقلم تلميذه السيد أبو القاسم الكوكبي التبريزي، ومنها مصابيح الأصول: بقلم السيد علاء الدين بحر العلوم، ومنها رسالة في الأمر بين الأمرين بقلم محمد تقي الجعفري، ومنها مصباح الفقاهة في المعاملات: بقلم محمد علي التوحيدي الذي وصفه السيد الخوئي عند تقريظه للكتاب بالمتتبع المدقق واسع الاطلاع، ومنها التنقيح في شرح المكاسب: بقلم علي الغروي التبريزي، ومنها محاضرات في الفقه الجعفري: بقلم السيد علي الهاشمي الشاهرودي، ومنها المستند في شرح العروة الوثقى: بقلم مرتضى البروجردي، ومنها تحرير العروة الوثقى: بقلم قربانعلي محقق الكابلي، ومنها دروس في الفقه الجعفري: بقلم السيد مهدي الخلخالي.

ومن مؤلفاته التي كتبها بنفسه: معجم رجال الحديث، ومنها البيان في تفسير القرآن، وقد حظي باهتمام الباحثين منذ الأيام الأولى لصدوره على مستوى الحوزة والجامعة.

ومنها رسالة في نفحات الإعجاز: كتاب كلامي يدافع فيه عن إعجاز القرآن الكريم، ردّ فيه على رسالة [حسن الايجاز في إبطال الإعجاز] التي لفقها بعض الامريكان المعرف لنفسه بنصير الدين الظافر في إنكار إعجاز القرآن[1].

ومنها معجم رجال الحديث، ويعد من أهم المصنفات التي شهدها تاريخ علم الرجال حيث لم يدون مثله كتاب جامع، مع مدخل مفصل في المجلد الاول تعرض فيه لمجموعة من الابحاث الضروية في علم الرجال من قبيل: الحاجة الى علم الرجال؛ بماذا تثبت الوثاقة او الحسن؛ التوثيقات العامة؛ مناقشة سائر التوثيقات العامة؛ نظرة في روايات الكتب الأربعة؛ الأصول الرجالية، إضافة الى ترجمة لجمع غفير من الرواة.

ومنها مباني تكملة منهاج الصالحين: وهو شرح استدلالي لرسالة تكملة منهاج الصالحين ذكر فيه مبانيه ودليل الفتاوى

1() أقا بزرك الطهراني، الذريعة الى تصانيف الشيعة، 24/246.

المدرجة في الرسالة.

أما **فقهاء الشـيعة المعاصـرون**، فكثـيرون جـدا، ومنهم السيد علي السيستاني، وهو من أكبر مراجـع الشـيعة في العـالم، وإليه يرجع كثير من الشيعة في تقليدهم، وقد ولـد سـنة 1349 هـ في مدينة مشـهد من أسـرة علميـة معروفـة، فوالـده هـو العـالم السيد محمد باقر، ووالدته هي كريمة العلامة المرحوم السيد رضا المهرباني السرابي، وجـدّه الأدنى هـو العـالم الجليـل السـيد علي الذي ترجم لـه العلامـة الشـيخ آغـا بـزرك الطهـراني في طبقـات أعلام الشيعة(1).

وفي بلده مشهد درس الفقه والأصـول والمعـارف المختلفـة عند جمع من العلماء الأعلام، منهم آية الله المـيرزا محمـد مهـدي الأصفهاني، وآية الله الميرزا مهدي الأشتياني صاحب التعليقة على شرح منظومة السـبزواري، والمـيرزا هاشـم القزويـني، ثم انتقـل الى الحوزة العلمية في قم فحضـر بحـوث المرجـع الكبـير السـيد حسين الطباطبـائي الـبروجردي في الفقـه وأصـول الفقـه، وتلقى عنه الكثير من خبرته الفقهية ونظرياته في علم الرجال والحديث، كما حضر درس الفقيه الكبير السيد محمد الحجة الكـوهكمري، ثم انتقـل إلى النجـف، وحضـر البحـوث الفقهيـة والأصـولية للعلمين الكبـيرين السـيد أبـو القاسـم الموسـوي الخـوئي والشـيخ حسـين الحلي، ولازمهما مدة طويلة، وحضر خلال ذلك أيضـا بحـوث بعض الأعلام الآخرين منهم السيد الحكيم والسيد الشاهرودي.

قال عنه د. محمد حسين الصغير: (الرجـل عـاش منعـزلا في النجف طيلة نصف قرن من الزمان، همّه الدرس والتدريس فقـط وقد نال مرتبة الاجتهاد في عام 1380 هـ، أجيز بالاجتهاد من ذلـك الوقت. يدرس درسه ويحضر دروس الآخرين من المراجع العظام. وهو قارئ جيد لكل الفلسـفات المعاصـرة فهـو يعـرف الشـيوعية بدقائقها وهـو يعـرف الرأسـمالية بـدقائقها وهـو يعـرف الوجوديـة بدقائقها، كما لديـه ولـع خاصًـا بالحكمـة والفلسـفة فقـد درسـهما دراسة مجدية، وهو يحترم كل أحد، ويرحب بكل أحد، ويعظم أهل

(1) انظر: السيرة الذاتية، موقع السيد السيستاني.

الدين ويقابل الصامدين بمبادئهم مقابلة روحية خاصة لأنه يعرف ان هؤلاء ليسوا بانتهازيين. وقد ضحوا بأعمارهم في سبيل المبدأ والثبات على المبدأ. وهو يعي مشكلات العصر بكل حذافيرها)[1]

ومن ميزاته الكبرى وقوفه ضد الطائفية، وهو صاحب المقولة المشهورة: (لا تقولوا إخواننا السنة بل قولوا أنفسنا)، وكان له الدور الأكبر في إخماد الفتنة الطائفية في العراق بين السنة والشيعة ما بين 2004 ـ 2006م، فعلى الرغم من أن أكثر التفجيرات في العراق كانت تحدث في الأحياء الشيعية إلا أنه رفض اتهام السنة بهذه التفجيرات، عازيا هذه التفجيرات الى مؤامرات خارجية تحاول تمزيق النسيج الاجتماعي للشعب العراقي، كما وكان له دور بارز بعد هجوم داعش على العراق، حيث أصدر فتوى الجهاد الكفائي مما سببت في حضور الآلاف من الشباب إلى مقابلة داعش.

ومن صفاته التواضع والزهد، فمع كونه من كبار المراجع في العالم الإسلامي، وتأتيه الحقوق الشرعية من شرق الأرض وغربها لكنه لايملك بيتا، بل يستأجر دارا بسيطة قديمة البنيان في أحد الأحياء النجفية القديمة[2].

ومن المعاصرين أيضا، والذين لم تشغلهم الحياة السياسية عن البحث والعلم والتأليف **السيد علي الحسيني الخامنئي**[3]، القائد الحالي للثورة الإسلامية في إيران، وهو من مواليد مدينة مشهد عام 1939 م في عائلة علمية.

وله الكثير من المؤلفات في المجالات المختلفة، منها: الاستفتاءات، والإيمان، والتوحيد، والنبوّة، والإمامة، والولاية،

1() شبكة العراق الثقافية.

2() انظر سيرته الذاتية في موقعه.

3() انظر في ترجمته: الإمام الخامنئي دام ظله القائد المرجع، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.

وبحث في الفكر الإسلاميّ، ودروس في معرفة الإســلام، ودروس في الفكــر الإســلاميّ، والفهم الصــحيح للإســلام، ودروس في العقائد، وتفسير القـرآن، والقـرآن والعـترة، ودروس في القـرآن، والمشــروع العــام للفكــر الإســلاميّ في القــرآن، ودروس في الحديث، وقبس من نهج البلاغـة، وعنصـر الجهـاد في حيـاة الأئمّـة عليهم السلام، والهجرة، ومعرفة الإمـام عليّ عليـه السـلام، وآلام الإمام علي عليه السلام وآلامنا، والحياة السياسيَّة للإمام الصــادق عليه السلام، والشخصـية السياسـيَّة للإمـام الرضـا عليـه السـلام، وكتاب الجهاد (بحث الخارج للسيد القائد)، والحكومة في الإسلام، ودروس في الأخلاق، ومن أعمــاق الصــلاة، وبحث في الصـــبر، وخصائص الإنسان المسلم، وسؤال وجواب (5 مجلـدات)، وأربعـة كتب رجاليّــة رئيســيّة، ودور المســلمين في ثــورة الهنــد، والفنّ الثامن، وبحث في الثأر، وجهاد الإمام السجاد عليه السـلام، وبحث فقهيّ في الهدنة، وبحث فقهيّ في حكم الصـائبة، ومناسـك الحج، والكلمات القصار، والشيخ المفيد وهويّة التشيّع، والعــودة إلى نهج البلاغة.

بالإضـافة إلى ذلـك، فقـد تـرجم الكثـير من الكتب إلى اللغـة العربيــة، ومنهــا ترجمــة تفســير في ظلال القــرآن لســيّد قطب، وترجمة كتاب صلح الإمـام الحسـن عليـه السـلام، وترجمـة كتـاب المستقبل لهذا الدين.

هذه مجرد نماذج عن بعض الخدمات الـتي قـدمها الإيرانيـون للشــريعة الإســلامية، وهي دليــل على مــدى تغلغــل الــدين في نفوسهم وقلوبهم في جميع مراحلهم التاريخيـة، ذلـك أنـه لا يمكن لأحد من الناس أن يهتم بشيء، ويكتب فيه دون أن يكون لـه تـأثر به، وعشق له.

إيران .. والقيم الروحية

ربما يكون الاهتمام بالجوانب الروحية هو السمة البـارزة في إيران منذ بداية الإسلام إلى اليوم، ذلك أن أكبر مشـايخ السـلوك، وأكـثر الـتراث الـروحي، مـا كـان منـه من المدرسـة السـنية أو المدرسة الشيعية كانت له علاقة بإيران، ومدنها.

فالجنيد وأبو يزيد البسـطامي والسـرّاج الطوسـي وأبـو علي الدقاق النيسابوري وأبـو القاسـم القشـيري والغـزالي والكاشـاني وصـدر المتـألهين وحيـدر الآملي وفريـد الـدين العطـار وابن تركـة وغيرهم كثير هم من أبناء إيران.

وهكذا فـإن أكـثر الـتراث الصـوفي، وخاصـة المصـادر الأولى منـه، نجـدها ألفت في إيـران، ومن أمثلتهـا إحيـاء علـوم الـدين للغزالي، والمحجة البيضاء للكاشاني، واللمع للطوسي، والرسـالة للقشيري، وتمهيد القواعد لابن تركة، والأسفار لصـدر المتـألهين.. وغيرها من الكتب التي تشكل المصادر الكبرى للعرفان والتصوف والحياة الروحية في الإسلام.

ولا نبالغ إن قلنا بأن هذا الجانب في حياة الإيرانيين هو الـذي أتـاح لهم الانتصـار على ذلـك الاسـتبداد الـذي عاشـوه في ظلال الشاه، وغيره من الطواغيت، ذلك أن الخميني كـان يمتلـك جميـع المواصفات الروحية التي يخضع لمثلها الإيرانيون.. فقـد جمـع مـع تلك المواصـفات الروحيـة الأبعـاد السياسـية والثوريـة الـتي قلمـا نجدها تجتمع في شخص واحد.

ولهذا، فإننا عندما نطالع تراث الخميني، أو نستمع إلى خطبه ودروسـه المسـجلة، نجـده يهتم بـالجوانب الروحيـة، أكـثر من اهتمامه بأي جانب آخر، حتى في أحلـك الأزمـات السياسـية، كـان يوجه خطابه الروحي لشعبه، مفعما بالحياة، والرقة والجمال.

ومن الأمثلـة على ذلـك قولـه في مخاطبـة مريـده: (أيهـا العزيز... اجتهـد لتصـبح ذا عـزم وإرادة، فإنـك إذا رحلت من هـذه الدنيا دون أن يتحقـق فيـك العـزم، فـأنت إنسـان صـوري، بلا لب،

ولن تحشر في ذلك العالم على هيئة إنسان، لأن ذلـك العـالم هـو محل كشف الباطن وظهور السريرة، وإن التجـرؤ على المعاصـي يفقد الإنسان تدريجيا، العزم ويختطف منه هذا الجوهر الشـريف.. تجنب المعاصـي، واعـزم على الهجـرة إلى الحـق تعـالى، وأجعـل ظاهرك ظاهرا إنسانيا، وادخل في سلك أربـاب الشـرائع، واطلب من الله تعالى في الخلوات العون على بلوغ هذا الهدف واستشفع برسول الله ﷺ وأهل بيتـه عليهم السـلام حـتى يوفقـك اللـه على ذلك، ويعصمك من المزالق التي تعترضك، لأن هناك مزالق كثـيرة تعترض الإنسـان أيـام حياتـه، ومن الممكن أنـه في لحظـة واحـدة يسقط في مزلق مهلك، يعجز من السعي لإنقاذ نفسـه، بـل قـد لا يهتم بإنقاذ نفسه، بل ربما لا تشمله حتى شفاعة الشافعين. نعــوذ بالله منها)[1]

ويقول له: (أيها العزيز؛ كن ذاكرا لعظمـة ربـك، وتـذكر نعمـه وألطافه، وتذكر أنك في حضرته، وهـو شـاهد عليـك، فـدع التمـرد عليـه، وفي هـذه المعركـة الكـبرى تغلب على جنـود الشـيطان، واجعل من مملكتك مملكه رحمانية وحقانية، وأحلـل فيهـا عسـكر الحق تعالى محل جنود الشيطان، كي يوفقك اللـه تبـارك وتعـالى في مقام مجاهدة أخـرى، وفي ميـدان معركـة أكـبر تنتظرنـا وهي الجهاد مع النفس في العالم الباطن، وفي المقام الثـاني للنفس.. ولا تعلق على نفسـك الآمـال، لأنـه لا ينهض أحـد يعمـل غـير اللـه تعالى، فاطلب من الحق تعالى نفسه بتضرع وخشـوع، كي يعينـك في هذه المجاهة لعلك تنتصر) [2]

وهكذا نجـد خطاباتـه ودروسـه وكتبـه مشـحونة بأمثـال هـذه العظات، التي يخاطب فيها النفوس والعقول والأرواح لتعود لربها، وتعيش في صحبته.

ولم يكن ذلك مجـرد خطابـات يخـاطب بهـا مريديـه وشـعبه، وإنما كانت معـاني يعيشـها، كمـا يـذكرها عنـه كـل من عاشـره أو

[1] الأربعون حديثا، الخميني، ص8.

[2] الأربعون حديثا، الخميني، ص12.

عاش معه، وقد ذكر كل المقربين منه حرصه على قيام الليل، وجميع النوافل، وكثرة قراءته للقرآن، ورعه الشديد من كل الشبهات، ومن الأمثلة على ذلك ما قاله بعضهم يصف بعض ذلك: (النقطة التي ينبغي الالتفات اليها هنا تكمن في ذلك التضرع وفي تلك المناجاة التي كان يعيشها الإمام في صلاة الليل، نحن قد سمحت لنا الظروف أن نرى تضرعاته وبكاءه أمام المحضر الإلهي في الليالي الحالكة حيث كنا دائما إلى جانبه، وحتى في تلك الليلة التي نقل فيها إلى المستشفى، وكان مقررا أن تجرى له عملية جراحية في اليوم التالي، استيقظ من نومه كعادته وقام الى الصلاة، وقد عرضت هذه المشاهد على مرأى الجميع في التلفزيون حيث تم التقاطها بواسطة كاميرا خفية، ولكن مقطعا من الفيلم لم يعرض لمصلحة ما، وهو لحظات مناجاة الإمام وبكائه في محضر حضرة ذي الجلال، ولو أني كنت أتمنى أن يعرض هذا المقطع أمام الجميع، حتى يعلموا أنه في الوقت الذي لم يكن للخوف مكان في حياة الإمام حيث كان يقف وحيدا فريدا لا يخاف أحدا ولا يخشى أحدا، كان في الجانب الآخر يقف أمام بارئه يبكي ويرتجف وتنهمر دموعه بشكل لا مثيل له)[1]

وقال آخر، يذكر ورعه: (في [نوفل لوشاتو] يعتبر ذبح الحيوانات خارج المسلخ ممنوع حسب القوانين، وفي أحد الأيام ذبح خروف في مكان إقامة الامام، فقال: (أنا لا آكل من هذا اللحم، لأنه مخالف لقانون هذه الدولة).. وخرجت ذات يوم واشتريت 2 كيلو من البرتقال، وعندما رأني تساءل: لماذا كل هذا البرتقال؟، فقلت: إنه رخيص الثمن، ويكفينا لعدة أيام، فقال الإمام: (لقد ارتكبت اثمين، الأول أنك اشتريت البرتقال بهذه الكمية ونحن لا نحتاجها، والثاني أنه ربما يوجد في الحي من لم يشتر البرتقال لحد الآن بسبب الغلاء، ويمكنه آن يشتريه بهذا السعر الزهيد)،ثم أمر بإعطائه الفقراء)[2]

---

[1] قبسات من حياة الامام (ص: 36)

[2] قبسات من حياة الامام (ص: 45)

وهكذا نجد الأمثلة الكثيرة التي يتناقلها محبوه، والتي وضعت فيها الكتب، والتي كان لها الدور الكبير لا في توفير القابلية له بين شعبه فقط، وإنما في إحياء ونشر الكثير من القيم الروحية والأخلاقية التي بنيت على أساسها الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وانطلاقا من هذا نحاول في هذا الفصل أن نذكر أهم تجليات اهتمام إيرانيين بالقيم الروحية، وقد رأينا أنها ثلاثة تجليات كبرى:

أولها الاهتمام بالشعائر التعبدية، والتركيز على الجوانب الروحية العميقة فيها، بدل الجوانب الشكلية.

وثانيها الاهتمام بالمجاهدات السلوكية التي وردت في النصوص المقدسة، وذكرها أئمة أهل البيت، واستفادها منهم الصوفية والعرفاء.

وثالثها الاهتمام بالأذواق والمعارف الروحية، وفق ما ورد في النصوص المقدسة وفي الروايات الشارحة لها.

وهذه التجليات الثلاث كافية للدلالة على أن مفهوم التدين في إيران ــ وخاصة في ظل نظامها الإسلامي الجديد ــ ليس محصورا في تلك الظواهر والشعارات، وإنما يمتد إلى أعمق أعماق النفس الإنسانية، وهو ما يميز التجربة الإيرانية عن تجارب الحركات الإسلامية التي احتقرت التصوف والسلوك الباطني، واحتقرت معها الطرق الصوفية، واعتبرتها خرافة وضلالة، ولهذا لم تستطع أن تنجح في أي مشروع من مشاريعها.

وقد اعتمدنا للدلالة على هذه التجليات على ما ورد في التراث الروحي الإيراني، وخصوصا ما سجله قادة ثورتها الإسلامية، باعتبارهم يمثلون امتدادا طبيعيا للطبيعة الإيرانية، ونوع التدين الذي يحكمها.

أولا ـ اهتمام الإيرانيين بالشعائر التعبدية:

تعتبر الشعائر التعبدية من صلاة وقراءة قرآن وذكر ودعاء وغيرها هي الوسائل التي اعتبرتها الشريعة بنصوصها المقدسة معارج لرقي الروح، وتواصلها مع ربها سبحانه وتعالى، ولذلك اهتم

بها كل علماء السلوك ومشايخ التربية، وشنعوا على من قصر في الشريعة، أو اتخذ غيرها وسائل للوصول، كما روي عن الجنيد قوله في جماعة زعموا أنهم يصلون إلى حالة يسقط عنهم التكليف: (وصلوا، ولكن إلى سقر)، وروي أنه لم يترك أوراده في حال نزاعه، فقيل له في ذلك، فقال: (ومن أولى مني بذلك، وهذه صحائفي تطوي)[1]

وهكذا شدد أئمة أهل البيت ــ الذين اعتبرهم الإيرانيون مشايخهم الروحيين ـ في التنفير من كل سلوك غير السلوك الذي جاءت به الشريعة للسير التحققي، ذلك أن كل سلوك مبتدع إنما يبعد عن الله، أكثر مما يقرب منه.

ولهذا وردت عباراتهم في النهي عن صحبة أدعياء التصوف من المبتدعة، لا الصوفية الملتزمين بالشريعة، ومن الأمثلة على ذلك قول الامام الصادق عندما سئل عن ذلك النوع من الصوفية: (إنهم أعداؤنا، فمن مال إليهم فهو منهم ويحشر معهم، وسيكون أقوام، يدّعون حبنا ويميلون إليهم ويتشبهون بهم، ويلقبون أنفسهم بلقبهم، ويقولون أقوالهم، ألا فمن مال إليهم فليس منا، وإنّا منه براء، ومن أنكرهم ورد عليهم، كان كمن جاهد الكفار بين يدي رسول الله ﷺ)[2]

ولهذا نرى اهتمام القادة الروحيين للمشروع الحضاري الإيراني الجديد بالشعائر التعبدية، وإشاعتها، والدعوة إليها عبر الوسائل المختلفة، وتوفير كل الإمكانات المتاحة لأدائها والتشجيع عليها، لتكون مرقاة للأرواح للتحقق بالقرب الإلهي.

وسنذكر هنا نماذج عن ذلك من خلال الشعائر التعبدية الكبرى، التي لا يمكن أن تتحقق القيم الروحية من دون التزامها.

1 ـ الاهتمام بالصلاة وأبعادها الروحية:

1() انظر: إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 265.

2() سفينة البحار للمحدث القمي ج2 ص57)

عند مطالعة كل التراث الروحي الذي ألفه الإيرانيون في عصورهم السابقة نجد ذلك الاهتمام الشديد بالصلاة، والقيم الروحية التي تحملها، وهم في ذلك يتأسون بما كان عليه رسول الله ﷺ وأئمتهم الذين اعتبروا اتباعهم واجبا شرعيا لا مناص لهم منه.

وكيف لا يفعلون ذلك، وهم يرددون كل حين، وبشغف وشوق كبيرين تلك الوصايا العظيمة التي كان يوصي بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي اتخذوه إمامهم وقائدهم وشيخهم الروحي؛ فقد كان من وصاياه الكبرى التي تردد في كل المساجد الإيرانية ـ كلما قرئ نهج البلاغة ـ: (تعاهدوا أمر الصّلاة، وحافظوا عليها، واستكثروا منها، وتقرّبوا بها، فإنّها ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾.. ألا تسمعون إلى جواب أهل النّار حين سئلوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾.. وإنّها لتحتّ الذّنوب حتّ الورق، وتطلقها إطلاق الرّبق، وشبّهها رسول اللّه ﷺ بالحمّة تكون على باب الرّجل، فهو يغتسل منها في اليوم واللّيلة خمس مرّات، فما عسى أن يبقى عليه من الدّرن.. وقد عرف حقّها رجال من المؤمنين، الّذين لا تشغلهم عنها زينة متاع، ولا قرّة عين من ولد ولا مال، يقول اللّه سبحانه: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [طه: 132].. وكان رسول اللّه ﷺ نصبا بالصّلاة بعد التّبشير له بالجنّة، لقول اللّه سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، فكان يأمر بها أهله ويصبر عليها نفسه) [1]

وفي خطبة أخرى، يقول: (طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها، وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم، {أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(199)

[المجادلة: 22])[2]

وهكذا كانت هذه الوصايا وغيرها كثير تفعل فعلها في نفـوس الإيرانيين منذ سـالف العصـور، ولهـذا لا نعجب من ذلـك الاهتمـام الشديد الذي أولاه القادة الروحيون لإيران الحديثة بالصـلاة، حـتى أن لكلا القائدين: الخميني والخامنئي كتبـا حولهـا وحـول أسـرارها وأعماقهـا، على الـرغم من كـل تلـك الأعبـاء الكبـيرة الـتي كـانوا يؤدونها في فترة الثورة والمواجهة مع الشـاه وأزلامـه، أو في في فترة الانتصار والمواجهة مع قوى الاستكبار العالمي.

ويســـرنا أن نـــذكر بعض رؤاهم هنـــا، لا باعتبارهـــا تمثـــل أشخاصهم فقـط، وإنمـا باعتبارهـا تمثـل نـوع اهتمـامهم بالصـلاة، لنكتشف الفرق بين رؤيتهم ورؤية الطائفيين الذين لا ينظرون إلى الصلاة إلا باعتبارها مجموعة طقوس وحركات يصنفون من خلالهـا المسلمين إلى سنة ومبتدعـة، ناسـين أن أعظم سـنة في الصـلاة هي الخشوع وحضور القلب والترقي بها إلى الله.

ونذكرها كذلك لتكون تجربة لأولئك الحركـيين الـذين يريـدون إعـادة الإسـلام للحيـاة، ولكن وفـق الرؤيـة العلمانيـة، لا الرؤيـة الدينية، ولـذلك نـراهم في فـترة انشـغالهم بالمعارضـة السياسـية يغفلون عن الاهتمام بمثل هذه القضـايا، وكأنهـا ليسـت لب الـدين وعماده وعمقه.

بخلاف ذلك نرى الخميني ـ وهـو قائـد أكـبر ثـورة ناجحـة في القرن العشرين ـ يتحدث عن الصلاة بأشـواق روحيـة عاليـة؛ فهـو يقـول في الـدعاء الـذي قـدم بـه لكتابـه [سـر الصـلاة، أو صـلاة العارفين]: (اللهم اهدنا الصراط المسـتقيم الإنسـاني، وأبرئنـا من جهالة العجب وضلالة الكبر، واسمح لنا بالدخول إلى محفل الأنس لأربــاب العــروج الروحــاني، ومقــام القــدس لأصــحاب القلــوب العرفانيــة، وارفــع عن بصــائرنا حجب الأنانيــة الظلمانيــة، والانيــة النورانيــة حــتى نصــل إلى المعــراج الحقيقي الصــلاتي للمصــلين المتضـرعين، ونكـبر التكبـيرات الأربـع إلى الجهـات الأربـع للملـك

2() نهج البلاغة: خطب 217.

والملكوت، وافتح لنا أبواب الأسرار الغيبية، واكشف عن ضمائرنا أستار الأحدية لننال مناجاة أهل الولاية ونفوز بحلاوة ذكر أرباب الهداية، واصرف التعلقات القلبية لنا عن الغير، واجعلها مصروفة إليك، وأغمض عيوننا عن الأغيار الذين هم شياطين طريق السلوك، ونورها بجمالك الجميل، إنك ولي الهداية والتوفيق)[1]

وهو يركز في كتابه على المعاني الروحية في الصلاة، وكونها المعراج الذي يعرج به المؤمن إلى الله، سواء في مرحلة السلوك أو الوصول، فيقول: (قد تبين واتضح عند أرباب المعارف الإلهية أن الإنسان السالك ما دام في السير إلى الله والسلوك إلى جانب الله، فصلاته وكذلك سائر مناسكه تفترق عن تلك التي للولي الكامل الذي أنهى سيره ووصل إلى الغاية القصوى للعروج الكمالي والمعراج الروحي المعنوي، ووضع قدمه في محفل أنس (قاب قوسين) لأن السالك ما دام في السلوك والسير إلى الله فصلاته براق العروج ورفرف الوصول، وبعد الوصول تكون صلاته خارطة التجليات، وصورة مشاهدات جمال المحبوب من دون إعمال روية في تركيبها، بل تكون من قبيل سراية حكم الغيب إلى الشهادة، وظهور آثار الباطن في الظاهر)[2]

وهو يرى أن هذا النوع من الصلاة لا يمكن أن يؤتي ثماره إلا بحضور القلب، والخشوع التام، الذي يجعل صاحب الصلاة منشغلا بها عمن سواها، يقول في ذلك: (بعدما علمت مراتب حضور القلب، فالأفضل والأهم أن يكون الإنسان بصدد معالجة النفس، وإذا كانت يده قاصرة عن الوصول إلى ذيل جميع مراتبه فلا أقل من أن يصرف همته في تحصيل بعض مراتبه الذي تسقط العبادة بأقل منه عن درجة الاعتبار، ولا تكون موردا للقبول في جنابه المقدس)[3]

1() سر الصلاة، أو صلاة العارفين، الخميني، ص3.

2() المرجع السابق، ص10.

3() المرجع السابق، ص15.

ويــبين كيفيــة تحصــيل حضــور القلب في الصــلاة، فيقــول: (فليعلم أن منشأ حضور القلب في أي عمـل من الأعمـال وسـبب إقبـال النفس عليـه وتوجههـا إليـه أن يتلقى القلب ذلـك العمـل بالعظمة، ويعده من المهمات) [1]

ثم يضرب على ذلك مثالا يبسط به هذا المعنى، فيقــول: (إذا أجـاز لـك السـلطان حضـورك في محفـل أنسـه العظيم، وجعلـك مـوردا للتوجـه والتلطـف بحضـرة الجميـع، فحيث أن هـذا المقـام عظيم في قلبك، ويتلقاه القلب بالعظمـة والأهميـة، فلهـذا يحضـر قلبك بتمامه في ذلـك المحضـر، ويحافـظ على جميـع خصوصـيات المجلس، ومخاطبات السلطان وحركاتـه وسـكناته. ويكـون قلبـك حاضرا في المحضر في جميع الأحوال، ولا يغفل عنه ولو للحظــة، وعلى خلاف ذلك إذا كان المخاطب غـير مهم، ويـراه القلب تافهـا فلا يحصل لك حضور القلب في المكالمـة معـه وتكـون غـافلا عن حالاته وأقواله) [2]

ومن خلال هذا المثال يبين سبب الغفلة التي تجعـل المصـلي غـافلا في صـلاته، غـير مسـتفيد من ثمارهـا العظيمـة في ترقيـة روحه، والعروج بها إلى اللـه، فيقـول: (ومن هنـا يعلم السـبب في عدم حضـور قلوبنـا في العبـادات وغفلتهـا عنهـا. فنحن لـو أهمتنـا المناجاة للحق تعالى ومناجاة ولي نعمنا بمقدار ما تهمنا المكالمــة مع مخلوق عادي ضـعيف لمـا حصـل لنـا هـذا القـدر من النسـيان والغفلة والسـهو، ومن المعلـوم جـدا أن هـذا التسـاهل والتسـامح ناشئ من ضعف الإيمان بالله تعالى وبالرسـول وبأخبـار أهـل بيت العصمة، بل هذه المساهلة ناشئة من التساهل بالمحضر الربــوبي ومقام القـدس للحـق تعـالى.. إن ولي النعم هـو الـذي دعانـا إلى مناجاته وحضرته بلسان الأنبياء والأولياء بل بقرآنه المقدس، وفتح لنا أبواب المكالمة والمناجاة معه) [3]

1() المرجع السابق، ص24.

2() المرجع السابق، ص24.

وهكذا نرى الخميني لا يذكر أبدا تلك المعاني التي يذكرها الطائفيون من الاهتمام بشكل الصلاة وحركاتها مع الغفلة عن حقيقتها، وإنما يولي كل اهتمامه لكيفية تحصيل حضور القلب، والخشوع، وذكر الله الذي هو المقصد الأعلى من الصلاة.

لهذا لا نراه في كتابه ذلك يناقش أي مذهب، أو يجادل أي فقيه، أو يسخر من أي صلاة، وإنما يشن نقده على تلك الصلاة الفارغة من محتواها، أو كما عبر عن ذلك بقوله: (.. كلما شرعنا في الصلاة التي هي باب من أبواب محضره الربوبي وحضور جنابه فكأنها فرصة لنا لنشتغل بالأفكار المتشتتة، والخواطر الشيطانية، فكأن الصلاة مفتاح الدكان أو آلة المحاسبة أو أوراق الكتاب، فلا يحتسب هذا إلا من وهن الإيمان وضعف اليقين دون غيرهما) [1]

ولهذا، فإن الحل الذي يراه لإعادة الحياة للصلاة، ليس هو البحث في كتب الفقهاء والمحدثين للترجيح بين الهيئات المختلفة، وإنما هو في تعظيم الله، فلا يمكن للمصلي أن يعظم الصلاة، وهو لا يعظم من يتوجه إليه بها، يقول في ذلك ـ مخاطبا مريده ـ: (يا أيها العزيز تفكر قليلا في حالاتك، وراجع أخبار أهل بيت العصمة، وشمر ذيل الهمة عن ساقيك، وفهم النفس بالتفكر والتدبر أن هذه المناسك وخصوصا الصلاة وبالأخص الفرائض منها سبب للسعادة والحياة في عالم الآخرة، ومنبع الكمالات ورأس مال الحياة في تلك النشأة، وبحسب الروايات الكثيرة في الأبواب المتفرقة وضرب من البرهان ومشاهدة أصحاب الكشف والعيان، إن لكل من العبادات المقبولة صورا غيبية بهية وتمثالا ملكوتيا أخرويا يصاحب الإنسان ويرافقه في جميع النشآت الغيبية ويساعده في جميع الشدائد، بل الجنة الجسمانية في الحقيقة هي الصور الغيبية الملكوتية للأعمال ومسألة تجسم الأعمال من الأمور التي لا بد أن تعد من الواضحات. والعقل والنقل يتوافقان

3() المرجع السابق، ص24.

1() المرجع السابق، ص25.

فيها. وتلك الصور الغيبية تابعة لحضور القلب وإقباله والعبادة التي لا يؤتى بها بتوجه من القلب وإقبالـه سـاقطة عن درجـة الاعتبـار، وغير مقبولة لجناب الحق) [1]

وهو يـورد في ذلـك الروايـات الكثـيرة عن أئمـة أهـل الـبيت وتعظيمهم للصلاة، ودعوتهم للخشوع فيها، ويذكر نمـاذج عن ذلـك الخشــوع، ومنهــا مــا رواه عن أبي جعفــر قــال: (كــان علي بن الحسين إذا قام إلى الصلاة تغير لونه، فـإذا سـجد لم يرفـع رأسـه حتى يرفض عرقا، وكان إذا قام في الصـلاة كأنـه سـاق شـجرة لا يتحرك منه إلا ما حركت الريح منه) [2]

وروى عن أبي حمزة الثمـالي قـال: (رأيت علي بن الحسـين يصلي، فسقط رداؤه عن منكبه، فلم يسوه حتى فـرغ من صـلاته، قال: فسألته عن ذلك فقال: ويحـك أتـدري بين يـدي من كنت، إن العبـد لا تقبـل منـه صـلاة إلا مـا أقبـل منهـا، فقلت: جعلت فـداك هلكنا، فقال: (كلا إن الله متمم ذلك للمؤمنين بالنوافل) [3]

وهنا نرى الفارق الكبير بين تلك الروايـات الـتي يسـتند إليهـا الطائفيون في تفضيل صـلاتهم على صـلاة غـيرهم من المؤمـنين، مع أنها لا تهتم إلا بفروع وهيئات وقع فيها الخلاف بين المسـلمين، وبين تلك الروايات التي أوردها الخميني والتي تجعل الفـوارق بين صلوات المسـلمين مهمـا اختلفت مـذاهبهم هي في مـدى حضـور قلوبهم فيها، لا في حركاتهم وسكناتهم وهيئاتهم، التي لا يؤاخـذون عليها ما داموا يتبعون فيها من يثقون في اجتهاده وفقهه.

ولا يكتفي الخميني بإيراد تلك الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت وتحليلها، وإنما ينقل أيضا تجارب العـارفين ممن سـلك على أيديهم؛ فيقول: (كـان الشـيخ العـارف الكامـل شـاه آبـادي روحي

1() المرجع السابق، ص25.

2() المرجع السابق، ص27، والرواية من كتاب [أسرار الصلاة] للشهيد الثاني.

3() المرجع السابق، ص27، والرواية من كتاب [أسرار الصلاة] للشهيد الثاني.

فداه يقول: (إن الإنسان في حال الذكر لا بد أن يكون كمن يمـرن الطفل على التكلم، ويلقنه ليتكلم، فكـذلك على الإنسـان أن يلقن القلب الـذكر، ومـا دام الإنسـان ذاكـرا باللسـان ومشـغولا بتعليم القلب فالظاهر يساعد البـاطن، فـإذا انفتح لسـان القلب فيسـاعد الباطن الظاهر، كما أن تلقين الطفل أيضا كذلك، فما دام الإنسان يلقنــه الكلام فهــو يســاعده وإذا أجــرى الطفــل ذلــك الكلام على لسـانه فيـدب في الإنسـان نشـاط يـذهب بـالتعب السـابق. ففي البداية يساعده المعلم وفي النهاية يأخذ المعلم العون والمساعدة منه. وإذا واظب الإنسـان في الصـلاة والأذكـار والأدعيـة على هـذا الترتيب مدة فإن النفس تعتاده وتكون الأعمال العبادية كالأعمــال العادية لا يحتاج لحضور القلب فيهـا إلى أعمـال الرويـة بـل تكـون مثل الأمور الطبيعية المعتادة)[1]

ولا يكتفي الخميني بتلك الوصايا والنصائح العامة، وإنمـا نـراه يضع الحلول والآليات التنفيذية لكل قضية يطرحها، مثلما هو شأنه في جميـع المسـائل، فهـو في كتابـه عن أعمـاق الصـلاة، يتنـاول الصلاة ركنا ركنا، بل يتناول شروطها ومسـتحباتها، ويـبين المعـاني المرتبطة بها.

ومن ذلك مثلا قوله عند حديثه عن [أسرار القيام]: (هـو عنـد الخاصة إقامة الصلب في الحضرة المقدسة للحق، وتشمير الذيل لإطاعة الأمر، والخروج من التدثار، والقيام بالإنذار {يَاأَيُّهَـا الْمُـدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر: 1 ـ 4] والاستقامة في الأخلاق، والعـدل في الملكـات، وعـدم الميـل إلى الإفراط والتفريط.. ومن أعلى مراتب الإيمـان الوقـوف بين يـدي اللــه على نحــو لا يغلب الخــوف على الرجــاء، ولا الرجــاء على الخوف، ولا يصل الصبر إلى مقام التجلد، فإنـه في مـذهب الأحبـة من أشد المنكـرات.. ولا يكـون الجـزع إلى حـد الإفـراط المنـافي للرضا، ويكون الاطمئنان على نحو يرى معـه يـوم الجـزاء والوعـد والوعيد قائما)[2]

[1] المرجع السابق، ص29.

ومن ذلك قوله عند حديثه عن [أسرار النية]: (النية عند العامة العزم على الطاعة خوفا أو طمعا.. وعند أهل المعرفة العزم على الطاعة هيبة وتعظيما (فاعبد ربك كأنك تراه، وإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وعند أهل الجذبة والمحبة العزم على الطاعة شوقا وحبا.. وعند الأولياء العزم على الطاعة تبعا وغيرا بعد مشاهدة جمال المحبوب استقلالا وذاتا والفناء في الجناب الربوبي ذاتا وصفة وفعلا) [1]

ومن ذلك قوله عند الحديث عن [أسرار الركوع]: (هو عند الخاصة عبارة عن الخروج من منزل القيام بالأمر والاستقامة في الخدمة المستلزم للدعوى عند أهل المعرفة وللخيانة والجناية عند أهل المحبة، والدخول في منزل الذل والافتقار والاستكانة والتضرع منزل المتوسطين، وعند أصحاب القلوب عبارة عن الخروج عن مقام القيام لله إلى مقام القيام بالله، وعن مشاهدة القيومية إلى مشاهدة أنوار العظمة، وعن مقام توحيد الأفعال إلى مقام توحيد الأسماء، وعن مقام التدلي إلى مقام قاب قوسين، كما أن السجود هو مقام (أو أدنى) [2]

وهكذا نجده يتناول الصلاة جزءا جزءا، ويبين مراتب السالكين والعارفين في التعامل معها، وهو يستند في ذلك كله لما ورد في القرآن الكريم، أو أحاديث رسول الله ﷺ، أو الروايات الواردة عن أهل بيت النبوة، أو التجارب الروحية التي استفادها من شيوخه.

ومثله، نرى الخامنئي في كتابه عن الصلاة، والذي سماه [من أعماق الصلاة] يتحدث عن الصلاة باعتبارها أكبر محرك روحي للإنسان، وأنها لا تؤدي أغراضها الشرعية إلا إذا أقامها صاحبها بحسب ما وصفته الشريعة، لا في شكلها وحركاتها فقط، وإنما

2() المرجع السابق، ص72.

1() المرجع السابق، ص73.

2() المرجع السابق، ص94.

في معانيها وأعماقها، يقـول في ذلـك: (الإسـلام في صـميم الأمّـة يحث الجسم والفكر والروح الإنسانية على العمل، ويستخدم هـذه الثلاثة بأجمعها لإسعادها، والصلاة أيضاً تصنع هذا الشيء نفسه مع الفرد، إذ إنّه عند الصلاة يكون كلّ من جسمه وروحـه وفكـره في حال العمل والفعالية: الجسم: بحركات اليدين والرجلين واللسـان والركوع والجلوس والسجود.. والفكر: بالتفكر في مضامين ألفاظ الصلاة التي تشير عموماً إلى الأهداف والوسائل واجتياز دورة من التأمـل والرؤيـة الإسـلامية بشـكل مجمـل.. والـروح: بـذكر اللـه والتحليق في جوّ من المعنويات الروحية، ومنع القلب من الركـون إلى التفاهـات والفـراغ، وغـرس بـذرة الخشـوع وخشـية اللـه في الروح)[1]

ولذلك فإن الصـلاة ــ بحسـب رؤيـة الخـامنئي ــ هي خلاصـة الدين، ففيها (الجمـع بين الـروح والجسـم، وبين المـادة والمعـنى، وبين الــدنيا والآخــرة، ســواء في اللّفــظ أو في المحتــوى أو في الحركات)[2]

والمسلم المؤدي للصلاة بذلك الشكل (يعمـل جميـع طاقاتـه في طريق تعاليه، يعني أنّه يستعمل في آن واحـد جميـع مكانياتهـا الجسمية والفكرية والروحية في هذا الأمر) [3]

ومثلما فعل الخميني في شرحه لأعماق الحركات التي تـؤدى في الصلاة، نرى الخامنئي يفعل نفس الشيئ، ولكن بتبسيط أكبر، مراعـاة لنـوع المخـاطبين، فهـو يقـول في أسـرار التكبـير: (يبـدأ المصلي مناجاته بهذه الجملة [الله أكبر]، ولأجل الدخول في عمل عظيم يوضـع مـدخل مفعم بالعظمـة [اللـه أكـبر] من أن يوصـف، أكبر من أن يقاس بالأربـاب المتخـذة على مـرّ العصـور، أكـبر من

1() من أعماق الصلاة، الخامنئي، ص14.

2() المرجع السابق، ص14.

3() المرجع السابق، ص14.

جميع القدرات والقوى التي يمكن أن يخشاها الإنسان أو يطمع فيها، وأكبر من أن يتمكن شخص من نقض قوانينه) [1]

ثم يذكر تأثير هذه الكلمة في نفس المقيم للصلاة المتذوق لمعاني التكبير؛ فيقول: (إذا أدرك العبد هذه السنن، وانتخب في ضوئها طريق سعيه وجدّه، فأيّ قوة عجيبة يحتويها عند استذكاره أنّ الله أكبر، وأيّ أمل مفعم يعيشه، إنّه يشعر بشكل كامل بأن جهوده كانت موفقة، وأنّ عاقبة عمله خير، وينظر إلى مستقبله وطريقه بسعادة وأمل) [2]

ويتحدث عن أسرار قراءة البسملة التي لها أهميتها الخاصة في الصلاة وغيرها في الفقه الشيعي؛ فيقول: (هذه الجملة، (البسملة)، هي مقدّمة جميع السور، مقدّمة الصلاة، مقدّمة جميع أعمال الإنسان المسلم وحركاته، أي إنّ بداية جميع الأعمال تتمّ باسم الله فقط.كلّ ما للإنسان، وجميع مظاهر عيشه وحياته هي باسم الله. يفتتح المسلمون أيّامهم باسم الله، وباسمه يختتمون أعمالهم في النهار، وبذكره يأوون إلى فراشهم، وبعونه يرفعون رؤوسهم منه ليباشروا أعمالهم اليوميّة من جديد. وفي نهاية المطاف يودّع المسلم الحياة باسمه وذكره، ويمضي إلى الدار الخالدة)[3]

وقد تمنيت لو أن مثل هذه الكلمات وصلت إلى أولئك المغرضين الطائفيين الذين يرمون الإيرانيين وقادتهم بالشرك، وهل يمكن أن يكون مشركا من تكون حياته كلها بسم الله، ومشاعره كلها متوجهة بصدق إلى الله؟

ويتحدث الخامنئي عن أسرار الفاتحة التي لا تصح الصلاة من دونها، فيقول: (كلّ حمد وثناء يختصّ بالله، لأنّ كلّ عظمة وجلال

1() المرجع السابق، ص17.

2() المرجع السابق، ص14.

3() المرجع السابق، ص22.

منـه، وكـلّ رحمـة تصـدر عن جانبـه، وهـو مَجمَـع كـلّ الخصـال الحميدة، ومن فيضِ وجوده تصدُرُ كـلّ الخـيرات والحسـنات وكـلُّ جميل وإحسـان، فيكـون حمـده، إذاً، حمـداً للإحسـان والمعـروف، وموجّهاً لجمع الجهود التي تبذل في طريق الإحسان) [1]

ويخاطب المغرورين الذين يشـعرون بـأن كـل شـيء عنـدهم من حولهم وقوتهم، فيقول: (على كل من يـرى في نفسـه خصـلة من الخصال المحمودة أن يعـدّها من فيض اللـه ورحمتـه وعطفـه ولطفه، إذ إنّ الله هو الذي أودع فطـرة الإنسـان بـذور الإحسـان، وجعل من سجاياه تقبّل الاحسـان والفضـيلة، ومنحـه القـدرة على التصميم، وهو وسيلة أخرى في طريق الطيبة والإحسان، إنّ هـذه الرؤية تغلق بوجـه الإنسـان أبـواب العجب والغـرور، وتحـول دون تعطيل الخصال الحميدة، والقدرات الخيّرة فيه) [2]

ثم يتحدث عن أسرار قوله تعالى: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحـة: 2] فيقـول: (وفي جملـة (ربّ العـالمين) نستشـعر وجـود العـالم والعوالم الأخـرى وترابطهـا؛ فيحس المصـلي أنّ وراء هـذا العـالم ووراء رؤيته الضيقة، وخلف هذا الطوق الذي افترضه لحياته، توجد عوالم وأفلاك ومجرّات أخرى، وأنّ ربّه ربّ جميـع هـذه الكائنـات، إنّ هـذا الشـعور يميت فيـه النظـرة الضـيّقة، القصـيرة المـدى، ويمنحه الجرأة وروح التنقيب والبحث، والإحساس بالفرح لعبوديته لله تعالى، وتبدو له عظمة عبادة اللـه وجلالهـا العجيب، ومن جهـة أخرى يرى جميع الكائنات؛ البشر والحيوانات والنباتات والجمادات والسماوات، وعوالم الوجود التي لا تحصـى، كلّهـا مخلوقـات للـه، وأنّه هو مديرها ومدبّرها، ويفهم انّ ربّـه ليس فقـط رب لعرقـه أو شعبه أو للإنسانية بأجمعها، بل هو أيضاً رب تلـك النملـة الصـغيرة وتلــك النبتــة الضــعيفة، ربّ الســموات والمجــرات والكــواكب. وبإدراكه لهذه الحقيقة يشـعر بأنّـه ليس وحيـداً، ويعلم أنّـه متصـل بجميع ذرّات العوالم، وجميع الكائنـات الدقيقـة والكبـيرة، وبجميـع

1() المرجع السابق، ص22.

2() المرجع السابق، ص14.

الناس، وإنّ الناس إخوته والمسافرون معه، وإنّ هذه القافلة العظيمة متجهة بأجمعها نحو هدف واحد) [1]

ويذكر هذه المعرفة، فيقول: (إن هذا الارتباط والاتصال يجعله يرى نفسه مكلّفاً وملتزماً بالنسبة لجميع الكائنات، مكلّفاً بهداية الناس ومعونتهم، وبمعرفة بقية الموجودات واستخدامها في الطريق الصحيح والمناسب للهدف من خلقها) [2]

وهكذا يتحدث عن كل كلمة أو حركة من حركات الصلاة، يبين المشاعر التي يشعر بها المؤمن، وتأثيرها في سلوكه، ولا يمكننا ذكر كل ذلك هنا، على الرغم من جمال المعاني والأسرار التي ذكرها، والتي لا نرى في خطابه فيها تميزا بين أي مدرسة من المدارس الإسلامية.

وأحب أن أذكر هنا قوله في المشاعر المرتبطة بقراءة المؤمن لقوله تعالى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاتحة: 5]، باعتبارها رسالة لكلا الجناحين اللذين يتوجهان لإيران وقادتها بكل أنواع التكفير، أولهما للسلفيين الذين يصورون إيران وقادتها بكونهم مشركين، وثانيهما لأولئك الحركيين الذين تصوروا أنهم وحدهم من يفهم القرآن وأعماقه الحركية.

يقول الخامنئي في المشاعر المرتبطة بقراءتها: (إنّ المصلي بتلفظه هذه الجملة يفكّ قيود عبودية غير الله عن يديه ورجليه ورقبته، ويجيب داعي الله، ويرفض مدّعي الألوهية الذين كانوا على مرّ التاريخ السبب في جعل شريحة كبرى من البشر مقيدين بأغلال العبودية والاستضعاف والأسر، ويقرب نفسه وجميع المؤمنين بالله أكثر إلى طاعة الله والانصياع لأوامره. والخلاصة أنّه بقبوله العبودية لله يتحرر من جميع العبوديات الأخرى وبذلك يسلك نفسه في سلك الموحدين الحقيقيين) [3]

1() المرجع السابق، ص23.

2() المرجع السابق، ص23.

ثم يفصل آثار ذلك على الحياة جميعا، فيقول: (إنّ الاعتراف بأنّ العبودية منحصرة بالله فقط هو واحد من أهم الأصول الفكرية والعملية في الإسلام وجميع الأديان السماوية، والذي يعبّر عنه (انحصار الألوهية بالله)، أي أنّ الله فقط هو الذي ينبغي أن يكون معبوداً، وأن لا يعبد أحد سوى الله، لقد كان هناك دوماً من لا يفهمون هذه الحقيقة بشكل صحيح، فكانوا يستنتجون منها أموراً خاطئة ومحدودة، ولذا وقعوا غافلين في عبوديّة غير الله؛ إنّهم ظنّوا أنّ عبادة الله تكون فقط بتقديسه ومناجاته، وبما أنّ هؤلاء كانوا يصلّون لله ويناجونه فقط، فكانوا على يقين كامل من أنهم لم يعبدوا سوى الله) [1]

ثم يبين شمولية العبودية لله كل مناحي الحياة، فيقول: (إنّ العبادة في اصطلاح القرآن والحديث عبارة عن (الطاعة والتسليم والانقياد المطلق) للأمر والقانون والنظام الذي يوجَّه للإنسان في أيّ مقام أو قدرة، سواء كان هذا الانقياد وهذه الطاعة مع التقديس والمناجاة أم من دونهما، وعلى هذا فكلّ الذين ينصاعون للنظم والقوانين والأوامر الصادرة من أية قدرة غير الله تعالى، هم عباد تلك الأنظمة والموجدون لها، ولو أنّه ترك بعضاً من شريعة الله، وعمل ببعض آخر. وأما من لا يعمل البتة بقانون الله سبحانه، فإنّه سيكون كافراً متجاهلاً الحقيقة الواضحة والساطعة لوجود الله، منكراً إياها اعتقاداً أو عملاً) [2]

وبهذا فإن الصلاة عند القادة الروحيين للجمهورية الإسلامية الإيرانية ليست مجرد شعيرة تؤدى، وإنما هي منهج حياة، يحمل كل التصورات التي يقوم عليها الإسلام، بجوانبه الروحية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية وغيرها.

2 ـ الاهتمام بقراءة القرآن الكريم وتدبره:

3() المرجع السابق، ص26.

1() المرجع السابق، ص27.

2() المرجع السابق، ص28.

سبق وأن ذكرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب مدى اهتمام الإيرانيين بالقرآن الكريم قراءة وتفسيرا، وكيف أن معظم الثروة التفسيرية بأنواعها المختلفة تدين لها، ولعلمائها في القديم والحديث.

وذكرنا تفاهة تلك الشبهات التي يرميها المغرضون، والتي تجعل للإيرانيين قرآنا غير قرآن المسلمين، ومصاحف غير مصاحفهم، وقلنا: إن كل ذلك زور وبهتان، لا يدل عليه الواقع، ولا التاريخ.

وسنذكر هنا ـ باختصار شديد ـ مدى سمو التعامل الذي يبديه المشروع الحضاري الجديد لإيران للقرآن الكريم، ولا نبالغ إن قلنا: إن هذا المشروع هو مشروع قرآني بالدرجة الأولى، ذلك أنه يستمد فلسفته النظرية وتطبيقاته العملية من القرآن الكريم، وهو يعتبر الأحاديث النبوية الشريفة، والروايات الواردة عن الأئمة تفسيرا وبيانا وتأكيدا للمعاني القرآنية، ولا يعارضه بها، مثلما تفعل بعض المدارس السنية والشيعية الإخبارية التي تؤخر القرآن الكريم، وترمي بمعانيه الكثيرة بسبب تقديمها لبعض الأحاديث أو الروايات.

ولهذا نجد القادة الفكريين للثورة الإسلامية مثل الخميني والخامنئي ومطهري ومصباح يزدي وجوادي آملي والسبحاني ومكارم الشيرازي وغيرهم كثير، يذكرون في مجالسهم، وعند كل قضية يطرحونها آيات من القرآن الكريم ينطلقون منها، ليؤسسوا عليها بعد ذلك مباحثهم، بل إنهم يخصون القرآن الكريم بجوامع في التفسير، تدل على عمق تعاملهم معه.

وبناء على ذلك، نرى اهتمامهم بالدعوة لقراءة القرآن الكريم للتحقق بالطهارة النفسية، والسمو الروحي، ذلك أن القرآن الكريم حسبما يرد في تعابيرهم هو المعراج الموصل إلى الله.

وقد ذكر بعض المقربين من الخميني مدى عشقه للقرآن الكريم، فقال: (كان يقرأ القرآن بعد صلاة الفجر، وقبل صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقلما اتفق أن زرناه في هذه

الأوقات دون أن نراه مستغرقا بتلاوة القـرآن الكـريم، كـان يقـرأ يوميا عشرة أجزاء من القرآن، وهذا يعـني أنـه كـان يختم القـرآن كل ثلاثة أيام)[1]

وهكذا نجده في كل الآثـار الـتي نقلت عنـه، أو كتبهـا بنفسـه تلـك الشـفافية الروحيـة الـتي يتحـدث بهـا عن القـرآن الكـريم، باعتباره الحبل الممدود من الله لإنقاذ عبـاده وتخليصـهم والعـروج بهم.

ومن أحاديثـه الجميلـة الـتي يـرغب فيهـا شـعبه في قـراءة القرآن الكريم، والتعمـق في معانيـه، قولـه: (القـرآن الكـريم هـو آيات إلهية، والغرض من البعثة هـو المجيء بهـذا الكتـاب العظيم، وتلاوة هذا الكتاب العظيم والآية الإلهية العظيمـة، ورغم أن جميـع العـالم هـو آيـات الحـق تعـالى، لكن القـرآن الكـريم هـو عصـارة الخليقة، وعصارة الأشـياء الـتي يجب أن تتم في البعثـة، فـالقرآن الكـريم عبـارة عن مائـدة أعـدها البـاري تبـارك وتعـالى للبشـر بواسطة نبيه الأكرم، ليستفيد كل إنسان بمقدار استعداده)[2]

وفي هذه الكلمات أبلغ رد على أولئك الإخباريين من الشـيعة الـذين يحقـرون القـرآن الكـريم، ويعتبرونـه في المرتبـة الثانيـة، والثقـل الأصـغر، وفيـه رد كـذلك على أولئـك الطـائفيين الـذين يصورون للعامة بـأن الإيرانـيين لا علاقـة لهم بـالقرآن، ولا اهتمـام لهم به.

والخميني يستعمل كل الوسائل لترغيب كل شعبه بطبقــاتهم جميعا ـ المثقفين منهم والعوام ـ في الاستفادة من القرآن الكريم باعتباره كتابا للجميع، ويعطي كل شخص بحسب قابليتـه، فيقـول: (هذا الكتـاب وهـذه المائـدة الممتـدة في الشـرق والغـرب، ومنـذ زمان الوحي وحتى يوم القيامة، هو كتاب يستفيد منـه كـل النـاس الجاهل والعالم والفيلسوف والعارف والفقيـه، والكـل يسـتفيدون

---

[1] الإمام قدوة، ص83..

[2] منهجية الثورة الإسلامية ص91..

منه)[1]

ثم يفصل ـ بتحليل عرفاني جميل ـ كيفية حصول ذلك؛ فيقول: (أي أنه في الوقت الذي هو كتاب نازل من مرتبة الغيب إلى مرتبة الشهود، ومنبسط عندنا نحن الموجودون في عالم الطبيعة، في نفس الوقت الذي هو فيه منزل من ذلك المقام، ووصل إلى الموضع الذي يمكننا الاستفادة منه، وإنه في الوقت الذي يحتوي على مسائل يستفيد منها جميع الناس الجاهل والعارف والعالم وغير العالم، فإنه يحتوي على مسائل تختص بالعلماء الكبار والفلاسفة العظام، والعرفاء الكبار، والأنبياء والأولياء، إذ أن بعض مسائله لا يتمكن من دركها سوى أولياء الله تبارك وتعالى، إلا من خلال التفسير الوارد عنهم ويستفيد منه الناس بمقدار استعداداتهم، وثمة مسائل يستفيد منها الفلاسفة والحكماء الإسلاميين ومسائل يستفيد منها الفقهاء الكبار، وهذه المائدة عامة للجميع، وكما أن هذه الطوائف تستفيد منه فإن فيه أيضا المسائل السياسية والاجتماعية والثقافية والعسكرية وغير العسكرية، إذ أن جميعا موجودة في هذا الكتاب المقدس)[2]

وهو يكرر هذا المعنى كل حين، ليرد على أولئك الإخباريين الذين يتصورون أن القرآن الكريم لا يمكن تناوله إلا من خلال العترة، ومثله أولئك السلفيين من المدرسة السنية الذين يحجرون فهم القرآن أو تفسيره إلا للسلف، ولذلك يذكر أن (الغرض من نزول هذا الكتاب المقدس، ومن بعثة النبي الأكرم هو لكي يصبح هذا الكتاب في متناول أيدي الجميع، حتى يستفيدون منه بمقدار سعتهم الوجودية والفكرية)[3]

وهو يتألم لتقصير الأمة في القرآن الكريم، أو تحريفها

---

[1] المرجع السابق.

[2] المرجع السابق.

[3] المرجع السابق.

لمعانيها، فيقـول: (ومـع الأسـف فلم نتمكن نحن ولا البشـرية، ولا علماء الإسلام الاستفادة من هذا الكتاب المقـدس بالمقـدار الـذي ينبغي الاستفادة منه)[1]

ويكـرر دعوتـه للجميـع بـأن يحيـوا المعـاني القرآنيـة بالتـدبر والاعتبار ليستنبطوا منها كل شـؤو ن الحيـاة، فيقـول: (يجب على الجميـع اسـتخدام أفكـارهم، وتسـخير عقـولهم نحـو هـذا الكتـاب العظيم حتى نتمكن من الاستفادة منه بمقدار استعدادنا وكمـا هـو عليـه، فـالقرآن جـاء لتسـتفيد منـه جميـع الطبقـات كـل بمقـدار استعداده، وطبعا فإن بعض الآيـات لا يمكن أن يفهمهـا إلا رسـول اللـه ﷺ والمتعلم بتعليمـه ويجب علينـا فهممهـا بواسـطتهم، وإن الكثير من الآيات الأخرى هي في متناول أيدي الجميـع، حيث يجب عليهم استخدام أفكارهم وعقولهم ليستفيدوا منها مسائل للحيـاة، سواء في هذه الدنيا أو الحياة الأخرى)[2]

وهو يـذكر أن الهـدف من قـراءة القـرآن الكـريم ليس فقـط اسـتنباط شـؤون الحيـاة، وإنمـا قبـل ذلـك وبعـده تزكيـة النفس وتطهيرها، وهو يستنبط هذا من قولـه تعـالى: {لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولًا مِنْ أَنْفُسِـهِمْ يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ} [آل عمـران: 164]، ويعلـق عليها بقوله: (فقد تكون هذه هي الغاية من التلاوة، فالتلاوة تكـون لأجل التزكية والتعليم، وتعليم الجميع.. تعليمهم الحكمـة الـتي هي من هذا الكتاب أيضا، إذن فهدف البعثـة هـو نـزول الـوحي ونـزول القـرآن، وهـدف تلاوة القـرآن على البشـر هـو لـيزكوا أنفسـهم وينقـذوا نفوسـهم من هـذه الظلمـات، حـتى تتمكن أرواحهم وأذهانهم بعد ذلك أن تفهم الكتاب والحكمة، فالهـدف هـو التزكيـة لأجل فهم الكتـاب والحكمـة فلا يسـتطيع أي إنسـان وأي نفس أن تدرك هذا النور المتجلي من الغيب المتـنزل إلى مرتبـة الشـهادة)

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

[1]

وهو بهذا يرد على أولئك الحداثيين الذين ظهروا في عصــره، وفي عصرنا، والذين راحوا يستعملون أهواءهم ومناهجهم البشرية في فهم القرآن الكريم، باعتباره نصا عاديا كسائر النصـوص، وهـو مـا حــرمهم من فهم القــرآن، ذلــك أنــه لا يفهمــه إلا من عــرف مصدره، وعظمته.

ولهذا، فإن الخميني يرى أن كل التفاسير لا تمثل القــرآن، أو لا يمكنها أن تحيط به، ذلك أنه كلام الله الذي يستحيل الإحاطة به، يقول في ذلك: (إن تفسير القرآن ليس من المهام الـتي يسـتطيع أمثالنا أداء حقها، بل إن علماء الطراز الأول ـ من العامة والخاصة ـ ألفوا على طوال التـاريخ الإسـلامي كتبـا كثـيرة في هـذا البـاب، ومساعيهم مشكورة بلا شك، ولكن كـل واحـد منهم لم يقم بـأكثر من تفسير احد وجوه القرآن الكريم وفقا لتخصصه والوقت الــذي كان لديه وحتى هذا فليس من المعلوم انه كان بشكل كامل)[2]

ثم راح يستعرض نماذج عن ذلك من التفاسير المختلفة الـتي ألفها العلماء من المدرستين السـنية والشـيعية، مبينـا أنهـا جميعـا مجرد فهوم محـدودة، وأن عطـاء القـرآن الكـريم دائم التـنزل، لا ينفذ أبدا، وأنه لا يحتاج سوى الوعاء الطـاهر الـذي يتقبـل معانيـه، ويتحمل تنزلاته.

وهو يرد على أولئك الذين لم تكتمـل لـديهم أدوات التفسـير، وإنما راحوا يتطفلون على القرآن، ويحملونه ما لا يحتمل، فيقـول: (وقد ظهر في الآونـة الأخـيرة أشـخاص ليسـوا من أهـل التفسـير أصلا أرادوا تحميل ما لديهم من أفكار على القرآن والسـنة، حـتى إن فئة من اليساريين والشـيوعيين عمـدت إلى التمسـك بـالقرآن أيضا لنفس أهدافهم التي لهم، وهؤلاء لا علاقة لهم أصلا بالتفسـير ولا بالقرآن، فما يريدونه هو خداع شبابنا بما يقدمونه لهم على أنه

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

هو الإسلام)[1]

وبناء على ذلك يفرق بين التـدبر الشخصـي للقـرآن الكـريم، وبين تفسيره، والذي لا يحق لأحد أن يتجرأ عليه ما لم تكتمل لديه أدواتـه، فيقـول: (لا ينبغي للـذين لم يصـلوا بعـد إلى المسـتويات العالية من النضوج العلمي أن يـدخلوا مضـمار التفسـير، فلا ينبغي للشـباب، غـير المطلـع على هـذه المسـائل، وعلى المعـارف الإسـلامية، والـذين لا إطلاع لهم على الإسـلام ــ اقتحـام ميـدان تفسير القرآن، وإذا حدث أن تطفل أمثال هـؤلاء لغايـات وأهـداف معينة، فلا ينبغي لشبابنا أن يولوا أهمية، أو يقيموا وزنا لمثـل هـذه التفاسير، فمن الأمور الممنوعة في الإسلام التفسير بـالرأي كـان يعمد أيا كان إلى فرض آرائه على القرآن، فليطبق المادي أفكاره على بعض الآيات القرآنية، ويفسر القرآن ويؤوله وفق رأيه، أو أن يعتمد أحد أصحاب الآراء المعنوية والروحية إلى تأويل كـل مـا في القرآن الكريم، ويفسره بما يعتقده هو، لـذا يجب علينـا أن نحـترز من كليهما من جميع هذه الجهات)[2]

والخميني مع اهتمامه الشديدة بالجوانب الروحيـة، والمعـاني العميقة في القرآن الكـريم، والـتي لا يصـل إليهـا إلا من سـار في طريق التزكية، ينتقد بشدة أولئك الذين يقصـرون القـرآن الكـريم على تلك المعاني، ويعزلونه عن التـأثير في الحيـاة، فيقـول: (بعـد مضي مدة من نزول الإسلام، اهتمت مجموعات مختلفـة من أهـل العلم بمعنويـات الإسـلام، وركـزوا أنظـارهم على تلـك الآيـات والروايـات المرتبطـة بالمعنويـات وتهـذيب النفس ومـا وراء الطبيعة.. استمر الوضع لفترة طويلة على هذه الشاكلة حيث كان الاهتمام معـدوما أو ضـعيفا بتلـك الأحكـام الاجتماعيـة والسياسـية وقضـايا السـاعة، وهـؤلاء وقعـوا من هـذا الطـرف أي اقتصـرت اهتمامـاتهم على هـذه المسـائل الاجتماعيـة والأحكـام السياسـية وقضايا الحكم فقط. أولئـك كـانوا ينظـرون إلى ذلـك الجـانب من

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

الورق لفترات سابقة كالفلاسفة والعرفاء والمتصوفة وأمثالهم، وكان كلامهم يدور حول بيان هذه المعنويات، ويدعون الناس إلى هذه الجهات المعنوية الإسلامية، حتى إن بعضهم حاول إرجاع الآيات أو الروايات الواردة بشأن الأمور الطبيعية والمتحدثة عن قضايا الاجتماع والسياسة إلى تلك الأمور المعنوية، ويعتبرون أن الجميع مرتبط بذلك الجانب، فهم كانوا ينظرون إلى الجانب الباطني للقرآن والإسلام... ينظرون إلى المعنويات فقط، ويغضون أبصارهم عن المواضيع والروايات الواردة بشأن الحكم الإسلامي، والسياسة الإسلامية، والقضايا الاجتماعية، وإعمار هذا العالم، وهذه هي الغفلة) 1

وهو لا يعتبرها غفلة فقط، وإنما يعتبرها غفلة عن الإسلام نفسه، ويعلل ذلك، بأنهم (ينظرون إلى الإسلام من زاوية واحدة فقط، أما الجانب الآخر وعالم طبيعته فإنهم لم يهتموا به، ولم يعلموا أن الإسلام يهتم بعالم الطبيعة أيضا، ويهتم بجميع تلك الأمور التي يحتاجها الإنسان، لذا فإن إحدى الابتلاءات التي ابتلى بها الإسلام هي أن هؤلاء الأشخاص أمثال المتكلمين، والأكثر منهم الفلاسفة، والأكثر منهم العرفاء والصوفية، أرادوا تفسير جميع الآيات الواردة في القرآن الكريم تفسيرا معنويا.. اهتموا بالباطن وغفلوا عن الظاهر)[2]

وفي كلماته هذه رد بليغ على أولئك الذين يصورون الخميني بصورة ذلك الغارق في متاهات العرفان والتصوف، ويرمونه بالغنوصية، وهو ناتج عن عدم قراءتهم لكل آثاره؛ فهم يبنون على بعض ما يقرؤون تصوراتهم، ويلزمونه بفهومهم، لا بواقع الحال، وإلا فإنه كما يقبل ما صح من المعاني العميقة للقرآن الكريم، والتي يذكرها الفلاسفة والعرفاء، لا يقتصر عليها، بل يرى من التقصير والغفلة الاكتفاء بها.

وهو كذلك يرد على الطرف المقابل الذي لا يتعمق في

1 منهجية الثورة الإسلامية ص79.

2() المرجع السابق.

المعاني القرآنية، ويتصور أن معانيها هي تلك المعاني الظاهرة المادية المحدودة، فيقول: (إن ابتلاء الإسلام أخذ منحنى آخر وهو أن شبابنا ومثقفينا وعلماءنا الذين تعلموا العلوم المادية، يحاولون تفسير جميع آيات القرآن والروايات الخاصة بالأمور المعنوية تفسيرا طبيعيا عاديا، وهؤلاء مهتمون بالإسلام أيضا، لكنهم غافلون أيضا، لأنهم ينظرون للإسلام من جانب واحد، وهاتان الطائفتان لم تفهمان الإسلام بمعناه الحقيقي، فالإسلام لا يدعوا إلى المعنويات فقط، ولا يدعوا إلى الماديات فقط، إنه يدعوا إلى كليهما، فقد جاء الإسلام والقرآن الكريم من أجل بناء الإنسان وتربيته في جميع أبعاده)[1]

ومن المعاني التي نرى اهتمام الخميني بها ما يطلق عليه [المقاصد الكبرى للقرآن الكريم]، وهو يلخص هذه المقاصد في قوله: (اعلم أن هذا الكتاب الشريف ـ كما صرح هو به ـ كتاب الهداية، وهادي سلوك الإنسانية ومربي النفوس وشافي الأمراض القلبية، ومنير طريق الإسلام إلى الله.. وبالجملة: فإن الله تبارك وتعالى ـ لسعة رحمته على عباده ـ أنزل هذا الكتاب الشريف من مقام قربه وقدسه لاستخلاص المسجونين في سجن الدنيا المظلم، وخلاص المغلولين بأغلال الآمال والأماني، وإيصالهم من حضيض النقص والضعف والحيوانية إلى أوج الكمال والقوة الإنسانية، ومن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملكوتيين، بل الوصول إلى مقام القرب وحصول مرتبة لقاء الله التي هي أعظم مقاصد أهل الله ومطالبهم، فمن هذه الجهة هذا الكتاب هو كتاب الدعوة إلى الحق والسعادة، وبيان كيفية الوصول إلى هذا المقام، ومحتوياته إجمالا هي ما له دخل في هذا السير والسلوك الإلهي، أو يعين السالك والمسافر إلى الله)[2]

ويذكر أن من مقاصد القرآن الكريم الكبرى بناء على ذلك المقصد تهذيب النفوس، وتطهير البواطن من أرجاس الطبيعة،

1() المرجع السابق.

2() الآداب المعنوية للصلاة ـ ص223..

وتحصيل السعادة، ولذلك يدعو إلى قراءة القرآن الكريم من هذه الزاوية لا من غيرها من الزوايا، والتي قد تنحرف عن مقاصده.

ويضرب المثل على ذلك بالقصص القرآني، فهو ليس قصصا للتسلية أو للتاريخ، وإنما هو للتربية والتهذيب، يقول في ذلك: (ولأجل هذه النكتة كررت القصص القرآنية كقصة آدم وموسى وإبراهيم وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فليس هذا الكتاب كتاب قصة وتاريخ، بل هو كتاب السير والسلوك إلى الله، وكتاب التوحيد والمعارف والمواعظ والحكم، والمطلوب في هذه الأمور هو التكرار لكي يؤثر في القلوب القاسية، وتأخذ منها الموعظة، وبعبارة أخرى إن من يريد أن يربي ويعلم وينذر ويبشر فلا بد له أن يرزق مقصده بالعبارات المختلفة والبيانات المتشتتة، فتارة في ضمن قصة وحكاية وأخرى في ضمن تاريخ ونقل، حينا بصراحة اللهجة وحينا بالكناية والأمثال والرموز حتى تتمكن كل من النفوس المختلفة والقلوب المتشتتة الاستفادة منها، وحيث أن هذا الكتاب الشريف لأجل سعادة جميع الطبقات وسلسلة البشر قاطبة، ويختلف هذا النوع الإنساني في حالات القلوب والعادات والأخلاق والأزمنة والأمكنة، ولا يمكن أن تكون دعوته على نحو واحد، فرب نفوس لا تكون حاضرة لأخذ التعاليم بصراحة اللهجة وإلقاء اصل المطلب بنحو عادي، ولا تتأثر بهذا النحو، فلا بد أن تكون دعوة هؤلاء وفق كيفية تفكيرهم، فيفهم إياهم المقصد، ورب نفوس لا شغل لها بالقصص والحكايات والتواريخ، وإنما علاقتها بلب المطالب، ولباب المقاصد، فلا يوزن هؤلاء مع الطائفة الأولى بميزان واحد، ورب قلوب تتناسب مع التخويف والإنذار، وقلوب لها الألفة مع الوعد والتبشير، فلهذه الجهة دعا الناس هذا الكتاب الشريف بالأقسام المختلفة، والفنون المتعددة، والطرق المتشتتة والتكرار لمثل هذا الكتاب لازم وحتمي، والدعوة والموعظة من دون تكرار وتفنن خارجة عن حد البلاغة، وما يتوقع منها وهو التأثير في النفوس لا يحصل من دون تكرار)[1]

1() المرجع السابق.

هذه مجرد نماذج عن دعوات الخميني لاستعمال القرآن الكريم للتهذيب والتربية وكل شؤون الحياة، وهو ما يؤكد ما ذكرنا من الطابع القرآني للثورة الإسلامية الإيرانية، وهو ما أتاح لها النجاح، لأنها ابتعدت عن كثير من الأطروحات الإخبارية التي تتعارض مع القرآن الكريم، وتجعلها أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع.

3 ـ الاهتمام بالدعاء والذكر:

مما تتميز به المدرسة الشيعية عن المدرسة السنية كثرة الأدعية والمناجيات، والتي يرويها الشيعة عن أئمتهم، وهي تقرأ إما في مناسبات مخصوصة، كالأدعية المرتبطة بالأيام والأحوال المختلفة، أو عامة تقرأ كل حين، ومنها كذلك ما يرتقي سنده إلى الأئمة إلى التواتر، ومنها ما ينزل إلى ما دون ذلك بكثير.

وهم ــ باعتبارها ــ من الأعمال المستحبة ــ لا يبالغون في البحث عن أسانيدها، ما دامت مضامينها لا تتناقض مع القرآن الكريم والسنة القطعية.

وقد حرص القادة الفكريين للجمهورية الإسلامية الإيرانية على الاهتمام بهذه الأدعية ونشرها في المساجد والقنوات الفضائية وغيرها، باعتبارها من أحسن وسائل التربية والرقي الروحي.

فمضامين تلك الأدعية تغني عن أكثر كتب العقائد والسلوك، ذلك أنها تعلم التضرع إلى الله، وكيفية مخاطبته، بالإضافة إلى كونها تحمل الكثير من المضامين الأخلاقية الرفيعة.

ولهذا نرى الخميني في كل حين يهتم بهذه الأدعية، ويرد على من يزهد فيها، بل يؤلف الكتب في شرحها، وقد قال في كتابه عن البسملة ينتقد أولئك الذين يزهدون فيها، ويرغبون عنها: (الذين يبعدون الناس الأدعية ـ كما فعل كسروي حيث دعا إلى يوم لحرق كتب العرفان وكتب الأدعية ــ هؤلاء لا يعرفون ما الدعاء، وما هي طبيعة تأثيره في النفوس، لا يفقهون أن جميع هذه الخيرات والبركات هي من قراء نفس هذه الأدعية، حتى

الذين يقرؤونها ـ بكيفية ضعيفة ـ ويرددون ذكر الله، ولو بصورة ببغاوية فإنهم يتأثرون بها، وهم خير من تاركيها)[1]

ويضرب المثل لذلك بالمصلين الذين لم يرتقوا إلى إقامة الصلاة أو إعطاءها حقها، ولكنهم مع ذلك أحسن حالا من الذين لا يصلون أصلا، يقول في ذلك: (المصلي ــ ولو وفق أدني مراتب إقامة الصلاة ـ هو خير من تاركها وأكثر تهذيبا.. راجعوا ملفات الجرائم، ولاحظوا نسبة مرتكبيها من طلبة العلوم الدينية ونسبة غيرهم من مرتكبي جرائم السرقة وشراب الخمر وغيرها، هناك في هذه الطائفة ـ المعممين ـ من تسلل إليهم ولا شك لكن هؤلاء ليسوا لا من هل الصلاة ولاغيرها تستروا بهذه الظاهر لاستغلاله فقط، أما أهل الدعاء والعاملون بشعائر الإسلام، فليست لهم ملفات جنائية مقارنة بالآخرين وإن كان هناك من شيء فهو قليل جدا)[2]

ويبين أثر الدعاء الذي غاب عن أذهان أولئك الذين دعوا إلى حرق كتب الأدعية، أو زهدوا فيها، قال: (للدعاء وأمثاله دخل وتأثير في نظم هذا العالم، فلا ينبغي أن يختفي الدعاء من أوساط المجتمع، لا ينبغي لشبابنا أن يعزفوا عن الدعاء، وليس من الصحيح الدعوة للعزوف عن الدعاء تحت شعار الدعوة لعودة القرآن، فهذا يعني تضييع الطريق إلى القرآن، هذه من الوساوس الشيطانية، فالشيطان يدعو إلى ترك الدعاء والحديث لفسح المجال للقرآن، يقول يجب أخذ القرآن والإعراض عن الحديث، وأمثال هؤلاء لا يستطيعون الأخذ بالقرآن، فهذه من وساوس الشيطان التي تخدع الإنسان) [3]

ويدعو هؤلاء إلى النظر إلى الواقع، ومن هو أكثر تأثيرا في

---

[1] تفسير البسملة (محاضرات معرفية) ص، 74ـ 75، 76، ط، 1ـ 1412 هـ - 1992م..

[2] المرجع السابق.

[3] المرجع السابق.

المجتمع هل أولئك المتكاسلين الذين زعموا الاكتفاء بالقرآن الكريم، أم الذين أخذوا الدين من جميع مصادره المقدسة، فيقول: (على هؤلاء الشباب أن يلاحظوا هل أن الذين كانوا من أهل الحديث والذكر والدعاء خدموا المجتمع أكثر، أم الذين لم يكونوا من أهل ذلك، وكانوا يزعمون (نحن أهل القرآن)، جميع هذه الخيرات والمبررات التي ترونها وجميع هذه الأوقاف المخصصة لمطلق الأمور الخيرية ولإعانة التي ترونها، وجميع هذه الأوقاف المخصصة لمطلق الأمور الخيرية ولإعانة الضعفاء هي من عمل هؤلاء المؤمنين من أهل الذكر والدعاء والصلاة لا من غيرهم، حتى الأعيان الأثرياء الذين بنوا ـ فيما مضى ـ المدارس والمصحات وأمثال ذلك إنما كانوا من أهل الصلاة، وهذا الأمر لا ينبغي أن يغيب عن أذهان الناس، بل على العكس يجب ترسيخه يجب جعل الناس متوجهين لله تعالى) [1]

وهو يذكر كل حين بأن نشر الأدعية والدعوة إليها هي أفضل السبل لتربية المجتمع وتهذيبه وتأهيله للوصول إلى الرقي الحضاري، يقول في ذلك: (إذا تجاوزنا كل هذه الأمور فإن الأدعية تعين الإنسان على الوصول إلى الكمال المطلق، وهي تعين على إدارة وتسيير أمور البلاد.. بهذه الأدعية وبهذه الأمور الواردة عن الله ورسوله تتم تربية المجتمع)[2]

وهو يخاطب هؤلاء الذين يزهدون الناس في الأدعية، والعودة إلى القرآن الكريم بما ورد في القرآن نفسه من الحض على الأدعية، ويقول: (إن كنتم تقرؤون القرآن فهو يمدح الدعاء ويدعو الناس له: {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} [الفرقان: 77]، إذن فالذين يدعون إلى ترك الدعاء والأخذ بالقرآن يرفضون القرآن أيضا)[3]

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

وبناء على هذا نرى الاهتمام الكبير من الجمهورية الإسلامية الإيرانية بالأدعية والمناجيات الكثيرة، ونشرها في المساجد وعبر وسائل الإعلام المختلفة، وتيسير الحصول على كتبها، بل توزيعها كهدايا مجانية، حتى أن الصحف تذكر أنه لا يكاد يوجد بيت في إيران ليس فيه أمثال هذه الكتب، وخصوصا [مفاتيح الجنان] الذي استوعب جميع كتب الأدعية.

وقد كان الخميني شديد الاهتمام به حتى أنه كان يدعو لتسليمه لكل مجاهد يلتحق بالجبهة، وقد أشاع الإعلام المغرض حينها، أي بين (1980-1988) بأن الخميني يوزع مفاتيح بلاستيكية للجنة على الشباب المتطوعين في الجيش الإيراني، بسبب العنوان الذي يحمله الكتاب.

وأحب أن أشير هنا إلى أن هذا الاهتمام بالدعاء بين الإيرانيين ليس وليد القادة الفكريين الحاليين فقط، وإنما كان قبل ذلك، بدليل أن أكثر الكتب التي ألفت في هذا المجال ألفها إيرانيون، وكانت من أكثر الكتب انتشارا.

ولعل أهمها كتاب [مفاتيح الجنان]، وهو أشمل كتاب للأدعية والزيارات، ألّفه الشيخ عبّاس القمي، ويشتمل على مجموعة كبيرة من الأدعية، والمناجيات، والزيارات، والأعمال الخاصّة بالأيام والشهور فضلاً عن الآداب والسّنن الدينية، وقد أرفق الشيخ عباس القمي كتابه الآخر [الباقيات الصالحات[بهامش كتابه مفاتيح الجنان، وطُبع الكتابان معاً.

وأحب أن أشير هنا ـ كذلك إلى ـ كتاب مهم في الأدعية تمنيت لو أن المدرسة السنية تبنته، وهو كتاب [الصحيفة السجادية] للإمام السجاد، وهو كتاب يشمتل على 54 دعاء ومناجاة، وهو مدرسة كاملة في العقائد والعرفان والسلوك، وقد كتب بلغة قوية جميلة مستمدة من اللغة القرآنية.

ولهذا الكتاب شأن كبير عند الشيعة، فهو يوضع في المرتبة التالية بعد القرآن الكريم ونهج البلاغة، ويسمى عندهم [زبور آل

---

(3) المرجع السابق.

محمد ﷺ] و[إنجيل أهل البيت]

وقد حوى الكتاب الكثير من المعـارف العليـا، كمعرفـة اللـه، وعالم الغيب، والملائكة، ورسالة الأنبياء، ومكانة الأنبياء، والفضائل الأخلاقيـة، والأمـور الاجتماعيـة والاقتصـادية، ونعم اللـه، وآداب الدعاء، وتلاوة القرآن، والصلاة.

ولمكانتـه الكبـيرة شـرح شـروحا كثـيرة، ذكـر الآغـا بـزرك الطهراني في الذريعة ما يقارب 50 شرحاً للصحيفة، من أشهرها: رياض السالكين لـابن معصوم المدني.

وقد رويت هذه الصحيفة بالأسانيد الكثيرة جـدا، والـتي بلغت حـد التـواتر: وقـد قـال الشـيخ أغـا بـزرك الطهـراني عنهـا: (هي الصحيفة الاولى التي يرجع سندها الى الامام زين العابدين.. والتي خصها الأصحاب بالذكر في إجازاتهم واهتموا براويتهـا منـذ القـديم وتوارث ذلك الخلف عن السلف وطبقة عن طبقة، وتنتهي روايتهـا الى الإمام الباقر وزيد الشهيد ابني الإمام زين العابدين)[1]

وذكـر الشـيخ محمـد تقي المجلسـي أن أسـانيدها تزيـد على ألف ألف سند (ما يساوي المليون) في نقل الصحيفة وروايتها[2]

وقال: (والذي رأيت من أسانيد الصحيفة بغـير هـذه الأسـانيد فهي أكثر من أن تحصى ولا شك في أنها من كلام سيد الساجدين أما من جهة الإسناد فإنها متواترة من طرق الزيدية أيضا)

بالإضـافة إلى ذلـك، فقـد رويت مقـاطع منهـا في المصـادر السـنية، مثـل سـبط ابن الجـوزي في خصـائص الأئمـة، والحافـظ سليمان بن إبراهيم القندوزي في ينابيع المودة [3].

1() آقا بزرك الطهراني، الذريعة، ج 15، ص 18.

2() المرعشي النجفي، الصحيفة السجادية، البلاغي، ص 11 المقدمة..

3() القندوزي، ينابيع المودة، ج 1 - 2، ص 599..

ومع كل هذا نجد إهمالا كبيرا لهذه الصحيفة من المدرسة السنية، في نفس الوقت الذي نجدهم يرددون بعض الأدعية الصوفية ذات المضامين الغريبة، واللغة الركيكة.

والسبب في ذلك كله هو تلك القطيعة بين المدرستين، وكأنهما دينان منفصلان، وقد ذكر بعضهم أن السيد المرعشي النجفي أرسل نسخة من الصحيفة مع رسالة إلى العلامة الشيخ الطنطاوي جوهري (توفي 1358 هـ) صاحب التفسير المعروف، فكتب في جواب رسالته: (ومن الشقاوة إنّا إلى الآن لم نقف على هذا الأثر القيّم الخالد في مواريث النبوة، وأهل البيت، وإنّي كلّما تأملتها رأيتها فوق كلام المخلوق، ودون كلام الخالق)[1]

وقد أثنى عليها من أهل السنة سبط ابن الجوزي في كتابه [خصائص الأئمة]، فقال: (إن لعلي بن الحسين زين العابدين حق التعليم على المسلمين في الإملاء والإنشاء وكيفية التكلم والخطاب وطلب الحاجة من الباري تعالى؛ فلولاه لم يكن ليعرف المسلمون آداب التحدث وطلب الحوائج من الله تعالى؛ إن هذا الإمام علَّم البشر كيف يستغفرون الله وكيف يستسقون ويطلبون الغيث منه تعالى وكيف يستعيذون به عند الخوف من الأعداء لدفع شرورهم)[2]

ومن نماذج الأدعية البليغة الواردة في الصحيفة السجادية، والتي لا نجد لها نظيرا في كل التراث السني للأسف، ما يسمى بالمناجيات[3] الخمسة عشر، وهي مناجيات تشمل معاني مختلفة مصنفة إلى خمسة عشر صنفا[4]..

---

[1] مقدمة المرعشي النجفي للصحيفة السجادية، ص 37.

[2] نقلاً: عن مقدمة المرعشي على الصحيفة، ص 43- 45.

[3] جمع مُنَاجَاة : مُنَاجَيَات، بقلب الألف إلى أصلها الياء، وذلك مثل: [مباراة ومباريات].

[4] ربما يكون الذي قام بذلك المؤلفون والمصنفون لا الإمام السجاد نفسه.

فمنها مناجاة التائبين.. وهي مناجاة تبدأ بهذا المقطع الجميل الذي يملأ النفس بجميع معاني العبودية والخضوع لله، وكأنها تعلم التائب كيف يقف بين يدي ربه متضرعا معترفا منبيا: (إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي وجللني التباعد منك لباس مسكنتي وأمات قلبي عظيم جنايتي فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي وياسؤلي ومنيتي، فوعزتك ماأجد لذنوبي سواك غافرا ولا أرى لكسري غيرك جابرا وقد خضعت بالإنابة إليك وعنوت بالاستكانة لديك، فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ وإن رددتني عن جنابك فبمن أعوذ، فوا أسفاه من خجلتي وافتضاحي ووالهفاه من سوء عملي واجتراحي)[1]

وثانيها مناجاة الشاكين، وهي مناجاة يتوجه فيها العبد إلى الله تعالى شاكيا إليه أعداءه الذين يحولون بينه وبين التوجه إليه، وأولهم النفس الأمارة بالسوء، يقول السجاد في مناجاته: (إلهي إليك أشكو نفسا بالسوء أمارة وإلى الخطيئة مبادرة وبمعاصيك مولعة ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك وتجعلني عندك أهون هالك كثيرة العلل طويلة الامل إن مسها الشر تجزع وإن مسها الخير تمنع ميالة إلى اللعب واللهو ومملوة بالغفلة والسهو تسرع بي إلى الحوبة وتسوفني بالتوبة)[2].. إلى آخر المناجاة التي تزرع في نفس تاليها تلك المعاني التي أكد عليها القرآن الكريم، والتي تختصر العداوة في النفس والشيطان والقلب القاسي الغليظ.

وثالثها مناجاة الخائفين، وهي مناجاة تختصر لتاليها كل المعاني التي تملأ قلبه بالخوف، بل ترفعه إلى مقامه الرفيع، وما يثمره من سلوك تحققي وتخلقي.. يقول السجاد في بداية هذه المناجاة: (إلهي أتراك بعد الايمان بك تعذبني أم بعد حبي إياك تبعدني أم مع رجائي لرحمتك وصفحك تحرمني أم مع استجارتي بعفوك تسلمني؟ حاشا لوجهك الكريم أن تخيبني! ليت شعري

1() بحار الأنوار: 94 / 142.

2() بحار الأنوار: 94 / 143.

أللشقاء ولدتني أمي أم للعناء ربتني؟ فليتها لم تلـدني ولم تربـني وليتــني علمت أمن أهــل الســعادة جعلتــني وبقربــك وجــوارك خصصتني، فتقر بذلك عيني وتطمئن لـه نفسـي. إلهي هـل تسـود وجوها خرت ساجدة لعظمتك، أو تخرس ألسنة نطقت بالثناء على مجدك وجلالتك..)[1]

ورابعهـا مناجـاة الـراجين، وهي مناجـاة تملأ القلب بمعـاني الرجاء في الله وفي فضله العظيم، لتضع المـداوم عليهـا في هـذا المقـام الرفيـع، ومـا يثمـره من قيم سـلوكية وعرفانيـة.. يقـول السجاد في مقدمة هذه المناجاة: (يا من إذا سأله عبد أعطاه وإذا أمل ماعنده بلغـه منـاه وإذا أقبـل عليـه قربـه وأدنـاه وإذا جـاهره بالعصيان ستر على ذنبه وغطـاه وإذا توكـل عليـه أحسـبه وكفـاه، إلهي من الذي نزل بك ملتمسا قراك فمـا قريتـه ومن الـذي أنـاخ ببابك مرتجيا نداك فما أوليته؟ أيحسن أن أرجـع عن بابـك بالخيبـة مصروفا ولست أعـرف سـواك مـولى بالاحسـان موصـوفا؟ كيـف أرجو غيرك والخير كله بيدك وكيف أؤمـل سـواك والخلـق والأمـر لك أأقطع رجائي منـك وقـد أوليتـني مـالم أسـأله من فضـلك، أم تفقرني إلى مثلي وأنا أعتصم بحبلك؟!)[2]

وخامسها مناجـاة الراغـبين، وهي مناجـاة تملأ القلب بالرغبـة في الله والتعرف عليه والسير إليـه، يقـول السـجاد في مقـدمتها: (إلهي إن كـان قـل زادي في المسـير إليـك فلقـد حسـن ظـني بالتوكل عليك وإن كان جرمي قد أخافني من عقوبتك فإن رجـائي قد أشعرني بالأمن من نقمتك، وإن كان ذنبي قد عرضني لعقابــك فقد آذنني حسن ثقتي بثوابك، وإن أنـامتني الغفلـة عن الاسـتعداد للقائك فقد نبهتني المعرفة بكرمك وآلآئك)[3]

1() بحار الأنوار: 94 / 143.

2() بحار الأنوار: 94 / 144..

3() بحار الأنوار: 94 / 145..

وسادسها مناجاة الشاكرين، وهي مناجاة ترفع القائل لها، والمداوم عليها إلى مقام الشكر، وتعرفه بحقيقته ومنازله، وفيها يقول السجاد: (إلهي أذهلني عن إقامة شكرك تتابع طولك وأعجزني عن إحصاء ثنائك فيض فضلك وشغلني عن ذكر محامدك ترادف عوائدك وأعياني عن نشر عوارفك توالي أياديك، وهذا مقام من اعترف بسبوغ النعماء وقابلها بالتقصير، وشهد على نفسه بالآمال والتضييع وأنت الرؤوف الرحيم البر الكريم الذي لا يخيب قاصديه ولا يطرد عن فنائه آمليه بساحتك تحط رحال الراجين وبعرصتك تقف آمال المسترفدين فلا تقابل آمالنا بالتخييب والاياس ولا تلبسنا سربال القنوط والابلاس)[1]

وسابعها مناجاة المطيعين لله، وهي مناجاة تحث على طاعة، وتعلم المناجي بها كيف يجعل الله مقصده الأعلى والأهم والأولى من كل شيء.. يقول السجاد فيها: (اللهم احملنا في سفن نجاتك ومتعنا بلذيذ مناجاتك وأوردنا حياض حبك وأذقنا حلاوة ودك وقربك واجعل جهادنا فيك وهمنا في طاعتك وأخلص نياتنا في معاملتك، فإنا بك ولك ولا وسيلة لنا إليك إلا أن)[2]

وثامنها مناجاة المريدين، وهي مناجاة التوجه الصادق لله، والإرادة الخالصة له، والتي عبر عنها قوله تعالى في وصف أصحاب رسول الله ﷺ الصادقين: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: 28]، وقد عبر السجاد في هذه المناجاة عن معنى هذه الإرادة وحدودها ووجهتها، فقال ـ مخاطبا الله تعالى ـ: (فأنت لا غيرك مرادي ولك لا لسواك سهري وسهادي ولقاؤك قرة عيني ووصلك منى نفسي وإليك شوقي وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي ورضاك بغيتي ورؤيتك حاجتي وجوارك طلبي وقربك غاية سؤلي، وفي مناجاتك روحي وراحتي وعندك دواء علتي وشفاء غلتي وبرد لوعتي وكشف كربتي، فكن أنيسي في وحشتى ومقيل عثرتي

[1] بحار الأنوار: 94 / 146..

[2] بحار الأنوار: 94 / 147..

وغافر زلتي وقابل توبتي ومجيب دعوتي وولي عصمتي ومغني فاقتي، ولا تقطعني عنك ولا تبعدني منك يا نعيمي وجنتي ويادنياي وآخرتي يا أرحم الراحمين)[1]

وتاسعها مناجاة المحبين، وهي مناجاة ممتلئة بمعاني المحبة لله، والشوق إليه والأنس به، وهي تضع صاحبها المدمن عليها في تلك المقامات العالية التي هي غاية آمال العارفين المحققين، والتي عبر عنها الله تعالى بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: 54].. يقول السجاد في هذه المناجاة: (إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا، إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك وأخلصته لودك ومحبتك وشوقته إلى لقائك ورضيته بقضائك ومنحته بالنظر إلى وجهك وحبوته برضاك، وأعذته من هجرك وقلاك وبوأته مقعد الصدق في جوارك وخصصته بمعرفتك وأهلته لعبادتك، وهيمت قلبه لإرادتك واجتبيته لمشاهدتك واخليت وجهه لك وفرغت فؤاده لحبك ورغبته فيما عندك وألهمته ذكرك وأوزعته شكرك وشغلته بطاعتك)[2]

وعاشرها مناجاة المتوسلين، وهي مناجاة يتوسل فيها الإمام زين العابدين لله تعالى بفضله وعطفه ورأفته وأسمائه الحسنى، ويستشفع فيها بالنبي ﷺ.. يقول فيها: (إلهي ليس لي وسيلة إليك إلا عواطف رأفتك ولا لي ذريعة إليك إلا عوارف رحمتك وشفاعة نبيك نبي الرحمة ومنقذ الامة من الغمة، فاجعلهما لي سببا إلى نيل غفرانك وصيرهما لي وصلة إلى الفوز برضوانك، وقد حل رجائي بحرم كرمك وحط طمعي بفناء جودك فحقق فيك أملي واختم بالخير عملي واجعلني من صفوتك الذين أحللتهم بحبوحة جنتك وبوأتهم دار كرامتك وأقررت أعينهم بالنظر إليك يوم لقائك

1() بحار الأنوار: 94 / 147.

2() بحار الأنوار: 94 / 148.

وأورثتهم منازل الصدق في جوارك)[1]

والحادية عشرة منها مناجاة المفتقرين، والتي يعبر فيها الإمام السجاد عن معنى الافتقار الخالص لله، والذي هو ذروة مقام المعرفة والتحقيق، وهو أساس كل القيم والأخلاق الرفيعة، يقول فيها السجاد: (إلهي كسري لايجبره إلا لطفك وحنانك وفقري لايغنيه إلا عطفك وإحسانك وروعتي لايسكنها إلا أمانك وذلتي لايعزها إلا سلطانك وأمنيتي لايبلغنيها إلا فضلك وخلتي لايسدها إلا طولك وحاجتي لايقضيها غيرك وكربي لايفرجه سوى رحمتك وضري لايكشفه غير رأفتك وغلتي لايبردها إلا وصلك ولوعتي لايطفيها إلا لقاؤك وشوقي إليك لايبله إلا النظر إلى وجهك وقراري لايقر دون دنوي منك ولهفتي لايردها إلا روحك وسقمي لايشفيه إلا طبك وغمي لايزيله إلا قربك وجرحي لايبرئه إلا صفحك ورين قلبي لايجلوه إلا عفوك ووسواس صدري لايزيحه إلا أمرك..)[2]

والثانية عشرة منها مناجاة العارفين، وهي مناجاة تدل على المنهج الحقيقي للتعرف على الله، وهو التوجه الخالص إليه، فلا يعرف بالله إلا الله، ولا يضع بذور الإيمان والمحبة في القلب غيره، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ [المجادلة: 22].. يقول السجاد في هذه المناجاة: (إلهي قصرت الالسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك وعجزت العقول عن إدراك كنه جمالك وانحسرت الابصار دون النظر إلى سبحات وجهك ولم تجعل للخلق طريقا إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك، إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم، فهم إلى أوكار الافكار يأوون وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون ومن حياض المحبة بكأس الملاطفة يكرعون وشرايع المصافات يردون، قد كشف الغطاء عن أبصارهم وانجلت ظلمة الريب عن

1() بحار الأنوار: 94 / 149..

2() بحار الأنوار: 94 / 149.

عقائدهم وضمائرهم وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم وسرائرهم وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم..)[1]

والثالثة عشرة منها مناجاة الذاكرين، وهي مناجاة تعلم الذاكر لله آداب الذكر والحضورمع الله، وتبين قيمته وأهميته ودوره في التحقق بمعرفة الله، يقول فيها السجاد: (إلهي لولا الواجب من قبول أمرك لنزهتك عن ذكري إياك على أن ذكري لك بقدري لابقدرك وما عسى أن يبلغ مقداري حتى أجعل محلا لتقديسك ومن أعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا وإذنك لنا بدعائك وتنزيهك وتسبيحك، إلهي فألهمنا ذكرك في الخلاء والملاء والليل والنهار والاعلان والاسرار وفي السراء والضراء وآنسنا بالذكر الخفي واستعملنا بالعمل الزكي والسعي المرضي وجازنا بالميزان الوفي، إلهي بك هامت القلوب الوالهة وعلى معرفتك جمعت العقول المتباينة فلا تطمئن القلوب إلا بذكرك ولا تسكن النفوس إلا عند رؤياك، أنت المسبح في كل مكان والمعبود في كل زمان والموجود في كل أوان والمدعو بكل لسان والمعظم في كل جنان، وأستغفرك من كل لذة بغير ذكرك ومن كل راحة بغير أنسك ومن كل سرور بغير قربك ومن كل شغل بغير طاعتك..)[2]

والرابعة عشرة منها مناجاة المعتصمين، وهي ترجمة لكل ما ورد في القرآن الكريم من الدعوة إلى اللجوء إلى الله، والفرار إليه، والاستعاذة به، والتحصن في حصونه.. يقول فيها السجاد: (اللهم يا ملاذ اللآئذين ويامعاذ العائذين ويامنجي الهالكين ويا عاصم البائسين وياراحم المساكين ويا مجيب المضطرين ويا كنز المفتقرين وياجابر المنكسرين ويامأوى المنقطعين ويا ناصر المستضعفين ويامجير الخائفين ويامغيث المكروبين وياحصن اللا جئين، إن لم أعذ بعزتك فبمن أعوذ وإن لم ألذ بقدرتك فبمن ألوذ؟ وقد ألجأتني الذنوب إلى التشبث بأذيال عفوك وأحوجتني

1() بحار الأنوار: 94 / 150.

2() بحار الأنوار: 94 / 151..

الخطايا إلى استفتاح أبـواب صـفحك ودعتـني الاسـأة إلى الاناخـة بفنـاء عـزك وحملتـني المخافـة من نقمتـك على التمسـك بعـروة عطفك، وما حق من اعتصم بحبلك أن يخذل ولا يليق بمن استجار بعزك أن يسلم أو يهمل؟..)[1]

والخامسة عشرة منها مناجاة الزاهدين، وهي مناجاة يسـتعيذ فيها السجاد من الدنيا وإغرائها وتلاعبها بأهلها، وهي تعلم المـدمن عليها التالي لهـا قيمـة الزهـد وأهميتـه ودوره في السـير التحققي والتخلقي، يقول فيها السجاد: (إلهي أسكنتنا دارا حفرت لنـا حفـر مكرها وعلقتنـا بأيـدي المنايـا في حبائـل غـدرها فإليـك نلتجي من مكائد خدعها وبك نعتصم من الاغترار بزخارف زينتها فإنها المهلكة طلابها المتلفة حلالها المحشوة بالآفات المشحونة بالنكبـات، إلهي فزهدنا فيهـا وسـلمنا منهـا بتوفيقـك وعصـمتك وانـزع عنـا جلابيب مخالفتـك وتـول أمورنـا بحسـن كفايتـك وأوفـر مزيـدنا من سـعة رحمتك وأجمل صلاتنا من فيض مواهبك..)[2]

هذه مجرد نماذج ومقتطفـات قليلـة جـدا بجنب ذلـك الـتراث الكبير الذي تركه لنا السجاد، وتركته لنا العترة الطاهرة من أدعية وأذكار ومناجاة.. كلها تمتلئ بالمعاني السامية الرفيعة..

وهي جميعــا تخلــو من كــل تلــك الأكــاذيب الــتي يروجهــا المتطرفــون من أنهــا تتعــرض للصــحابة أو لغــيرهم بــالطعن والإساءة.. بل إنها على العكس من ذلك، فمن الأدعية الواردة في الصحيفة السجادية، والتي لا يزال يرددها الشـيعة اقتـداء بإمـامهم السـجاد ذلـك الـدعاء المخصـص للصـحابة.. لا لصـحابة النـبي ﷺ فقــط، بــل لصــحابة جميــع الأنبيــاء عليهم السـلام، وهــو الــدعاء المسمى [الصلاة على أتباع الرسل ومصدقيهم]، والذي سـبق لنـا ذكره في الفصل السابق.

وهكذا نجد فيها الدعاء للتابعين لهم بإحسان، يقـول السـجاد:

1() بحار الأنوار: 94 / 152..

2() بحار الأنوار: 94 / 152..

(اللهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون: ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان خير جزائك، الذين قصدوا سمتهم، وتحروا وجهتهم، ومضوا على شاكلتهم، لم يثنهم ريب في بصيرتهم، ولم يختلجهم شك في قفو آثارهم والائتمام بهداية منارهم، مكانفين وموازرين لهم، يدينون بدينهم، ويهتدون بهديهم، يتفقون عليهم، ولا يتهمونهم فيما أدوا إليهم. أللهم وصل على التابعين من يومنا هذا إلى يوم الدين، وعلى أزواجهم، وعلى ذرياتهم، وعلى من أطاعك منهم صلاة تعصمهم بهامن معصيتك، وتفسح لهم في رياض جنتك، وتمنعهم بها من كيد الشيطان، وتعينهم بها على ما استعانوك عليه من بر، وتقيهم طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير، وتبعثهم بها على اعتقاد حسن الرجاء لك، والطمع فيما عندك، وترك النهمة فيما تحويه أيدي العباد لتردهم إلى الرغبة إليك والرهبة منك، وتزهدهم في سعة العاجل وتحبب إليهم العمل للاجل، والاستعداد لما بعد الموت وتهون عليهم كل كرب يحل بهم يوم خروج الانفس من أبدانها، وتعافيهم مما تقع به الفتنة من محذوراتها، وكبة النار وطول الخلود فيها، وتصيرهم إلى أمن من مقيل المتقين) [1]

لكن التكفيريين للأسف لا ينظروف لمئات الأدعية الممتلئة بمثل هذه المعاني السامية، ويذهبون إلى بعض الأدعية التي ورد الخلاف في شأنها، وهي لا تشكل إلا جزءا ضئيلا جدا من ذلك التراث العظيم من المعاني التحققية والتخلقية..

وحتى تلك التي يشيرون إليها ليس فيها أي تصريح بأي اسم من الأسماء، بل هي تشير إلى وجود من سعى إلى تغيير الدين وتبديله وتحريفه وتشويهه.. وكل ذلك صحيح وإن وقع الخلاف في المصاديق.

لكن التكفيريين لا ينظرون إلى كل ذلك، ولا يهتمون به، لأن هدفهم ليس التحقق ولا التخلق، وإنما هدفهم تفريق الأمة وتشتيتها، ولو بحرمانها من ذلك التراث العظيم الذي أوصى رسول الله ﷺ بأصحابه، ودعا إلى التمسك بهم، والاهتداء بهديهم.

1() الصحيفة السجادية (ص: 40)

4 ـ الاهتمام بالحج والزيارات وأبعادها الروحية:

من وسائل التربية الروحية الـتي اهتم بهـا الإيرانيـون قـديما، ولا يزالـون يهتمـون بهـا حـديثا الحج ومـا يرتبـط بـه وبغـيره من زيارات، فلكليهما هدف واحـد هـو تـذكر أحـداث تاريخيـة مرتبطـة بالأنبيـاء وورثتهم، وفي نفس الـوقت فرصـة لتلاقي المؤمـنين، وممارسة كثير من العبادات الجماعية التي توحـد قلـوبهم، وتطهـر نفوسهم، وتسمو بأرواحهم.

وقـد أشـار إلى هـذه المعـاني وغيرهـا الخميـني في رسـائله وخطبـه للحجـاج، والـتي جمعت في كتـاب [أبعـاد الحج في كلام الإمام الخميني]، والتي دعا فيهـا إلى تفعيـل مقاصـد الحج، وعـدم تعطيها؛ فالحج أكـبر مناسـبة لبث الـوعي بين المسـلمين، وتوحيـد صفوفهم، ووضع الخطط لمواجهة أعدائهم.

ومن أقوالـه في ذلـك ــ وهـو يشـير إلى المعـاني الـتي على الحجـاج أن يلاحظوهـا أثنـاء حجهم ــ : (من النقـاط المهمـة الـتي ينبغي على الحجـاج الكـرام الالتفـات إليهـا، أن مكـة المكرمـة والمشاهد المشرفة مرآة للأحداث الكبيرة لنهضة الأنبياء والإسلام ورسـالة النـبي الأكـرم ﷺ، وهي مكـان نـزل فيـه الأنبيـاء وجبريـل الأمين، وهـذا المكـان الـذي يـذكرنا بالمصـائب والصـعوبات الـتي تحملهـا النـبي الأكـرم ﷺ في سـبيل الإسـلام والبشـرية لعـدد من السنين.. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الشروط الصعبة لبعثة النـبي، عرفنا أكـثر مسـؤولية الحفـاظ على إنجـازات هـذه النهضـة وهـذه الرسـالة الإلهيـة، وكم عـانى النـبي الأكـرم وأئمـة الهـدى (عليهم السلام) من الغربة لأجل دين الحق وإزهاق الباطل. لقد اسـتقاموا ووقفوا ولم يهابوا أو يجزعوا من التهم والإهانات وجراحات ألسـنة أمثـال أبي لهب وأبي جهـل وأبي سـفيان، وفي نفس الـوقت استمروا وأكملوا طريقهم رغم الحصار الاقتصـادي في شـعب أبي طـالب، ولم يستسـلموا ولم يهنـوا، ومن بعـدها تحملـوا الهجـرات والمرارات في سبيل دعوة الحق، وتبليغ رسالة الله، وتواجدوا في الحروب المتتالية وغير المتكافئة وهم رغم الآلاف من المـؤامرات ورغم كثرة المنافقين، قـاموا بهدايـة وإرشـاد النـاس بهمـة عاليـة

وصلبة حيث تشهد صخور وحصى مكة والمدينة وصحاريها وجبالها وأزقتها وأسواقها على آثار تبليغ رسالتهم)[1]

ومن المعاني المترتبة على هذا، والتي يدعو الخميني في خطبه الحجاج إلى الالتفات إليها البراءة من الطواغيت والمجرمين الذي يعتبر توليهم أكبر مظهر من مظاهر الشرك، ذلك أنهم يمثلون الأعداء الحقيقيين للنبوة والأديان، ولا يكتمل التدين إلا بالبراءة منهم، ومن أقواله في ذلك: (إن الكعبة المعظمة هي المركز الأوحد لتحطيم الأصنام، لقد رفع نداء التوحيد من الكعبة إبراهيم الخليل في أول الزمان، وسيرفعه حبيب الله ولده المهدي العزيز الموعود روحي فداه في آخر الزمان، وسيبقى مرتفعا)[2]

وفي هذا النص أبلغ رد على أولئك الذين يتوهمون أن الشيعة، وخصوصا القادة الفكريين والسياسيين للجمهورية الإسلامية الإيرانية يكرهون مكة أو الكعبة، ويفضلون عليهما المشاهد والمزارات المرتبطة بالأئمة، وهذا من البهتان العظيم.

فالمصادر الشيعية جميعا، وأولها الآثار المنقولة عن أئمتهم تعظم الكعبة، وكل المحال التي كان فيها رسول الله ﷺ، وهم يعتبرون الحج واجبا شرعيا على المستطيع، كما نص على ذلك القرآن الكريم، بينما لا يعتبرون الزيارات إلا من المستحبات والأعمال الصالحة التي لا ترقى إلى الوجوب، فكيف تغني عن الحج؟

أما ما ورد عنهم من نصوص في ذلك، فهو لا يختلف عن تلك النصوص التي وردت في الأحاديث الشريفة التي نجدها في المصادر السنية من أمثال قوله ﷺ: (من سبح مائة بالغداة، ومائة بالعشي: كان كمن حج مائة حجة، ومن حمد مائة مرة بالغداة، ومائة بالعشي: كان كمن حمل على مائة فرس في سبيل الله،

1() أبعاد الحج في كلام الإمام الخميني، ص10.

2() المرجع السابق، ص11.

ومن هلل مائة بالغداة ومائة بالعشي: كان كمن أعتق مائة رقبة من ولد إسماعيل، ومن كبر الله مائة بالغداة ومائة بالعشي: لم يأت في ذلك اليوم أحد بأفضل مما جاء به، إلا من قال مثل ما قال، أو زاد على ما قال)[1]

ومثله قوله ﷺ في أجر من ذهب إلى المسجد لحضور درس علم أو ليعلم علما، ففي الحديث: (من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه، كان له كأجر حاج تاما حجته)[2]

ومثلهما قوله ﷺ في أجر من ذهب إلى المسجد على وضوء؛ ليصلي فيه المكتوبة، ففي الحديث: (من خرج من بيته متطهرا إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتمر)[3]

ومثلهم قوله ﷺ في أجر من يصلي صلاة الصبح في جماعة، ويمكث في المسجد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم يصلي ركعتين: (من صلى الغداة في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة)[4]، وفي رواية: (من صلى الصبح ثم جلس في مجلسه حتى تمكنه الصلاة كان بمنزلة عمرة وحجة متقبلتين)[5]

فلم يقل أحد من الناس أن هذه الأعمال تغني عن الحج، أو أن لها الأفضلية المطلقة على الحج، وهكذا يفسر ما ورد عن الأئمة في فضل تجشم المشاق لزيارة الإمام الحسين أو غيره

1() رواه الترمذي.

2() رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني.

3() رواه أبو داود، وحسنه الألباني.

4() رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

5() رواه الطبراني في الأوسط، وصححه الألباني.

من الأئمة، لما في تلك الزيارة من فوائد دينيــة كثـيرة لا يمكن أن يعوضها عمل آخر.

وقد أشار الشيخ الشيخ ابن عثيمين ـ والـذي يتبنـاه السـلفية، ويعتقدون إمامته ـ إلى هذا المعنى، عندما سئل عن قوله ﷺ: (من جلس في مصلاه بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس كـان كحجـة وعمـرة تامـة تامـة)، وهـل أن من فعـل هـذا فلـه مثـل أجـر الحج والعمرة؟

فأجاب بقوله: (.. الثواب لا قياس فيـه ، فقـد يثـاب الإنسـان على عمل قليل ثواب عمل كثير ؛ لأن الثواب فضـل من اللـه عـز وجل يؤتيه من يشاء)[1]

وبذلك لا معنى لتلك الحملة الشديدة التي تشن على الشـيعة بسـبب تعظيمهم لمقامـات أئمتهم، وزيـارتهم لهم، فهم يـزورونهم وفي نفس الوقت يقومون بالحج الذي يعتقدون وجوبـه، ولا يـرون أن أحدهما مغن عن الآخر.

مــع العلم أن الكثــير من مقاصــد الحجج تتحقــق في تلــك الزيارات، حيث يجتمع المؤمنون من كل مكان، وفي تلك الأمــاكن يجدون الكثير من أهل العلم والصـلاح، وقـد يكـون ذلـك سـببا في تغير حياتهم جميعا.

وهــذه الزيــارات لم تكن خاصــة بالشــيعة، بــل إن جميــع المدارس السنية ما عدا المدرسة السلفية يؤمنون بزيارة الأوليــاء والصالحين وتأثيرها في حياتهم، بل إن الكثير منهم يقدمون أمثال تلك الزيارات على الحج، حتى إذا مـا ذهبـوا إلى الحج ذهبـوا، وهم يعرفون قيمته ومقاصده.

ومثل ذلك مثل الذي يقال له: لا ينبغي أن تحج قبـل أن تـزور إمام المسـجد، وتجلس إليـه، وتتعلم منـه، حـتى إذا مـا ذهبت إلى الحج كان ذلك مؤثرا فيك، مفيدا لك، ولم تبق في أي شــيء ربمــا يبطل عليك حجك.

1() اللقاء الشهري (74/22).

وقد ذكر الشيخ محمد حسين الزين في كتابه [الشيعة في التاريخ] بعض مشاهداته مع أبناء المدرسة السنية، وتعظيمهم لمقامات أوليائهم من أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني وغيره؛ فقال: (مقامات الأولياء كثيرة في بلاد الإسلام، ويزورها المسلمون، ويتبركون بها إلا ما شذ منهم، بل قد يتبركون بمن زارها ويحترمونه أكبر احترام، وخصوصا أهل مصر وحلب)

ثم ذكر قصة حدثت له، فقال: (وإليك قصة شاهدتها بنفسي، بل على الأصح جرت معي في 15 جمادى الأولى سنة 1342 هـ حيث سافرت يومئذ من بغداد إلى حلب، ومنها إلى بيروت، واجتمعت في محطة القطار الحلبية بثلاثة نفر من الحلبيين عليهم أبهة الجلالة وسيماء التقوى حتى أن أحدهم قد أسدل على وجهه منديلا وسد أنفه بإصبعيه من فوق المنديل لما رأى بعض اللبنانيين يشربون الخمر في القطار، ومجمل القصة أنني سألتهم ابتداء عن محل قطع التذاكر للركاب، فأجابوا: ذلك هو، وأشاروا إلى جهة من جهات المحطة، وقبل أن أذهب إلى تلك الجهة قالوا: وين رايح؟ فقلت: رايح إلى بيروت وكنت في بغداد، فقالوا: أصحيح في بغداد؟ ، قلت: نعم، صحيح، قالوا: أرأيت مقام سيدنا عبد القادر الجيلاني؟ قلت: رأيته طبعا.. فأقبلوا فورا على جبهتي يقبلونها قبلات حارة، ثم ذهبوا معي بأجمعهم وقطعوا لي تذكرة السفر وحملوا أسبابي إلى القطار، وجلسوا حولي يتحدثون عن مناقب عبد القادر وكراماته حتى بلغوا بها إلى أعلى مراتب الغلو، ورحت أحدثهم عن مقامه الفخم، وبنائه البديع، إلى أن جاء وقت (الترويقة)، فقمت وأتيت بما كان باقيا لدي من الزاد الذي صحبته معي من بغداد وقدمته إليهم ودعوتهم إليه (وكان فيه فتيت كعك وبعض تميرات) فاختاروهما على غيرها، وابتدأوا بقسمة الفتيت؛ فالتهم كل سهمه بلهفة مدهشة، ثم تقاسموا التميرات ولف كل سهمه بورقة، وقالوا - معتذرين: نبقيها للبركة، ثم قاموا وجاءوا بزادهم الفاخر، فأكلنا جميعا. ولا تسل عن خدمتهم لي طول الطريق حتى وصلنا بيروت وافترقنا قسرا)[1]

---

[1] الشيعة في التاريخ، محمد حسين الزين، ص204.

ثم علق على ذلك بقوله: (فهل يسوغ لي أو لأي مسلم أن يبهت هؤلاء النفر أو يرميهم بقول: (إنهم يحترمون كلمة قادري أو بغدادي عن كلمة حجي) أو بأن (من زار عبد القادر أكثر احتراما وطهارة عندهم ممن زار مكة) ؟ اللهم لا؛ لأن ذلك بهتان عظيم، وفتق بين المسلمين كبير، خليق بكل مسلم غيور رتقه وصد فاتقيه، لئلا يتسع، فيسهل على المستعمر الدخول منه)[1]

وما ذكره الشيخ محمد حسين الزين من تعلق عامة المسلمين من المدرسة السنية بالأولياء والصالحين، وزيارتهم لمقاماتهم وتبركهم بهم، ليس خاصا بالعامة فقط، بل نرى في كتب التاريخ والرجال الكثير من الأعلام الذين يشدون الرحال لزيارة المقامات، وخصوصا مقامات أهل البيت[2] ، وخصوصا مقام الإمام الرضا في مشهد، والذي تحول إلى مركز من مراكز الحضارة بسبب ذلك الاهتمام الكبير، والجموع الكبيرة التي كانت تجتمع حوله.

وقد ذكر الحافظ ابن حبان في كتابه [الثقات] ذلك مقررا له، فقال: (وقبره ـ أي قبر الإمام علي الرضا ـ بسنا باذ خارج النوقان مشهور يزار بجنب قبر الرشيد قد زرته مرارا كثيرة، وما حلت بي شدة في وقت مقامي بطوس فزرت قبر على بن موسى الرضا صلوات الله على جده وعليه ودعوت الله إزالتها عنى إلا أستجيب لي وزالت عنى تلك الشدة، وهذا شئ جربته مرارا، فوجدته كذلك أماتنا الله على محبة المصطفى وأهل بيته صلوات الله عليه وعليهم أجمعين)[3]

1() المرجع السابق، ص205.

2() ذكرنا في كتاب [كلكم كفرة] الأمثلة الكثيرة عن ذلك، ومنها ومنهم المحدث أبو على الخلال الذي ذكر عنه الخطيب البغدادي هذه الرواية، قال: (أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي، قال: سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال، يقول: ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر، فتوسلت به إلا سهل الله تعالى لي ما أحب)[تاريخ بغداد (1/ 442)]

3() الثقات (8 / 457)

بل إن من الأسباب الكبرى لتكفير الشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيره من السلفية لعلماء الأمة وعامتها هو بسبب تلك المقامات والزيارات، التي كانت قاسما مشتركا بين المسلمين جميعا، ولم يشذ عنهم فيها إلا التيار السلفي.

ومثلما يحصل الآن من تكفير إيران بسبب تلك المقامات وزيارتها، حصل قبله تكفير مماثل لا يقل عنه للدولة العثمانية، فقد سئل الشيخ عبدالله بن عبداللطيف (توفي 1339هـ) عن من لم يكفر الدولة العثمانية واختار ولايتهم، فأجاب بقوله: (من لم يعرف كفر الدولة العثمانية، ولم يفرق بينهم وبين البغاة من المسلمين لم يعرف معنى لا إله إلا الله، فإن اعتقد مع ذلك أن الدولة العثمانية مسلمون فهو أشد وأعظم، وهذا هو الشك في كفر من كفر بالله وأِرك به، ومن جرهم وأعانهم على المسلمين بأي إعانة فهي ردة صريحة)[1]

ثانيا ـ اهتمام الإيرانيين بالسلوك التحققي:

وهو ما يعبر عنه عندهم، وعند جميع الشيعة بالعرفان العملي، ويقصدون به كل الوسائل التي تستعمل للسير إلى الله والتقرب منه، ويمكن اعتبار أكثر ما كتب في هذا المجال، كتب في إيران، وخصوصا على يدي كبار صوفيتها من أمثال أبي حامد الغزالي الطوسي الذي ترك كتبا كثيرة في هذا المجال، وأهمها كتابه [إحياء علوم الدين] الذي يعتبر موسوعة كاملة في السير التحققي والتخلقي.

ومنها كتابه الذي ينسب إليه [منهاج العابدين][2]، والذي ذكر فيه الخطوات العملية للتزكية مشبهاً لها بالطريق الذي يسلكه الشخص للوصول إلى مقصوده، ومن العقبات التي تعترض السالك، وبين الغزالي كيف تجاوزها: عقبة العلم.. ثم عقبة التوبة.. ثم عقبة العوائق..ثم عقبة العوارض.. ثم عقبة البواعث..

[1] () الدرر السنية، 8/242.

[2] () هو كتاب يُنسب إلى أبي حامد الغزالي، غير أن هناك خلافا في ذلك.

ثم عقبة القوادح.. ثم عقبة الحمد والشكر)

ومن الذين كتبوا في هذا المجـال من الإيرانـيين أبـو القاسـم عبد الكـريم بن هـوازن القشـيري النيسـابوري، وخاصـة في كتابـه المشهور المتداول بين الصوفية إلى اليوم، والمعنون بــ [الرسـالة القشيرية]

ومنهم أبو نصر عبد الله السـراج الطوسـي (تـوفي 378 هــ) الملقب بطاووس الفقـراء، وصـاحب كتـاب [اللمـع في التصـوف] والذي ذكر فيه المنهج الصوفي في السلوك، كما ذكر فيه طبقـات الصوفية وعلومهم ومصطلحاتهم وأقوالهم وأحوالهم.

ومنهم الملا محسـن فيض الكاشـاني[1]، (تـوفي 1091 هــ) صاحب كتاب [المحجـة البيضـاء، في تهـذيب الإحيـاء]، والـذي أراد من خلاله تهذيب بعض ما رآه من مخالفـات في الإحيـاء، لا علاقـة لها بالسلوك، بالإضافة إلى ذكر الروايـات عن أهـل الـبيت ممـا لم يذكره الغزالي، وقد ذكر في مقدمة كتابه سبب تأليفه، فقــال: (.. فرأيت أن أهذبـه تهـذيباً يزيـل عنـه مـا فيـه من الوصـمة والعيب، وأبني مطالبه كلّها على أصول أصيلة مُحكمة لا يتطرق إليهـا شـك ولا ريب، وأضيف إليهـا في بعض الأبـواب مـا ورد عن أهـل الـبيت من الأسـرار المختصـة بهم، وأختصـر بعض مباحثـه بنظم فرائـده، وحــذف زوائــده، لكي يزيــد فيــه رغبــة متناوليــه، وأفصّــل أبوابــه الطويلة بفصول قصيرة)[2]

1() هو محمد محسن بن الشاه مرتضـى بن الشـاه محمـود، المـدعو بـالمولى محسـن الكاشاني، أحد أعلام القـرن الحـادي عشـر للهجـرة، ولـد ونشـأ في بلـدة قم، ثم انتقـل إلى كاشان، ثمّ ارتحل إلى شيراز بعد سماعه بورود العلامة ماجد البحراني هناك، فأخذ العلم منه ومن صـدرالدين الشـيرازي المعـروف بـالملا صـدرا، وتـزوج ابنتـة في شـيراز، وغادرهـا إلى كاشـان، وبقي فيهـا حـتى تـوفي. وقـد كتب في التفسـير والحـديث والفقـه والأخلاق وسـائر أصناف المعارف، وقد بلغت كتبه قرابة مائتي كتاب، من أهمهـا: تفسـير الصـافي، والـوافي، والمحجة البيضاء، وبعد انشغاله بالتدريس والتأليف أصبح بعـد ذلـك إمـام الجمعـة في مدينـة كاشان، ومن العلماء المشهورين فيها. [انظر: المحجـة البيضـاء، علي اكـبر غفـاري، مقدمـة المحقق، ج 1، ص، 30.]

2() المحجة البيضاء، ج 1، ص، 44 ..

ومنهم **أبو حفص شهاب الدين السهروردي**[3] (539 ـ 632 هـ)، مؤسس الطريقة السهروردية الصوفية، وصاحب كتاب [عوارف المعارف] في السلوك الصوفي وآدابه، وقد وصفه الذهبي بأنه (الشيخ الإمام العالم القدوة الزاهد العارف المحدث شيخ الإسلام أوحد الصوفية)، وقال عنه ابن النجار: (كان شهاب الدين شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعاء الخلق إلى الله، والتسليك)

وأكثر مؤلفاته في السلوك الصوفي وآدابه، ومنها: عوارف المعارف، ونغبة البيان في تفسير القرآن، وجذب القلوب إلى مواصلة المحبوب، والسير والطير، ورشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية.

ومن المتأخرين نجد الكتب الكثيرة في هذا المجال، وخاصة تلك الكتب التي تشرح [منازل السائرين]، وغيرها من كتب السلوك.

وقد أولى القادة الروحيون للجمهورية الإسلامية الإيرانية هذا الجانب اهتماما كبيرا، باعتبار الكثير منهم ينتمون إلى المدرسة العرفانية في التشيع، وهي مدرسة تتبنى الكثير من المعاني الصوفية الواردة في المدرسة السنية، ولكنها تختلف معها في المصاديق أو في بعض المضامين، مثلما ذكرنا ذلك عن موقف الكاشاني من إحياء علوم الدين، والذي هذبه حتى يتناسب مع المدرسة الشيعية.

وتناسبه مع المدرسة الشيعية لا يعني ـ كما يذكر المغرضون ـ تحوله إلى دين باطني غنوصي لا علاقة له بالشرائع والشعائر الإسلامية، وإنما نعني به ما عرفت هذه المدرسة من تقديم النص على الاجتهاد، ومراعاة الرجوع في كل التفاصيل لأئمة أهل البيت، وهو ما يعني الحفاظ على الشريعة بكل معانيها الظاهرة والباطنة، كما عبر عن ذلك الخميني بقوله: (واعلم أن طي أي طريق في المعارف الإلهية، لا يمكن إلا بالبدء بظاهر الشريعة،

[3] انظر ترجمته في: وفيات الأعيان 1: 380، والبداية والنهاية 13: 138 و 143 وطبقات الشافعية 5: 143.

وما لم يتأدب الإنسان بآداب الشريعة الحقة، لا يحصل له شيء من حقيقة الأخلاق الحسنة، كما لا يمكن أن يتجلى في قلبه نور المعرفة وتتكشف له العلوم الباطنية وأسرار الشريعة. وبعد انكشاف الحقيقة، وظهور أنوار المعارف في قلبه لا بد من الاستمرار في التأدب بالآداب اشرعية الظاهرية أيضا) [1]

ثم رد على من يخالف ذلك من أدعياء التصوف؛ فقال: (ومن هنا نعرف بطلان دعوى من يقول: (إن الوصول إلى العلم الباطن يكون بترك العلم الظاهر)، أو (لا حاجة إلى الآداب الظاهرية بعد الوصول إلى العلم الباطن)، وأن هذه الدعوى ترجع إلى جهل من يقول بها، وجهله بمقامات العبادة ودرجات الإنسانية)[2]

ولهذا نراه في كتبه العرفانية جميعا يحرص على الدعوة إلى مراعاة أدق التفاصيل في الأحكام الشرعية، فهو يخاطب مريده محذرا له من دقائق الرياء، قائلا: (أيها العزيز، كن دقيقا في أعمالك، وحاسب نفسك في كل عمل، واستنطقها عن الدافع في الأعمال الخيرة، والأمور الشريفة، فما الذي يدفعها إلى السؤال عن مسائل صلاة الليل أو على ترديد الأذكار؟ هل تريد تتفهّم أحكام صلاة الليل وتُعلمها قربة إلى الله، أو تريد أن توحي إلى الناس بأنها من أهل صلاة الليل؟.. لماذا لا ترضى أن لا يطلع أحد على الصدقات التي تعطيها في الخفاء، وتحاول أن تتحدث عنها ليطّلع عليها الناس؟ إذا كان ذلك لله، وتريد أن يتأسىّ به الناس باعتبار أن [الدال على الخير كفاعله] فإن إظهار حسن، وأشكر الله على هذا الضمير النقي والقلب الطاهر، ولكن ليكن الإنسان حذرا في المناظرة والجدال مع النفس، وأن لا ينخدع بمكرها وإظهارها له العمل المرائي بصورة عمل مقدس. فإن لم يكن لله، فتركه أولى، لأن هذا من طلب السمعة وهو من شجرة الرياء الملعونة. ولن يقبل الله المنان عمله، بل يأمر بإلقائه في سجّين، ويجب علينا أن نستعيذ بالله تعالى من شرِّ مكائد النفس، فإن

---

[1] شرح الأربعين حديثا، الخميني، ص29.

[2] المرجع السابق، ص29.

مكائدها خفية جداً)[1]

وهـو في كـل كتبـه يختلـف تمامـا مـع أولئـك الـذين يـدّعون المعرفة بالله، بينما يمارسـون كـل أنـواع الإرجـاء، والتسـاهل مـع الأحكام الشرعية، بحجـة رحمـة اللـه الواسـعة، ومن الأمثلـة على ذلك قوله ـ في معرض حديثه عن الرياء وخطورته ــ: (ويـل لأهـل الطاعة والعبـادة والعلم والديانـة الـذين عنـدما يفتحـون أبصـارهم ويقيم سـلطان الآخـرة قدرتـه، يـرون أنفسـهم من أهـل كبـائر المعاصي، بل وأسوأ من أهـل الكفـر والشـرك، بحيث أن صـحفية أعمالهم تكون أشد سوادا من صحائف الكفار والمشـركين، الويـل لمن يدخل بصلاته وطاعته جهنم، الويل لمن تكون صـورة صـدقته وزكاته وصلاته أبشع مما يمكن تصـوره.. أيهـا المسـكين المـرائي، أنت مشرك، وأما العاصي فموحد، إن الله يـرحم بفضـله العاصـي إن شاء، لكنـه يقـول إنـه لن يـرحم المشـرك إذا رحـل من الـدنيا بدون توبة)[2]

وهكذا نراه يستعمل الترغيب والترهيب، وبلغـة واضـحة ليس فيهـا تلـك الشـطحات الـتي نراهـا عـادة في كتب الـذين خلطـوا العرفان بالغنوصيات الشرقية والغربية، فهو يقول لمريده: (يا أيهـا العزيز؛ فكّر لتجد سبيلا لنجاتك، واعلم أن الشهرة ين هؤلاء الناس وَهمٌ باطـل، إنهـا ليسـت بشـيء. إن قلـوب هـؤلاء الـتي لـو أكلهـا عصفورا لما شبع، إن هي إلا قلـوب ضـعيفة تافهـة، ولا طاقـة لهـا على شيء وإن هذا المخلوق الضعيف لا حول لـه ولا قـوة. القـوة هي قوة الله المقدسة، فهـو الفاعـل المطلـق ومسـبب الأسـباب. ولو اجتمع الناس جميعا وكان بعضهم لبعض ظهيرا، لما استطاعوا أن يخلقـوا ذبابـة، وإذا سـلبت منهم الذبابـة شـيئا لمـا اسـتطاعوا استرجاعه منها، كما جاء في الآية الكريمة) [3]

1() المرجع السابق، ص72.

2() المرجع السابق، ص74.

3() المرجع السابق، ص74.

ولهذا نرى ذلك الورع الذي يدعو من خلاله إلى التزام أدق آداب الشريعة، بل إنه يدعو إلى مراعاة الاحتياط حتى في الأمور التي نص فيها الفقهاء على الجواز، ومن الأمثلة على ذلك ما عقب به على ما ذكره الفقهاء من المحال التي تجوز فيها الغيبة، حيث قال: (اعلم بأن العلماء والفقهاء ــ رضوان الله عليهم ــ استثنوا مواردا من حرمة الغيبة تبلغ في كلمات بعضهم العشرة، ولسنا بصدد عرضها وتعدادها، حتى لا تكون هذه الصفحات ساحة لبيان الأبحاث الفقهية)[1]

وبعد أن أقر بما قاله الفقهاء، راح يذكر موقفه الذي يدعو فيه إلى الاحتياط، فيقول: (والذي يجب أن نذكره هنا هو أن على الإنسان أن لا يعيش حالة الاطمئنان أبداً من مكائد النفس، بل يجب أن يتحرك في منتهى الحذر والاحتياط، ولا يكون في صدد التبرير ـ لغيبته ـ بالأعذار بأن يقول أن هذا المورد هو من الموارد المستثناة فيسمح لنفسه بالبحث عن عيوب الناس وإشاعتها في المجتمع، إن مكائد النفس بالغة الدقة، فيمكن أن تَخدع الإنسان عن طريق الشرع، وتزِجّه في مهلكة) [2]

وضرب مثالا على ذلك بما يذكره الفقهاء من جواز غيبة المتجاهر بالفسق، بعد أن يردع وينصح، فقال معقبا على ذلك: (ولكن يجب أن يتأمل الإنسان بأن الدافع النفسي لغيبته هو الداعي الشرعي الإلهي ـ النهي عن المنكر ـ أو أن الباعث، أهواء شيطانية، ورغبة نفسانية ـ العداوة والتشفي.. فإن كان الهدف الدافع الإلهي ـ النهي عن المنكر ــ كان عمله من العبادات، بل كانت غيبته هذه بنيّة إصلاح المتجاهر بالفسق والإساءة إليه، من أوضح مصاديق الإحسان والإنعام إليه وإن لم يشعر المغتاب بذلك، ولكن إذا كان قصده مشوباً بالفساد والميول النفسانية، فلا بد من تخليص النية ـ من غير الدافع الإلهي ـ والصفح عن أعراض

[1] المرجع السابق، ص346.

[2] المرجع السابق، ص346.

الناس وحرماتهم عند عدم وجود هدف صحيح)[1]

وهو يدعو إلى ترك المتشابهات، حرصا على عدم الوقوع في الحـرام؛ فيقـول: (بـل إن تعويـد النفس على الغيبـة في الأحـوال الجائزة، يضرّ بحالها أيضاً، لأن النفس تميل نحو الشرور والقبـائح، فمن المحتمـل أن ينجـرّ رويـداً رويـداً من المـوارد الجـائزة إلى مرحلة أخرى وهي الموارد المحرمة، كما أن الدخول في الشبهات غير محمود، رغم جـوازه، لأنهـا حمى المحرمـات ومن الممكن أن الاقتحام في الحمى يفضي إلى الدخول في المحرمات. يجب على الإنسـان مهمـا أمكن أن يبعـد النفس عن الغيبـة في الأحـوال المسموحة، ويحترز عن الأمور التي يحتمل أن يكون فيهـا طغيـان للنفس)[2]

وهكذا نرى كتابه [شـرح الأربعين حـديثا] مملـوءا بمثـل هـذه المعاني الراقية التي تجنب فيهـا مـا وقـع فيـه بعض الصـوفية من الطامات والشطحات والتساهل مع الشريعة.

ويمكن اعتبار هذا الكتاب من أحسن ما كتب في هـذا البـاب، ويهتم به الخطباء والوعاظ الإيرانيون كثيرا، باعتبـاره مـادة تربويـة علميـة وعظيـة، لهـا دورهـا الـتربوري الكبـير، فقـد اسـتطاع فيـه الخميـني أن يعـبر عن مراحـل السـلوك وكيفيتـه بطريقـة سـهلة بسيطة جذابة، وفوق ذلك جعل تلك المعاني منطلقة من النصوص المقدسة، وشروحا لها.

وللأسف لا نجد اهتماما كبـيرا بـه في المدرسـة السـنية، مـع أهميته البالغة، وكونه ـ كالسلوك الروحي جميعا ـ لا فرق فيــه بين المدارس الإسلامية.

وأحب أن أذكر هنا بعض أقواله في التزكية والتي تبين مدى التقارب الموجود بين المدارس الإسلامية في هذا الباب، ذلك أن كل ما ذكره لا يختلف عما يذكره سائر علماء السلوك من معان،

1() المرجع السابق، ص346.

2() المرجع السابق، ص346.

وهو رد بليغ على من يصور السلوك الروحي عند الشيعة، بأوهام لا علاقة لها بالواقع.

فقد بدأ كتابه بـأول حـديث، رواه بسـنده إلى جعفـر الصـادق عن آبائه عن النبي ﷺ، أنه بعث سرية، فلما رجعوا، قـال: (مرحبـا بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقى عليهم الجهاد الأكـبر)، فقيـل: يـا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: (جهاد النفس)[1]

ثم علق عليه بقوله ـ مبينا ضرورة السـلوك للتحقـق بحقيقـة الإنسان ـ: (اعلم أن الإنسـان كـائن عجيب، لـه نشـأتان وعالمـان: نشأة ظاهرية ملكية دنيوية هي بدنه، ونشأة باطنية غيبية ملكوتيـة تكون من عالم آخر، إن لروح الإنسـان الـتي هي من عـالم الغيب والملكوت مقامات ودرجات، قسَّمها علماء السلوك بصـورة عامـة إلى سبعة أقسام حيناً، وإلى أربعـة أقسـام حينـاً ثانيـاً، وإلى ثلاثـة أقسام حيناً ثالثاً، وإلى قسـمين حينـاً رابعـاً.. ولكـل من المقامـات والدرجات جنـود رحمانيـة وعقلانيـة تجـذب النفس نحـو الملكـوت الأعلى وتدعوها السعادة، وجنود شيطانية وجهلانيـة تجـذب النفس نحو الملكوت السفلي وتدعوها للشقاء، وهناك دائماً جـدال ونـزاع بين هذين المعسكرين، والإنسـان هـو سـاحة حربهمـا، فـإذا تغلبت جنود الرحمن كان الإنسان من أهل السعادة والرحمة وانخرط في سلك الملائكة وحُشِرَ في زمرة الأنبياء والأولياء والصـالحين، وأمـا إذا تغلب جند الشيطان ومعسـكر الجهـل، كـان الإنسـان من أهـل الشـقاء والغضـب، وحُشِـرَ في زمـرة الشـياطين والكفـار والمحرومين)[2]

وانطلاقا من هذا المعنى راح يتحدث ـ مثلمـا يتحـدث صـوفية المدرسة السنية ـ عن مقامـات النفس وأوجـه سـعادتها وتعاسـتها وكيفية مجاهدتها.

---

[1] فروع الكافي، ج 5، ص 3، ورواه البيهقي بلفظ: (قالوا : وما الجهاد الأكـبر؟ قـال : جهاد القلب) ، ورواه الخطيب البغدادي بلفظ : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلي الجهاد الأكـبر ، قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه)

[2] الأربعون حديثا، الخميني، ص26.

ولا يمكن ذكر ذلك جميعا هنا، ولكن نشير إلى بعض ما ذكـره من باب الـرد على الـذين يصـورون أن للشـيعة دينـا آخـر مختلفـا تماما عن الإسلام، ذلك أن القيم النبيلة التي طرحها الخميـني في كتابـه عن كيفيـة مجاهـد النفس، لا تخطـر حـتى على بـال أولئـك الـذين يجلسـون على الأرائـك يتثـاءبون، ثم يطلقـون أحكـامهم التكفيريـة من غـير بحث ولا دراسـة ولا اطلاع، وإنمـا هـو الهـوى المجرد.

فأول ما تبدأ به المجاهدات النفسـية ــ كمـا يـذكر الخميـني ـ [**التفكر**]، فهـو البدايـة الـتي يبـدأ بهـا السـير إلى اللـه.. ويـبين الخميـني كيفيتـه؛ فيقـول: (التفكـر في هـذا المقـام هـو أن يفكـر الإنسان بعض الـوقت في أن مـولاه الـذي خلقـه في هـذه الـدنيا، ووفّر له كل أسباب الدعـة والراحـة، ووهبـه جسـماً سـليماً وقـوي سالمة ذات منافع تحيِّر ألباب الجميع، والذي رعاه وهيَّأ له كل هذه السـعة وأسـباب النعمـة والرحمـة من جهـة وأرسـل جميـع هـؤلاء الأنبيـاء، وأنـزل كـلّ هـذه الكتب، وأرشـد ودعـا إلى الهـدى.. هـذا المولى ماذا يستحق منا؟ وما هو واجبنا تجاه مالك الملـوك؟. هـل أن وجود جميع هذه النعم، هـو فقـط لأجـل هـذه الحيـاة الحيوانيـة وإشباع الشهوات التي نشترك فيها مع الحيوانات أو أن هناك هدفاً وغاية أخرى؟.. وهل للأنبياء الكـرام، والأوليـاء العظـام، والحكمـاء الكبـار، وعلمـاء كـل أمـة الـذين يـدعون النـاس إلى حكم العقـل والشــرع ويحــذرونهم من الشــهوات الحيوانيــة ومن هــذه الــدنيا الباليـة، عـداءً ضـد النـاس أم أنهم كـانوا مثلنـا لا يعلمـون طريـق صلاحنا نحن المساكين المنغمسين في الشهوات؟!)[1]

ثم يذكر الإجابة المنسـجمة مـع العقـل على هـذه التسـاؤلات التي يطرحها المتفكر؛ فيقول: (إن الإنسان إذا فكَّر لحظة واحـدة، عرف أن الهدف من هذه النعم هو شيء آخر، وأن الغاية من هــذا الخلق أسمى وأعظم، وأن هذه الحياة الحيوانية ليست هي الغايــة بحدَّ ذاتها، وأن على الإنسان العاقل أن يفكـر بنفسـه، وأن يـترحم على حاله ونفسه المسكينة، ويخاطبها قائلاً: أيتهـا النفس الشـقية

---

[1] المرجع السابق، ص27.

التي قضيت سني عمرك الطويلة في الشهوات، ولم يكن نصيبك سوى الحسرة والندامة، ابحثي عن الرحمة، وأستحي من مالك الملوك، وسيرى قليلاً في طريق الهدف الأساسي المؤدي إلى حياة الخلد والسعادة السرمدية، ولا تبيعي تلك السعادة بشهوات أيام قليلة فانية، التي لا تتحصل حتى مع الصعوبات المضنية الشاقة. فكّري قليلا في أحوال أهل الدنيا، من السابقين واللاحقين وتأملي متاعبهم وآلامهم كم هي أكبر وأكثر بالنسبة إلى هنائهم، في نفس الوقت الذي لا يوجد فيه هناء وراحة لأي شخص) [1]

وبعد أن يجيب على الشبهات المختلفة التي قد يوسوس بها الشيطان على بال المريد في أول سلوكه، يذكر المرحلة الثانية من مراحل السلوك التحققي، وهي [**العزم**]، والذي بين أهميته من خلال ما ذكره عن بعض مشايحه الذي قال: (إنَّ العزم هو جوهر الإنسانية، ومعيار ميزة الإنسان، وإن اختلاف درجات الإنسان باختلاف درجات عزمه) [2]

ثم بين كيفية التحقق به؛ فقال: (العزم الذي يتناسب وهذا المقام، هو أن يوطن الإنسان نفسه على ترك المعاصي وأداء الواجبات، ويتخذ قراراً بذلك، ويتدارك ما فاته في أيام حياته، وبالتالي يسعى على أن يجعل من ظاهره إنساناً عاقلاً وشرعياً، بحيث يحكم الشرع والعقل حسب الظاهر بأن هذا الشخص إنسان. والإنسان الشرعي هو الذي ينظم سلوكه وفق ما يتطلبه الشرع، يكون ظاهره كظاهر الرسول الأكرم ﷺ، يقتدي بالنبي العظيم ﷺ ويتأسى به في جميع حركاته وسكناته، وفي جميع ما يفعل وما يترك، وهذا أمر ممكن، لأن جعل الظاهر مثل هذا القائد أمر مقدور لأيّ فرد من عباد الله)[3]

1() المرجع السابق، ص28.

2() المرجع السابق، ص29.

3() المرجع السابق، ص29.

ولست أدري ما هـو موقـف الـذين يتصـورون أنهم يحتكـرون السنة من هذا النص الـذي قالـه الخميـني، والـذي يـدعو فيـه إلى التزام السنة بكل مفرداتها، ومن دون التفريـط في أي جزئيـة من جزئياتها.. أليس لهذا الرجل الحـق أيضـا في أن يطلـق عليـه لقب السني؟ وهو الذي لم يترك سنة من السنن إلا وطبقها، ابتـداء من شخصه، وانتهاء بالدولة الـتي أقامهـا، وحـرص على أن ينتهج فيهـا نهج النبوة في كل تشريع من تشريعاتها.

ثم يذكر الخميني المرحلة الثالثة التي يصل إليها السالك بعـد العزم، وهي [**المشارطة والمراقبة والمحاسبة**]، وهي نفس المعـاني الـتي ذكرهـا الغـزالي وابن القيم وكـل من كتبـوا في السلوك.

وقد شرح كيفية تنفيذ المشارطة بقوله: (المشارط هو الـذي يشـارط نفسـه في أول يومـه على أن لا يـرتكب اليـوم أي عمـل يخالف أوامر الله، ويتخذ قرارا بذلك ويعزم عليه. وواضح أن تـرك ما يألف أوامر الله، ليوم واحد، أمر يسير للغايـة، ويمكن للإنسـان بكل سهولة أن يلتزم به. فاعزم وشارط وجـرب، وأنظـر كيـف أن الأمر سهل يسير، ومن الممكن أن يصور لك إبليس اللعين وجنـده أن الأمـر صـعب وعسـير، فـادرك أن هـذه هي من تلبيسـات هـذا اللعين، فالعنـة قلبـاً وواقعـاً، وأخـرج الأوهـام الباطلـة من قلبـك، وجرب ليوم واحد، فعند ذلك ستصدق هذا الأمر)[1]

وشرح كيفية تنفيذ المراقبة بقوله: (وكيفيتها أن تنتبـه طـوال مدة المشارطة إلى عملـك وفقهـا، فتعتـبر نفسـك ملزمـاً بالعمـل وفق ما شارطت. وإذا حصل ـ لا سمح الله ــ حـديث لنفسـك بـأن ترتكب عملاً مخالفاً لأمر الله، فاعلم أن ذلك من عمـل الشـيطان وجنـده، فهم يريـدونك أن تـتراجع عمًّا اشـترطته على نفسـك، فالعنهم واستعذ بالله من شرهم، واخرج تلـك الوسـاوس الباطلـة من قلبك، وقل للشيطان: (إني اشترطت على نفسي أن لا أقـوم في هذا اليوم ـ وهو يوم واحد ـ بأ ي عمل يخالف أمر الله تعـالى، وهـو ولي نعمـتي طـول عمـري، فقـد أنعم وتلطّـف عليَّ بالصـحة

[1] المرجع السابق، ص29.

والسلامة والأمن وألطـاف أخـرى، ولـو أني بقيت في خدمتـه إلى الأبد لما أديت حق واحدة منها، وعليه فليس من اللائــق أن لا أفي بشرط بسيط كهذا، وآمل ـ إن شاء الله ــ أن ينصـرف الشـيطان، ويبتعد عنك، وينتصر جنود الرحمن)[1]

وشرح كيفية تنفيذ المحاسبة بقوله: (وأما المحاسبة، فهي أن تحاسب نفسك لترى هل أدّيت ما اشترطت على نفسك مـع اللـه، ولم تخن ولي نعمتــك في هـذه المعاملــة الجزئيــة؟ إذا كنت قــد وفيت حقاً فاشكر الله على هذا التوفيق، وإن شاء الله ييســر لــك سبحانه التقدم في أمور دنياك وآخرتك، وسيكون عمل الغد أيســر عليك من سـابقه، فـواظب على هـذا العمـل فـترة، والمـأمول أن يتحول إلى ملكة فيك بحيث يصبح هذا العمل بالنسـبة إليـك سـهلا ويسـيراً للغايـة، وسـتحسُّ عنـدها باللـذة والأنس في طاعـة اللـه تعالى وترك معاصـيه، وفي هـذا العـالم بالـذات، في حين أن هـذا العـالم ليس هـو عـالم الجـزاء لكن الجـزاء الإلهي يـؤثر ويجعلـك مستمتعاً وملتذاً ـ بطاعتك لله وابتعـادك عن المعصـية ــ وأعلم أن الله لم يكلفك ما يشق عليك به، ولم يفرض عليك ما لا طاقة لــك به ولا قدرة لك عليـه، لكن الشـيطان وجنـده يصـورون لـك الأمـر وكأنه شاق وصعب)[2]

هــذه مجــرد نمــاذج عن بعض المراحــل الابتدائيــة للســير التحققي كما يشرحه الخميني، وقد رأينا من خلالها مدى انسجامه مع الشريعة، ومدى قـرب المسـافة الـتي يتحـدث من خلالهـا مـع سائر المدارس الإسلامية، بـل نـراه فـوق ذلـك يتجنب الكثـير من الطامات التي وقع فيها من تحدث في هذا الباب.

ولهـذا لا نجـد في الـتراث العرفـاني الـذي تركـه إلا الـدعوة لالتزام الشريعة ظـاهرا وباطنـا، لأنـه لا يمكن أن يتحقـق السـالك بأي حقائق عرفانية من دونها.

1() المرجع السابق، ص31.

2() المرجع السابق، ص31.

ولذلك ننصح أولئك الذين يرمون هذا الرجـل الممتلئ بـالورع والتقـوى والحـرص على الشـريعة بكـل ألـوان البهتـان والـزور أن يراجعـوا أنفسـهم، وأن يطـالعوا كتبـه كمـا كتبهـا لا كمـا حرفهـا الــدجالون، ولا ينســوا أن يقــرؤوا معهــا قولــه ﷺ في الحــديث القدسـي: (إن اللـه تعـالى قـال: من عـادى لي وليـا فقـد آذنتـه بالحرب)[3]

وإن وجدوا أي هفوة في حديث من أحاديثه، فهو بشر، وليس معصوما؛ فعليهم أن يتعاملوا معه كما يتعاملون مع من يقدسـونهم من العلماء والصـالحين، حـتى لا يرمـوا غـيرهم بالقـذاة، وينسـون الجذع في أعينهم.

ثالثا ـ اهتمام الإيرانيين بـالأذواق والمعـارف الروحية:

لا يقتصر اهتمام الإيرانيين على ما ذكرنـا من أنـواع السـلوك الـروحي سـواء مـا ارتبـط منـه بالشـعائر التعبديـة، أو مـا ارتبـط بالرياضات والمجاهـدات الروحيـة، فكـل ذلـك ليس سـوى وسـيلة لتحقيــق الغايــة العظمى من الســلوك، وهي التقــرب إلى اللــه، والتعرف عليه، والتحقق بالوصال معه.

وكل هذه المعاني نجدها في التراث الروحي الإيراني، والـذي انتشـر منـه لسـائر بلاد العـالم الإسـلامي؛ فـأكثر الشخصـيات من المتقدمين والمتأخرين الذين اهتموا بالعرفان النظري، نجدهم من نيســابور أو أصــفهان أو طــوس أو شــيراز أو غيرهــا من عواصــم الحضارة الإيرانية.

ولنثبت هذا نحاول أن نذكر هنا بعض النمـاذج عن المتقـدمين المؤسسين للعرفان النظري، ونماذج عن المتـأخرين منهم، ونختم بنماذج عن قادة الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ومؤسسيها.

1 ـ نماذج عن اهتمام سلف الإيرانيين بالعرفان:

---

[3] رواه البخاري.

عند مطالعة أي كتاب من كتب طبقات الصوفية، سواء تلك التي ألفها إيرانيون أمثال: اللمع للطوسي، أو الرسالة للقشيري، أو تذكرة الأولياء للعطار، أو تلك التي ألفها غيرهم، نجد أن أكبر المؤسسين للعرفان، والذين نقلت مقولاتهم، وأسس على أساسها التصوف الإسلامي، إيرانيون، سواء عاشوا في إيران، وبثوا معارفهم في مدنها، أو انتقلوا منها إلى غيرها.

وسأذكر هنا باختصار شديد من مصدر من مصادر تراجم الصوفية المعتبرين، بعض النماذج عن أمثال هذه الشخصيات، وبعض مقولاتها في العرفان، ومدى تأثيرها، لنعرف من خلالها أن مساهمة الإيرانيين في خدمة العرفان لا تقل عن مساهماتهم في خدمة سائر العلوم الإسلامية.

وقد تعمدت أن أختار هنا مرجعا معتبرا كتبه مصري، وليس إيرانيا، وهو كتاب (الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية) للشيخ محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي (952 - 1031 هـ)، والذي يعتبر من أشهر ما كتب في هذا الباب من كتب المتأخرين.

وميزته أنه ليس كتاب تاريخ فقط، وإنما نراه يعرض التراجم مشفوعة بذكر أقوال أصحابها، وأطروحاتهم، وأعمالهم، وحكمهم.. وغير ذلك.

ولعل أهم شخصية يمكننا أن نبدأ بها هي شخصية الجنيد، ذلك الذي أجمع الصوفية على أنه سيدهم، فهم يلقبونه [سيد الطائفة]، والذي كان أصله من نهاوند، وهي مدينة من المدن الإيرانية القديمة[1].

وهو أبو القاسم الجنيد بن محمد[2] (توفي 297 هـ)، وقد وصفه المناوي بقوله: (هو المزيّن بفنون العلم، المتوشّح بجلابيب التّقوى

---

[1] تقع في منطقة جبلية إلى الجنوب من جبال زاغروس.

[2] طبقات الصوفية 155، حلية الأولياء 10/ 255.

والحلم، المنـوّر بخـالص الإيقـان، المؤيّـد بثـابت الإيمـان، العـالم بمـودوع الكتـاب، العامـل بمحكم الخطـاب، الموفّـق فيـه للبيـان والصّواب، كـان كلامـه بالنصـوص مربوطـا، وبيانـه بالأدلّـة منوطـا مبسوطا، وهو نهاونديّ الأصل، بغداديّ المنشأ، القواريريّ الزجّـاج نسبة لحرفـة أبيـه، سـيّد الطّائفـة، ومقـدّم الجماعـة، وإمـام أهـل الخرقـة، وشـيخ طريـق التصـوّف، بهلـوان العـارفين، مرجـع أهـل السّلوك في زمنه فمن بعده، رزق من القبول وصـواب القـول مـا لم يقع لغيره)[1]

ومنهم طاووس بن كيسان [2] (توفي 106 هــ)، وقـد وصـفه المنـاوي بقولـه: (كـان من فضـلاء الصّـالحين، و علمـاء العابـدين، وعظ و تكلّم على المنابر، و حضر مجلسه الأعيان و الأكابر، أصـله من الفرس، و أمّه حميريّة.. وأدرك خمسين صحابيّا، صلّى الصّـبح بوضوء العشاء أربعين سنة، و حجّ أربعين حجّة)[3]

قال الغزالي: (و كان عظيم الورع، جـدّا، ففعـل ابن لـه كتابـا على لسانه إلى عمر بن عبد العزيز، فأعطاه ثلاث مئة دينار، فبـاع طاووس ضيعة له، فبعث بها إلى عمر، هذا مع أنّ السّـلطان مثـل عمر، فهذه هي الدّرجة العليا في الورع)[4]

بالإضافة إلى هـذين العلمين الكبـيرين نجـد الكثـير من أعلام السلوك والعرفان في كتب الرجال والطبقات، وخصوصا من أهـل مدينة **نيسابور**، التي خـرج منهـا الكثـير من الصـوفية، وأسسـت فيها الكثير من التكايا، ومن الشخصـيات النيسـابورية الـتي تـرجم

1() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج1، ص: 571

2() الزهد لأحمد بن حنبل 375، طبقات ابن سعد 5/ 537، حلية الأولياء 4/ 3.

3() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج1، ص: 336.

4() إحياء علوم الدين (2/ 138)

لهـا المنـاوي: **حمدون القصّـار النّيسـابوريّ**[1]، وقـد وصـفه المنـاوي بقولـه: (حمـدون القصّـار، أحـد الأئمّـة الكبـار، مواعظـه سـديدة، وكلماتـه مفيـدة، وديانتـه وافيـة وافـرة، وشـمس مناقبـه وكراماته باهية باهرة سافرة، وهو شيخ الملامتية. صحب النّخشبيّ وغيره)[2]

ومنهم **عمـرو بن سـلمة الحـدّاد**[3]، وقـد وصـفه بقولـه: (الإمام أبو حفص النّيسابوري، شيخ خراسان، كـان عظيم الشـان، عالي المقام، واضح البرهان، مباركا على صوفيّة الإسلام، وتربيتـه عائدة عليهم بصـلات المعـارف الـتي لا تحصـرها الأقلام، مشـكور السّيرة في السّـرّ والجهـر، من نـوادر العصـر، وأفـراد الـدّهر، لـه الفتـوّة الكاملـة، والمـروءة الشّـاملة، صـحب الأبيـوردي، وتتلمـذ للحيري وغيرهما)[4]

وذكر ابتداء أمره، فقال: (كان حدّادا، فبينما غلامه ينفخ، غاب فكره في ذكر محبوبه، فغاب عن الحسّ البشريّ الظّـاهر، ونسـي أن يخـرج الحديـد من الكـير بالآلـة وأخرجـه بيـده، فصـاح الغلام: الحديد في يدك بلا كلبتين، فرماه به، وخرج سائحا في البرّيّة وهـو يقول: شرط المحبّة التّستّر والكتمان لا الافتضاح والإعلان)

وروى عنـه أنـه دخـل على مـريض يعـوده، فقـال: آه، فقـال: ممّن؟ فسكت، فقال: مع من؟ فقال: كيف أكون؟ قـال: (لا يكـون أنينك شكوى ولا سكوتك تجلّدا)

وروى عنه أنه لمّا قدم بغداد لقيه الجنيـد، فـرأى أصـحابه من

1() طبقات الصوفية 123، حلية الأولياء 10/ـ 231، الرسالة القشيرية 1/ـ 114، صـفة الصفوة 4/ 122.

2() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج1، ص: 592.

3() طبقات الصوفية 115، حلية الأولياء 10/ 229، الرسالة القشيرية 1/ 106.

4() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج1، ص: 686.

الأدب معه كأنّما على رؤوسهم الطّير، فقال له: أدّبتهم بآداب الملوك. فقال: لأنّ حسن الأدب في الظّاهر عنوان لأدب الباطن، فقد قال عليه السّلام: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه).

ومنهم **فاطمة النّيسابوريّة**(1)، والتي وصفها بقوله: (كانت من المصطفيات العابدات العارفات، وهي أستاذة ذي النّون المصري، وزارها أبو يزيد البسطامي، وقال: ما رأيت في عمري إلّا رجلا وامرأة، والمرأة فاطمة النّيسابورية، وما أحدّثها عن مقام من المقامات إلّا وكان الخبر لها عيانا، وقال ذو النّون: ما رأيت أجلّ منها)(2)

ومنهم **عبد اللّه بن محمد المرتعش النّيسابوري**(3)، وقد وصفه بقوله: (له اللّسان النّاطق، والخاطر الفائق، وكان للحقّ قوّالا، وعلى الولاة صوّالا، كبيرا قدره، مثيرا ذكره، منيرا بدره.. وكان يقال: عجائب الدّنيا في التّصوّف ثلاثة: الشّبليّ في الإشارات، والمرتعش في النّكت، وجعفر الخلدي في الحكايات) (4)

ومنهم **محمد بن إبراهيم الزّجّاجيّ النّيسابوريّ**(5)، وقد وصفه المناوي بقوله: (كان شيخ عصره، وفخر مصره، خير حبر تقتبس الفوائد من نوره، وتغترف من بحره وجوده، كم جاور بين زمزم والمقام! وألقى عصا سفره لمّا رحل الحجيج وأقام، وكم طاب له القرار بطيبة! وطهّر بها من أراد السّلوك وأزال

1() صفة الصفوة 4/ 123، طبقات الشعراني 1/ 66، أعلام النساء 4/ 147.

2() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج1، ص: 694.

3() طبقات الصوفية 349، حلية الأولياء 10/ 355، تاريخ بغداد 7/ 221، الرسالة القشيرية 1/ 161.

4() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج2، ص: 110.

5() طبقات الصوفية 431، حلية الأولياء 10/ 376، الرسالة القشيرية 1/ 177.

عيبه، وكم استروح بظلّ نخلها والسّمرات! وتملّى بمشاهدة الحجرة الشّريفة وغيره يسحّ على قرب تربها العبرات، وكم كتب له بالوصول وصول! فلم يكن بينه وبين الرّسول رسول) [1]

ومنهم **محمد بن أحمد بن جعفر النّيسابوريّ**[2]، وقد وصفه المناوي بقوله: (من أعظم مشايخ نيسابور في وقته، إمام علا في أفق التّوفيق مجده، وأنار في دياجي المشكلات والمعضلات زنده، وزكا في روض اللّطائف فرعه وأصله، ونفذ في غرض المعارف رمحه ونصله) [3]

ومنهم **الحسن بن علي الدّقاق**[4]، وقد وصفه المناوي بقوله: (الحسن بن علي، الأستاذ أبو علي الدّقّاق النّيسابوريّ، الشافعيّ، لسان وقته، وإمام عصره. كان فارها في العلم، مبسوطا في الحلم، محمود السّيرة، مجهود السّريرة، جنيديّ الطريقة، سريّ الحقيقة.. وهو أستاذ القشيريّ صاحب (الرّسالة)، وقال الغزالي عنه: كان زاهد زمانه، وعالم أوانه) [5]

ومنها **مدينة الري** التي دخلت منذ فترة طويلة ضمن جغرافية مدينة طهران، والتي ظهر فيها الكثير من أعلام المتكلمين في العرفان النظري والعملي، ومنهم **يحيى بن معاذ الرازي**[6]، (توفي 258 هـ)، وقد وصفه المناوي بقوله: (المادح الشكّار، القانع الصّبّار، كان آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، له

1() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج2، ص: 125.

2() طبقات الصوفية 505، طبقات الأولياء 243، طبقات الشعراني 1/ 125.

3() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج2، ص: 111.

4() تبيين كذب المفتري 226، الكامل في التاريخ 9/ 326، العبر 3/ 93، تذكرة الحفاظ 3/ 1064.

5() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج2، ص: 180

سطوة تكفّ الأيدي عن الجـور، ومهابـة تزعـزع كـلّ جبّـار متعـدّي الطور، لزم الحداد توقّيا من المعاد، واستلذّ السّهاد تحرّيـا للـوداد، واحتمل الشّداد توصّلا إلى العتاد)[1]

ومنهم **عبد اللّه بن محمد الرّازيّ**[2]، وقد وصفه المنـاوي بقوله: (كان عن حظّه حائـدا، ولمشـهوده عابـدا مشـاهدا، ذا رتبـة في التّصوّف ركنها منيع، ومنزلة عالية طودها شامخ رفيع) [3]

ومنهم **عبد اللّه بن محمد الرّازيّ الشّعراني** [4] (تــوفي 353 هـ)، وقد وصفه المناوي بقوله: (كان له من الرّياضة ما تعجز عنـه الأسـماع، وفي المجاهـدة والملازمـة مـا لا يسـتطاع، انتفـع الصّـوفيّة بـه وبتعليمـه، وصـاروا نبلاء من توقيفـه وتفهيمـه، وكـان يدري الطّريق وعللها، وتفاصيل أحوالها وجملها) [5]

ومنهم **محمد بن يوسف الرّازي**[6]، وقـد وصـفه المنـاوي بقولـه: (المتخلّي عن النّـاس، المتحلّي بـالإخلاص، تـارك التّـزيّن والتّصنّع، مفارق التلوّن والتّمتّع) [7]

6() طبقات الصوفية 107، حلية الأولياء 10/ 51، الرسالة القشيرية 1/ 101.

1() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج1، ص: 727.

2() طبقات الصوفية 288، حلية الأولياء 10/ 345، الرسالة القشيرية 1/ 148.

3() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج1، ص: 679.

4() طبقات الصوفية 451، الرسالة القشيرية 1/ 181.

5() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج2، ص: 164.

6() طبقات الصوفية 185، حلية الأولياء 10/ 238.

7() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج2، ص: 165

وغـيرهم كثـير، ومنهـا مدينـة أصـفهان الـتي اشـتهرت بكـثرة أوليائهـا وصـالحيها، ومنهم **سهل بن عبـد اللّـه بن الفرّخـان الأصفهانيّ** [1] (تـوفي 276 هــ)، وقـد وصـفه المنـاوي بقولـه: (صـوفيّ، دينـه مـتين، ولسـانه بـدوام الـذّكر غـير ضـنين، وعلمـه مقــرون بــالإخلاص، ونفســه مجتهــدة في تحصــيل الــزّاد ليــوم الإشخاص، وكان مجاب الدّعوة)[2]

ومنهم **علي بن سهل الأصفهاني** [3] (تـوفي 276 هــ)، وقد وصفه المناوي بقولـه: (من قـدماء مشـايخ أصـفهان، وأقـران الجنيـد، صـحب التّخشـبيّ، وابن معـدان وغيرهمـا، وجـاب القفـار والبلاد، ومـا هـاب الـوحش والجلّاد، وقطـع المفـاوز بحـظّ هابـط، وعزم صاعد، وسام كلّ باذل، وانتجع كلّ راعد، إلى أن أقمـر ليلـه الحالك، بعد ما تطوّر في أطوار واقتحم المهالك) [4]

ومنهم **محمـد بن يوسـف الأصـفهاني** [5]، وقـد وصـفه المنـاوي بقولـه: (عابـد زاهـد، اشـتهرت فضـائله، وعامـل عـارف ظهرت براهين خيره ودلائله، وكـان يلقّب عـروس الزّهـاد، لكـثرة الجـدّ والاجتهـاد، والتّشـمير والارتيـاد، في التّبـادر والتّسـابق إلى المعاد، وكـان إذا أصـبح كـأنّ وجهـه وجـه عـروس، لكـثرة مناجاته وكان يقول لنفسه: هب أنّـك عـالم أو قـاض أو صـالح مـاذا يكـون وراء ذلك؟ وكان لا ينام اللّيل أبدا، بل يضطجع بعـد الفجـر سـاعة،

1() حلية الأولياء 10/ 212، ذكر أخبار أصبهان 2/ 339.

2() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج1، ص: 648.

3() طبقات الصوفية 233، حلية الأولياء 10/ 404، ذكر أخبار أصبهان 2/ 14.

4() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج1، ص: 683.

5() طبقات المحدثين بأصبهان 2/ 21، حلية الأولياء 8/ 225.

ثم يقوم)[1]

وغيرهم كثير، وإنما ذكرناهم هنا، لعل أولئك الذين امتلأت قلوبهم حقدا على إيران والإيرانيين أن يتراجعوا ويتفكروا في هؤلاء جميعا، وخدماتهم للسلوك الروحي، وهل يمكن أن يفعل ذلك مجوسي أو متآمر على الإسلام.

2 ـ نماذج عن اهتمام المتأخرين من الإيرانيين بالعرفان:

بناء على تلك المعارف الكثيرة التي أسس بها المتقدمون من الصوفية للعرفان النظري والعملي ظهرت في فترة لاحقة التحقيقات والتأصيلات المرتبطة بها، وكان من أوائل من اهتم بذلك الكثير من الأعلام الإيرانيين، والذين لا يمكن الإحاطة بهم هنا لكثرتهم، فلذلك نقتصر على نماذج منهم، فمنهم **أبو عبد الرّحمن السّلمي النّيسابوريّ**[2](412 هـ)، والذي وصفه المناوي بقوله: (إمام يقتدى بمقالاته، وزاهد يهتدى بأنوار أحواله ومقاماته، سمع من أهل الرّواية، وأخذ عن أرباب الدّراية، ورحل إلى الأقطار، وبلغ المقاصد والأوطار، ثم كرّ راجعا إلى خراسان، وصار عالمها وصوفيّها ومحدّثها المشار إليه ببديع البيان، ورؤوس البنان.. وكان شيخ الطّريق في وقته، الموفّق في جميع علوم الحقائق، ومعرفة طريقة التّصوّف، وافر الجلالة، عظيم الشّأن، أخذ [التصوف] عن أبيه وجده، وجمع من الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه، وبلغت تصانيفه نحو المئة)[3]

ومن مؤلفاته: (حقائق التفسير)، وهو تفسير إشاري على طريقة أهل التصوف، و(طبقات الصوفية) و(مقدمة في التصوف)،

1() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج1، ص: 443.

2() طبقات الأولياء 313، النجوم الزاهرة 4/ 256، لسان الميزان 5/ 140.

3() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج2، ص: 200.

و(مناهج العارفين) و(رسالة في غلطات الصوفية) و(رسالة الملامتية) و(آداب الفقر وشرائطه) و(بيان زلل الفقراء ومناقب آدابهم) و(الفتوة) و(آداب الصحبة) و(السؤالات) و(سلوك العارفين) و(عيوب النفس ومداواتها) و(الفرق بين الشريعة والحقيقة) و(آداب الصوفية) و(كتاب الاربعين في الحديث) و(درجات المعاملات)

ومنهم **عبد الكريم بن هوازن النّيسابوري**[1](465 هـ)، وقد وصفه المناوي بقوله: (الأستاذ أبو القاسم القشيريّ، الملقّب زين الإسلام، الإمام مطلقا وصاحب [الرسالة] التي سارت مغربا ومشرقا، والأصالة التي تجاوز بها فوق الفرقد ورقى إمام الأئمة، ومجلّي ظلمات الضّلال المدلهمّة، شيخ المشايخ أستاذ الجماعة، مقدّم الطائفة، الجامع للطّريقين.. وكان فقيها من رفعاء الشافعية، أصوليا متحققا، متكلّما سنّيا محدّثا، حافظا مفسرا مفتيا، نحويا لغويّا أديبا، كاتبا شاعرا، مليح الخطّ جدا، شجاعا بطلا، أجمع أهل عصره على أنّه سيّد زمانه، وقدوة وقته وأوانه، لم ير مثل نفسه، ولا رأى الرّاؤون مثله في كلامه وبراعته، جمع بين الشّريعة والحقيقة، وأمّا المجالس في التّذكير والقعود بين المريدين، وأجوبة أسئلتهم عن الوقائع فأجمعوا على أنّه عديم النّظير فيه، وتصانيفه في ذلك مشهورة)[2]

ومن مؤلفاته التي كان لها تأثيرها الكبير في التصوف والسلوك: (التفسير الكبير) و(الرسالة) المشهورة التي أجمعت عليها جميع الطرق الصوفية، و(التّحبير في التّذكير) و(آداب الصوفية) و(لطائف الإشارات) وكتاب (الجواهر) و(عيون الأجوبة في أصول الأسئلة) وكتاب (المناجاة) وكتاب (نحو القلوب الكبير) و(الصغير) وكتاب (أحكام السّماع) و(الأربعين) وغيرها.

ومنهم **عبد الرزاق جمال الدين بن أحمد الكاشاني** (توفي 730 هـ)، صاحب المؤلفات الكثيرة في التصوف، ومنها

1() تبيين كذب المفتري 271، المنتظم 8/ 280، الكامل 10/ 88.

2() الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية، ج2، ص: 187.

(كشف الوجوه الغر)، و(اصطلاحات الصوفية)، و(شرح منازل السائرين)، و(تأويلات القرآن)

ومنهم **فريد الدين العطّار النيسابوري (545 ـ 627)**، الشاعر الصوفي المشهور، والذي اشتهرت أشعاره التي ناهزت مائتي ألف بيت، ومن كتبه: منطق الطير، وإلهي نامه، وأسرار نامه، وتذكرة الأولياء، وجواهر الذات، وحيدر نامه، وشرح القلب، وغيرها.

لكن أشهرها منظومته المعروفة ب [منطق الطير][1]، تلك المنظومة المميزة التي حاول أن يعبر فيها عن كلا العرفانين النظري والعملي بطريقة رمزية مميزة، والتي صور فيها الطيور، وهي تقوم برحلة صوب الطائر الأكمل والأجمل والسلطان المطلق والمسمى [السيمرغ]، واختارت الطيور الهدهد ليكون رئيسا لهم ومرشدا، فطفقت الطيور تقدم التبريرات المختلفة حتى لا تتكبد مشاق الرحلة، وبعضها راحت تسأل عن الطريق شتى الأسئلة، والهدهد يجيب عن كل هذا، ويفند كل الأوهام ويحثهم للتخلى عن كل العلائق والمضى نحو عشق الأكمل من خلال المواعظ والقصص المختلفة، ويخبرهم عن الأودية التى سيمرون بها: وادى الطلب، ثم العشق، ثم المعرفة، ثم الاستغناء، ثم التوحيد، ثم الحيرة، وأخيرا الفناء والبقاء، وهكذا انطلقوا جميعا وتكبدوا المشاق على أنواعها، ومات من مات حتى وصل ثلاثون طائرا إلى الحضرة ليرفع الحجاب.

وهكذا عبر الإيرانيون عن العرفان النظري والعملي بالطرق المختلفة، والتي امتزجت فيها المواعظ بالفلسفة بالشعر، وبكل ألوان الكتابة، والتي تجتمع جميعا في كونها تتوجه إلى الله، وتعرف به، وتملأ القلوب شوقا إليه.

وكلها بلا استثناء ـ مهما اختلفت مشاربها وطرائقها ــ تعظم الشريعة الإسلامية، وتتبنى المعارف القرآنية، وتخضع لها، وإن كانت تختلف في فهمها، أو في تأويلها، ولكنها جميعا تعتقد أنها

1() منطق الطير. العطّار، فريد الدين. (2002). (بديع محمّد جمعة، ترجمة ودراسة). بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.

مشربها ومنهلها العذب، وفي ذلك كله رد بليغ على الطائفيين الذين لم يعرفوا إيران، ولا أعلامها، ولا تاريخها، وفي نفس الوقت يتألون على الله، ويحكمون عليها، وعلى أوليائها وعلمائها بما لم يحيطوا بعلمه.

3 ـ نماذج عن اهتمام قادة الجمهورية الإسلامية الإيرانية بالعرفان:

لعل من الأسباب الكبرى لنجاح الثورة الإسلامية الإيرانية ذلك البعد الروحي الذي اتسم به قادتها؛ سواء من تولوا منهم المناصب الرفيعة، أو من ظل منهم في مجالس العلم والبحث والدراسة.

ذلك أن الشعب الإيراني، رأى في أولئك القادة من طهارة النفوس، وسمو الأرواح، ما كان يسمعه عن أئمته من قيم الإيمان والروحانية والطهارة والعفاف وغيرها من القيم الكريمة.. ولهذا نرى الإيرانيين لا يزالون يتبركون بآثار الخميني، لأنهم لم ينظروا إليه باعتبار أكبر شخصية سياسية في البلد، وإنما نظروا إليه قبل ذلك وبعده باعتباره وليا من أولياء الله الصالحين.

ومن طالع تراث الخميني، لا يستبعد منهم هذا الموقف، فالرجل ترك تراثا جليلا في كل مجال من مجالات العرفان، حتى الشعر الصوفي، نجده يجيده ويتقنه، وكأنه فريد الدين العطار، أو جلال الدين الرومي.

فمن قصائده الروحية التي تدل على تلك الآفاق السامية من العرفان التي تحلق فيها روحه قوله في بعض رباعياته، التي ينتهج فيها منهج الرمز الصوفي بجماله وجلاله:

أنا فراشة شمعٍ صبوح وجهك

أنا المفتون بممشوق بان قامتك

أنا المهيج المضطرب يا سيد الحسن من فراقك

ألا فارفع الحجاب عني، ارفعه، فأنا مفتضح بك

وقال في رباعية أخرى:

ماذا أفعل إن لم أكن على طريق دارك؟

ماذا أفعل إن لم أكن سرابا لوجهك؟

إن العالم – الروحي – أسير وترٍ من شعرك !

فما أفعل أنا إن لم أكن رهين كل شعرك؟!

وقال في رباعية أخرى:

حين أنظر أيها الأحباء جيدا بتفكر

أخرج من قيد وجودي كله

و مكبرا، مكبرا أوجه وجهي نحو المحبوب

و أنزع عني خرقتي، وأنقلب درويشا

وقال في رباعية أخرى:

أيها الحبيب، نحن جميعا مبتلون بحبك !!

كلنا محترقون بتذكر صورة وجهك !

إن تبعدنا وإن تقبلنا عندك

فنحن مقيمون ثابتون في درب آلام فراقك

وقال في رباعية أخرى:

ليس في أي من القلوب شوق إلى سواك

ليس لنا إلاك متقدٌ ومجير !

ما من أحد لا يحمل حبك..أنت في قلبه

ألا فَلْتُلَبِّ صرخة قلبنا

وقال في رباعية أخرى:

القلب الذي لا يذكرك ليس بقلب،

و القلب الذي لا يخفق بحبك ليس سوى طين

و من ليس له طريقٌ على محلَّتك

ليس له خيرٌ من حياته المجردة من أي ثمر

وقال في رباعية أخرى:

ألا إن حاجبك هو قبلة صلاتي

و ذكرك هو ما يحلّ عقدة سري

و إنني لأشيح بوجه حاجتي عن العالمين جميعا

إن يكن طرف لحاظك ملبّياً حاجتي

وغيرها من رباعياته وقصائده الكثيرة التي تدل على روح في منتهى الشفافية، ولذلك، فإن من لم يعرف هذا الجانب منه، لا يمكن أن يعرفه أبدا، ذلك أن كل مواقفه وحركاته وسكناته كانت مرتبطة بما يمليه عليها هذا الجانب من شخصه.

ولم تقتصر كتابات الخميني العرفانية على ذلك الشعر الجميل، وإنما كتب في كل معانيه، وبلغة يجتمع فيها العلم الدقيق والذوق الرفيع.

وهو ـ خلافا لما يتوهم الكثير ـ لم يكن مقلدا في العرفان، ولا كان خاضعا لكل ما كتب فيه، بل كان يمحص، ويميز الطيب من الخبيث، ويتكلم عن تجربة وذوق، ولهذا كان يحذر من يقرأ كتب العرفان من الاغترار، فالعرفان سلوك قبل أن يكون علوما.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الخميني في وصاياه العرفانية لأهله وغيرهم، ومنها وصيته لزوجة ابنه فاطمة [1] التي طلبت منه بعض الوصايا: (ابنتي.. الإنشغال بالعلوم حتى العرفان

[1] السيدة فاطمة طباطبائي، وهي ابنة السيد محمد باقر سلطان طباطبائي وزوجة ابن الخميني، وقد طلبت منه وصايا عرفانية، فأجابها برسالة موجودة ضمن وصاياه العرفانية..

والتوحيد إذا كان لاكتناز الاصطلاحات هو حاصل أو لأجل نفس تلك العلوم، فإنه لا يقرب السالك من الهدف بل يبعده عنه (العلم هو الحجاب الأكبر)، وإذا كان البحث عن الحق وعشقه هو الهدف، وهو نادرٌ جداً، فذلك مصباح الطريق ونور الهداية، (العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده)[1]، وللوصول إلى يسير منه يلزم التهذيب والتطهير والتزكية؛ تهذيب النفس وتطهير القلب من غيره فضلاً عن التهذيب من الأخلاق الذميمة التي يحتاج الخلاص منها إلى كثيرٍ من المجاهدة وفضلا عن تهذيب العمل مما هو خلاف رضاه جل وعلا، والمواظبة على الأعمال الصالحة، من قبيل الواجبات التي هي في الطليعة، والمستحبات بقدر الميسور وبالقدر الذي لا يوقع الإنسان في العجب والأنانية) [2]

ويقول لها: (ابنتي: العجب والغرور نتيجتان لغاية الجهل بحقارة النفس وعظمة الخالق، إذا فكر الإنسان قليلاً في عظمة الخلقة بالمقدار الذي وصل البشر، رغم كل هذا التقدم العلمي، إلى شيء يسير منه، يدرك حقارة وضآلة نفسه وكل المنظومات الشمسية والمجرات، ويفهم قليلا من عظمة خالقها ويخجل من عُجبه وأنانيته وغروره ويشعر بالجهل)[3]

ويقول لها: (ما دام الشباب في يدك فجدي في العمل وفي تهذيب القلب وكسر الأقفال ورفع الحجب، فإن آلاف الشباب الذين هم أقرب إلى أفق الملكوت يوفقون لذلك ولا يوفق هرم واحد.. القيود والأغلال والأقفال الشيطانية إذا غُفل عنها في (مرحلة) الشباب تضرب جذورها في كل يوم يمضي من العمر وتصبح أقوى .. من مكائد الشيطان الكبرى والنفس الأخطر منه أنهما يعدان الإنسان بالإصلاح في آخر العمر وزمان الشيخوخة، ويؤخران التهذيب والتوبة إلى الله إلى الزمان الذي تصبح فيه

1() المحجة البيضاء /5/45.

2() وصايا عرفانية، الخميني، ص109.

3() المرجع السابق، ص111.

شـجرة الفسـاد وشـجرة الزقـوم قويـة والإرادة والقـدرة على التهذيب ضعيفتين بل ميتتين) [1]

وهكـذا نـرى الخميـني يمـزج دائمـا بين العرفـان النظـري والعرفان العملي، حتى يقي السالك من كل ألوان الغرور التي قد تجعله يدعي ما لم يصل إليه من المعـارف، ولهـذا نـراه يكـثر من التحذير من العجب والغرور والتعـالي والتعـالم، ويـدعو بـدلها إلى العبودية والتواضع.

ولهذا لم يقع ـ رغم تراثه العرفاني الكبير ــ في ذلـك الـدخن الكبير الـذي امتلأت بـه كتب ابن عـربي أو الجيلي أو القونـوني أو غيرهم، مع كونه تعامل معهم، ودرس كتبهم، واستفاد منها، ولكنـه استطاع أن يميز بين ما يقبل منها، وما يرفض.

وربما يكون السبب في عـدم وقوعـه في ذلـك الخلـط الـذي وقـع فيـه الكثـيرون بين حقـائق العرفـان وأوهامـه، هـو ارتباطـه الشـديد بأهـل الـبيت، ولهـذا لم يـوص في العرفـان إلا بـالالتزام بأدعيـة أهـل الـبيت ومناجيـاتهم، فهي الـتي تمثـل خـط العرفـان السليم من كل وهم، ولهذا كان يهتم بـدعاء السـحر، وشـرحه في كتاب عرفاني في منتهى الجمال والعلمية والتبسيط.

ومن الأدعيـة الـتي كـان يهتم بهـا كثـيرا، هـو وسـائر قـادة الجمهورية الإسلامية الإيرانيـة، المناجـاة الشـعبانية[2]، والـتي هي بمثابـة تـدريب للمـؤمن على كيفيـة خطـاب ربـه، وقـد قـال عنهـا الخميني: (أنا لم أر في الأدعيـة، أي دعـاء قيـل بـأن جميـع الأئمـة

1() المرجع السابق، ص113.

2() المناجاة الشعبانية هي مناجاة يرويها الشيعة عن الإمـام علي، وتحتـوي على نمـاذج من التضرع ووصف حال الأولياء في علاقتهم مع الله، وغالباً مـا يقـرأ الشـيعة هـذه المناجـاة فيى شهر شعبان، يقول عنها آية الله الملكي التبريزي: (ومناجاتـه الشـعبانية معروفـة، وهي مناجاة عزيزة على أهلها، يحبونها ويستأنسون بشعبان من أجلها، بل ينتظرون مجيئ شـعبان ويشتاقون إليه من أجلها وفي هذه المناجاة علوم جمّة في كيفية تعامل العبـد مـع اللـه جـل جلاله، وبيان وجوه الأدب التي ينبغي أن نلتزمها ونتأدّب بها عندما نسأل الله تعـالى حوائجنـا، ونـدعوه سـبحانه ونسـتغفره) [الملكي التـبريزي، المراقبـات، الفصـل الثـامن في اعمـال الشعبان المعظم]

كانوا يقرؤونه إلّا دعاء المناجاة الشعبانية، ولم أر بأنّ الأئمة كانوا يدعون بدعاء آخر غير المناجاة الشعبانية، لأن المناجاة الشعبانية هي لإعدادكم، لإعداد الجميع لضيافة الله عزوجل)[1]

ويقول عنها الخامنئي: (إنَّ المناجاة الشعبانيّة المأثورة والتي رُوِي أنَّ أهل البيت كانوا يداومون عليها هي أحد الأدعية التي لا يُمكن إيجاد نَظير لمعانيها العرفانيّة، ولسانها البليغ، ولمضامينها العالية جداً، المليئة بالمعارف الرَّفيعة، على الألْسنة الجارية وفي المحاورات العاديّة، بل ليس مُمكناً أصلاً أن تُنشأ بِمِثل تلك الألْسنة.. إنَّ هذه المناجاة، هي النَّموذَج الكامِل مِن تضرُّع أكثر عباد الله الصالحين قُرْباً واصْطِفاءً، بين يدَي معبوده ومَحبوبه، الذّات الرّبوبيّة المقدَّسة. إنّها مِن جهة درسٌ من المعارف، وهي أيضاً أُسوةٌ في كيفيَّة إظهار الحاجة وطلب الإنسان المؤمِن من الله)[2]

والتأمل في هذه المناجاة، والمعاني السامية التي تحملها، يدل على سر اهتمام هؤلاء القادة الكبار بها، وترغيب شعبهم فيها، فمن المقاطع الواردة فيها: (إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعزِّ قدسك، إلهي واجعلنى ممن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك)[3]

وقد علق على هذا المقطع الخميني بقوله: (كمال الإنقطاع هذا هو الخروج من منزل الأنا والإنية ومن كل شيء وكل شخص، والالتحاق به والانقطاع عن الغير. وهو هبةٌ إلهية إلى الأولياء الخلّص بعد الصعق الحاصل من الجلال الذي يقع إثر اللحظ.. وما

1() صحيفة نور، ج. 13، ص. 31.

2() من خطاب له 25 شعبان 1422هـ ـ كاشان.

3() بحار الأنوار 91/97.

لم تُنوّر أبصار القلوب بضياء نظرته لا تُخرق حجب النور، ومادامت هذه الحجب باقية فلا سبيل إلى معدن العظمة، ولا تحصل الأرواح على التعلّق بعزّ القدس ولا تحصل مرتبة التدلي {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} [النجم: 8]، وأدنى من ذلك الفناء المطلق والوصول المطلق)[1]

ومثل ذلك نراه في وصاياه العرفانية يكثر من الحث على الأدعية باعتبارها مصادر العرفان النظري والعملي، ولهذا استطاع أن يحفظ العرفان الشيعي من كل ذلك الدخن الذي أصاب العرفان السني.

ومن أمثلة حثه على الالتزام بالأدعية والتأمل فيها ودورها في بناء الإنسان وتقريبه من خالقه قوله: (هذه الأدعية هي مصدر أمثال هذه النهضات، وهذه الأدعية هي التي توجه الإنسان للمبدأ الغيبي لو أحسن قراءتها، ونفس هذا التوجه يؤدي إلى تقليل تعلق وحب الإنسان لنفسه، وهذا لا يمنع الإنسان عن الحركة والنشاط، كلا، بل على العكس هو يولد حركة ونشاطا أيضا لدي الإنسان ولكن ليس من أجل نفسه، يل إنه يدرك أنه يجب أن يتحرك وينشط من أجل خدمة عباد الله، فهي خدمة لله)

ثم يوجه لومه الشديد لمن ينتقدون هذا، قائلا: (أولئك المنتقدون لكتب الأدعية إنما يفعلون ذلك لكونهم جهلة مساكين لا يعرفون كيف أن كتب الأدعية هذه تصنع الإنسان، فأي إنسان - عظيم - تصنعه الأدعية الواردة عن أئمتنا، كالمناجاة الشعبانية ودعاء كميل، ودعاء الإمام سيد الشهداء يوم عرفه، دعاء السمات.. إن الذي يقرأ المناجاة الشعبانية هو نفسه الذي يشهر السيف أيضا هذه المناجاة كان يقرأها جميع الأئمة، ولم أر فيما يتعلق بسائر الأدعية الأخرى مثل هذا الوصف - قراءة جميع الأئمة لها - والذي يقرأها يشهر السيف ويجاهد الكفار.. هذه الأدعية تخرج الإنسان من هذه الظلمات وعندما يخرج منهما يصبح عاملا في سبيل الله، مقاتلا في سبيل الله، قائما لله.. الأدعية لا تحجز الإنسان عن الحركة والعمل كما يدعي أولئك

---

[1] وصايا عرفانية، الخميني، ص109.

الذين قصروا آمالهم على هذه الدنيا معتبرين كل ما وراءها من الذهنيات لكنهم سيصلون إلى حيث يرون أن هذه الذهنيات هي العينيات وما كانوا يرونه عينيا هو الذهنيات.. هذه الأدعية والخطب ونهج البلاغة ومفاتيح الجنان وسائر كتب الأدعية، هي التي تعين الإنسان ليصبح إنساناً)[1]

هذه نماذج عن موقف الخميني من العرفان النظري، وهي تبين مدى ارتباطه بالقيم التي ذكرها أهل البيت، وهي ترد كذلك على أولئك المرجفين، والذين يتصورون أنه قد وقع في المتاهات التي وقع فيها الذين خلطوا التصوف النقي بالكثير من الخرافات التي استوردوها من المشرق والمغرب.

1() سر الصلاة أو صلاة العارفين، الخميني، ص76.

لا يمكن لمجتمع أن يتم تدينه أو تحضره من غير أن تكون لـه مجموعة من القيم الأخلاقية التي يـؤمن بهـا، ويطبقهـا في حياتـه، ذلك أن الـدين في جـوهره ليس سـوى قيمـا أخلاقيـة رفيعـة جـاء الأنبياء للدعوة إليها، كما نص على ذلك رسول الله ﷺ بقوله: (إنَّما بُعِثتُ لأُتممَ مكـارمَ الأخلاق)[1]، واعتـبر أن أكمـل المؤمـنين إيمانـا أحسنهم أخلاقا، فقال : (أكمل المؤمـنين إيمانـا، أحسـنهم خلقـا)[2] ، وجعل الخلق مقياسا للتحقق بالكمـال الإنسـاني، فقـال : (إن أحبكم إليّ وأقربكم مني في الآخرة مجالس محاسنكم أخلاقا، وإن أبغضـكم إليّ وأبعــدكم مــني مســاوئكم أخلاقــا الثرثــارون المتفيهقــون المتشدقون)[3]

بناء على هذا نحاول في هذا الفصل بيان مدى تمسك الإيرانـيين بـالقيم الأخلاقيـة، ومن خلالهـا نـرى مـدى تمسـكهم بالـدين الصـحيح الأصيل، ذلك أن أول علامات التدين المزيف سوء الخلـق، ومـا ينشـأ عنه من أمراض نفسية لها آثارها السلبية الكثيرة في الواقع.

وكذلك نرى من خلاله مدى تحضرهم؛ فالحضـارة ليسـت تقـدما ماديا فقط، وإنما هي قبل ذلك وبعده قيم أخلاقية، ترفع الإنسـان إلى المحل الكريم الذي أكرمه الله به.

ولبيان ذلك حاولنـا أن ننظـر إلى مـدى اهتمـام الإيـرانين بـالقيم الأخلاقية، سواء على مستوى تراثهم العريـق، الـذي يعـبر عن الواقـع الاجتماعي التاريخي، أو على مستوى الواقع المعيش الـذي نـراه الآن من خلال حياتهم الاجتماعية أو مواقفهم السياسية ونحوها.

---

[1] رواه مالك في الموطأ.

[2] رواه أحمد، وأبو داود، وابن حبان في صحيحه، والحاكم.

[3] رواه أحمد وابن حبان في صحيحه، والطبراني، والبيهقي، وكذا الترمذي وزاد قـالوا: يا رسول الله: ما المتفيهقون؟ قال: (المتكبرون)

والنتيجة التي خلصنا إليها، هي أن إيران في الوقت الحالي، تمثل ـ اجتماعيا وسياسيا وتراثيا ـ جميع القيم الأخلاقية النبيلة التي جاء الإسلام بالدعوة إليها، وبذلك هي تمثل نموذج التدين الأصيل، الذي يعتبر الأخلاق ركنا أساسيا لا يمكن الاستغناء عنه.

بل إننا لو تخلينا عن أحقادنا وقرأنا الواقع الإيراني جيدا قراءة منصفة، لعلمنا أن كل ما حصل لإيران من حروب وحصار وظلم في العقود الأخير كان نتيجة لتمسكها بالقيم الأخلاقية التي لم تسمح لها أن تتخلى عن مبادئها لأجل تحقيق مصالحها، فهي دولة مبدئية ـ شعبا ونظاما ـ ولهذا ابتليت بكل أولئك الأعداء.

والذين يقارنونها بغيرها من الدول الإسلامية، وخصوصا تركيا ودول الخليج يخطئون كثيرا، لأنهم ينظرون إلى التقدم المادي، ولا ينظرون إلى التقدم في القيم والأخلاق، وقد كان في إمكان إيران أن تحصل على الكثير على ما يحصل عليه غيرها من التقدم المادي والرخاء الاقتصادي لو أنها تنازلت كما تنازلت تركيا ودول الخليج، لكنها لم تفعل، وهذا ما يبرهن على مدى تغلغل القيم الأخلاقية في المجتمع والسياسة الإيرانية، ذلك أن السياسة لم تكن لتقف تلك المواقف الصلبة لولا وجود حضانة شعبية لمواقفها.

بناء على هذا نحاول في هذا الفصل أن نذكر تجليات القيم الأخلاقية في إيران على الجانبين التاليين:

أولا ـ جانب التراث، ذلك أن التراث الإيراني يزخر بكتابات كثيرة حول الأخلاق، بل لا نبالغ إن ذكرنا بأن أمهات كتب علم الأخلاق، وأصوله الكبرى من تأليف علماء إيرانين.

ثانيا ـ جانب الواقع، وذلك من خلال مطالعة الواقع الاجتماعي والسياسي والتعرف على القيم الأخلاقية التي تحكمه وأسباب ذلك.

أولا ـ القيم الأخلاقية والتراث الإيراني:

مثلما اكتشفنا سابقا الدور الريادي للعلماء الإيرانيين في المجالات العلمية المختلفة، فإننا عند البحث في التراث الأخلاقي نكتشف نفس النتيجة، فأول من كتب في هذا العلم فلاسفة وأدباء

ومفكرون وعلماء إيرانيون، ولا تزال إلى الآن إسـهاماتهم الكثـيرة في هذا الجانب.

وسـنحاول هنـا أن نـذكر نمـاذج عن ذلـك من خلال المنهجين الكبيرين المتبعين في دراسـة الأخلاق: المنهج الفلسـفي، والمنهج الديني.

1 ـ التراث الفلسفي والأخلاق:

يُقسّم علم الأخلاق إلى قسمين: نظـري، ويبحث عن (أسـس الخـير المطلـق، وفكـرة الفضـيلة من حيث هي بغضّ النظـر عن المصاديق والأفـراد)[1]، ويطلـق عليـه [فلسـفة الأخلاق]، وعملي، ويبحث عن (مصاديق الخـير الـتي تقـع تحت الحـواس، والفضـائل الخارجية كالوفـاء بالأمانـة والإحسـان إلى المعـوزين)، وكـل ذلـك أيضا بطريقة فلسفية، وقـد يـدمج ببعض النصـوص الدينيـة المؤيـد لما يقتضيه العقل.

وعند مراجعة التراث الإسلامي، وما ألف فيه في كلا الجانبين نجد للمساهمات الإيرانية الريادة في ذلك كله، فأول من ألـف في علم الأخلاق النظري، باتفاق جميع علماء الأخلاق **أبو علي أحمد بن يعقـوب، المعـروف بـابن مسـكويه الـرازي** [325 - 421هـ]، والذي يعدّ أكبر فيلسوف أخلاقي مسلم، وقد ترك الكثير من الكتب الرائـدة في مجالهـا، ومنهـا: (تهـذيب الأخلاق وتطهـير الأعـراق)، و(تـرتيب السـعادات)، و(الفـوز الأصـغر)، (رسـالة في العدل)، (الهوامل والشوامل)، وغيرها، والتي كـان لهـا أثرهـا بعـد ذلك في كل ما كتب حول الأخلاق.

وكـان يطلـق عليـه ــ بسـبب إسـهاماته الفلسـفية في هـذا المجال ـ لقب ـ [المعلم الثالث]، بل إن محمد إقبال يعتبر فلسـفة ما بعد الطبيعة عنده أكثر انتظاما من فلسـفة الفـارابي، ذلـك أنـه أسـس نظريتـه في الأخلاق على الإيمـان باللـه، ولهـذا نـراه في القسم الأول من الفوز الأصغر يعقـد عشـرة فصـول حـول إثبـات الصانع، ويعقد في القسـم الثـاني عشـرة فصـول مختصـرة حـول

1() انظر: فلسفة الأخلاق في الإسلام،الشيخ محمد جواد مغنية، ص53ـ56..

معرفة النفس والمعاد، وفي القسم الثالث من الكتاب يعقد عشرة فصول أيضاً تدور حول النبوة.

ومن الذين كانت لهم مساهماتهم الفلسفية الكبرى في علم الأخلاق، وخاصة التطبيقية منها، بل يعد رائدا فيها، **محمد بن الحسن الجهرودي الطوسي**، المشهور بالخواجة **نصير الدين الطوسي** (597 – 672 هـ)، الذي ألف في المجالات العلمية والفلسفية المختلفة، وكان رائدا فيها جميعا، ومنها كتبه في علم الأخلاق، وخاصة التطبيقة منها، والذي يعد بحق رائدا فيها.

ومن أشهر كتبه فيها الكتاب المعروف [أخلاقُ ناصرِيّ]، الذي يعتبر من أهم الآثار في الحكمة العملية، وهو يتكون من ثلاثة أقسام تشمل الأخلاق التطبيقية بجميع فروعها، وهي: الأخلاق، وتدبير المنزل، وسياسة المدن.

وقد ذكر المؤرخون لعلم الأخلاق أن نصير الدين الطوسي أبدع في كتابه هذا بما لم يسبقه إليه أحد لا في العهد اليوناني، ولا في العصر الإسلامي، ذلك أن فلاسفة العصر الإسلامي من قبله قد ألّفوا في كليات الحكمة النظرية إلاّ أنّ هذا الكتاب يعتبر أوّل أثر في الحكمة العملية، ولهذا السبب أيضاً اتخذه الفلاسفة الذين تلوه نموذجاً يحتذى به في تدوين كليات الحكمة العملية.

ومن الإيرانيين الذين كانت لهم إسهاماتهم الفلسفية في هذا المجال **قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الشيرازي** (توفى 710هـ) وهو من علماء الرياضيات والفلك والفيزياء والفلسفة الكبار، بالإضافة إلى ذلك كتب في علم الأخلاق في موسوعته [درّة التاج]

ومنهم **جلال الدين الدواني** (830 هـ - 918هـ) وهو قاض، وفقيه شافعي، ومتكلم، ومفسر، وفيلسوف، وقد شرح عدداً من الكتب المشهورة في الفلسفة والتصوف، وقد كتب في مجال الأخلاق تحريراً جديداً لأخلاق ناصري تحت عنوان [أخلاق جلالي]، أضاف فيه إلى الموضوعات التي اقتبست من أخلاق

ناصري بلغة سلسة فوائد أخرى من الكتاب والسنة ومؤلفات أهل الشريعة مثـل أبي الحسـن المـاوردي وأبي حامـد الغـزالي وفخـر الدين الرازي.

ومنهم **أحمـد الـنراقي الكاشـاني** (1185 ــ 1245 هــ)، الملقب بالفاضـل الـنراقي، وكـان أديبـاً وشـاعراً، درس المنطـق، والفقه، والأصول، والكلام، والفلسفة وغيرها، وكان له آثاره فيهـا، وقـد قـال عنـه محسـن الأمين: (كـان عالمـاً فاضـلاً جامعـاً لأكـثر العلـــوم، لاســيما الأصـــول والفقه والرياضـــيات، شـــاعراً بليغـــاً بالفارسية)[1]

وقال عنه الشـيخ أقـا بـزرك الطهـراني: (هو الشـيخ المـولى أحمد بن المولى محمد مهدي بن أبي ذر النراقي الكاشاني، عـالم كبير وفقيه بارع ومصنف جليل، ولامع متبحر ورئيس مطاع، وكـان رحمه الله من العلمـــاء الاتقيـــاء والابـــرار الأخيـــار عطوفـــاً على الفقراء، شـفيعاً على الضـعفاء، سـاعياً في قضـاء الحـوائج، بـاذلاً جهده في إنجاز مطالب المحتاجين)[2]

وقـــال عنـــه الشـــيخ عبـــاس القمي: (العـــالم العابد والفاضل الفقيه النبيه والشـاعر الاديب، والسـراج الوهـاج، والبحر العجـاج، فحل الفحول)[3]

ومن أهم كتبـه في الأخلاق، والـتي مـزج فيهـا بين الفلسـفة والـــدين في طـــرح القضـــايا الأخلاقيـــة كتابـــه المشـــهور [جـــامع السعادات]، وهـو كتـابٌ في الأخلاق النظريـة والتطبيقيـة، وميزتـه الكـبرى الـتي أهلت لـه كـل تلـك الشـهرة اشـتماله على البعـدين الفلسـفي والعقلي في الحـديث عن القضـايا الأخلاقيـة، بالإضـافة لاشتماله على الجانبين الديني والتطبيقي.

1() أعيان الشيعة، ج 3، ص 184..

2() الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، ج 10، ص 116..

3() القمي، الفوائد الرضوية، ص 85..

والكتاب يشتمل على ثلاثة أبواب تجمع أهم وأكثر المسائل الأخلاقية، ففي الباب الأول يتضمن مواضيع كلّية لعلم الأخلاق ومبانيها، من قبيل تجرّد النفس وبقائها، وتأثير المزاج على الأخلاق، وتأثير التربية على الأخلاق، وشرف علم الأخلاق لشرف موضوعه وغايته، والنفس وأسماؤها وقواها الأربع وأنّ غاية السعادة هو التشبّه بمبدأ الخلق.

وتناول في الباب الثاني أقسام الأخلاق، وبحث فيه عن الفضائل الأربع (الحكمة والعدالة والشجاعة والعفّة)، وفي حقيقة العدالة أنّ العقل النظري بنفسه يدرك الفضائل والرذائل، وحدّ الوسط (الاعتدال) وما سواه (الإفراط والتفريط) في الأخلاق.

وتناول في الباب الثالث الأخلاق الحميدة، يشتمل على مقدّمة وأربعة مقامات، وجاء في المقدّمة طريقة حفظ الاعتدال للفضائل الأخلاقية، ويبحث فيها عن معالجة النفس بنحو عام ومعالجتها على وجه خاصّ، ويبحث في المقامات عن القوة العاقلة وما يتعلق بقوة الغضب من أمور وعن رذائل وفضائل قوة الشهوة، ومطالعة الرذائل والفضائل للقوى الثلاث أو ما يتعلق لقوتين منها دون أخرى.

وميزة الكتاب الكبرى ـ كما ذكرنا ـ ذلك المزج بين ما قاله الفلاسفة، وما جاءت به الشريعة، من غير أن يعطي الفلسفة فوق قدرها، بل هو يعتقد أن ما جاء به الفلاسفة لا يمكن مقارنته بما جاءت به الشريعة، وقد قال في مقدمة كتبه يذكر ذلك: (لا ريب في أن التزكية موقوفة على معرفة مهلكات الصفات ومنجياتها، والعلم بأسبابها ومعالجاتها، وهذا هو الحكمة الحقة التي مدح اللّٰه أهلها، ولم يرخص لأحد جهلها، وهي الموجبة للحياة الحقيقة، والسعادة السرمدية، والتارك لها على شفا جرف الهلكات، وربما أحرقته نيران الشهوات، وقد كان السلف من الحكماء يبالغون في نشرها وتدوينها. وجمعها وتبيينها، على ما أدت إليه قوة أنظارهم، وأدركوه بقرائحهم وأفكارهم، ولما جاءت الشريعة النبوية (على صادعها ألف صلاة وتحية) حثت على تحسين الأخلاق وتهذيبها، وبينت دقائقها وتفصيلها بحيث اضمحل

في جنبها ما قرره أساطين الحكمة والعرفان، وغيرهم من أهل الملل والأديان، إلا أنه لما كان ما ورد منها منتشرا في موارد مختلفة، ومتفرقا في مواضع متعددة، تعسّر أن يحيط به الجل فلا بد من ضبطه في موضع واحد ليسهل تناوله للكل، فجمعت في هذا الكتاب خلاصة ما ورد من الشريعة الحقة مع زبدة ما أورده أهل العرفان والحكمة على نهج تقرّ به أعين الطالبين، وتسر به أفئدة الراغبين)[1]

ومن الشخصيات الإيرانية الرائدة في علم الأخلاق، والتي يمكن ذكرها هنا **أبو محمد عبد الله بن المقفع**[2] (109 - 145 هـ) الكاتب والشاعر والمترجم الكبير، وأصله من فيروز آباد هي مدينة إيرانية لا تزال تسمى بهذا الاسم.

ومن مؤلفاته المهمة المرتبطة بالأخلاق، والتي كان لها تأثيرها الكبير الممتد إلى العصر الحالي كتاب [كليلة ودمنة]، والذي صاغ فيه الكثير من القيم الأخلاقية على شكل قصص تدور بين الحيوانات، وتتضمن عدة مواضيع من أبرزها العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بالإضافة إلى الكثير من الحِكم والمواعظ.

ومن كتبه الأدب الكبير، الذي يعني به أدب النفس، وهو يبحث في السلطان وآدابه، وفي الصداقة ومعاملة الأصدقاء وآدابهم، ويعرض بعض الحكم والنصائح لطالب العلم والأدب.

ومنها الأدب الصغير: وسماه بذلك تميزاً له من (الأدب الكبير) لصغر حجمه، وتحدث فيه عن حاجة العقل إلى الأدب، وتأثير الأدب في إنماء العقول، وحفظ أقوال أهل الرأي والمشورة، والاقتداء بالصالحين، والأخذ عن الحكماء.

ومنها رسالة الصحابة: هي رسالة كتبها ابن المقفع للخليفة المنصور، يذكّره فيها بأحوال رعيته، وما ينبغي أن يوجه نظره إليه بشأن بلاد الخلافة، وبشأن صحابته وأعوانه وجنده، ودراسة

[1] جامع السعادات، ج1، ص: 35.

[2] انظر في ترجمته: الذهبي: سير النبلاء 5: 222، القفطي: تاريخ الحكماء 220.

أحوالهم وتنظيمها.

هذه نماذج عن بعض الفلاسفة الإيرانيين القدامى الذين كتبوا في الأخلاق، ويمكن أن يضـــم إليهم الكثـــير من المعاصـــرين من أمثال **الشيخ تقي مصباح اليزدي** (ولـد 1934 م) الفيلسـوف والعالم الإيراني الكبير الذي كتب في المجالات المعرفية الكثـيرة، وخصوصـا الفلسـفية منهـا، ومنهـا فلسـفة الأخلاق، وهـو مؤسـس مؤسسة الإمـام الخميـني للتعليم والبحث العلمي، وعضـو مجلس خبراء القيادة في إيران، وأحد أبـرز تلامـذة المفسـر والفيلسـوف الإسـلامي محمـد حسـين الطباطبـائي، بالإضـافة إلى كونـه أشـهر فيلسوف إسلامي في الوقت الراهن.

وكل مؤلفات تنظر للأخلاق، وتتناولها من زوايا مختلفة، ومنها: معرفة الله، ومعرفة الكَوْن، ومعرفة الإنسان، ومعرفة السبيل، ومعرفة الدليل، ومعرفة القرآن، والأخلاق في القرآن(ثلاثة أجزاء) ، والمجتمع والتاريخ في الرؤية القرآنية، والحقوق والسياسة في القرآن، والحرب والجهاد في القرآن، والإمامة والولاية في القرآن الكريم، والتوحيد في النظام العقائدي وفي النظام القيمي في الإِسلام، ودروس في العقيدة الإِسلامية(ثلاثة أجزاء) ، وشرح برهان الشفاء(أربعة أجزاء) ، وشرح الهيات الشفاء لابن سينا (جزءان) ، وشرح الأسفار الأربعة لصدر الدين الشيرازي، وشرح نهاية الحكمة للعلامة الطباطبائي (جزءان) ، وتعليقة علي نهاية الحكمة، والمنهج الجديد في تعليم الفلسفة(جزءان) ، وخلاصة عدة بحوث فلسفية، ودروس في الفلسفة، والايديولوجية المقارنة، ونقد موجز لأصول الماركسية، والذود عن حصون الآيديولوجية(ستة أجزاء) ، وفي ضياء البارقة، وأصولالمعارف الإنسانية، وحوار مُبين حول الأفكار الأساسية، ولقاءالله، وتجلي القرآن في نهج البلاغة، والسائرون على طريق الحبيب، والدين والحرية، وكلمة حول فلسفة الأخلاق، ودروس في فلسفة الأخلاق، وفلسفة الأخلاق، ونقد ودراسة المذاهب الأخلاقية، ومعرفة الذات لبنائها من جديد ، ونحو بناء الذات، وفي البحث عن العرفان الإسلامي، والمتطلّبات التمهيدية للإدارة الإِسلامية، وتأمّلات في الحكمة والإشراق.. وغيرها كثير.

وقد ذكرنا أسماء هذه المؤلفات لنعرف من خلالها سعة المجالات التي بحث فيها، وخاصة وهو يرأس تلك المؤسسات الإيرانية المهمة، لنعرف من خلالها مدى تغلغل الفلسفة الإسلامية بأنواعها المختلفة في المؤسسات الإيرانية، سواء ما كان منها ذا طابع علمي، أو ما كان ذا طابع سياسي، وهي فلسفة تمتزج بالدين، بل تنطلق منه، وليست فلسفة إلحادية، ولا حداثية، ولا عندها أي نفور من الدين.

2 ـ التراث الديني والأخلاق:

نقصد بالتراث الديني ذلك التراث الذي بني انطلاقا من المصادر المقدسة من الكتاب والسنة وغيرهما، وهو لا يعني خلوه من البحث الفلسفي والعقلي، فالعقل أداة تستعمل في كل المجالات.

وعند البحث في هذا النوع من التراث واهتمامه بالأخلاق، نجد أكبر المصادر التي ألفت فيه إيرانية بامتياز، وسأذكر هنا نماذج عن أكبر ما ألف فيه، لنرى مدى مصداقية ذلك.

فمن أوائل الكتب التي ألفت في الأخلاق، وامتزج فيها البحث العقلي الفلسفي بالبحث الديني، مؤلفات الراغب الأصفهاني، والتي استفاد منها أبو حامد الغزالي كثيرا في كتبه[1]، وأهمها كتابه (**الذريعة إلى مكارم الشريعة**)، وهو من الكتب الرائدة في علم الأخلاق، وتناول فيه: أحوال الإنسان، وقواه، وفضيلته، والعقل، والعلم، والنطق، وما يتعلق بالقوى الشهوية، وما يتعلق بالقوى الغضبية، والعدالة، والظلم.. وغيرها.

وقد ذكر الراغب الأصفهاني في مقدمة كتابه دوافعه لتأليف كتابه؛ فقال: (كنت قد أشرت فيما أمليته من كتاب [تحقيق البيان في تأويل القرآن] إلى الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها، فإن المكارم المطلقة هي اسم لما لا يتحاشى من وصف الباري جل

---

[1] ()قال في [كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (1/ـ 827)]: قيل أن الإمام: حجة الإسلام الغزالي، كان يستصحب كتاب (الذريعة) دائما، ويستحسنه لنفاسته، ومن الأمثلة على ذلك كذلك ما ذكره د. محمد يوسف موسى، في كتابه [تاريخ الأخلاق، ص194] من أن الغزالي أخذ في كتابه [معارج القدس]، من [تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين] للراغب.

ثناؤه بها أو بأكثرها نحو الحكمة، والجود، والحلم، والعلم، والعفو، وإن كان وصفه تعالى بذلك على حد أشرف مما يوصف به البشر، وإن الأحكام تتناول ذلك وتتناول العبادات، وإنه باكتساب المكرمة يستحق الإنسان أن يوصف بكونه خليفة اللَّه المعني بقوله: { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة: 30]، وأشرت أن خلافة اللـه عز وجل لا تصح إلا بطهارة النفس، كما أن أشرف العبادات لا تصح إلا بطهارة الجسم، وقد استخرت اللَّه الآن، وعملت في ذلك كتابًا ليكون ذريعة إلى مكارم الشريعة، وبينت كيف يصل الإنسان إلى منزلة العبودية التي جعلها اللـه تعالى شرفًا للأتقياء، وكيف يترقى عنها إذا وصلها إلى منزلة الخلافة التي جعلها اللَّه تعالى شرفا للصديقين والشهداء، فبالجمع بين أحكام الشرع ومكارمه علمًا، وإبرازهما عملًا يكتسب العلا، ويتم التقوى، ويبلغ إلى جنة المأوى، ورغبني أيها الأخ الفاضل - وفقك اللَّه وأرشدك، وأعاذك من شر نفسك - في تصنيفه ما رأيت من تشوقك أن تزين ما وليه اللَّه من حسن خَلْقك وخُلُقك بما تتولاه من تحسين أدبك، وإكمال مروءتك، فما أجدر رواك الصبيح أن تحصِّل وراءه الرأي الصحيح)[1]

ومن أهم مزايا الكتاب، والتي تجعله من الكتب الرائدة في علم الأخلاق ذلك المزج بين ما ورد في النصوص المقدسة، وما أورده الفلاسفة والحكماء من المسلمين وغيرهم، وبذلك كان الكتاب مصدرا من المصادر المهمة والرائدة في علم الأخلاق.

ومن كتبه الأخرى في علم الأخلاق كتاب [**تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**]، وهو من أهم الكتب المرغبة والمؤسسة للأخلاق، وهو يبحث في حقيقة الإنسان، وماهيته، وغاية وجوده، ومصيره، وكل ذلك بأسلوب استدلالي متين، مع الإكثار من الاستشهاد بالنصوص القرآنية، والآثار، وأقوال العلماء.

ومن الكتب الرائدة في علم الأخلاق كتب أبي حامد الغزالي الكثيرة، ذلك أن معظمها يرتبط بالأخلاق، وخاصة [**إحياء علوم الدين**]، الذي يعتبر أكبر كتاب في الأخلاق، جمع فيه تراث كل من

1() الذريعة الى مكارم الشريعة (ص: 59)

سبقه بطريقة علمية مبسطة جعلت منه أشهر الكتب وأكثرها تأثيرها على امتداد التاريخ والجغرافية الإسلامية.

وقد قال فيه بعض المعاصرين ردا على السلفيين الذين تعودوا أن يزهدوا فيه، وينفروا منه: ([إحياء علوم الدين] من أفضل الكتب وأعظمها في تزكية النفس وتصفيتها من الشوائب والآفات، وفي معرفة الإنسان خبايا نفسه ودخائلها، وكيف يعالجها، ومعرفة حقيقة العبادة وروحها، والكتاب كلُّه يقوم على قاعدة أساسيَّة، تتلخَّص بكلمتين، تقرأهما في كلِّ باب من أبوابه، أو فصل من فصوله: تصحيح المعاملة مع الله تعالى، ومع عباد الله على أساس من العلم والعمل، مع الاستهداء بفهم السلف وأحوالهم.. وهو اسم على مسمًّى، إذ كان إحياء لما خفت نوره من علوم الدين، وامَّحت آثاره من حياة النَّاس، فنهض هذا الإمام الجليل لإحيائها وتجديدها، ووضعها في مسارها الصحيح، وبؤرة التأثير والتغيير، فأحيا بعمله الأمّة، وجدّد انبعاثها.. وهو كتاب كتب الله له القبول بين النَّاس، وتلقَّته خيار الأُمَّة بالاعتناء والاهتمام، وانتفعت به جيلاً بعد جيل، ومؤلّفه الإمام الغزاليُّ حُجَّة الإسلام شهد له الأئمّة المعتبرون بذلك، وعدُّوه مجدِّد الإسلام في قرنه، وقد وصف الإمام الذهبي مؤلِّفه في السِّيَر: (الغزالي الشيخ الإمام البحر، حُجَّة الإسلام، أعجوبة الزمان)، ويكفي الكتاب ومؤلِّفه شهادة أنَّ كلَّ مَنْ أتى بعده، وكتب فيما كتب نسج على منواله، واقتفى آثاره، واستفاد منه، ودونكم التاريخ يشهد بما أقول، وهو شاهد صدق، وحكم عدل)[1]

ومن الكتب المتأثرة بالإحياء، والتي سعت إلى تهذيبه [المحجة البيضاء] للملا محسن فيض الكاشاني (توفي 1091 هـ)، والذي اشتهر في البيئة الشيعة مثل اشتهار الإحياء في البيئة السنية، وميزة المحجة البيضاء تطهير الإحياء من الأشياء التي انتقد فيها، كسوء فهم بعض الصوفية للتوكل، أو الجوع الشديد ونحو ذلك.

1() انظر مقالا بعنوان: نظرات في كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي، عمر بن عبد المجيد البيانوني.

ومن الــذين كتبــوا في الأخلاق من الإيرانــيين **أبــو علي الحســن بن الحســين الســبزواري الــبيهقي**، المعــروف بالشيعي[2] (كان حيا سنة 753)،وهو كما وصفه مترجموه: (عالم فاضل متكلم عـارف واعـظ)، ومن مؤلفاتـه في الأخلاق [مصـابيح القلوب في المواعظ والنصائح]

بالإضافة إلى ذلك كله نرى في التراث الأخلاقي الإيراني الكثير من الكتب الروائية والتي لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب الحديث سواء من المصادر السنية أو الشيعية، وأشهرها في إيران، وأكثرها تداولا كتاب: [مكارم الأخلاق ومعالم الأعلاق، الحاوي لمحاسن الأفعال والآداب، من سيرة النبي ﷺ وآدابه وأخلاقه، وأوصافه، وسائر حالاته، وحالات الائمة المعصومين عليهم السلام وما روت في ذلك عنه وعن أهل بيته صلوات الله عليه وعليهم] لأبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي، من أعلام القرن السادس الهجري.

أما المتأخرون والمعاصرون، فلا يمكن عد كتبهم هنا لكثرتهـا، فأكثر المراجع والعلماء المتـأخرين صـنفوا في الأخلاق، سـواء من خلال القــرآن الكــريم، أو من خلال الأحــاديث والروايــات، أو من خلال البحــوث الفلســفية والعقليــة، من أمثــال ناصــر مكــارم الشيرازي الذي ألف موسوعة حول الأخلاق في القرآن الكريم.

وهكـذا نـرى القـادة الفكـريين للثـورة الإسـلامية الإيرانـيين يهتمـون بالكتابـة في الأخلاق، باعتبارهـا ركنـا أساسـيا من أركـان الثورة الإسلامية، ومنهم الشيخ مرتضى مطهري الذي رد في كتبه على كـل الـرؤى والمـدارس الفلسـفية الـتي تحـاول التنصـل من القيم والأخلاق، وقد عرض القيم الأخلاقية بطريقة علمية فلسـفية دينية مبسطة، كان لها تأثيرها الكبير في الأجيال التي تبنت الثـورة واحتضـنتها وتحملت الأعبـاء الكبـيرة في سـبيلها، وقـد قـال عنـه الخميني: (أوصي الطبقـة المفكّـرة والطلّاب الجـامعيّين ألّا يَـدَعوا قراءة كتب الأستاذ العزيز (الشهيد مرتضى مطهّري)، ولا يجعلوهـا تُنسى جرّاء الدسائس المبغضة للإسلام، فقد كان عالمـاً بالإسـلام

2() أعيان الشيعة 27: 50 - 60.

والقرآن الكريم والفنون والمعارف الإسلاميّة المختلفة، فريـداً من نوعه.. وإنّ كتاباته وكلماته كلّها بلا أيّ استثناء سهلةٌ ومربِّية)[1]

وقال عنـه الخـامنئي: (يوجـد القلائـل من العلمـاء من أمثـال الشهيد مطهري، بهذه القوة الفكرية والروحية، إن كـل خطبـة من خطبه يمكن أن تكون عنوانا وعملا تخصصيا كاملا. ولهـذا لابـد من العمل على مبانيه وخطه الفلسفي وبشكل كبـير. إن آثـار الشـهيد مطهري تمثل المباني الفكرية للجمهورية الإسلامية)[2]

ومن كتبه الـتي يمكن اعتبارهـا كتبـا أخلاقيـة، وإن كـانت كـل كتبـه تخـدم هـذا الجـانب بنحـو من الأنحـاء: خليفـة اللـه الإنسـان الكامـل، وكتـاب طهـارة الـروح، والإنسـان الكامـل، والإنسـان والقــدوة، والرؤيــة الإلهيــة والرؤيــة الماديــة، والحكم والنصـائح، وفلسـفة الأخلاق، ونظـام حقـوق المـرأة في الإسـلام، والنظـام الاقتصادي النظري في الإسلام، ونقد الماركسية، وهدف الحياة.

ثانيا ـ القيم الأخلاقية والواقع الإيراني:

من خلال مطالعـة الواقـع الإيـراني سـواء على المسـتويات الاجتماعية التي يمثلها الشعب، أو على المستويات السياسية التي تمثلهـا المؤسسـات الحاكمـة نجـد أن للقيم الأخلاقيـة محلا كبـيرا، وظهورا واضـحا، يتجلى من خلال مقارنـة الواقـع الإيـراني بـالكثير من المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية.

ولعل أكـبر برهـان على ذلـك هـو تلـك التضـحيات العظيمـة، وذلك السخاء اللامحدود الذي أبرزه الشعب الإيراني وقيادته طيلة أربعـة عقـود من الحصـار والضـغوط، ومـع ذلـك لم يستسـلم ولم يخضع، بل بقي محافظـا على قيمـه ومبادئـه وثورتـه وموقفـه من قضايا الأمة، بل إنه يزداد كل يوم قربا من تحقيـق مبادئـه الكـبرى التي نهض من أجلها.

---

[1] () من مقدمة كتاب الإنسان الكامل، مطهري، ص5.

[2] () المرجع السابق، ص6.

انطلاقا من هـذا نحـاول في هـذا المبحث بيـان مـدى تمسـك الإيرانيين شعبا وحكومة بالقيم الأخلاقية، ودوافعهم لـذلك، ليكـون ذلك تجربة جديدة لأولئك الذين ينبهرون كل حين بالتجربة اليابانيـة أو الألمانيـــة أو الماليزيـــة أو التركيـــة، لكنهم يحتقــرون التجربــة الإيرانية، مع كونها أكثر التجـارب قربـا من القيم الـتي جـاءت بهـا الشريعة الإسلامية.

1 ـ القيم الأخلاقية والواقع الاجتماعي:

مـع أننـا لا نقـول بعصـمة أي مجتمـع من المجتمعـات في أي عصـر من العصـور، حـتى العصـور الـتي ازدهت بالأنبيـاء والأوليـاء الكبار، لكننا مـع ذلـك لا نسـتطيع أن نضـع المجتمعـات جميعـا في محل واحد.

فالمجتمعات كالأفراد منها ما يغلب صلاحه فساده، ومنهـا مـا يغلب فساده صلاحه، ومنها ما يتمحض للفساد، فلا تجد فيــه شــيئا من الصلاح.. وهكذا نجد منها ما يسير في طريق الصلاح، ومنها ما يسير في طريق الفساد.

وعند تطبيق هـذه المعـايير على الواقـع الاجتمـاعي الإيـراني نجـد أنــه قـد حقـق نسـبة كبـيرة من الصـلاح بفعـل المؤسسـات الكثيرة الدينية والمدنية، التي اعتبرت الإنسـان مشـروعها الأكـبر، فراحت تستثمر فيه، وتوفر له البيئة المناسبة للصلاح، وتبعــد عنــه كل ما يمكن أن يؤدي إلى الفساد.

فمنــذ قـامت الثـورة الإسـلامية الإيرانيــة اهتمت بـالمجتمع، واعتبرته الأساس الذي يتم فيه نجاحهـا، واعتـبرت القيم الأخلاقيـة هي المعيار الأكـبر لمـدى نجـاح الثـورة، ولهـذا لم تبـال بكـل تلـك الصـيحات الـتي تتهمهـا بالتفريـط في حقـوق الإنسـان، أو كونهـا ليست دولة ليبرالية تعطي الحرية لشعبها ليمـارس مـا يشـاء، بـل إن قادتها كانوا يصرحون بمـواقفهم ضـد الليبراليـة الغربيـة، وأنهم مع الحرية المنضبطة بالضوابط الشرعية.

ولهـذا لم تضـع في ألقـاب الدولـة وصـف [الديمقراطيـة]، لا لكونهـا لا تـؤمن بحريـة الأفـراد في اختيـار ممثليهم، وإنمـا لكونهـا

تؤمن بأن القيم الأخلاقية التي تمثلها الشريعة هي التي تحكم، لا الأهواء التي يمثلها أي كان.

ولهذا نرى الخميني ينتقد الديمقراطية التي تنحرف بالشعوب، ويرى أنها مؤامرة، يقول في ذلك: (الديمقراطية مندرجة في الإسلام، والناس أحرار في الاسلام في بيان عقائدهم أو في أعمالهم ما لم تكن ثمة مؤامرة في الموضوع، ولم يطرحوا مسائل تجر الجيل الإيراني إلى الانحراف)[1]

ولهذا ينصح الشباب ألا يقعوا في المؤامرات التي يحيكها لهم الغرب، والتي يريد من خلالها استعبادهم عبر تلك الحريات المزيفة التي يتيحها لهم، يقول في ذلك: (أدعو الشباب فتياتٍ وفتياناً أن لا يضحّوا بالاستقلال والحرية والقيم الإنسانية حتى ولو تطلب الأمر تحمل المعاناة والصعاب؛ في مقابل الترف الزائد ووسائل اللهو والتحلل الخلقي، والتواجد في مراكز البغاء التي يشيعها الغرب وعملاؤه من باعة الوطن في أوساطهم)[2]

ويرى أن ذلك نوعا من الاستعمار الذي يشيعه الغرب تحت اسم الحرية والليبرالية، فيقول: (هبوا لبناء بلدكم، فالأمر يستحق بذل الجهد وتحمل العناء لعقد أو أكثر لتحقيق الاستقلال لبلادنا وتخليصها من أنياب هذه الذئاب المتوحشة)

ولهذا يرى أن على الدولة أن تقف في وجه كل شيء يمكن أن يؤثر في القيم الأخلاقية التي ينبغي أن تحكم المجتمع، وأولها الفن الذي حظي بتوجيهات كثيرة من طرف الخميني، ومن أقواله فيه[3]: (إنّ الفن الوحيد الّذي يحظى بالقبول القرآني، هو ذلك الفنّ الكاشف عن حقيقة الإسلام المحمديّ الأصيل، إسلام أئمّة

1() منهجية الثورة الاسلامية، مقتطفات من أفكار وآراء الإمام الخميني، ص359..

2() من الوصية السياسية الالهية، بتاريخ 1989/7/5.

3() الكلمات القصار، الإمام الخميني قدس سره، إعداد ونشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.

الهدى عليهم السلام، إسلام الفقراء والبائسين، إسلام الحفاة، إسلام المضطهدين على طول التاريخ المرير والمخجل)

ويقول: (إنّ الفنّ الجميل النقيّ هو الفنّ الّذي يكون صاعقة مدمّرة للرأسماليّين والشيوعيّين مصّاصي الدماء، وهو الفنّ المحطّم لإسلام الترف والعبث، للإسلام الالتقاطيّ، إسلام المساومة والذلّ والتقاعس، إسلام المترفين غير المبالين بآلام غيرهم، وبكلمة واحدة أنْ يكون مبيداً للإسلام الأمريكيّ)

ويقول: (الفنّ في مدرسة العشق هو الّذي يشخّص ويشير إلى غوامض ومبهمات المشاكل الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والعسكريّة)

ويقول: (إنّ الفنّ في العرفان الإسلاميّ هو صورة واضحة للعدالة والكرامة والقسط، وهو تجسيد مأساة الجياع المغضوب عليهم من قبل القوّة والثروة)

ويقول: (من بين الفنون يجب الاشتغال والاهتمام فقط بالفنّ الّذي يُعلّم طريق مقارعة ومحاربة ناهبي العالم)

ويقول: (بالنسبة لفنّانينا فلا يُمكنهم أنْ يتخلّوا عن مسؤوليّاتهم والأمانة الّتي حملوها على عواتقهم إلّا في حالة واحدة لا غير هي بعد أنْ يتيقّنوا أن جماهيرهم قد وصلت إلى حياتهم الخالدة في ظلّ عقيدتها فقط دون الاعتماد على الغير)

ويقول: (إنّ إخراج مسرحيّة تنسجم مع الأخلاق الإنسانيّة الإسلاميّة تحتاج إلى جهد، وكذلك السينما، فلو أرادت أنْ تكون هكذا فإنّ ذلك يتطلّب منها وقتاً كبيراً)

وهكذا كان موقفه من كل ألوان التسلية التي تعبث بالأخلاق، يقول في ذلك: (أمّا بشأن ما يُسمى بالتسلية فإنّ الإسلام يرفض كلّ ما يؤدْي بالإنسان للشعور بالعبثيّة والتغرّب عن الذات. ومَنع الإسلام السكر والخمر، ومنع كذلك الأفلام الّتي تُبعد الإنسان عن الأخلاق السامية)

ولهذا شرعت القوانين في الجمهورية الإسلامية الإيرانية

على أساس هذه التعليمات وغيرها، والتي كان الخميني وكل قادة الثورة حريصين على بثها، وإقناع المجتمع بها، على الرغم من تلك الحملة الكبيرة الـتي يقودهـا الإعلام المغـرض، والـتي تتهم إيـران بمصادره حقوق الإنسان.

انطلاقــا من هــذا نحــاول في هــذا المطلب أن نــذكر دور المؤسســات الإيرانيــة في نشــر القيم الأخلاقيــة في الواقــع الاجتماعي، لتحقيـق أكـبر نسـبة من الصـلاح فيـه إمـا عن طريـق الإقناع والهداية، أو عن طريق الزجر والحزم، وقد رأينـا أنـه يمكن اختصــارها في نــوعين من المؤسســات: المؤسســات الدينيــة، والمؤسســات المدنيــة، وإن كــان الجميــع في إيــران خاضــعا للمؤسسة الدينية، تحت وصاية ولاية الفقيه.

أ ــ المؤسســات الدينيــة ودورهــا في نشــر القيم الأخلاقية:

للمؤسســات الدينيــة ســواء كــانت مســاجد أو حســينيات أو حــوزات علميــة أو غيرهــا تأثيرهــا الكبــير في المجتمــع الإيــراني، فمراجع وعلماء ووعاظ وقـراء إيـران يحظـون بمكانـة خاصـة في المجتمع، قد لا نجد نظيرا لها في غيرها من المجتمعات الإسلامية، ومع أن ذلك قد يحمل بعض السلبيات، لكنه في نفس الوقت يـتيح للمؤسسة الدينية من الأدوار ما يمكنها أن تؤدي من خلاله واجباتها الإصلاحية.

ولهذا نرى كل قادة الثورة الإسلامية يتوجهون بالـدعوة لهـذه المؤسسات لأن تؤدي أدوارها، وألا تقف موقفا سـلبيا من كـل من يحاول تمزيق المجتمع أو السـير بـه نحـو طريـق الانحـراف، وأول ذلك إصلاح تلك المؤسسات، وإصلاح رجالها، ذلك أن فاقد الشيء لا يعطيه.

ولهذا نرى الخميني يخاطب طلبة الحوزة العلمية، بألا يكتفـوا بالمعــارف الــتي تعلموهــا، وإنمــا عليهم أن يضــموا إليهــا القيم الأخلاقية، فيقول: (أنتم الشباب تسيرون نحو الهـرم والشـيخوخة، ونحن الشيوخ نقترب من المـوت، فـأنتم على علم بمـدى التقـدم

العلمي الذي أحرزتموه وحجم المعارف التي اكتسبتموها في هـذا العام الدراس، ولكن مـا الـذي فعلتمـوه بالنسـبة لتهـذيب الأخلاق وتزكية النفس وتحصـيل الآداب الشـرعية والمعـارف الإلهيـة؟ أيـة خطوة إيجابية خطوتم؟ وهل كان لديكم برنامج لذلك؟)[1]

وهو يدعو إلى إصلاح الحوزة العلمية، حـتى تـؤدي دورهـا في إخــراج العلمــاء الصــالحين، لا العلمــاء الــذين يحفظــون العلم، ويتركون العمل، فيقـول: (إن الحـوزات العلميـة بحاجـة إلى تعليم وتعلم المسـائل الأخلاقيـة والعلـوم المعنويـة جنبـاً إلى جنب مـع تدريس الموضوعات العلمية، فالإرشادات الأخلاقية وتربيـة القـوى الروحية والإيمانية ومجالس الوعظ والإرشاد أمـر ضـروري، ينبغي أن تكون البرامج الأخلاقيـة والتربويـة، ودروس التربيـة والتهـذيب، وتعليم المعـارف الإلهيـة الـتي مثلت الهـدف الأسـاس من بعثـة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ رائجة وشائعة في الحوزات العلمية)[2]

ويقـول: (من المفيـد أن يهتم الفقهـاء العظـام والمدرسـون الأعلام ممن هم محط اهتمام الجامعة ـ الحوزة ـ العلميـة، بتربيـة الأفراد وتهذيبهم خلال تدريسهم وأبحـاثهم، وأن يركـزوا أكـثر على القضايا المعنوية والأخلاقية، كما ينبغي لطلبة العلـوم الدينيـة أن لا يتوانوا في سبيل اكتساب الملكات الفاضـلة وتهـذيب النفس، وأن يهتمـوا بالواجبـات المهمـة والمسـؤوليات الخطـيرة الملقـاة على عاتقهم) [3]

ويقول ـ مبينا الأدوار العظيمة الـتي تنتظـرهم ــ: (أنتم الـذين تدرسون اليوم في هذه المراكز العلميـة، وتتطلعـون لأن تتسـلموا في الغد زمام قيادة المجتمع وهدايته؛ لا تتصـوروا أن كـل واجبكم أن تحفظــوا حفنــة من المصــطلحات، بــل تقــع على عــاتقكم

1() الجهاد الأكبر أو جهاد النفس، الخميني، ص13.

2() المرجع السابق، ص13.

3() المرجع السابق، ص14.

مسؤوليات أخرى أيضاَ. ينبغي لكم أن تبنـوا أنفسـكم وتربوهـا في هـذه الحـوزات بحيث إذا مـا ذهبتم إلى مدينـة أو قريـة وفقتم إلى هدايـة أهاليهـا وتهـذيبهم. يؤمـل منكم عنـد مغـادرتكم الحـوزات العلمية أن تكونوا قد هذبتم أنفسكم وبنيتموها بنحـو تتمكنـون من بنـاء الإنسـان وتربيتـه وفقـاً لأحكـام الإسـلام وتعاليمـه وقيمـه الأخلاقية، ولكن إذا ما عجزتم ـ لا سمح الله ـ عن إصلاح أنفسـكم خلال مراحل الدراسة، ولم تكتسبوا الكمالات المعنوية والأخلاقية، فإنكم أينما ذهبتم ستضلون الناس ـ والعياذ باللـه ــ وتسـيئون إلى الإسلام وإلى علماء الدين) [1]

بل إنه يعتبر كل طالب علم لم يهذب نفسه حتى تتناسب مـع المسؤولية العظيمة التي تناط به مشوها للإسلام، وعنصرا فاسـدا في المجتمع، يقول لهم: (إذا لم تعملوا بمسؤولياتكم في الحوزات العلميـة ولم تفكـروا بتهـذيب أنفسـكم، واقتصـر همكم على تعلم عدد من المصطلحات وبعض المسائل الفقهيـة والأصـولية، فـإنكم ستكونون في المستقبل عناصر مضرة ــ لا سـمح اللـه ــ للإسـلام والمجتمع الإسلامي، ومن الممكن أن تتسببوا ـ والعياذ بالله ـــ في إضلال الناس وانحـرافهم. فـإذا مـا انحـرف إنسـان وضـل بسـبب سلوككم وسوء عملكم، فإنكم ترتكبون بذلك أعظم الكبــائر، ومن الصعب أن تقبل توبتكم. كما لو أن شخصـاً اهتـدى بكم فـإن ذلـك خــير لكم ممــا طلعت عليــه الشــمس، كمــا ورد في الحــديث الشريف) [2]

ولــذلك يــرى أن الــواجب في حقهم هــو التــورع حــتى عن المباحـات الـتي قـد تسـيء إليهم، لأن المجتمـع ينظـر إلى العـالم باعتبـاره نموذجـا للاقتـداء بـه، فيقـول: (إن مسـؤوليتكم جسـيمة للغايـة.. وواجبـاتكم غـير واجبـات عامـة النـاس. فكم من الأمـور مباحـة لعامـة النـاس إلا أنهـا لا تجـوز لكم، وربمـا تكـون محرمـة عليكم. فالنــاس لا تتوقــع منكم أداء الكثــير من الأمــور المباحــة،

1() المرجع السابق، ص15.

2() المرجع السابق، ص16.

فكيف إذا ما صدرت عنكم ـ لا سمح الله ـ الأعمال القبيحة غير المشروعة، فإنها ستعطي صورة سيئة عن الإسلام وفئة علماء الدين. وهنا يكمن الداء. فإذا شاهد الناس عملاً أو سلوكاً من أحدكم خلافاً لما يتوقع منكم، فإنهم سينحرفون عن الدين ويبتعدون عن علماء الدين، وليس عن ذلك الشخص. وليتهم ابتعدوا عن هذا الشخص وأساءوا الظن به فحسب.. إذا ما رأى الناس تصرفاً منحرفاً أو سلوكاً لا يليق من أحد المعممين، فإنهم لا ينظرون إلى ذلك بأنه من الممكن أن يوجد بين المعممين أشخاص غير صالحين، مثلما يوجد بين الكسبة والموظفين أفراد منحرفون وفاسدون. لذا فإذا ما ارتكب بقال مخالفة، فإنهم يقولون إن البقال الفلاني منحرف.. ولكن إذا ما قام أحد المعممين بعمل لا يليق، فإنهم لا يقولون: إن المعمم الفلاني منحرف، بل يقولون إن المعممين سيئون) [1]

ويذكر تأثير العلماء الصالحين في المجتمعات، فيقول متحدثا عن نفسه: (كنت أرى في بعض المدن التي كنت أذهب إليها في فصل الصيف، أهالي تلك المدن ملتزمين بآداب الشرع إلى حد كبير، والسبب في ذلك كما اتضح لي، هو أنه كان لديهم عالم صالح ومتق. فإذا كان العالم الورع والصالح يعيش في مجتمع أو مدينة أو إقليم ما، فإن وجوده يبعث على تهذيب أهالي تلك المدينة وهدايتهم، وإن لم يكن يمارس الوعظ والإرشاد لفظاً.. لقد رأينا أشخاصاً كان وجودهم يبعث على الموعظة والعبرة.. إن مجرد النظر إليهم كان يبعث على الاتعاظ والاعتبار. وأنا أعلم الآن إجمالاً أن مناطق طهران تختلف عن بعضها. فالمنطقة التي يقطنها عالم ورع ومتق، يكون أهاليها مؤمنين صالحين. وفي محلة أخرى حيث أصبح أحد المنحرفين الفاسدين معمماً وأصبح إماماً للجماعة وفتح دكاناً له، تراه يخدع الناس ويلوثهم ويحرفهم)

وفي مقابل هؤلاء الصالحين يذكر نماذج عن علماء السوء، وكيف ساهموا في الإساءة إلى المجتمعات، فيقول: (إن غالبية الذين تظاهروا بالتدين وتسببوا في انحراف كثيرين وإضلالهم،

1() المرجع السابق، ص17.

كـانوا من أهـل العلم. فبعض هـؤلاء درسـوا في المراكـز العلميـة الدينية ومارسوا الرياضات النفسية، حتى إن مؤسس إحدى الفرق الضالة قد درس في حوزاتنا العلمية هذه، ولكن نظراً لأن دراسـته لم تكن مقترنة بتهـذيب النفس وتزكيتهـا، لم يخـط على الصـراط المستقيم، ولم يتمكن من إبعاد نفسه عن الرذائل، فكانت عاقبتـه كـل تلـك الفضـائح. فـإذا لم يتخلص الإنسـان من الخبـائث، فـإن دراسته وتعلمه لا تجديه نفعاً بـل تلحـق بـه أضـراراً أيضـاً، فـالعلم عندما يكون في أرضية غير صالحة، سوف ينبت نبتاً خبيثـاً ويصـبح شجرة خبيثة. وكلما تكدست هذه المفاهيم في القلب المظلم غير المهذب، ازدادت الحجب أكـثر فـأكثر.. ومن هنـا كـان شـر العـالم الفاسد بالنسبة للإسلام أخطر وأعظم من كل الشرور) [1]

هـذه نمـاذج عن دعـوة الخميـني لإصـلاح المؤسسـة الدينيـة، والتي يقوم عليها العبء الأكبر في الإصلاح الاجتماعي، ولهذا أولى النظام الإيراني الاهتمام الأكبر بتوجيـه هـذه المؤسسـة وإصـلاحها ووضع البرامج الكفيلة لـذلك، ومن بينهـا إضـافة المـواد المرتبطـة بالعرفــان العملي والأخلاق لدراســة الطلبــة، بالإضــافة للرقابــة المشددة لهذه المؤسسة حتى لا يتخرج منها إلا من هو أهل لذلك.

بالإضافة إلى ذلك، قام النظام الإيراني بإصـلاحات كبـيرة في التعامل مع الأطروحات الدينية، وخاصة تلك المرتبطة بأهل البيت، حيث استعمل كل الوسـائل لتصـحيح تلـك الصـور الخاطئـة عنهم، وعن العلاقة بهم، وكونها كافية في النجاة من دون عمل ولا تقوى ولا صلاح.

ولذلك اسـتعمل كـل الوسـائل لإشـاعة القيم المرتبطـة بهم، واعتبار الانتساب إليهم وحده لا يكفي، بل المنتسـب الصـادق لهم هو الـذي يسـعى للتحقـق بـالقيم الـتي دعـوا إليهـا، وطبقوهـا في حياتهم، يقول الخميـني في ذلـك: (يتـوهم بعض النـاس أن مجـرد ادعـاء التشـيع وحب التشـيع وحب أهـل بيت الطهـارة والعصـمة يسوغ له والعياذ بالله اقتراف كل محرم من المحذورات الشرعية ويرفـع عنـه قلم التكليـف، إن هـذا السـيء الحـظ لم ينتبـه بـأن

1() المرجع السابق، ص19.

الشيطان قد ألبس عليه الأمر، فيخشى عليه في نهاية عمره أن تسلب منه هذه المحبة الجوفاء التي لا تجدي ولا تنفع، ويحشر يوم القيامة صفر اليدين، وفي صفوف نواصب أهل البيت.. إن ادعاء المحبة من دون دليل وبينة لا يكون مقبولاً إذ لا يمكن أن أكون صديقك وأضمر لك الحب والإخلاص، ثم أقوم بكل ما هو مناقض لرغباتك وأهدافك.. إن شجرة المحبة تنتج وتثمر في الإنسان المحب والعمل حسب درجة المحبة ومستواها؛ فإذا لم تحمل تلك الشجرة هذه الثمرة فلابد من معرفة أنها لم تكن محبة حقيقية وإنما هي محبة وهمية.. فمحب أهل البيت هو الذي يشاركهم في أهدافهم ويعمل على ضوء أخبارهم وآثارهم.. وإن المؤمن إذا لم يعمل بمتطلبات الإيمان وما تستدعيه محبة الله وأوليائه لما كان مؤمناً ومحباً، وإن هذا الإيمان الشكلي والمحبة الجوفاء من دون جوهر ومضمون ينتفي ويزول أمام حوداث بسيطة وضغوط يسيرة)[1]

وبناء على هذا أصدرت المؤسسات الرسمية البيانات والقوانين الكثيرة التي تنظم الطقوس التي كانت تمارس في البيئة الشيعية، والتي أساء بعضها لأهل البيت، ووضع بدلها الكثير من المراسم الجديدة التي تمثل القيم الأخلاقية لأهل البيت، وتنشرها.

ومن تلك البيانات والفتاوى تلك الأوامر المشددة بتحريم التطبير ومنعه والعقوبة عليه، ومن تعليمات الخامنئي في هذا المجال، قوله: (يؤسفني أن أقول إن أموراً جرت خلال الأعوام الماضية، وأعتقد أن أيادي تقف وراءها، أموراً جرت أثارت الشبهات لدى كل من رآها، منذ القدم كان متعارفاً أن يضرب الناس أيام العزاء أجسادهم بالأقفال ثم تحدث العلماء عن ذلك فزالت تلك العادة، واليوم ظهرت هذه العادة مجدداً، ما هذا العمل الخاطئ الذي يقوم به البعض (التطبير) أيضاً من جملة هذه الأمور، ويعتبر عملاً غير مشروع)[2]

---

[1] () الأربعون حديثاً، ص632.

ويخـاطب أولئـك الـذين يـدافعون عن مثـل هـذه السـلوكات المبتدعة المشينة؛ فيقول: (اعلم أن البعض سيقول لكم ليس من المناسب أن يتحدث فلان عن التطبير، وما دخلـه في الأمـر، كـان حرياً بهم أن يدعهم يضربون الرؤوس بالقامـات (السـيوف)، كلا لا يصح ذلك، لو كانت مسألة (التطبير) الـتي بـدأوا يروجـون لهـا في السنوات الماضية سـائدة أيـام حيـاة إمامنـا الراحـل رضـوان اللـه عليـه لوقـف الإمـام بوجههـا، إنـه عمـل خـاطئ البعض يمسـكون بالقامات ويضربون بها رؤوسهم ليغرقوا بدمائهم، علام ذلك؟ وهل يعتبر ذلك عزاء؟.. هل سمعتم أن أحداً راح يضرب رأسه بالسـيف لفقده عزيزاً من أعزته؟ هل يعتـبر ذلـك عـزاء؟ كلا، إنـه وهم، ولا يمت ذلك إلى الدين بصلة، وما من شك بأن اللـه لا يرضـى ذلـك)[1]

ثم أصدر أوامر باعتباره الـولي الفقيـه، بتحـريم ذلـك تحريمـا شديدا، بل منعـه والعقوبـة عليـه؛ فقـال: (كلمـا فكـرت في الأمـر رأيت أنني لا يمكنني السكوت عن هـذا العمـل الـذي هـو بالتأكيـد عمل غير مشروع وبدعة، فليكفوا عن هذا العمل، فإنني غير راض عنه، إنني غير راض من كل قلـبي عن كـل شـخص يريـد التظـاهر بـالتطبير، أحيانـاً كـان يجتمـع عـدد من الأشـخاص في ركن نـاءٍ ويقومون بهذا العمـل بعيـداً عن أعين النـاس وعن التظـاهر بـذلك أمامهم، ولم يكن أحد يتـدخل في شـؤونهم مشـروعاً كـان عملهم ذاك أم غير مشروع، فقد كان يتم ضـمن نطـاق محـدود، ولكن إذا تقرر أن يخرج عدة آلاف من الناس فجأة في أحد شوارع طهـران أو قم أو مدن أذربيجان أو خراسان ويضربوا رؤوسـهم بالسـيوف، فإننـا لن نقبـل بـذلك، وهـذا أمـر غـير مشـروع لن يرضـي الإمـام الحسين، لا أدري من أين يأتي هذه الأمـور لتنتشـر في مجتمعاتنـا الإسلامية ومجتمعنا الثوري؟!)[2]

2() في مدرسة عاشوراء، علي الخامنئي.

1() المرجع السابق.

2() المرجع السابق.

وبناء على هذا وضعت العقوبات التي تحمي قيم أهـل الـبيت من أن تصـبح لعبـة بأيـدي المشـوهين لهـا؛ فانـدثرت هـذه العـادة السيئة في إيـران، كمـا انـدثر غيرهـا من العـادات، وكـان الأحـرى بالإسلاميين أن يستقبلوا أمثال هذه التصحيحات والتوجيهات بفـرح وسرور، ويشعرا أن التشيع صـار أقـرب إلى التسـنن من أي وقت مضـى، لكنهم للأسـف لا ينظـرون إلى كـل تلـك التصـحيحات، ويكتفون أثناء نقدهم لإيران وللتشيع بنقل صور المطـبرين مـع أن كل المراجع المعترف بهم ينكرونـه، ويرفضـونه، ويعتبرونـه بدعـة، بل إن القوانين الإيرانية تجرمه.

وبدلا لتلك الطقوس المسيئة يقوم النظام باستعمال كـل مـا من شأنه أن يعيد العلاقة بأهل البيت إلى إطارهـا الصـحيح، ولهـذا نراهم يشجعون على الأدعية ومجالس الوعظ التي تنشر قيم أهل البيت.

وبالمناسبة، فإن هناك تراثا أخلاقيا كبيرا موجود في المصـادر الحديثية الشيعية، وهو كفيل وحده بنشر القيم الأخلاقية وتعميمها، والجمهورية الإسلامية ـ عبر مؤسساتها المختلفة الدينية والإعلامية والثقافية ـ تسعى لنشره، لتصحيح العلاقة من خلاله بأهـل الـبيت، يقول الخميـني في الـدعوة إلى دراسـته والاسـتنارة بـه: (يـا أيهـا العزيز: إن كنت راغباً في دراسة الأخبار والأحـاديث، فراجـع الكتب الشريفة للأخبار وخاصة كتاب (أصول الكافي) حـتى تعـرف مـدى اهتمـام المعصـومين عليهم السّـلام بـالخلق الكـريم والمبـادئ الفاضـلة، وإن كنت من التـائقين للبيـان العلمي وكلمـات العلمـاء فراجع الكتب الأخلاقية، مثل كتاب(طهارة الأعراق) لابن مُسْـكَوَيْه، وكتب المرحـــوم فيض الكاشـــاني، وكتب المجلســـي، وكتب النراقيين[1] حتى تستوعب آثار ونتائج مكارم الأخلاق. وإن وجـدت نفســك في غنًى عن اقتنــاء الفضــيلة، أو لا تلمس ضــرورة في الابتعاد عن الخلق السيئ، فحاول أن تعالج جهلـك الـذي هـو رأس

---

[1] يقصد به مهدي بن أبي ذر الكاشاني النراقي صاحب كتاب [جامع السعادات] وولده أحمد بن مهدي صاحب كتاب [معراج السعادة].

الأمراض)

وهو يـورد في مواعظـه ودروسـه الكثـير من تلـك الروايـات، ومن خلالهـا يعمـق المعـاني الأخلاقيـة في المجتمـع، ومن الأمثلـة على ذلك عرضه لمـا ورد في الروايـة عن الإمـام جعفـر الصـادق، والتي يقول فيها: (لاَ يَكُونُ المُؤْمِنُ مُؤْمِناً حَتّى يَكُـونَ خَائِفـاً رَاجِيـاً وَلاَ يَكُونَ خَائِفاً رَاجِياً حَتّى يَكُونَ عَامِلاً لِمَا يَخَافُ وَيَرْجُو)[1]

ثم علق عليها بقوله: (إنّ مَثَلَ من لا يعمل وينتظر رحمة ربـه ويرجو رضوانه مَثَلُ من يرجو المسبِّب دون أن يُعِدَّ الأسباب، وَمَثَلُ الفلاّح الـذي ينتظـر الـزرع من دون أن يبـذر الأرض أو يهتم بهـا وبإروائهـا أو يقضـي على موانـع الـزرع. إن مثـل هـذا الانتظـار لا يسمى بالرجاء، بل هو بله وحماقة، وإن مَثَلُ من لم يُصـلح أخلاقـه أو لم يبتعد عن المعاضي فينهض بأعمال راجياً تزكيـة نفسه، مَثَـلُ من يودع البذر في أراضـي سـبخة، ومن الواضـح أن هـذا الـزرع لا يثمر النتيجة المتوخاة، فالرجاء المستحسـن والمحبـوب هـو تهيئـة كافة الأسباب التي يمتلكها الإنسان كمـا أمـر اللـه بهـا واسـتغلالها حسب القدرة التي زوده بها الحق المتعال بعنايته الكاملة، وحسب هدايته ـ عـز وجـل ـ إيـاه إلى طـرق الصـلاح والفسـاد، ثم ينتظـر ويرجو الحق المتعال أن يتمّ عنايتـه السـابقة تجـاه الأسـباب الـتي وفّرهـا من قبل، ويحقـق الأسـباب الـتي لا تـدخل تحت إرادتـه واختياره من بعد، ويزيل الموانع والمفاسد، فإذا نظـف العبـد قلبـه من أشـواك الأخلاق الفاسـدة وأحجـار الموبقـات وسـباختها، وبـذر فيها بـذور الأعمـال، وسـقاها بمـاء العلم الصـافي النـافع والإيمـان الخـالص، وخلصـها من المفسـدات والموانـع مثـل العجب والريـاء وأمثالها التي تعد بمثابة الأعشاب الضارة العائقـة لنمـو الـزرع، ثم انتظر ربه المتعالي ورجاه أن يثبّته على الحق، ويجعل عاقبة أمـره

[1]() أصول الكافي، 2/ح 5 وح 11.

إلى خير، كان هذا الرجاء مستحسناً)[2]

ومن الوسائل التي استعملتها المؤسسة الدينية بالإضافة إلى نشرها لأحاديث أهل البيت والقيم المرتبطة بهم، الأدعية الكثيرة الواردة عنهم، والتي يحوي أكثرها مضامين أخلاقية في غاية الجودة.

ومن الأمثلة على ذلك دعاء مكارم الأخلاق الذي يبث كل حين، وفي كل القنوات الإيرانية، وهو وحدة مدرسة أخلاقية متكاملة، حيث يقول فيه الإمام السجاد في بعض مقاطعه: (للهم صل على محمد وآله، وسددني لأن أعارض من غشني بالنصح، وأجزي من هجرني بالبر، وأثيب من حرمني بالبذل، وأكافي من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة، وأغضي عن السيئة.. وحلني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتقين، في بسط العدل، وكظم الغيظ، وإطفاء النائرة، وضم أهل الفرقة، وإصلاح ذات البين، وإفشاء العارفة، وستر العائبة، ولين العريكة، وخفض الجناح، وحسن السيرة، وسكون الريح، وطيب المخالقة، والسبق إلى الفضيلة، وإيثار التفضل، وترك التعيير، والإفضال على غير المستحق، والقول بالحق وإن عز، واستقلال الخير وإن كثر من قولي وفعلي، واستكثار الشر وإن قل من قولي وفعلي، وأكمل ذلك لي بدوام الطاعة، ولزوم الجماعة، ورفض أهل البدع، ومستعمل الرأي المخترع)

وهكذا نجد في كل الأدعية مضامين أخلاقية عالية، تقوم بأداء دورها الإصلاحي الذي لا يمكن أن تعوضه المواعظ ولا الدروس ولا المحاضرات.

ب ــ المؤسسات المدنية ودورها في نشر القيم الأخلاقية:

كما أن في إيران مؤسسات دينية كبيرة، لها حضورها القوي في المجتمع والسياسة؛ فإن لها كذلك مؤسسات مدنية، مثل سائر الدول، لكن الفرق بينهما هو أن هذه المؤسسات ـ وإن كان

---

(2) الأربعون حديثا، ص263.

المسؤولون الكبار فيها منتخبين من طرف الشعب ــ إلا أنهم محكومون بالقوانين الثابتة التي تجعلهم يتحركون في إطار الشريعة وقيمها، لا يتجاوزونها، وهذا ما تقتضيه ولاية الفقيه، كما سنرى ذلك بتفصيل في الجزء الثاني من هذه السلسلة.

وبناء على ذلك؛ فإن وزارة كوزارة الثقافة مثلا، ليست مهمتها في الجمهورية الإسلامية الإيرانية رعاية الإنتاج الثقافي، والتشجيع عليه، وتسلية الشعب من خلاله فقط، وإنما مهمتها الأكبر هي إرشاد الشعب إلى القيم النبيلة، وحمايته من كل ما يمكن أن يسيء إليه، ولهذا، نرى أنهم يسمونها [وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي]، وهي تحظى بميزانية كبيرة، لتؤهلها لأداء دورها في نشر القيم الروحية والخلقية في المجتمع.

وقد جاء في المنشور الخاص بمبادئ السياسة الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية، والذي صادق عليه المجلس الأعلى للثورة الثقافية [1] ما يلي: (السياسة الثقافية، إنما هي سياسة الثورة الإسلامية، والثورة الإسلامية تهدف لكي تكون الثقافة الإسلامية مبدأ وأساساً في جميع الشؤون الفردية والاجتماعية للبلاد. ولهذا يجب أن لا يغيب عن الأذهان أن الثورة الإسلامية ثورة ثقافية. ولابدّ أن تـُعبّئ على أحسن وجه أغلب الإمكانات والقدرات والطاقات والجهود – إن لم نقل كلها – من أجل تحقيق التكامل والنضج وصنع حركة ثقافية في جميع الشؤون الفردية والاجتماعية.. والسياسة الثقافية للجمهورية الإسلامية مستلهمة من الرؤية الإسلامية للكون والإنسان وقائمة على أسس ومبادئ من قبيل: هيمنة النظرة التوحيدية على جميع شؤون الحياة الفردية والاجتماعية، والدور الأساس والتأثير الكبير للاعتقاد بأصول الدين وفروعه (كالوحي، النبوة، الإمامة، العدالة، والمعاد، والتبري والتولي) على المجتمع الإسلامي، وخلود الإنسان وكرامته وشرفه الذاتي بصفته خليفة الله في الأرض، ومختاراً ذا إرادة، ويمتلك قوة التعقل والانتخاب خلال مسيرة تقرير المصير، وكذلك

---

[1] انظر: مبادئ السياسة الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية، موقع وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي .

دور العقل والتجربة في استمرار حركته التكاملية)

ومن المبادئ التي جاء فيها مما له علاقة بنشر القيم الخلقية، وارتباطها بالإيمان والتوحيد: (قدرة الإيمان على خلق القيم المعنوية والفضائل الأخلاقية، وتكوين روح الاستقلال والحرية والإباء وتوثيق العلاقات الإنسانية في المجتمع.. التأثير التربوي لدى الإنسان وفاعلية استعدداته وطاقاته البنّاءة باتجاه بناء مجتمع موحد، مناشد للعدل، مجد في طلب العلم، مؤمن بالجهاد والاجتهاد، موصوف بالاعتدال والواقعية.. وتسوده روح النقد والتحقيق العلمي، ويستفيد من العبر والتجارب التاريخية.. أصالة القيم المعنوية والفضائل الأخلاقية في المجتمع الإسلامي ودور التقوى والعلم والاجتهاد في تعيين درجة الكرامة والفضيلة لدى الناس.. تأثر الإنسان بالعوامل الإيجابية والسلبية السائدة في البيئة الاجتماعية والثقافية، ومسؤولية النظام الإسلامي حيال حفظ سلامة المجتمع وتحقيق القسط والعدل ومنح حق اشتراك الشعب في جميع الأمور ، مع وجوب القضاء على الأسباب والعوامل التي تساعد على ظهور الكفر والنفاق والفقر والفساد السياسي والظلم والاستبداد والتسلط والاستكبار)

والمصادر الفكرية التي تتبناها هذه الوزارة ــ حسبما تحدد مبادئها ـ هي الرجوع إلى تعليمات قادتها الفكريين، وعلى رأسهم الخميني، وقد جاء في المنشور من ضمن المبادئ التي تتبناها وزارة الثقافة: (فالسياسة الثقافية لنظام الجمهورية الإسلامية تسير حسب أفكار وآراء وفتاوى سماحة الإمام الخميني بصفتها أهم مؤثر في الإسلام المحمدي الأصيل، وتميزه عن سائر أنواع الطروحات الاسلامية داخل البلاد وخارجها، فدائرة معاني الكلمات المستخدمة في لائحة السياسة الثقافية ومصاديقها محددة بحدود مستلهمة من المبادئ الإسلامية الموصوفة في خط الإمام الفكري والفقهي ووصاياه الإلهية السياسية القيمة. فلو وجدت بين سلسلة كلمات وعبارات هذا النص، عبارات متشابهة أو مبهمة، فهناك محكمات أيضاً يمكن الرجوع إليها لتفسير تلك المتشابهات، فأفكار الإمام وآراؤه في المضامير العرفانية والثقافية والفنية – مثلما هي في المجالات السياسية والاقتصادية

والاجتماعية – بمنزلة دليل وحلـــول تهتـــدي بها السياسة الثقافية والفنية للبلاد. وما قاله الإمـام بشـأن أنـواع الموسـيقى والأفلام والمسلســلات التلفزيونية والرياضـــية وغيرها يعد مصـــباح هداية ودليل إرشاد في هذا الشأن، فكلام هذا الرجل العظيم على صعيد الفكر والثقافة قد طبع على صحائف القلوب والنفوس)

وبناء على هذا، فإننـا إذا رجعنـا إلى تعليمـات الخميـني الـتي أشار إليهـا المنشـور، نجـدها تعطي القيم الأخلاقيـة أهميـة كبـيرة على أساسها يتحرك كل منتوج ثقافي مسموح به في إيران.

ومن الأمثلة على ذلك قوله عن السينما: (نحن ضـدّ السـينما الّـتي تـؤدّي برامجهـا إلى إفسـاد أخلاق شـبابنا وتخـريب ثقافتنـا الإسلاميّة)[1]

بل إنه يعتبرها من مؤسسات الفساد التي يجب تطهيرهـا من الرذائـل، وإحلال الفضـائل بـدلها، مثلمـا ينبغي أن يُفعـل مـع كـل المحـال الـتي يريـد الأعـداء من خلالهـا إفسـاد المجتمـع لتسـهيل السيطرة عليه، يقول في ذلك، وهـو يتحـدث بأسـف عمـا مـورس في عهد الشاه وغيره لتطويع المجتمع الإيراني: (لقد فتحوا أبواب الفساد أمام شبّاننا وزادوا فيهـا. فنحن نشـاهد بلادنـا وأعلم بـأنّ دولكم كذلك أيضاً. إنّنا نشاهد أنّ مراكـز الفسـاد في بلادنـا والّـتي تجرّ الشبّان نحو الفساد وتقضي على أصـالتهم هي كثـيرة... فقـد جرّدونا من كلّ شيء وسلبوا من شبّاننا الخاصّـيّة الّـتي يجب على الشـبّان أن يمتلكوهـا، وأرادوا أن يأخـذوا قـوّة الشـبّان منّـا، ثمّ ليقوموا بعد ذلك بنهب ذخائرنا ليصبح شبّاننا لا مبالين)[2]

وبناء على هذا كانت التعليمـات الصـارمة من جميـع الجهـات الرسـمية في مواجهـة كـل مـا يمكن أن يشـجع الرذيلـة، أو يفتح أبوابها للمجتمـع، في نفس الـوقت الـذي فتحت فيـه كـل الأبـواب لتشـجيع كـل نشـاط ثقـافي يـدعو إلى القيم الروحيـة والأخلاقيـة،

1() الكلمات القصار، الإمام الخمينيّ قدس سره، ص 243..

2() منهجية الثورة الإسلاميّة، ص 178..

ويبني الإنسان وفق الرؤية الإسلامية.

وقد صنفت أوروبا وأمريكا وغيرها من دول الاستكبار العالمي إيران لهذه الموقف وغيره من ضمن الدول التي تهضم حقوق الإنسان، وذلك كونها لم تسمح للجهات المعادية باستغلال هذه النواحي لإفساد المجتمع، وتسهيل السيطرة عليه.

ولا نستغرب أن تكون هذه الاتهامات من الدول الغربية الممتلئة بالإباحية والرذيلة، والتي أتاحت قوانينها كل ما يهدم القيم الإنسانية، ولكن العجب أن يصدر الإنكار على قوانين إيران المرتبطة بالأخلاق من بعض الدول العربية، وخصوصا من السعودية، حيث يقول بعض كتاب جريدة من جرائدها الرسمية، تحت عنوان: [حجاب النساء في إيران.. بالإكراه!]: (من أغرب سياسات إيران الاجتماعية، منذ ظهور الجمهورية الاسلامية عام 1979 إلى اليوم، الإصرار على فرض الحكومة والسلطات المعنية، (الحجاب الاجباري) على كل النساء في الحياة العامة والدوائر والمدارس وكل مكان، الحجاب يشمل الإناث صغارا وكبارا، الطالبات والموظفات، البنات والأمهات، الشابات.. وثمة ملاحظات أخرى على (الحجاب الاجباري) الذي تتبناه ايران منذ 35 عاما، فهي تكاد تكون الدولة الوحيدة التي تتبنى مثل هذه السياسة بحق النساء في العالم الاسلامي كله، وبخاصة بعد أن تغيرت بعض الشيء هذه السياسة في دولة مثل المملكة العربية السعودية، وربما حتى السودان، وان كان الحال متشابها في مناطق هيمنة طالبان بأفغانستان)[1]

ويتساءل الكاتب منتقدا:(أين حرية اختيار المرأة للباسها، وطاعتها للشريعة عن رضا وقناعة دون إكراه؟.. ولماذا تتحجب المسلمة أو ترفض ارتداء الحجاب في عشرات الدول الإسلامية، ومنها تركيا مثلا وباكستان وأندونيسيا وغيرها، بينما يقوم رجال الدين وقادة الثورة في إيران بفرض الحجاب؟..ما الذي حققته سياسة الإجبار والإكراه والملاحقة ومنع الاختلاط بعد نحو 35 عاما

---

(1) حجاب النساء في إيران.. بالإكراه!، خليل علي حيدر، 2014/12/16، جريدة الوطن.

من نجاح الثورة؟ .. لماذا يسير المتعصبون الإيرانيون على خطى رضا شاه بهلوي، الذي فرض السفور وأجبر النساء على خلع الحجاب بالاكراه ولم ينجح، بينما يحاول رجال الدين وأنصار الحرس الثوري، فرض الحجاب بالإكراه ؟ هل يمكن فرض كل أركان الاسلام على الإيرانيين بالإكراه كذلك، من صلاة وصيام وحج لمن هو قادر وغير ذلك؟.. لماذا تفضل إيران (مدرسة) كوريا الشمالية وصين ماوتس تونغ في تطبيق الحجاب والزي الموحد، ولا تلتفت الى عشرات الدول الاسلامية التي تختار فيها أغلبية الفتيات والنساء الحجاب.. دون إجبار حكومي؟.. ألا تشعر القيادة الايرانية أن الدنيا تغيرت كثيرا منذ عام 1979؟)

وهكذا راحت صحيفة (الشرق الاوسط) تتهكم على فرض الحجاب على غير المسلمات، فقد كتبت تقول: (اللباس الشرعي) يطبق على جميع النساء في الجمهورية الاسلامية من الإيرانيات وغير الإيرانيات وحتى غير المسلمات)!، وأقول: لو كان الإخوان المسلمون أمسكوا برقاب المصريين والمصريات في محاولتهم الفاشلة، لكان هذا مصير الرجال والنساء في مصر، من مسلمين وأقباط!)[1]

وتقول نفس الجريدة في مقال آخر: (لا يقوم البرلمان الإيراني، أو (مجلس الشورى) للأسف، بدور المنقذ لنساء إيران، بل يطالب بعض أعضائه بمزيد من (الدعم المادي والمالي) للقيود والأصفاد. فنرى على سبيل المثال النائب (غلام علي حداد عادل)، ينتقد ما وصفه (بتدهور أوضاع الالتزام بالحجاب في إيران يوماً بعد يوم). وطالب الحكومة بتقديم (دعم مالي للشركات المنتجة للأزياء الإسلامية)، بهدف تشجيع ارتداء (الزي الإسلامي)، يُذكر أن الشرطة تلقي القبض على الأفراد أحياناً بتهمة ما تسميها بـ(عدم الالتزام بالحجاب الإسلامي) في المدن الكبرى أو تكتفي بتوجيه إنذار لهم)[2]

1() الشرق الاوسط، 2012/2/23.

2() الشرق الأوسط، 2014/5/31.

وللأسف، فإن هذه الصحف وغيرها تتصور أن الحجاب مسألة شخصـية، ومتعلـق بالقناعـات الشخصـية، ولم تعلم أنـه مرتبطـة بالمجتمع، فمن روافد الانحراف الاجتماعي التبرج والتحلل الخلقي الـذي يبديـه أي عضـو فيـه، لـذلك كـان على الدولـة الـتي تقـدر الإنسان، والقيم التي تحكمه أن تعتبر هذا الجانب، وتوليه أهميتهـا، ولا يهمها بعد ذلك من يوافقهـا أو يخالفهـا، فـالقيم الخليقـة تـدخل ضمن الأمن القومي لأي دولة.

والأمر لا يرتبط باللباس فقط، وإنما بكل شيء، وقــد تهكمت الصحف السعودية للأسف بالجرائد الإيرانية التي لم تظهـر صـورة عالمة رياضيات إيرانية فـازت بجـائزة عالميـة كـبرى خـارج إيـران بسبب عدم ظهورها بالحجاب.

حيث ورد في بعض الصــحف [1]: (البروفيســورة الإيرانيــة (مريم ميرزا خاني)، أول امرأة في التاريخ تفوز بميداليـة (فيلـدز) المرموقة التي تشـبه من حيث الأهميـة جـائزة نوبـل في العلـوم، وقــد عــبر الإيرانيــون والــرئيس روحــاني عن فــرحهم وفخــرهم بالانجــاز، ولكن الصــحافة احتــارت كيــف تنشــر صــورة عالمــة الرياضيات الإيرانية، إذ كانت لا ترتدي حجاجاً، حيث يلـزم القـانون الإيراني النساء بـالظهور محجبـات في العلن، حـتى لـو كُن خـارج البلاد، وقد حُكم على ممثلة إيرانيـة بالسـجن لمـدة عـام وتسـعين جلدة، بسبب ظهورها من دون حجاب في فيلم أسترالي، وصحيفة (القبس) الكويتيـة، نقلت صـورة العالمـة الرياضـية الإيرانيـة كمـا نشرتها الصحف الإيرانية التي احتـارت هي نفسـها كيـف تنشـرها، فكــانت من دون شــعر ولا أذن ولا رقبــة.. والصــحيفة الرســمية (إيــران) عــدّلت صــورة ميرزخــاني بالفوتوشــوب، ورســمت على رأسها حجاباً، أما (كيهان) المحافظة فقد تجاهلت الحدث كليــاً كي لا تحرجها الصـورة، بينمـا نشـرت معظم الصـحف الأخـرى صـورة قديمة لمريم عندما كانت في إيران وترتدي الحجاب)

وللأسف، فإن هؤلاء المحجوبين بأمثال هذه المواضيع يغفلون عن الأدوار الكبيرة المتاحـة للمـرأة الإيرانيـة، والمناصـب الرفيعـة

---

[1] منها القبس الكويتية، 2014/8/19.

التي تتولاها، والاحترام العظيم الذي تجده، ذلك أنهم يقصرون نظرهم إلى جسد المرأة واستعماله للفتنة دون ملاحظة ما للمرأة من أدوار نافعة يمكن أن تؤديها للمجتمع.

وقد نص قادة الثورة الإسلامية على تلك الأدوار ودعوا إلى تفعيلها الحياة، ومنهم الخميني الذي قال: (إن المرأة في النظام الإسلامي تتمتع بالحقوق ذاتها التي يتمتع بها الرجل، بما في ذلك حق التعليم والعمل والتملك والانتخاب والترشيح، وفي مختلف المجالات التي يمارس الرجل دوره فيها، للمرأة الحق في ممارسة دورها، بيد أن هناك أموراً تعد مزاولتها من قبل الرجل حراماً لأنها تقوده إلى المفاسد، وأخرى يحظر على المرأة مزاولتها لأنها توجد مفسدة، لقد أراد الإسلام للمرأة والرجل أن يحافظا على كيانهما الإنساني، فهو لا يريد للمرأة أن تصبح ألعوبة بيد الرجل، وإن ما يرددونه في الخارج من أن الإسلام يتعامل مع المرأة بخشونة وعنف لا أساس له من الصحة وهو دعاية باطلة يروج لها المغرضون، وإلا فإن الرجل والمرأة كلاهما يتمتع بصلاحيات في الإسلام. وإذا ما وجد تباين فهو لكليهما، وإن ذلك عائد إلى طبيعتهما)[1]

ويذكر الفرق بين النظامين: الإسلامي والغربي في التعامل مع المرأة، حيث كان الغرب يحترم الشاه، ونظامه في تعامله مع المرأة رغم استبداده وفساده الكبير في نفس الوقت الذي يشن فيه حملاته على معاملة النظام الإسلامي للمرأة، يقول في ذلك: (إن الأفلام المغرضة المسمومة، وأحاديث الخطباء الجهلة، حولت المرأة في الخمسين عاماً السوداء من الحكم البهلوي الخبيث، إلى مجرد سلعة، وقد عملوا على جر النساء اللاتي كن على استعداد للتأثر بهذه الأجواء، إلى أماكن يعف القلم عن ذكرها، فليعد من يرغب في الإطلاع على جانب تلك الجرائم، إلى الصحف والمجلات وأشعار الأوباش والأراذل في عهد رضا خان بدءاً بفترة إجبار النساء على السفور والتخلي عن الحجاب الإسلامي فصاعداً... سود الله وجوههم وتحطمت أقلامهم التي

1() من لقاء له بتاريخ 7/12/1978، وانظر: المرأة في فكر الإمام الخميني، ص25.

تدعي التنوير)[1]

وقد برهن الواقع الإيراني بعد ما يقارب الأربعين سنة من عمر الثورة الإسلامية على صحة كل الأطروحات التي دعا إليها الخميني، بل دعت إليها قبل ذلك الشريعة الإسلامية؛ فالمرأة الإيرانية الآن تحظى باحترام كبير، وتتولى مناصب رفيعة، وتنجح نجاحات باهرة في كل المجالات، وخصوصا المجالات المرتبطة بالعلم والبحث العلمي، كما سنرى ذلك إن شاء الله بتفصيل في محله من الجزء الثاني من هذه السلسلة.

2 ـ القيم الأخلاقية والواقع السياسي:

من خلال مطالعة المبادئ المحركة للسياسة الإيرانية سواء على مستوى الداخل أو الخارج نرى مدى تحكم القيم الأخلاقية فيها؛ فهي سياسة تنبع من المبادئ الأخلاقية قبل أن تنبع من المصالح المؤقتة.

وهذا ما يفسر كل تلك الحروب والضغوطات التي تتعرض لها كل حين، ذلك أنها لو انتهجت منهج المصلحة والبراغماتية، وتخلت عن مبادئها ونصرتها للمستضعفين، لوجدت من أعدائها قبولا كبيرا، ولتعاملوا معها مثلما يتعاملون مع تلك الدول التي لم تعرف في أي لحظة من حياتها أي لون من ألوان الديمقراطية، ولا صناديق الانتخابات، ولا حقوق الإنسان.

وهذه السياسة التي انتهجتها إيران في الداخل والخارج تنبع من تلك التعليمات التي كان الخميني وكل قادة الثورة الإسلامية يوجهون بها مسيرة الثورة منذ انطلاقتها.

وعند مطالعة ما يطلق عليه [الوصية الإلهية السياسية للامام الخميني]، والتي أوصى بها قبل وفاته، وقرئت بعدها، والتي نجد لها تأثيرها الكبير في السياسة الإيرانية نجد مدى اهتمامه بالقيم الأخلاقية في تحريك السياسة الداخلية والخارجية.

1() من كلمة بمناسبة يوم امرأة. بتاريخ 5/5/1980، وانظر: المرأة في فكر الإمام الخميني، ص23.

فمما ذكره في وصيته[1] فيما يتعلق بالسياسة الداخلية والأحزاب والانتخابات والمبادئ التي تحكمها قوله في البند السابع من بنود الوصية: (من الأمور الضرورية أيضاً، تديّن نواب مجلس الشورى الاسلامي، فقد رأينا جميعاً أيٌة إضرار محزنة لحقت بالإسلام وبإيران نتيجة عدم صلاحية مجلس الشورى وانحرافه منذ الفترة التي تلت النهضة الدستورية وحتى عهد النظام البهلوي المجرم، والتي كان سواها وأخطرها عهد ذلك النظام الفاسد المفروض. يالها من مصائب وخسائر مدمرة حلت بالبلاد والشعب على أيدي هؤلاء العبيد التافهين المجرمين، لقد أدى وجود أكثرية مصطنعة مقابل أقلية مظلومة خلال الخمسين عاماً الأخيرة ــ من العهد البائد ـ إلى تمكن إنجلترا والاتحاد السوفيتي وأمريكا بعد ذلك من تمرير كل ما أرادوه على أيدي هؤلاء المنحرفين الغافلين عن الله مما جر البلاد الى حافة الدمار والانهيار. فمنذ ما تلا الحركة الدستورية لم يطبق شيء تقريباً من مواد الدستور الأساسية، وقد تم ذلك قبل عهد رضا خان عبر المأمورين للغرب وحفنة من الباشوات والإقطاعيين، وعبر النظام السفاك وحواشي البلاط وأزلامه في عهد النظام البهلوي)[2]

وبناء على هذه التجربة القاسية التي ذكرها الخميني، والتي مرت بها إيران دعا إلى التشدد في اختيار النواب، والاهتمام بالتزامهم الديني والأخلاقي حتى لا يخترقهم العدو، ويمرر مشاريعه التدميرية من خلالهم، يقول في ذلك: (أما الآن، وحيث أصبح مصير البلاد ـ وبلطف الله وعنايته وهمة الشعب العظيم ـ بأيد المواطنين أنفسهم، حيث أصبح النواب منبثقين من سواد الجماهير يتم انتخابهم لمجلس الشورى الإسلامي دون تدخل الحكومة أو الباشوات، فإن المؤمل أن يحول التزامهم بالإسلام وحرصهم على مصالح البلاد دون وقوع أي انحراف، لذا فإني أوصي أبناء الشعب أن يصوتوا في كل دورة انتخابية ــ حاضراً

1() هذه النصوص مقتبسة من: الوصية الإلهية السياسية للامام الخميني، وهي موجودة في محال كثيرة منها كتاب: صحيفة الثورة الإسلامية، وموقع الامام الخميني، وغيرها.

2()صحيفة الثورة الإسلامية، الخميني، ص40..

ومستقبلاً ـ لصالح المرشحين الملتزمين بالإسلام والجمهورية الإسلامية انطلاقاً من إرادتهم الصلبة والتزامهم بأحكام الإسلام وحرصهم على مصالح البلاد)[1]

ثم ذكر أن العادة جارية بأن أمثال هؤلاء لا يكونون من الطبقة المترفة المستغرقة في الدنيا، بل يكونون من عامة الناس، وهم لذلك أكثر احتكاكا بهم، وأكثر إحساسا بحاجاتهم، يقول: (ولا شك أن مثل هؤلاء المرشحين يكونوا غالباً من الطبقات الاجتماعية الوسطى ومن بين المحرومين غير المنحرفين عن الصراط المستقيم نحو الغرب أو الشرق، ومن غير الميالين نحو المدارس العقائدية المنحرفة، ومن المتعلمين المطلعين على مجريات الامور المعاصرة والسياسات الإسلامية)[2]

ولضمان استمرار المبادئ في التحكم في السياسة الإيرانية يدعو العلماء إلى عدم الاعتزال، أو ترك الحرية المطلقة للسياسيين، يقول: (وأوصي العلماء المحترمين ـ لا سيما المراجع العظام ـ أن لا يعتزلوا قضايا المجتمع، خصوصاً عند انتخاب رئيس الجمهورية أو نواب المجلس، وأن لا يكونوا غير مكترثين بهذه الأمور. فكلكم رأيتم ـ والأجيال اللاحقة ستسمع بذلك ـ كيف قام ممتهنو السياسة من عملاء الشرق والغرب بعزل الروحانيين الذين وضعوا الحجر الأساس للملكية الدستورية بعد أن تحملوا المشاق والمعاناة، وكيف أن الروحانيين أيضاً ابتلعوا الطعم الذي ألقاه لهم ممتهنو السياسة فظنوا أن التدخل في أمور البلاد والمسلمين مما لا يليق بمقامهم، فانسحبوا من الميدان تاركين إياه للمأسورين للغرب، الأمر الذي الحق بالحركة الدستورية والدستور والبلاد والإسلام ما يحتاج جبرانه إلى زمن طويل، والآن وبعد أن أزيلت الموانع بحمد الله تعالى، وتوفرت الأجواء الحرة المناسبة لمشاركة جميع الشرائح الاجتماعية لم يبق من عذر،

1() المرجع السابق، ص41.

2() المرجع السابق، ص42.

والتساهل بأي أمر من أمور المسلمين من الذنوب الكبيرة التي لا تغتفر) [1]

وهو لا يكتفي بذلك، بل يحذر الشعب بأطيافه المختلفة كل حين لمراقبة الحكومة وكل أجهزتها، لتبقى دائما في خط المبادئ التي سنتها الشريعة، والقيم التي جاءت بها، يقول في ذلك: (فعلى كل امرءٍ أن يسعى ـ وبمقدار استطاعته وبماله من التأثير في خدمة الإسلام والوطن وأن يحول بجد ــ دون نفوذ عملاء القطبين المستعمرين، والمنبهرين بالغرب أو الشرق والمنحرفين عن نهج الإسلام العظيم، وليعلم الجميع بأن أعداء الإسلام والدول الإسلامية المتمثلين بالقوى الناهبة الدولية الكبرى إنما يتغلغون في بلداننا والبلدان الإسلامية الأخرى بخفة ومهارة ليوقعوا تلك البلدان في شباك الاستعمار مستغلين أبناء شعوب تلك البلدان ذاتها، كونوا يقظين، راقبوا بحذر، وما أن تشعروا بأول خطوة تغلغل هبوا للمواجه ولا تمهلوهم، والله معينكم وهو حافظكم) [2]

وبناء على هذا نرى في إيران المؤسسات الكثيرة التي لا نجد نظيرا لها في العالم أجمع، وهي مؤسسات تتكون عادة من فقهاء وعلماء دين بالإضافة إلى مختصين في القوانين ونحوها، بالإضافة للمنتخبين من طرف الشعب.. وذلك حتى تضمن بقاء المبادئ الإسلامية كما هي من دون أن تتحكم فيها التقلبات والأهواء.

وقد أشار الخميني في وصيته إلى هذه الجوانب، وكررها كثيرا، ومن ذلك قوله: (أطالب ممثلي مجلس الشورى الإسلامي ـ في هذا العصر والعصور الآتية ـ أن يصرّوا على عدم قبول أوراق اعتماد العناصرالمنحرفة التي تتمكن في وقت ما من فرض تمثيلها على الناس بالدسائس والألاعيب السياسية، وأن يحولوا دون وصول حتى عنصر مخرب عميل واحد إلى المجلس، كما أوصي الأقليات الدينية المعترف بها رسمياً أن يأخذوا العبرة من

[1] المرجع السابق، ص42.

[2] المرجع السابق، ص43.

الـدورات الانتخابيـة الـتي جـرت في عهـد النظـام البهلـوي، وأن يحرصـوا على انتخـاب ممثليهم الملـتزمين بأديـانهم وبالجمهوريـة الإسـلامية، غـير المـرتبطين بـالقوى الإسـتعمارية، وغـير الميالـة للمــدارس الإلحاديــة المنحرفــة والإلتقاطيــة، وأطلب من جميــع النـواب أن يتعـاملوا فيمـا بينهم بحسـن النيـة والأخـوة، وليسـعوا جميعاً إلى أن لا تسن القـوانين المنحرفـة عن الإسـلام ــ لا سـمح الله ـ وليكونوا جميعاً أوفياء للاسلام ولأحكامه السماوية، سعياً في نيل سعادة الدنيا والآخرة) [1]

وهكذا أوصى أعضاء صيانة الدسـتور بقولـه: (أطـالب أعضـاء صيانة الدستور المحـترمين وأوصـيهم ــ سـواء في هـذا الجيـل أم الاجيــال القادمــة ـــ أن يحرصــوا على أداء واجبــاتهم الإســلامية والوطنية بكل دقة وحزم، وأن يحاذروا من الوقوع تحت تـأثير أيـة سلطة، وأن يحولوا دون سن القـوانين المخالفـة للشـرع المطهـر والدسـتور، دون الأخـذ بنظـر الاعتبـار أيـة اعتبـارات أخـرى، وأن ينتبهوا إلى مصالح البلاد التي يجب أن تتحقق عبر الأحكام الثانويـة تارة، أو عبر ولاية الفقيه تارة أخرى) [2]

وهكـذا أوصـى الشـعب بـأن يـؤدي دوره في حفـظ المبـادئ والقيم التي قامت عليها الثورة الإسلامية، وذلك بمشاركته الفاعلة في اختيار ممثليه من الذين يتوسم فيهم النزاهـة والصـلاح، يقـول في ذلك: (وأوصي الشعب المجيد بـأن يسـجل حضـوراً فـاعلاً في جميع الانتخابـات، سـواء انتخابـات رئاسـة الجمهوريـة أو انتخابـات الخبراء لتعيين شورى القيـادة أو القائـد، وعليهم أن يحرصـوا على إتمام عملية الاقتراع وفـق الضـوابط المعتـبرة. فمثلاً في انتخـاب الخبراء لتعيين شورى القيادة أو القائد عليهم أن ينتبهوا جيداً، فإذا تم تجاوز الموازين الشرعية والقانون في انتخاب الخـبراء وحصـل تساهل ما في ذلـك، فمن الممكن أن يتعـرض الإسـلام والبلاد إلى خسائر لا يمكن جبرانها، وحينهـا سـنكون الجميـع مسـؤولين أمـام

1() المرجع السابق، ص43.

2() المرجع السابق، ص44.

الله تعالى، وعلى هذا الأساس، فإن عدم مشاركة الشعب ـ بمراجعه وعلمائه العظام وتجّاره وكسبته وفلاحيه وعماله وموظفيه ـ يحمل الجميع المسؤولية عن مصير البلاد والإسلام، سواءٌ بالنسبة لهذا الجيل أم الأجيال القادمة. وقد يكون التساهل وعدم المشاركة في بعض الظروف ذنباً من أكبر الكبائر) [1]

ثم يبين لهم المواصفات الشرعية لمن ينتخبونه؛ فيقول: (ليحرص الجميع عند اختيار رئيس الجمهوريّة ونواب المجلس على أن يكونوا ممن لمسوا حرمان المستضعفين والمجتمع ومظلوميتهم، وممن يعتزمون تحقيق الرفاهية لأبناء الشعب، وليجتبنوا أولئك التجار والإقطاعيين من الساعين للوجاهة والشهرة، المرفهين الغارقين في الملذات والشهوات غير القادرين على إدراك مرارة الحرمان ومعاناة الجائعين والحفاة) [2]

هذه نماذج عن توجيهات الخميني، التي بينت عليها القوانين الإيرانية المختلفة، وهي ترينا بوضوح مدى تغلغل القيم الأخلاقية في تسيير السياسة الداخلية للبلاد بكل أجهزتها، وطبعا ذلك لا يمنع من وقوع الاختراقات، والتمثيل السيء، ولكن ذلك محدود جدا، ويمكن لأجهزة الرقابة المختلفة أن تحد منه، أو تمنع امتداد آثاره.

أما **السياسة الخارجية**، فهي محكومة بالمبادئ والقيم الأخلاقية مثل السياسة الداخلية، ولهذا كان أول ما فعلته الثورة الإسلامية، وفي أحلك مراحلها وقوفها في وجه الاستكبار العالمي على الرغم من إدراكها للثمن الذي يمكن أن تدفعه في سبيل ذلك.

فقد كان الخميني وكل قادة الثورة الإسلامية وإلى اليوم يصرحون بمواجهتهم لأمريكا، ويسمونها الشيطان الأكبر، ومثلها

1() المرجع السابق، ص44.

2() المرجع السابق، ص45.

إسرائيل، ويسمونها الغدة السرطانية، وفي الوقت الذي يدعو فيه العرب إلى صفقة القرن، وإلى تجاهل حقوق الفلسطينيين نرى من المبادئ الكبرى لإيران، إيمانها بفلسطين جميعا، وبجميع حقوق الفلسطينيين، بل إمدادها لقوى المقاومة الفسلطينية بكل ما تحتاجه من دعم.

يقول الخميني في بعض بياناته التي وجهها للعالم الإسلام: (يا مسلمي العالم يا أيها المستضعفون الرازحون تحت نير الظالمين! انهضوا واتحدوا ودافعوا عن إسلامكم ومقدراتكم، ولا تخشوا صخب الأقوياء، فان هذا القرن – بإذن الله – قرن انتصار المستضعفين على المستكبرين وانتصار الحق على الباطل)[1]

وقال في بيان آخر: (أمريكا العدو الأول ليعلم المسلمون المتواجدون في المواقف المشرفة، بمختلف مذاهبهم وقومياتهم، جيداً بأن العدو الأصلي للإسلام والقرآن الكريم والرسول الأعظم ﷺ هي القوى العظمى، خصوصاً أمريكا ووليدتها الفاسدة إسرائيل، التي تنظر إلى بلدان العالم الإسلامي بعين الطمع، ولا تتورع عن الإقدام على أية جريمة أو مؤامرة من أجل نهب ثرواتها ومواردها الطبيعية. وإن سرّ نجاحهم في هذه المؤامرة الشيطانية يكمن في بثهم الفرقة بين صفوف المسلمين بأي نحو كان، وفي موسم الحج من الممكن أن يقوموا بدفع بعض الملالي المرتبطين بهم لإشاعة أجواء الاختلاف بين الشيعة والسنة، والتشديد على هذه الظاهرة الشيطانية إلى درجة تجعل بعض البسطاء يصدقونها ويمسون سبباً في الفرقة والفساد. على الأخوة والأخوات من الفريقين أن يتنبهوا إلى ذلك، وأن يعلموا بأن هؤلاء عُمي القلوب الضالين إنما ينوون باسم الإسلام والقرآن المجيد وسنة الرسول، إبعاد المسلمين عن الإسلام والقرآن والسنة، أو على الأقل حرفهم عنها. على الأخوة والأخوات أن يعلموا بان أمريكا وإسرائيل تعاديان أسس الإسلام، لأنهما تريان في الإسلام والقرآن والسنة أشواكا في طريقهما، تحول دون أطماعهما

1() نداء الإمام إلى حجاج بيت الله 6/9/1981 صحيفة النور ، ج 15، ص 125.

ونهبهمـا، ذلـك أن إيـران باتباعهـا لهـذا القـرآن والسـنة، انتفضـت بوجههم وثارت وانتصرت)[1]

ويذكر الخميني السبب الذي من أجلـه عـادى الغـرب، وبعض الـدول الإسـلامية إيـران، فقـال: (الجميـع يعلم اليـوم أن ذنبنـا الحقيقي – من وجهة نظر ناهبي العالم المعتدين – هو الـدفاع عن الإسلام، وإرساء دعائم لحكومة الجمهورية الإسـلامية لتحـل محـل النظـام الطـاغوتي الظـالم. إن ذنبنـا وجريرتنـا هي إحيـاء سـنة الرسـول ﷺ والعمـل بتعليمـات القـرآن الكـريم، وإعلان وحـدة المسلمين من الشيعة والسنة، لمواجهة مـؤامرة الكفـر العـالمي، ودعم الشـعوب المحرومـة في فلسـطين وأفغانسـتان ولبنـان، وإغلاق السفارة الإسرائيلية في إيـران، وإعلان الحـرب ضـد هـذه الغدة السرطانية والصهيونية العالمية، ومحاربة التمييز العنصـري، والـدفاع عن الشـعوب الإفريقيـة المحرومـة، وإلغـاء معاهـدات العبوديـة الـتي وقعهـا النظـام البهلـوي القـذر مـع أمريكـا الناهبـة للعالم)[2]

وحتى نوضح مدى تشـبع السياسـة الخارجيـة لإيرانيـة بـالقيم الأخلاقية، ننقل هنا بعض النصـوص من قائـد من القـادة الفكـريين للجمهوريـة الإسـلامية الإيرانيـة، وهـو في نفس الـوقت تلميـذ من تلاميـذ الخميـني، وهـو الشـيخ مصـباح الـيزدي، الـذي ألـف الكتب والرسائل الكثيرة حـول الـرؤى الفكريـة والفلسـفية الـتي تسـتمد الجمهورية الإسلامية منها قوانينها المختلفة.

وقـد كتب في هـذا الموضـوع تحت عنـوان [القيم الأخلاقيـة ودورها في العلاقات الدولية]، مبينا المبادئ الشـرعية الـتي تحكم العلاقات الدولية، وقد صنف فيه الدول غير الاسلامية إلى صـنفين :[3]

1() من بيان الإمام الخميني بمناسبة عقد مؤتمر الحج وعيـد الأضـحى المبـارك، بتـاريخ 30/8/1984. صحيفة النور، ج 19، ص 46.

2() من بيان للإمام بتاريخ 28/7/1978، صحيفة النور، ج 20، ص 116.

الصنف الأول: الدول التي تحترم حقوق المسلمين، ويـرى أن العلاقة بينهم وبين المسلمين تتحدد طبقـاً للمعـايير الكليـة في القيم الاجتماعية، كأصل (العدالة)، أو أصل (الإحسان)، ويرجع في حالة التزاحم بين هذه الأصول إلى أصول (الأولوية)

أمـا العدالـة، فـيرى أن (المجتمعـات الـتي تحـترم حقـوق المسلمين يقابلها المسـلمون بالمثـل.. فيجب على المسـلمين أن يحترموا اتفاقـاتهم مـع الكفـار مـا دامـوا (أي الكفـار) يحترمونهـا. وحتى في حالة تجاوز الكفار على المسـلمين، فيجب أن يكـون رد المسلمين بالمقدار نفسه، ولا ينبغي تعدي ذلك)

وأمـا الإحسـان، (فكمـا أن المجتمـع الاسـلامي محكـوم في داخله لبعض القيم الأخلاقية التي تـوجب على بعضـهم أن يحسـنوا إلى المساكين والفقراء والمحـرومين، كـذلك تطـرح القيم نفسـها بحدود معينة مـع المجتمعـات الأخـرى، فالمجتمعـات الـتي تحـترم حقوق المسلمين وترتبط معهم بمعاهدات معينة، تكون هي كـذلك موضع احترام المسـلمين ومحـل عطفهم فمن المنسـاب جـداً أن يجد هؤلاء المسلمين إلى جانبهم في حالة تعرضـهم إلى الكـوارث والمصائب كالزلازل والسـيول والمجاعـات وغيرهـا. وهـذا الأصـل تجري مراعاته ضمن قاعـدة (الأولويـة) أي تقـديم حاجـة المجتمـع الاسلامي على غيره، وتقديم المساعدات في حالـة عـدم الـتزاحم إلى المحتاجين من المسلمين ومن الكفار غير المحاربين)

وبنـاء على هـذا يـرى إمكانيـة إقامـة علاقـات طيبـة مـع غـير المسلمين بشرط (المحافظة على سيادة المسلمين، والمحافظـة على سمعة المسلمين والمجتمع الإسلامي)

ولهـذا لا يصـح ــ كمـا يـذكر ــ (أن تقـام علاقـات المجتمـع الاسلامي مع المجتمعات الأخرى بحيث تكون للكفار اليد العليا في هـذه العلاقـات، ممـا قـد يخـدش سـيادة المسـلمين واسـتقلالهم، ويجعل للكافرين عليهم سبيلاً)

ولا يصح كذلك أن يتخلى المسلمون عن (قيمهم التي يعتزون

3() القيم الأخلاقية ودورها في العلاقات الدولية، الشيخ مصباح يزدي.

بهـا، ويوجبهـا الاسـلام إرضـاء لعـرف كـافر وانسـجاماً مـع قيم اجتماعية باطلة، فقد يستنكر الغربيون حجاب المرأة ويسـتهجنون حشمتها ونوع لباسها، لكن ذلـك لا يسـوغ تسـاهلها في هـذا الأمـر بحجة مسايرة العرف والانحراف معه وعدم استفزازه)

الصنف الثاني: الدول التي لا تحترم حقـوق المسـلمين، أو تحاربهم، وهي التي يطلق عليها اصطلاحا اسم (المحـاربين)، وهي كذلك لا يصح في المنظور الإسلامي ـ كما يرى الشيخ يـزدي ــ أن تعلن عليهـــا المواجهـــة أو الحـــرب بعيـــدا عن القيم والأخلاق الإسلامية.

ولـذلك لا يصـح في المنظـور الإسـلامي ــ كمـا يـرى يـزدي ـ القيـام باسـتعمار الآخـرين واسـتخدامهم، (وحين يلتقي الفريقـان، كان يدعو الاسلام إلى نوع من القيم الأخلاقية الدقيقـة. منهـا مثلاً: احترام المقدسات، سـواء كـانت هـذه المقدسـات موضـع احـترام الكفـار أو الكفـار والمسـلمين.. كـذلك يجب احـترام الكنـائس، وأمـاكن العبـادة الـتي أقامهـا المسـيحيون أو اليهـود لعبـادة اللـه، وليس لأحـد أن يتعـرض لشـيخ أو طفـل أو أي شـخص محايـد لم يشارك في الحرب.. فهذه الأصول وغيرها، أوجب الاسلام الالتزام بها، حتى مع أشد أعداء الاسلام، ولم يتسـامح في تطبيقهـا، إلا إذا بادر العدو إلى خرقها)

ويلخص يـزدي أصـول أخلاق التعامـل مـع المحـاربين بقولـه: (لقد أراد الاسلام للحرب أن تكون حربـاً شـجاعة شـريفة واضـحة فلا استغفال للعدو ولا مباغتة له، إذ لا حـرب قبـل الإعلان وإذا مـا وقعت الحرب فلا مجال لعمليـات الإبـادة أو الحـرق، حـتى إحـراق منازل العدو ومزارعه التي تمده بالغذاء والمال، إلا إذا لجـأ العـدو إلى ذلك. فالحرب تحسم في ميدان القتال، وبالأسـلحة المتعارفـة في ذلك العصر، وما بعـد الحـرب يـأتي دور الأسـرى الـذين وضـع الاسلام أصولاً للتعامـل معهم، أوضـحتها الروايـات، وتحـدثت عنهـا كتب الفقـه باسـهاب، والحـرب ليسـت هـدفاً في الاسـلام، حـتى الحرب الدفاعية ـ كالحرب مـع البغـاة، فهي محـدودة بحـدود رفـع الظلم ودفع التجاوز على النظام وفرض الأمن الإسلامي)

هذه بصورة عامة القيم الأخلاقية التي تحكم العلاقات الدولية في المنظور الإسلامي بحسب رؤية قادة الثورة الإسلامية الإيرانية، وهي التي تعمل أجهزة الدولة في تنفيذها على أرض الواقع، وبناء عليها تصدر الفتاوى المختلفة من ولاية الفقيه، والتي لها السلطة العليا في قضايا الداخل والخارج.

ومن أحسن النماذج عن تلك الفتاوى الأخلاقية الكبرى، فتوى المرشد الأعلى للثورة الإسلامية في إيران السيد علي الخامنئي بحرمة استخدام أسلحة الدمار الشامل، والتي صدرت عام 2003 م، ثم أعلنتها الحكومة الايرانية في بيان رسمي في اجتماع الوكالة الدولية للطاقة الذرية في فيينا، والتي يقول فيها: (نعتقد إضافةً إلى السلاح النووي، سائر صنوف أسلحة الدمار الشامل كالأسلحة الكيمياوية والميكروبية تمثل خطراً حقيقياً على البشرية، والشعب الإيراني باعتباره ضحية لاستخدام السلاح الكيمياوي يشعر أكثر من غيره من الشعوب بخطر إنتاج وتخزين هذه الأنواع من الأسلحة، وهو على استعداد لوضع كافة إمكاناته في سبيل مواجهتها، إننا نعتبر استخدام هذه الأسلحة حراماً، وإنّ السعي لحماية أبناء البشر من هذا البلاء الكبير واجباً على عاتق الجميع) [1]

وهو يشير كل حين إليها، ويبين دوافعها الشرعية والأخلاقية، ومن ذلك قوله بعد أربعة أيام من عقد الاتفاقية حول البرنامج النووي عام 2015: (لقدأصدرنا فتوى بحرمة إنتاج السلاح النووي قبل سنوات، وذلك لتعارضها مع الشرع والأخلاق، لكن الأمريكان رغم أنهم يعترفون أحياناً بأهمية هذه الفتوى، يكذبون ويهددون في إعلامهم ويزعمون أن تهديداتهم هي التي حالت دون إنتاج السلاح النووي الإيراني)[2]

وقد عد الكثير من الذين يعرفون إيران، ومبادئها، ويثقون في

1() انظر: تحريم اسلحة الدمار الشامل، الموقع الرسمي لمكتب خامنئي.

2() إقامة صلاة عيد الفطر المبارك بإمامة السيد علي الخامنئي في مصلى طهران، الموقع الرسمي لمكتب آية الله خامنئي، 18/07/2015.

مصـداقيتهم هـذه الفتـوى أكـبر ضـمان لحركـة ايـران في مسـار التكنولوجيا النووية السلمية، بل اعتبرها أعداء الجمهورية أنفسـهم كذلك، بما فيهم باراك أوباما الذي اعتبر الفتوى آلية جيدة للالـتزام بالاتفاق.

إيران .. والقيم الحضارية

لا نريـد بـالقيم الحضـارية هنـا ذلـك المفهـوم الخـاطئ الـذي يتصوره الكثير، وعلى أساسه يصورون الغرب الآن بأنه وصـل إلى قمة الحضارة، حيث يجعلون من هذا المصـطلح قاصـرا على ذلـك الرفاه المادي، أو تلك القيم الممتلئة بالأنانية، والـتي تحـرص على بعض القيم الإنسـانية، مـع التطفيـف في المـوازين عنـد التعامـل معها، كما قال الله تعالى عن أهل الكتاب: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْـكَ إِلَّا مَـا دُمْتَ عَلَيْـهِ قَائِمًـا ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قَـالُوا لَيْسَ عَلَيْنَـا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} [آل عمران: 75]

فـالقيم الـتي تحكم الغـرب الآن قيم ماديـة، لا علاقـة لهـا بالحضارة الحقيقية، والـدليل على ذلـك هـو أن هـذا الغـرب الـذي يتصور الكثـيرون أنـه وصـل إلى نهايـة التـاريخ، وتحققت فيـه كـل المثل الإنسانية، هو نفسه الغرب الذي استعمر بلاد المستضعفين، وانتهب خيراتهـا قرونـا طويلـة، وهـو نفسـه الـذي يحـرض الآن المستضـعفين بعضـهم على بعض، لتبقى لـه السـيادة والسـلطة والاستكبار عليهم.. وهو نفسه الغرب الذي ينشر الإباحية والإلحـاد وكل الفلسـات ذات التوجهـات الماديـة، والـتي لا تعطي أي قيمـة للأخلاق، ولا للقيم الرفيعة.

ولذلك، لا نريد من القيم الحضـارية تلـك القيم الماديـة الـتي وقع بعض الإسلاميين للأسف أسارى لهـا، فصـاروا يقيسـون نجـاح أي حكومة أو دولة بمستوى رخائها الاقتصادي، وتقدمها المادي، لا بمستوى القيم الأخلاقية والحضارية الحقيقية التي تحملها.

ولهـذا نـراهم يشـنون الحملـة على إيـران، ويقيسـونها على مثيلاتها من الدول التي باعت ذممهـا، ولم تبـال بـالقيم الدينيـة ولا الأخلاقيـة، واكتفت ببعض الرخـاء الاقتصـادي، المصـحوب بالتبعيـة للغرب والفكر الغربي.

وقد أشار إلى هذا المعنى قادة الجمهورية الإسلامية الإيرانية

في أحـاديثهم الكثـيرة الـتي عـبروا فيهـا عن رؤاهم حـول مفهـوم الحضـارة والقيم المرتبطـة بهـا، ومن ذلـك قـول الخـامنئي: (.. الحضارة، رغم مع كلّ ما فيها ومع كلّ ادّعاءاتها، خـرجت مهزومـة من سـاحة الامتحـان من خلال الأعمـال الـتي يمارسـها هـؤلاء الأمريكيون، من إشعال الحـروب والظلم وعـدم العدالـة والغـرور والسلوكيّات غير العاقلة.. ومن أبرز تجارب هذه الحضارة، إشعال الحروب، وتهديد السلام، وقتـل الأبريـاء، وصـرف رسـاميل طائلـة على الحروب تحت مبرّرات لا يمكن الوثوق بها)1

ثم يدعو إلى المقارنة بين هذه الحضارة المزيفة التي يزعمها الغرب بقيادة أمريكا مع تلك الحضـارة الـتي أسسـها المسـلمون؛ فيقــول: (قــارنوا بين هــذه الحضــارة الغربيــة، وبين الحضــارة الإسـلاميّة عنـدما فتح المسـلمون المنـاطق الغربيّـة في العـالم الإسلامي ـ أي مناطق الروم وسـوريا اليـوم ــ في زمـان الخلفـاء الراشـدين، حيث تعـاملوا مـع اليهـود والمسـحيّين بأسـلوب جعـل الكثيرين منهم يتوجّهون نحو الإسـلام، وفي بلـدنا إيـران استسـلم الكثير من الناس من دون مقاومة، لأنّهم شـاهدوا مـروءة ورحمـة ومداراة المسلمين للأعـداء، لـذلك جـاءوا بأنفسـهم إلى الإسـلام، ويذكر التاريخ أنّه عنـدما دخـل المسـلمون بعض البلاد، كـان أهلهـا يردّدون عبارة: إنّنا لم نر يومًا جميلًا في حياتنا كهذا اليوم)2

وهكذا نراه يعتبر قمة الحضارة هي ذلك العصـر الـذي عـاش فيه رسول الله ﷺ، على الرغم من كل ذلك الزهد الذي عاشه مع أصحابه، ولكن القيم الإيمانية كانت هي المتحكمة والسائدة، يقول في ذلـك: (في صـدر الإسـلام، اسـتطاع رسـول الإسـلام المكـرّم وصحابته وخلفاؤه العظام بالاعتماد على الله أن يؤسّسوا حضــارةً تاريخيّةً عظيمةً. لقـد كـانوا أيضًـا، في مقابـل القـوى العظمى في زمانهم، قلّة في الظاهر، لكنّ الإيمان أمـدّهم بـالقوّة، فاسـتطاعوا تحقيق عظمة في التاريخ امتدّت قرونًا، لِمَ لا يمكننا نحن ذلك)

1 من كلام له في لقاء مسؤولي النظام (23/7/1380)(15/10/2001).

2 المرجع السابق.

وأضاف يقول: (لقد أسّس النبيّ في زمانه وفي مدّة قصـيرة ـ في ظرف عشر سنوات ـ بنيان حضارةٍ عظيمة. هنا تتّضح عظمة النبيّ.. وهذه هي قدرة النبوّة، لقد صنع النـاس بنحـو واسـتخدمهم بنحو أمكنه أن يصنع بتلك العدّة القليلة ـ حيث كانت دولتـه بـادىء الأمر عبارة عن مدينة واحدة تضمّ، عدّة آلاف من الأفـراد، أساسًـا بنيت فوقه حضارة عظيمة) 3

بناء على هذا نحاول في هذا الفصل أن نبين القيم الحضـارية الكـبرى الـتي تبنتهـا إيـران في واقعهـا الحـالي، أو في تاريخهـا الطويل، وهي قيم تنبع من الإسلام بعقائده وأخلاقـه ومثلـه العليـا، وقد رأينا من خلال استقراء التاريخ والواقع أنه يمكن تصـنيفها إلى أربعة قيم كبرى، هي:

أولا ـ الانفتاح الحضـاري: ونريـد بـه مـا دعـا إليـه قولـه تعالى: { يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِـيرٌ} [الحجـرات: 13]، وقولـه: { فَاسْـأَلْ بِـهِ خَبِـيرًا } [الفرقـان: 59]، فالمسلم المتحضر لا ينغلـق على نفسـه، وإنمـا يسـير في الأرض، وينفتح على جميـع الشـعوب، ويتنـاول من جميـع موائـد علمهـا وخبرتها مع محافظته على هويته وشخصيته وقيمه.

ثانيا ـ الإبداع الحضاري: ونريـد بـه المسـاهمة في إنتـاج المعرفة وتطويرها وخدمة الإنسـانية من خلالهـا، وهـو مـا أشـارت إليه تلك النصوص المقدسة التي تـذكر داود عليـه السـلام وتلـيين الحديـد لـه، أو تـذكر ذي القـرنين وكيـف اسـتطاع أن ينقـذ المستضعفين بالاختراعات التي اخترعها.

ثالثا ـ تصدير الحضارة: ونريـد بـه المسـاهمة في خدمـة الإنسانية، وعدم الشح عليها بأي معرفة أو علم يمكنـه أن يسـاهم في تطويرها.

رابعا ـ الحوار الحضـاري: ونريـد بـه مـا نص عليـه قولـه تعـالى: {وَلَا تُجَـادِلُوا أَهْـلَ الْكِتَـابِ إِلَّا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِلَّا الَّذِينَ

3 خطاب القائد في لقاء أعضاء الجمعيّة الإسلاميّة للطلبة الجامعيّين (7/11/2000).

ظَلَمُوا مِنْهُمْ } [العنكبوت: 46]، فهي ترسم العلاقة بين المسلمين وغيرهم من المسالمين، وهي علاقة مبينة على الحوار لا على الصراع كما تتبناها الرؤية الغربية.

وسنحاول في هذا الفصل بيان مدى تحقق إيران بهذه القيم الأربعة، ومدى مساهمتها في خدمة جميع البلاد الإسلامية، بل غيرها من البلاد من خلالها.

والنتيجة التي خلصنا إليها هي أن إيران في أقل أحوالها مركز كبير من مراكز الإشعاع الحضاري الإسلامي، والذي يريد أن يشطبها من الخارطة الإسلامية، عليه أولا أن يلغي الحضارة الإسلامية، وكل القيم الجميلة التي تحملها، ويلغي معها كل ذلك التراث الفلسفي والعلمي والديني الذي كتبه الإيرانيون، والذي لا يمكن الاستهانة به، بل لا يمكن تصور الحديث عن الحضارة الإسلامية من دون الحديث عنه.

لذلك فإن الجريمة التي يقع فيها أولئك المغرضون الذين يوجهون سهام حربهم إلى إيران، ويعتبرونها مؤامرة على الإسلام، هي كونهم ـ في حقيقة الأمر ـ يوجهون حربهم للإسلام نفسه، لأن إيران في كل تاريخها مثلت الإسلام أحسن تمثيل، وأعطت صورة جميلة عن الحضارة الإسلامية بأرقى مظاهرها.

أولا ـ إيران والانفتاح الحضاري:

نريد بالانفتاح الحضاري الاحتكاك بكل الثقافات والعلوم، والتعرف عليها، والتأثير فيها، والتأثر بها، وعدم الانغلاق على الذات، إما استعلاء على الآخر، أو خوفا منه.

وهو مقدمة لكل إبداع حضاري، ذلك أنه لا يمكن أن تقوم أي حضارة من الحضارات دون الاستناد إلى غيرها، والاستفادة منها، والبناء على مكتسباتها، فالحضارة لا وطن لها.

وعند التأمل في المنتجات الحضارية الإيرانية في العلوم المختلفة نجد أنه كان للانفتاح دوره الكبير في كل تلك الإبداعات الجديدة التي جاء علماء إيران في المجالات المختلفة، والتي

سنرى بعضها في المبحث الثاني من هذه الفصل.

وبناء عليه سنقتصر هنا على مجموعة نماذج من القديم والحديث، وكيف انفتحت على الآخر في نفس الوقت الذي حافظت فيه على ذاتها وقيمها وهويتها.

1 ـ المتقدمون من الإيرانيين والانفتاح الحضاري:

من أقدم الأمثلة على ذلك وأحسنها ذلك القتيل المظلوم **عبد الله بن المقفع الفيروز آبادي** (109 ـ 145 هـ) ذلك الكاتب والشاعر والمترجم الكبير، وصاحب تلك الروائع الأدبية والفلسفية التي كان لها تأثيرها الكبير في الثقافة الإسلامية من أمثال [كليلة ودمنة]، و[الأدب الكبير]، و[الأدب الصغير]، وغيرها، والتي استطاع أن ينقل فيها الكثير من التراث الهندي والفارسي، ويصيغه بصياغة مقبولة شرعا وعقلا وذوقا، حتى بدا وكأنها من إبداعه الخاص.

ومنها **أبو حامد الغزالي الطوسي** (450 هـ - 505 هـ)، والذي عبر عن اهتمامه بكل الثقافات، بل بكل الأديان والمذاهب، ومحاولته التعرف عليها عن كثب، لاستكناه أسرارها، وفهم أغوارها، وقد قال معبرا عن ذلك: (ولم أزل في عنفوان شبابي ـ منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين ـ أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجّم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته

في تعطيله وزندقته)[1]

وعبر عنه في تعامله مـع الـتراث الأجنـبي الـذي كـان يحمـل حينها اسم الفلسفة أو علوم الأوائل، حيث وجد في عصره صنفين من التعامل معها.

أما الصنف الأول؛ فيرى الرفض الكلي لتلك الثقافات، وتأليب الرأي العام عليها، وتكفير أو تبديع كـل من يبحث أو يخـوض فيهـا، فلم تكن علاقة هذا التيار بتلك الثقافات إلا علاقـة الحكم المسـبق في معظم الأحيـان، ولم يكن نقـدها إلا نقـدا ظاهريـا لا يعتمـد البرهـان العلمي، ولا الحجـة المنطقيـة، لأن المنطـق نفسـه من الفلسفة.

وهـذا الصـنيف يشـبه كثـيرا التيـار السـلفي ومـا شـابهه من التيارات في عصـرنا، ودولتـه تشـبه دولـة طالبـان أو دولـة داعش المنغلقتين على ذاتهما، والرافضتين للآخر رفضا كليا.

وقد اعتبر الغزالي هذا التيار سببا لانتشـار الأفكـار المضـللة، وهو يسميهم بالصديق الجاهل [2]، ومن الأمثلة الـتي ذكرهـا عنهم إنكـارهم كـون خسـوف القمـر عبـارة عن انمحـاق ضـوء القمـر بتوسـط الأرض بينـه وبين الشـمس، وأنكـروا الهندسـة والحسـاب والمنطق والفلك وغيرها[3]، لأن مصدر ذلك هو الثقافات الأجنبيـة، مع أنها لا تصادم النصوص الشـرعية، يقـول الغـزالي: (وأعظم مـا يفرح به الملحـدة أن يصـرح ناصـر الشـرع بـأن هـذا وأمثالـه على خلاف الشـرع، فيسـهل عليـه طريـق إبطـال الشـرع) [4]، مـع أن

1() المنقذ من الضلال (ص: 109)

2() المنقذ من الضلال ص114.

3() معراج السالكين، (الرسائل الفرائد) ص220 ـ 221.

4() تهافت الفلاسفة ص43.

الشرع لم يتعرض لهذه العلوم نفيا ولا إثباتـا، ولا في هـذه العلـوم تعرض للأمور الشرعية[1].

وقـد انجـر عن هـذا المنهج نـوع من الشـعور بالتصـادم بين العقل والدين، فإن تلك القضايا من الوضوح والدقة، وبراهينها من الوضوح والقوة بحيث لا يمكن رفضـها؛ ورفض العلمـاء لهـا بحجـة منافاتها للدين كذب عليه، وخدمة للملحدين والمشككين، وهـو مـا حصـل في أوروبـا عنـدما أنكـرت الكنيسـة الكثـير من الكشـوف العلمية التي تتنافى مع موروثاتهـا اليونانيـة وغيرهـا، ممـا أدى إلى النفور من الكنيسة، والتمكين للإلحاد.

وما ذكره الغزالي عن هذا الصنف وموقفه من العلوم، يشـبه تماما موقف السلفيين في عصـرنا من الحقـائق العلميـة الكثـيرة، وخصوصا الفلكية منها، بحجة مصادمتها للنصوص المقدسة.

أما الصنف الثاني، فهو على النقيض من الصنف الأول، ويرى القبول الكلي لما ورد في تلك الفلسفات والثقافات، وطرح الدين بسببها، والانخداع بمظاهرها، يقول الغـزالي معـبرا عن هـذا التيـار في مقدمـة (تهـافت الفلاسـفة): (أمـا بعـد، فـإني رأيت طائفـة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظـراء بمزيـد الفطنـة والذكاء قد رفضوا وظائف الإسلام، واستحقروا شعائر الـدين، بـل خلعوا بالكلية ربقة الـدين بفنـون من الظنـون يتبعـون فيهـا رهطـا يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا)[2]

وهو يشبه تماما أولئـك الـذين يـدعون التنـوير من الحـداثيين وغـيرهم، والـذين راحـوا يتلاعبـون بحقـائق الـدين، ويؤولونهـا، ويرفضون الكثير منها، بغيـة الـذوبان في الآخـر، وتخليص الإسـلام من كل خصوصياته وحقائقه وقيمه.

والغزالي ينتقد ذوبان هذا التيار في تلك الثقافـات، ويـرى أن

---

(1) المنقذ من الضلال ص102.

(2) تهافت الفلاسفة ص38.

مصدر ذلك الذوبان لا يرجع إلى تحكيم الموازين العقلية بقدر رجوعه إلى أوهام وخيالات وأسباب النفسية، وهو يعد منها:

1. إطناب طوائف من متبعيهم في وصف عقولهم ودقة علومهم، وأنهم مع كل ذلك الذكاء منكرون للشرع متنصلون من تكاليفه.

2. مصادرتهم العامة على مطالبهم المعرفية استدراجا لهم، بحيث أنه إذا ما أوردوا عليهم إشكالا تذرعوا بأن هذه العلوم غامضة، وأنها أعصى العلوم على الأفهام الذكية، ولا يمكن التوصل إلى فهمها إلا بتقديم الرياضيات والمنطق،وهذا كله استدراج نفسي للوصول بهم إلى حالة الانبهار التام المؤدي إلى ا لخضوع الكلي.

3. الخلط بين العلوم الطبيعية والهندسية والمنطقية مع الآراء الميتافيزيقية، حتى ظن من ينظر في منطقهم فيراه مستحسنا أن سائر علومهم مؤيدة بتلك البراهين.

وكل هذه الأسباب التي ذكرها الغزالي وغيرها لذوبان هذا الفريق في تلك الثقافات لا ترجع إلى براهين عقلية، أو حجج منطقية، وإنما هو حالة من الانبهار الساذج، والتأثر العاطفي الذي لا يحكمه العقل، ولا يستند إلى الحجة.

وبديلا عن ذينك الصنفين يقترح الغزالي صنفا ثالثا، هو وسط بين الصنفين، ويتمثل في التمييز بين المقبول والمرفوض من تلك الثقافات؛ فيقبل ما دل عليه الشرع والعقل، ويرفض ما يرفضانه، وبناء على هذا الأساس قسم الغزالي علوم الفلاسفة إلى ستة أقسام مبينا أن أكثرها يمكن قبوله والاستفادة منه، وأنه لا ضرر منه على الدين.

ومن الأمثلة على ذلك قبوله الرياضيات، وما يتعلق بها من الحساب والهندسة، وعلم هيئة العالم، وحكمها كما يقرر الغزالي أنه (لا يتعلق شيء منها بالأمور الدينية،بل هي أمور برهانية لا

سبيل إلى مجا حدتها بعد فهمها) [1]، بل إنـه يجعلهـا من الفـروض الكفائيـة مـا دام هنـاك من يحتـاج إليهـا، وهـو لا يحـذر سـوى من استغلالها استغلالا عقديا لا علاقة لها به[2].

ومن الأمثلة عليها قبولـه العلـوم المنطقيـة المتعلقـة بـالنظر في طرق الأدلـة والمقـاييس وشـروط مقـدمات البرهـان وكيفيـة تركيبها، باعتبار أنه لا يتعلق شيء منها بالدين ـ في رأي الغـزالي ـ إلا ما حشيت به من أمثلة تتناقض وتتعـارض مـع الأصـول الدينيـة، ولأجل ذلـك ألـف الغـزالي كتبـه المنطقيـة، كمعيـار العلم وغـيره، وحشاها بدلا من ذلك بالأمثلة الفقهية.

ومن الأمثلة عليها قبوله العلـوم الطبيعيـة بمـا تشـتمل عليـه ذلك الحين من طب وكيمياء وفلـك وغيرهـا، ويـرى الغـزالي عـدم تعرضها للدين، ولـذلك لا ينبغي مخـالفتهم في شـيء منهـا إلا بمـا هـدى إليـه الـدليل العلمي، وهـو لا يعتب على هـذه العلـوم إلا في جعلها الطبيعة فاعلة بذاتها، ولذلك يدعو أثناء مطالعة هذه العلــوم أن يعلم المطلع عليها (أن الطبيعة مسخرة للـه تعـالى، ولا تعمـل بنفسها، بـل هي مسـتعملة من جهـة فاطرهـا، والشـمس والقمـر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره، لا فعل لشيء منها لذاته) [3]

ومن الأمثلة عليها قبوله بما سماه [العلوم السياسية]، والـتي يبحث فيهــا الفلاســفة عن الحكم المصــلحية المتعلقــة بــالأمور الدنيويــة، ولا يــرى الغــزالي لــذلك أي تعلــق بالــدين، بــل يمكن الاستفادة من أبحاثهم فيها باعتبارهـا مسـتمدة ــ كمـا يـرى ــ من كتب اللـه المنزلـة على الأنبيـاء، ومن الحكم المـأثورة عن سـلف

1() المنقذ من الضلال ص101.

2() المرجع السابق .

3() المنقذ من الضلال ص104.

الأنبياء [1].

وهذا الموقف هو الذي أكسب الغـزالي فكـرا سياسـيا متينـا يحتاج إلى مزيد دراسة.

ومن الأمثلة عليها قبوله بالعلوم الأخلاقية، وكلامهم فيها ـ كما يلخصــه الغــزالي ـــ يرجــع إلى حصــر صــفات النفس وأخلاقهــا وأجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهـدتها، وهـو لا يـرى ردهـا باعتبارها لا تنـاقض الشـرع، بـل يـرى أن كلامهم فيهـا مـأخوذ من كلام الصوفية والمتألهين [2] الذين لم يخلو من وجودهم أي عصــر من العصور، ولذلك فإن الاستفادة منهم تلـق لمزيـد من التجـارب والفوائد التي لم تمنعنا الشريعة من الأخذ بها [3].

بعد هذا التقسيم لا يرى الغزالي حرجا أن يستفيد اللـبيب من كل علـومهم مـا عـدا مـا عـارض الشـرع منهـا، لأن معرفـة الحـق مطلب كل عاقل، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

وهو ينكر على من يرد عليهم بمجرد كـونهم فلاسـفة، ويشـبه ذلك بالذي يسمع من النصراني قول: (لا إله إلا الله عيسى رسول الله) فينكره، ويقول: هذا كلام نصراني، ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول أو باعتبـار إنكـار نبـوة محمـد ﷺ [4].

وبســبب هــذا الفكــر المتفتح المنتقي اســتفاد الغــزالي من الفلاسفة، وضمن ذلك كتبه بعد مزجه بالنصوص الشرعية، أو بعــد

---

(1) المنقذ من الضلال ص108.

(2) التأله: التنسك والتعبد، انظر: ابن منظور، لسان العرب 13 ص467 رقم: 8664.

(3) المنقذ من الضلال ص109.

(4) المرجع السابق ص110.

أسلمته، وقد لاقى بسبب ذلك النقد اللاذع من كثير من الطاعنين، كقول ابن العربي المالكي: (إن شيخنا هذا [الغزالي] دخل بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج فما قدر) [1]

وقد حصل له ذلك الاعتراض في حياته، فقال مجيبا: (ولقد اعترض على بعض الكلمات في تصانيفنا في أسرار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم، وزعمت أن تلك الكلمات من كلمات الأوائل، مع أن بعضها من مولدات الخواطر، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر، وبعضها يوجد في الكتب الشرعية، وأكثرها موجود معتاد في كتب الصوفية)[2]

ثم يعقب على ذلك منكرا: (وهب أنها لا توجد إلا في كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقولا في نفسه مؤيدا بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلم ينبغي أن يهجر وينكر؟) [3]

2 ـ المتأخرون من الإيرانيين والانفتاح الحضاري:

لا يمكننا هنا ذكر نماذج المتأخرين واطلاعهم على ثقافة الآخر واستفادتهم منها، فهي من الكثرة بحيث لا يمكن الإحاطة بها، وبناء على هذا سنقتصر على قادة الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وكيف انفتحوا على العالم، وأعطوا صورة مشرفة بذلك الانفتاح في مقابل أولئك المنغلقين الذين حجروا على أنفسهم الاستفادة من تراث الأجانب بحجة أنها علوم كفار.

وأول مظهر من مظاهر ذلك الانفتاح الانفتاح على كل المذاهب الإسلامية، وعدم التقوقع داخل المدرسة أو المذهب،

---

(1) ابن العربي، العواصم من القواصم ص7.

(2) المنقذ من الضلال ص111.

(3) المرجع السابق .

ولهذا نرى قادة الثورة الإسلامية يدعون إلى الوحدة الإسلامية، وإلى التقريب بين المذاهب الإسلامية، وعدم الاستماع لما يقوله الطائفيون في ذلك.

ومن خطابات الخميني في هذا المجال، والتي وجهها إلى الحجيج في موسم الحج باعتباره محلا لاجتماع جميع المسلمين قوله لهم: (أيها الحجّاج المحترمون لقد اجتمع العالم حول بعضه البعض، ويتبادل الآراء في مصالح الإسلام ومشاكل المسلمين، فيجب أن تتخذوا إجراءات ضرورية لحل هذه المشاكل والوصول إلى الأهداف الإسلامية المقدّسة وابحثوا في طرق وسبل الوحدة بين جميع الطوائف والمذاهب الإسلامية، وابحثوا في المسائل السياسية المشتركة بين جميع الطوائف الإسلامية وابحثوا لإيجاد حل للمشاكل التي أوجدها أعداء الإسلام لمسلمي العالم والتي يعتبر أهمها تفرقة صفوف المسلمين)[1]

وهو يستعمل كل أنواع الاستدلالا ليثبت لهم أنه لا حل لخروج المستضعفين من نير المتسكبرين إلا باتحادهم ووحدتهم ونبذهم لكل ما يفرق بينهم، يقول في ذلك: (طريق واحد هو الأساس لكل السبل، ويقتلع جذور هذه المآسي ويقطع دابر الفساد ويعيد وحدة المسلمين بل وحدة جميع المستضعفين وكل المستضعفين والمكبلين بالسلاسل في العالم، هذه الوحدة التي يؤكدها ويكررها الإسلام الشريف والقرآن الكريم، ويجب تحقيقها في الواقع من خلال الدعوة والتبليغ بها بشكل واسع، ومركز هذه الدعوة مكة المعظمة عندما يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج.. يخاطب الله إبراهيم خليل الله ليدعو الناس إلى الحج، ويأتون من جميع الأقطار ليشهدوا منافع لهم ومنافع للمجتمع، منافع سياسية، ومنافع اقتصادية، ومنافع اجتماعية وثقافية، ليأتوا ويروا نبيهم الذي قدم أغلى وأعزّ ثمرة في حياته في سبيل الله.. ويجب على ذرّية آدم كلها أن تتأسى به فلينظروا كيف حطّم الأصنام، وكيف أبعد ورمى جانباً كل ما عدا الله. شمساً كان أم قمراً، هياكل، حيوانات أو بشراً.. يجب على الجميع التأسي بأبي التوحيد، وأبي الأنبياء

1() أبعاد الحج، ص29.

عظماء الشأن) [1]

وقال: (ومن جملة الوظائف في هذا الاجتماع العظيم، دعــوة الناس والمجتمعات الإسلامية لوحدة الكلمة ورفـع الاختلافـات بين فئات المسلمين حيث ينبغي على الخطباء والعلماء والمفكرين أن يبادروا إلى هذا الأمر الحيـاتي ويسـعوا في سـبيل إيجـاد وتشـكيل جبهة للمستضعفين حيث إنهم يستطيعون بوحـدة الجبهـة، ووحـدة الكلمــة، وشــعار لا إلــه إلا اللــه أن يتحــرّروا من أســر القــوى الشـيطانية للأجـانب والمسـتعمرين والمسـتثمرين، ويتغلبـوا على المشاكل بوحدتهم وأخوّتهم) [2]

وقـال: (ليسـمع الجميـع هـذه الحقيقـة، إن أعـداء الإسـلام يسـعون بكـل قـوّتهم لإيجـاد التفرقـة والاختلاف بين المجتمعـات الإسلامية ويسعون بأي وسـيلة وتحت أي عنـوان لإيجـاد النزاعـات بين المسلمين، والتي بتحقيقها تتهيّـأ الأرضـية الصـالحة لتسـلّطهم الكامل من جديـد على جميـع الـدول الإسـلامية، ويسـاعدهم على ذلك هجومهم لنهب الثروات، ومن هـذه الجهـة يجب الاحـتراز عن أي عمل يؤدي إلى التفرقة وهذا تكليف شرعي وإلهي) [3]

وبنــاء على هــذا أسســت في إيــران الكليــات الــتي تــدرس المذاهب الإسلامية المختلفة، ومن يزور مكتباتها وجامعاتها يتعجب من ذلك التنوع المعرفي الموجود فيها، والذي لا نجده للأسـف في مكتبات المدارس السنية.

ومن مظــاهر الانفتــاح الحضــاري لــدى قــادة الجمهوريــة الإسـلامية الإيرانيـة الانفتـاح على العـالم، وعلى جميـع الشـعوب، ولعل أكـبر من يمثـل ذلـك الانفتـاح الخميـني الـذي اسـتبدل ذلـك الطرح الذي يقسم الإسلاميون على أساسه البشـر إلى مسـلمين

1() المرجع السابق، ص30.

2() المرجع السابق، ص31.

3() المرجع السابق، ص31.

وكفار، ويعتقدون أن الصراع قائم بين الإسلام والكفر، بتقسيم جديد، استمده من القرآن الكريم، وهو المستكبرون والمستضعفون.. ففي المستكبرين مسلمون وغير المسلمين.. وفي المستضعفين كذلك.

يقول الخميني في وصيته: (أوصى وزراء الخارجية في مجال السياسة الخارجية الهادفة لحفظ الاستقلال ومصالح البلاد وإقامة العلاقات الحسنة مع الدول التي ليس في نيّتها التدخل في شؤوننا الداخلية، حاذروا وبكل حزم من أي أمرٍ تشوبه شائبة التبعيّة بكل أبعادها، ولتعلموا بأنّ التبعيّة في بعض الأمور يعرِّض البلاد ــ رغم ظاهرها الخداع أو ما تحققه من منافع مؤقتة ـ إلى كارثة مدمرة.. اسعوا لتحسين علاقاتكم مع الدول الإسلامية وإيقاظ قادتها وكونوا دعاة للوحدة والاتحاد فالله معكم.. ليبادر العلماء الأعلام، والخطباء الموقرون في الدول الإسلامية إلى دعوة الحكومات لتحرير أنفسها من التبعيّة للقوى الأجنبية الكبرى، وليتفقوا مع شعوبهم فإنهم إذا فعلوا عانقوا النصر لا محالة، عليهم أيضاً أن يدعوا الشعوب إلى الوحدة ونبذ العنصرية المخافة لتعاليم الإسلام، ومد يد الاخوة إلى إخوانهم في الإيمان في أي بلد كانوا ومن أي عنصر فإن الإسلام يعدّ الجميع اخوة، ولو أن هذه الاخوة تحققت يوماً ما بهمة الحكومات والشعوب وبتأييد الله العلي، فسيظهر للعيان كيف أن المسلمين يشكلون أكبر قوة في العالم)[1]

وهكذا نرى الخامنئي يسير على نفس الدرب في تقسيم العالم، يقول في ذلك: (إنكم لو نظرتم الآن إلى المشهد الجغرافي لهذا العالم في تقسيماته وممارساته السياسية، لوجدتم على ماذا يستند أولئك الذين يتصوَّرون امتلاكهم لكل شيء على هذه الأرض، والذين ينظرون باحتقار لكل الشعوب ويسيطرون ظلماً وعدواناً على المصادر البشرية والمادية، وهم قوى الاستكبار، فعلى ماذا يعتمد هؤلاء؟ إن أهم ما يعوّلون عليه هو

---

[1] الوصية الإلهية السياسية، ص27.

الإيحاء للشعوب بأن قوتهم قوة لا منازع لها) [1]

وهذا المظهر من مظاهر الانفتاح ليس قاصرا على السياسة وحدها، بل إنه يتجاوزها إلى الانفتاح الثقافي والفكري وفي المجالات المختلفة.

ونحب أن نذكر هنا نموذجا عن ذلك من كلمات قائد الثورة الإسلامية الحالي نفسه، وكيف ينفتح على الثقافات بأنواعها المختلفة، ولعل أكبر دليل على ذلك ترجمته لبعض كتب سيد قطب وثناؤه العريض عليها، ومنها ترجمته لتفسير في ظلال القرآن لسيّد قطب، وكتابه المستقبل لهذا الدين، وغيرها.

وهو يدعو شعبه كل حين إلى مطالعة كل المعارف، والاستفادة منها جميعا، يقول في ذلك: (إنّ الكتاب هو نافذة على العالم الواسع للعلم والمعرفة، والكتاب الجيّد، هو أحد أفضل وسائل الكمال البشري.. فالشخص الّذي ليس لديه ارتباط بهذا العالم الجميل والمحيي، (عالم الكتاب)، هو بلا شكّ محرومٌ من أهمّ النتاجات الإنسانية وأيضاً من أكثر المعارف الإلهية والبشرية. إنّها لخسارة عظيمة للأمّة الّتي لا شأن لأبنائها بالكتاب، وإنّه لتوفيقٌ عظيمٌ للإنسان أن يأنس بالكتاب، وأن يكون في حالة استفادة دائمة منه، فيتعلّم أشياء جديدة)[2]

ويتحدث عن نفسه، وعن مدى تأثير الكتاب فيه، فيقول: (الكتاب الّذي أقرأه يؤثّر في نفسي، أي أنّه ينفذ إلى أعماق وجودي، فجزءٌ من انعكاساته يظهر بالتأثّر، لكن هناك جزءً آخر ناتج عن ارتباطي بالناس، وعن كون قضايا الناس ونبض التحرّك العامّ للمجتمع في يدي، ولست بغافلٍ عن هذه الأمور.. أريد أن أقول لكم: إنّ كتابكم هذا، ومقالتكم هذه، وهذا الفيلم، وهذا الشعر، كلّها مؤثّرة جدّاً. لماذا يشتبه علينا الأمر عند تقييم نتاجاتنا

---

[1] المرجع السابق، ص31.

[2] في رسالة بمناسبة ابتداء أسبوع الكتاب، 25/12/1993م

ونتصوّر أنّ هذا العمل قليل الأثر؟)[1]

وهو يـدعو إلى البحث في تـاريخ كـل الشـعوب، وأخـذ العـبر منهـا، يقـول في ذلـك: (أعـزّائي! بعض منكم مطّلـع على التـاريخ جيّداً. أنا أيضاً مطّلع على التاريخ. لقد قرأت مراراً صـفحات تـاريخ السـنوات السـبعين والثمـانين سـنةً الماضـية ومـا قبلهـا، سـطراً سـطراً. وأنـا ــ العبـد الفقـير ــ لي في بـاب شـبه القـارّة الهنديـة مطالعات مطوّلة، وقد ألّفت كتاباً في هذا المجال أيضاً)[2]

بل إنه يدعو شعبه إلى مطالعـة الكتب الأدب، وكتب الروايـة، ويذكر عن نفسه مدى اهتمامه بها، يقـول في ذلـك: (ليس لي في مقولات السينما والفنون التصويرية وأمثالها مثل هذه الخبرة، هنـا أكون مستمعاً عاديّاً. لكن في الشعر والرواية، لست إنساناً عاديّـاً، لقد قرأت الكثير من هذه الآثـار الموجـودة. إذا ألقيتم نظـرةً على الأدب الروسي، ستُفاجؤون أنّ هناك سـتاراً موصـولاً من الوسـط، أي أنّ هناك سوراً، وعلى طرفي السور هذا، توجد أعمال عظيمـة مرتبطـــة بـــالطرفين. لكن عنـــدما تنظـــرون مثلاً في أعمـــال شـولوخوف[3] أو ألكسـي تولسـتوي[4] تجـدون لهـا مـذاقاً آخـر.. ألكسي تولستوي هذا، كاتب قويّ جدّاً، وله روايات كثيرة، وهو من كتّاب الثورة الروسية، وتجدون مـذاق العهـد الجديـد في كتاباتـه.. بينما ترون في كتاب [الحرب والسلم] لتولستوي[5] الآثار القوميـة الروسية، لكنّكم لا ترون آثـار فـترة السـتين سـنةً الأخـيرة، فتلـك

1() في لقاء له بأعضاء مجمّع الكتّاب المسلمين، 29/6/1992م.

2() في لقاء له مع المثقّفين والفنّانين، 23/7/2001م.

3() ميخائيل ألكساندر وفيتش شولوخوف (1905 -1984).

4() ألكسي نيكولا يفيتش تولوستوي (1883-1945).

5() ليو نيكولاو تولوستوي (1828 - 1910).

حقبة أخرى وآثار أخرى ومرتبطة أساساً بمكان آخر)[1]

وهو يـذكر عن نفسـه مطالعاتـه الكثـيرة في المجـال الأدبي، فيقول: (نتيجة كثرة اشتغالي بالروايات المتنوّعـة، يمكن أن أبـدي رأيي. لعلّني قرأت على امتداد هـذه السـنوات الثلاثين أو الأربعين من عمـري، الّـتي اهتممت فيهـا بـالكتب الروائيـة، آلاف القصـص لأهمّ الكتّاب في العالم.. إنّ أفضل القصص هي الّتي يتكامل فيهـا المضمون هي تلك القصص المحقّقة لكـلّ هـذه الشـروط، ولكنّهـا غير مباشرة، أمّا لـو سـلّطتم الضـوء في القصّـة على مسـألة مـا، وعُلم كيف ستتّجه القصّة فيما بعد، فالقصّة عندها سـوف تفشـل)[2]

وهو ـ مثلما ذكرنا عن ابن المقفع والغزالي ـ يدعو إلى غربلة ما يـترجم من كتب الآخـر، أو يصـاغ صـياغة جديـدة تحفـظ الـدين والأخلاق، ومن الأمثلـة على ذلـك مـا ذكـره عن نفسـه، فقـال: (جاءني يوماً أحد المترجمين المشهورين والمحمودين، والّـذي في الواقع ليس لدينا أيّ مشكلة معه، فهو شخص محـترم ولائـق، مـع جماعة من الناس. وكنت قد قرأت الرواية الّتي ترجمهـا والمؤلّفـة من أربعة مجلّدات.. الظاهر أنّه تعجّب من كوني قـد قـرأت روايـةً مؤلّفـةً من أربعـة مجلّـدات، تُـرجمت عن اللغـة الفرنسـية، كـانت هناك مسألتان سيّئتان في ذلـك الكتـاب. الأولى، أنّ المجلّـد الأوّل كان يحتوي على مشاهد شهوانية لحبّ عبثي، قـد فُصّـلت تفصـيلاً دقيقاً من قبل الكاتب، من دون أن تكون الأحداث الرئيسة للرواية بحاجة إليها، وكان يمكن للمترجم أن يحذف الكثير منها، فالمترجم لم يتعهّد بذكر كلّ مطلب كتبه المؤلّف بعينه، ويمكنه أن يقول إنّنا حذفنا هنا عشر صفحات أو خمسة أسطر لكونها غـير مناسـبة، فلا مـانع من ذلـك.. المسـألة الثانيـة، كـانت حـواراً بين كـاهن يـؤمن بالـدِّين وبين شـخص ملحـد، بحيث يسـعى كـلّ طـرف من خلال الاستدلال إلى فـرض رأيـه على الآخـر أو عرضـه عليـه. ويطـول

---

[1] في لقاء له بجمع من الفنّانين، 25/11/1991م.

[2] في لقاء له بالمدراء والمنتجين في المسلسل التلفزيوني "شاهد"، 3/1/1994م.

الكلام أيضاَ، لكن في النهاية ينتصر هذا الملحد! قلت لـه: إنّ هـذه ليست حقيقة، المسـألة. أنت نفسـك لا تعتقـد أنّ الإلحـاد صـحيح، فما الداعي لك لأن تنصر هذا الملحد؟ ذلك الفصل الأخير الّذي هو كلام الملحد، عبارة عن صـفحة واحـدة، لـو كنت حذفتـه، فلا ضـير في ذلك)[1]

وبناء على هذا نرى كيف تقـوم وزارة الإعلام في الجمهوريـة الإسلامية الإيرانية في التعامل مـع الأفلام الأجنبيـة الـتي خصصـت بعض المحطات لها، إرضاء لبعض شعبها، فهي لم تتركها كمـا هي، وإنما تقوم بحذف كل المشاهد المنافية للأخلاق والقيم الدينية.

والخـامنئي من خلال مطالعاتــه الكثـيرة يشـير كثـيرا على الإعلاميين والفنانين بما يحتاجه الواقع الإيراني من إبداعات فنيــة، ومن الأمثلــة على ذلــك قولــه: (قبــل عــدّة سـنوات قلت لبعض الأصدقاء، لماذا لا تنتجون أفلامـاً عن معـوّقي الحـرب؟.. كنتُ قـد قرأتُ كتاباً أُلّف عن جريح معوّق روسي، وسمعتُ بعدها أنّ فيلمـاً أُنتج عن ذلـك الكتـاب.. لقـد طبـع الـروس أنفسـهم هـذا الكتـاب ووزّعوه. وكان هذا أيضاً من كتبهم الدعائية. وقـع هـذا الكتـاب بين يديّ في بدايات الثورة، واسمه [قصّة إنسان واقعيّـة] تحكي قصّـة طيّار تسقط طائرته فتُقطع رجله. رأيت أنّ كلّ طيّار أو كلّ جـريح قُطعت رجله أو فقـد بصـره، لـو قـرأ هـذا الكتـاب، سـوف يشـعر بالاطمئنــان والرّضــا. ونحن الّــذين لــدينا كــلّ هــؤلاء الجــرحى المعوّقين، لمـاذا لا نكتب مثـل هكـذا كتـاب؟ ولا ننتج هكـذا فيلم؟ فهذا من نقائصنا)[2]

والخامنئي مـع عدائـه الشـديد لأمريكـا، واعتبارهـا الشـيطان الأكبر إلا أنه لا يمنع من مطالعة إنتاجها العلمي أو الثقافي، بل هـو يدعو إلى ذلك، ويذكر عن نفسه أنه يفعل ذلك، ومن الأمثلــة على

[1] في لقاء له بالقيّمين على إحياء أسبوع الكتاب، 22/10/2006م.

[2] في لقاء له بوزير الثقافة والإرشاد الإسلامي ومسؤولي الوزارة، 25/11/1992م.

ذلك قوله: (إذا تسنّت لكم الفرصة لقراءة بعض الكتب الّتي كُتبت عن الوضــع الاجتمــاعي في أمريكــا، ســوف تلتفتــون إلى هــذه المسألة.. لقد قرأتُ كتباً عديدة في هذا المجــال، لا أعلم إن كنتم قـد قرأتموهـا أيضـاً أم لا.. على سـبيل المثـال، قـرأتُ في مجـال القضــايا الانتخابيــة، كتابــاً للكــاتب الأمــريكي هــاورد فاست[1]، المعروف نسبياً بميوله اليسارية. ولهذا الكاتب كتبٌ أخـرى أيضـاً.. بالطبع هو كاتب روائي. كتابه يتناول سيرة طفل تهاجر عائلتـه في بدايات القـرن العشـرين من إحـدى الـدول الأوروبيـة إلى أمريكـا. ويولد هذا الطفـل في أمريكـا، حيث يصـبح مواطنـاً أمريكيـاً وفـق القوانين. بعـدها، يصـبح محاميـاً، ومن ثمّ يترشّـح للانتخابـات. لقـد فُصّل في ذلك الكتاب الوضـع الانتخـابي في أمريكـا. التفتـوا، هـذا الأمر مرتبط بأوائل ذاك القرن، بالعشرينات والثلاثينات، بعد ذلـك، ساء الوضع بدرجات، وذلك باعتراف كـلّ من لديـه خـبرة في هـذا المجــال وكتب حــول هــذا الموضــوع.. في الواقــع، إنّ من يعيّن المرشّحين هو المال والقوّة الدعائية للشركات الكبرى المسيطرة على أمور البلد كافّة)[2]

هــذه نمــاذج عن مــدى انفتــاح الإيرانــيين على العــالم، وهي نمـاذج كافيـة، وتمثـل الإسـلام الأصـيل في مقابـل أولئـك الـذين ينغلقـون على أنفسـهم انغلاقـا تامـا، أو أولئـك الـذين يـذوبون في الآخر، ويتخلون عن شخصيتهم في سبيل ذلك.

ثانيا ـ إيران.. والإبداع الحضاري:

عرفنا في الفصول السابقة الكثـير من مظـاهر الإبـداع الـذي قــام بــه الإيرانيــون في التعامــل مــع العلــوم الإســلامية ابتكــارا وتطويرا، وهو مظهر من مظاهر الحضارة التي يسرت للمســلمين التعامل مع مصادرهم وعقائدهم وشرائعهم، وذلـك عـبر العـروض المختلفة لها، والبراهين الكثيرة الدالة عليها.

1() هاورد فاوست (1914 ـ 2000).

2() في لقاء له بجمع من المنظّمات الطلابية في جامعات البلاد، 5/12/1996م.

وقد أشار إلى هذه الناحية كل من أرخ للعلوم العربية والإسلامية في القديم والحديث؛ وكلهم يذكر ما قاله ابن خلدون في تفسير ذلك، حيث قال في مقدمته في فصل بعنوان [فصل في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم]: (من الغريب الواقع أنّ حملة العلم في الملّة الإسلاميّة أكثرهم العجم لا من العلوم الشّرعيّة ولا من العلوم العقليّة إلّا في القليل النّادر، وإن كان منهم العربيّ في نسبته فهو أعجميّ في لغته ومرباه ومشيخته مع أنّ الملّة عربيّة وصاحب شريعتها عربيّ)[1]

ثم حاول أن يعتمد على نظريته في الحضارة لبيان سبب ذلك؛ فقال: (والسّبب في ذلك أنّ الملّة في أوّلها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السّذاجة والبداوة، وإنّما أحكام الشّريعة الّتي هي أوامر الله ونواهيه كان الرّجال ينقلونها في صدورهم، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسّنّة بما تلقّوه من صاحب الشّرع وأصحابه. والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التّعليم والتّأليف والتّدوين ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة. وجرى الأمر على ذلك زمن الصّحابة والتّابعين وكانوا يسمّون المختصّين بحمل ذلك. ونقله إلى القرّاء أي الّذين يقرؤون الكتاب وليسوا أمّيّين لأنّ الأمّيّة يومئذ صفة عامّة في الصّحابة بما كانوا عربا فقيل لحملة القرآن يومئذ قرّاء إشارة إلى هذا. فهم قرّاء لكتاب الله والسّنّة المأثورة عن الله لأنّهم لم يعرفوا الأحكام الشّرعيّة إلّا منه ومن الحديث الّذي هو في غالب موارده تفسير له وشرح)[2]

وهكذا بعد انتهاء العصر الأول، ودخول الكثير من أهل البلاد المفتوحة إلى الإسلام، بدأ الدور لهم في التعامل مع تلك الروايات جمعا وتصنيفا وتحليلا وتحقيقا، يقول ابن خلدون: (فلمّا بعد النّقل من لدن دولة الرّشيد فما بعد احتيج إلى وضع التّفاسير القرآنيّة وتقييد الحديث مخافة ضياعه، ثمّ احتيج إلى معرفة الأسانيد

1() المقدمة، ابن خلدون، ص 747 ..

2() المرجع السابق، ص747.

وتعديل النّاقلين للتّمييز بين الصّحيح من الأسانيد وما دونه ثمّ كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسّنّة وفسد مع ذلك اللّسان فاحتيج إلى وضع القوانين النّحويّة وصارت العلوم الشّرعيّة كلّها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتّنظير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى وهي الوسائل لها من معرفة قوانين العربيّة وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذّبّ عن العقائد الإيمانيّة بالأدلّة لكثرة البدع والإلحاد فصارت هذه العلوم كلّها علوما ذات ملكات محتاجة إلى التّعليم فاندرجت في جملة الصّنائع، وقد كنّا قدّمنا أنّ الصّنائع من منتحل الحضر وأنّ العرب أبعد النّاس عنها فصارت العلوم لذلك حضريّة وبعد عنها العرب وعن سوقها)[1]

ثم فسر مراده من العجم، وكون الإيرانيين أول المرادين باعتبار أنهم أول الشعوب غير العربية تحضرا دخلت في الإسلام، فقال: (والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الّذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصّنائع والحرف لأنّهم أقوم على ذلك للحضارة الرّاسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النّحو سيبويه والفارسيّ من بعده والزّجّاج من بعدهما وكلّهم عجم في أنسابهم. وإنّما ربّوا في اللّسان العربيّ فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيّروه قوانين وفنّا لمن بعدهم، وكذا حملة الحديث الّذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللّغة والمربى لاتّساع الفنّ بالعراق، وكان علماء أصول الفقه كلّهم عجما كما يعرف، وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسّرين، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلّا الأعاجم. وظهر مصداق قوله ﷺ: (لو تعلّق العلم بأكناف السّماء لناله قوم من أهل فارس)[2]

ومع احترامنا لرأي ابن خلدون، ولكنا لا نتفق معه فيه،

1() المرجع السابق، ص748.

2() المرجع السابق، ص748.

فـالعرب كغـيرهم من الأجنـاس كـان يمكنهم بـالتعلم ومخالطـة المتحضـرين أن تتحقـق فيهم القـدرة على مـا ذكـره من صـناعة، وكان يمكن أن يبدعوا في ذلك لو أرادوا، وكمـا حصـل مـع الكثـير منهم، ولكن السبب الحقيقي في ذلـك هـو مـا ذكـره من الحـديث الشريف، وهو صدق الفرس في إسـلامهم، صـدقا جعلهم ينـذرون كل حياتهم له.

وأما العرب، فهم مع صدق إسلامهم إلا أن الدنيا التي حذرهم منها رسول الله ﷺ اجتذبتهم، أو كمـا عـبر ابن خلـدون نفسـه عن ذلك؛ فقال: (وأمّـا العـرب الّـذين أدركـوا هـذه الحضـارة وسـوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشـغلتهم الرّئاسـة في الدّولـة العبّاسـيّة وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيـام بـالعلم، والنظـر فيـه، فإنّهم كانوا أهل الدّولـة وحاميتهـا وأولي سياسـتها مـع مـا يلحقهم من الأنفـة عن انتحـال العلم حينئـذ بمـا صـار من جملـة الصّـنائع. والرّؤساء أبدا يستنكفون عن الصّنائع والمهن وما يجرّ إليها ودفعوا ذلك إلى من قام بـه من العجم والمولّـدين. ومـا زالـوا يـرون لهم حـقّ القيـام بـه فإنّـه دينهم وعلـومهم ولا يحتقـرون حملتهـا كـلّ الاحتقار. حتّى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشّرعيّة غريبة النّسبة عنـد أهـل الملـك بمـا هم عليـه من البعــد عن نســبتها وأمتهن حملتهــا بمــا يــرون أنّهم بعــداء عنهم مشتغلين بما لا يغني ولا يجـدي عنهم في الملـك والسّياسـة كمـا ذكرناه في نقل المراتب الدّينيّة. فهـذا الّـذي قرّرنـاه هـو السّـبب في أنّ حملة الشّريعة أو عامّتهم من العجم)[1]

وهكذا الأمر مع العلوم والعقلية والكونية، فهي كمــا ينص ابن خلدون كـان النصـيب الأوفـر فيهـا للعجم، يقـول في ذلـك: (وأمّـا العلوم العقليّة أيضـا فلم تظهـر في الملّـة إلّا بعـد أن تميّـز حملـة العلم ومؤلّفــوه، واســتقرّ العلم كلّــه صــناعة فاختصّــت بــالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها إلّا المعرّبون من العجم شـأن الصّـنائع كمـا قلنـاه أوّلا. فلم يـزل ذلـك في الأمصـار الإســلاميّة مــا دامت الحضــارة في العجم وبلادهم من العــراق

[1] المرجع السابق، ص749.

وخراسان وما وراء النّهر. فلمّا خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة الّتي هي سرّ الله في حصول العلم والصّنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختصّ العلم بالأمصار الموفورة الحضارة. ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أمّ العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصّنائع. وبقي بعض الحضارة في ما وراء النّهر لما هناك من الحضارة بالدّولة الّتي فيها فلهم بذلك حصّة من العلوم والصّنائع لا تنكر. وقد دلّنا على ذلك كلام بعض علمائهم من تآليف وصلت إلينا إلى هذه البلاد وهو سعد الدّين التّفتازانيّ. وأمّا غيره من العجم فلم نر لهم من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدّين الطّوسيّ كلاما يعوّل على نهايته في الإصابة) [1]

بناء على هذا التصريح من ابن خلدون، ومثله الكثير من الباحثين في تاريخ العلوم، نحاول في هذا المبحث التعرف على بعض أدوار الإيرانيين وإبداعاتهم في مجالات المعرفة المختلفة، وخصوصا العقلية والكونية واللغوية والأدبية، وذلك من خلال العناوين التالية:

1 ـ الإيرانيون والإبداع في العلوم اللغوية والأدبية:

من أكبر الأدلة على نفي ما يذكره المغرضون عن إيران وحقدها على العربية اهتمام الإيرانيين منذ دخلوا الإسلام باللغة العربية، وكتابتهم بها، واعتمادهم في كتابة الفارسية على الحرف العربي، على الرغم من كونهم كانوا ذوي حضارة قديمة، وكان لهم خطهم الخاص، وفوق ذلك كله خدماتهم الكثيرة التي قدموها لعلوم اللغة العربية، حتى أنهم كانوا المؤسسين لأكثرها.

فأكبر علماء النحو وإمامهم، وأول من بسط علم النحو، ووضع دستوره الذي لا نزال نستعمله في مدارسنا وجامعاتنا **أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بسيبويه** [2] (148

1() المرجع السابق، ص749.

2() ابن خلكان 1: 385 والشريشي 2: 17 والبداية والنهاية 10: 176.

هـ - 180 هـ)، وهو من أسرة فارسية، ولد بقرية البيضاء بشـيراز، وبها قبره، وهو صاحب أشهر كتاب في النحو [الكتاب]

وقد اعترف بفضله على علم النحو كل من أرخ له، قـال عنـه ابن عائشة: (كنا نجلس مـع سـيبويه النحـوي في المسـجد، وكـان شابًا جميلاً نظيفًا، قد تعلق من كـل علم بسـببٍ، وضـرب في كـل أدب بسهمٍ، مع حداثة سِنِّه وبراعته في النحو)[1]

وقـال الـذهبي: (إمـام النحـو، حجـة العـرب، الفارسـي، ثم البصري. قـد طلب الفقـه والحـديث مـدة، ثم أقبـل على العربيـة، فبرع وساد أهـل العصـر، وألـف فيهـا كتابـه الكبـير الـذي لا يـدرك شأوه فيه. قيل فيه مع فرط ذكائه حبسة في عبارته، وانطلاق في قلمه)[2]

وقال المبرد: (لم يُعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتـاب سيبويه؛ وذلك أن الكتب المصنَّفة في العلوم مضطرة إلى غيرهـا، وكتاب سيبويه لا يحتاج مَنْ فَهِمَه إلى غيره)[3]

وقـال الجاحـظ في كتابـه: (لم يكتب النـاس في النحـو كتابـا مثله وجميع كتب الناس عليه عيال)[4]

وقـال صـاعد الأندلسـي: (لا أعـرف كتابًـا أُلِّف في علم من العلوم قـديمها وحـديثها فاشـتمل على جميـع ذلـك العلم، وأحـاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثـة كتب، أحـدها: المجسـطي لبطليمـوس في علم هيئــة الأفلاك، والثــاني: كتــاب أرســطوطاليس في علم المنطق، والثالث: كتاب سيبويه النحوي؛ فـإن كـل واحـد من هـذه

1() المنتظم في تاريخ الملوك والامم، ابن الجوزي، ج 9، ص 54..

2() سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 8، ص 351..

3() خزانة الأدب، البغدادي، ج 1، ص 358..

4() مسالك الابصار في ممالك الامصار، ابن فضل الله العمري، ج 7، ص 86.

لم يشذّ عنه من أصول فنِّه شيء إلا ما لا خطر له)[1]

ومنهم **أَبُو عَلِي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارِسي**[2] (288 ـ 377 هـ)، أحد أئمة العربية، ولد في فسا، وهي مدينة من المدن الإيرانية[3]، وقد ترك تراثاً حافلاً في علوم اللغة وآدابها، منها: التذكرة في علوم العربية، (في عشرين مجلداً)، وتعاليق سيبويه (جزآن)، والشعر، والحجة (في عِلل القراءات)، وجواهر النحو، والإغفال في ما أغفله الزجاج من المعاني، والمقصور والممدود، والعوامل (في النحو).

وسئل في حلب وشيراز وبغداد والبصرة أسئلة كثيرة فصنف في أسئلة كل بلد كتاباً، منها (المسائل الشيرازية)، و(المسائل البصريات)، و(الحلبيات)، و(البغداديات)

وقد اعترف بفضله على اللغة العربية كل من ترجم له، قال عنه السيوطي: (واحد زمانه في عِلم العربية... وقال كثير من تلامذته: إنَّه أعلمُ من المبرِّد)[4]

وقال ابن خلكان: (كان إمامَ وقته في عِلم النحو... وجرَتْ بينه وبين أبي الطيب المتنبي مجالس، ثم انتقل إلى بلاد فارس، وصحِبَ عضدَ الدولة ابن بويه، وتقدَّم عنده، وعلتْ منزلته، حتى قال عضد الدولة: أنا غلام أبي علي الفسوي في النحو)[5]

1() المدارس النحويه، شوقي ضيف، ج 1، ص 60..

2() الأعلام للزركلي (2/179،ـ 180)، مع الهوامش، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (1/14)، وفيات الأعيان (2/80)

3() تقع في محافظة فارس وهي مركز مقاطعة فسا، وتبعد عن شيراز مركز المحافظة 145 كم.

4() بُغية الوعاة (1/496)

5() وفيات الأعيان (2/80)

وقال محمد بن يعقوب الفيروزأبادي: (الإمام العلاّمة قرأ النحو على أبي إسحاق الزجاج.... وبَرَع في النحو، وانتهتْ إليه رئاستُه، وصَحِب عضدَ الدولة فعظَّمه، وأحسن إليه)[1]

وقال عنه الخطيب البغدادي: (وعَلَتْ منزلتُه في النحو حتى قال قوم من تلامذته هو فوق المبرِّد وأعلم منه، وصنَّف كتبًا عجيبة حسنة لم يُسبق إلى مثلها، واشتهر ذِكْرُه في الآفاق، وبَرَع له غلمان حُذَّاق مثل عثمان بن جني، وعلي بن عيسى الشيرازي، وغيرهما، وخَدَم الملوك، ونفق عليهم، وتقدَّم عند عضد الدولة، فسمعتُ أبِي يقول: سمعت عضدَ الدولة يقول: أنا غلامُ أبي عليٍّ النحوي الفسوي في النحو)[2]

ومنهم **أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الكسائي**[3] (119 -189 هـ)، وهو من أصول إيرانية ودفن في مدينة الري. وكان إماما في اللغة والنحو، بل إنه يعد المؤسس الحقيقي للمدرسة الكوفية في النحو، بالإضافة إلى كونه سابع القراء السبعة.

ومن مؤلفاته: معاني القرآن ومقطوع القرآن وموصوله، وكتاب في القراءات، وكتاب النوادر الكبير، وكتاب النوادر الأصغر، ومختصر في النحو، وكتاب اختلاف العدد، وكتاب قصص الأنبياء، وكتاب الحروف، وكتاب العدد، وكتاب القراءات، وكتاب المصادر، وكتاب الهجاء وغيرها.

ومنهم **أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري**[4] (213 ـ 276 هـ)، وهو من مدينة الدينور الإيرانية القريبة من همذان، وكان بها في عهده كثير من العلماء والفقهاء

1() البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (1/13)

2() تاريخ بغداد (7/275)

3() غاية النهاية 1: 535 وابن خلكان 1: 330 وتاريخ بغداد 11: 403 ونزهة الالبا 81، 94 وطبقات النحويين 138.

والمحدثين، الذين درس على أيديهم.

ومن مؤلفاته: تفسير غريب القرآن، وغريب الحديث، وعيون الأخبار، وتأويل مشكل القرآن، وتأويل مختلف الحديث، وأدب الكاتب، والاختلاف في اللفظ، والمعارف، وإصلاح الغلط (وهو إصلاح غلط أبي عبيد)، والمعاني الكبير، والشعر والشعراء، وغيرها كثير.

قال عنه ابن النديم: (كان صادقاً فيما كان يرويه، عالماً باللغة، والنحو، وغريب القرآن ومعانيه، والشعر، والفقه؛ كثير التصنيف والتأليف)[1]

وقال الخطيب البغدادي: (كان ثقة ديِّناً فاضلاً، وهو صاحب التصانيف المشهورة)[2]

وقال أبو البركات الأنباري: (كان فاضلاً في اللغة والنحو والشعر؛ متفنّناً في العلوم)[3]

وقال ابن الجوزي: (كان عالماً ثقة ديِّناً فاضلاً، وله التصانيف المشهورة)[4]

ومنهم **أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني**[5] (400 - 471هـ)، مؤسس علم البلاغة، وهو من

4() الولاة والقضاة 485 و 546 وإنباه الرواة 1: 45 ومعجم الأدباء 3: 103.

1() الفهرست (ص 85).

2() تاريخ بغداد (10/170).

3() نزهة الألباء (ص 209).

4() المنتظم (5/102).

5() وفيات الأعيان 1: 298 وطبقات السبكي 3: 238.

مدينة جرجان الإيرانية، ويعتبر المؤرخون لعلم البلاغة أن كتابه [دلائل الإعجاز] هو الكتاب الأول في بيان الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

ومن مؤلفاته: الإيضاح في النحو، والجمل، وإعجاز القرآن، والرسالة الشافية في الإعجاز، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، وقد أورد في كتابيه الأخيرين، معظم آرائه في علوم البلاغة العربية.

ومنهم **محمد بن يعقوب بن محمد مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي**[1] (729 ـ)، وهو صاحب القاموس المحيط، ويعتبر من كبار أئمة اللغة والادب، ولد ببلدة بكارزين بشيراز في إيران حالياً، واشتهر بالفيروز آبادي نسبة إلى [فيروز آباد] وهي مدينة جنوب شيراز كان منها أبوه وجده.

وقد ذاعت شهرة معجمه [القاموس المحيط] حتى كادت كلمة [القاموس] تحل محل [المعجم]، إذ حسب كثير من الناس أنهما لفظان مترادفان، وذلك لكثرة تداول معجمه وانتشاره.

وقد ترك نحو 60 كتاباً في علوم القرآن الكريم والحديث واللغة والنحو وغيرها، ومنها: القاموس المحيط، والقابوس الوسيط، الجامع لما ذهب من كلام العرب شماميط، وتحبير الموشين، في التعبير بالسين والشين، وشرح قصيدة (بانت سعاد) في مجلدين، والروض المسلوف، فيما له اسمان إلى ألوف، والدرر المبثثة، في الغرر المثلثة، والمثلث الكبير. في خمسة مجلدات، وأنواء الغيث، في أسماء الليث، والجليس الأنيس، في أسماء الخندريس، ومقصود ذوي الألباب، في علم الإعراب، وبصائر ذوي التمييز، في لطائف الكتاب العزيز، وتفسير فاتحة الكتاب، والبلغة، في تراجم أئمة النحاة واللغة، ونزهة الأذهان، في تاريخ أصبهان، وشوارق الأسرار العلية، في شرح مشارق الأنوار النبوية، ومنح الباري، بالسيل الفسيح الجاري، في شرح صحيح البخاري، وتسهيل طريق الوصول، إلى الأحاديث

[1] () البدر الطالع 2: 280 والضوء اللامع 10: 79 وبغية الوعاة 117 والعقود اللؤلؤية 2: 264 و 278 و 297.

الزائدة على جامع الأصول، وغيرها كثير.

ومنهم **أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين الرَّازيُّ القزويني، المعروف بالرازي** [1] (941–1004م)، أصله من قزوين، وأقام مدة في همذان، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها، وإليها نسبته.

وقد صنف كتباً كثيرة في اللغة والفقه والسيرة وغيرها، ومنها: كتاب المجمل، ومتخير الألفاظ، وفقه اللغة، وغريب إعراب القرآن، وتفسير أسماء النبي ﷺ، ومقدمة نحو، ودارات العرب، ومقاييس اللغة.

ومن مزايا كتاباته اللغوية ـ كما يذكر المختصون ـ أنه انفرد في معجميه [المجمل]، و[المقاييس] بطريقة خاصة تنسب إليه وحده، فإضافة إلى اتباعه الابجدية العادية انفرد بفكرتي الأصول والمقاييس لجميع مفردات اللغة، وقد تميز بغزارة المادة اللغوية التي ظهرت من خلال تناوله لبعض المسائل اللغوية، وجاءت دراسته شاملة لمستويات اللغة الأربعة: المستوى الصوتي، والصرفي، والنحوي، والدلالي، فضلاً عن الظواهر اللغوية التي تناولها كالنحت والأضداد والترادف والإتباع وغيرها.

ومنهم **أبو القاسم إسماعيل بن عباد القزويني، الطالقاني، الاصفهاني، المعروف بالصاحب بن عباد[2]**، (326 ـ- 385 هـ)، وكان من كبار العلماء والأدباء، بالإضافة لمشاركته في مختلف العلوم كالحكمة والطب والمنطق، وكان محدثاً ثقة، شاعراً مبدعا، وأحد أعيان العصر البويهي. وكان وزيراً، ومن نوادر الوزراء الذين غلب عليهم العلم والأدب.

قال عنه الثعالبي: (ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح

1() ابن خلكان 1:ـ 35 والأنباري 392 واليتيمة 3:ـ 214 وآداب اللغة 2:ـ 309 ومجلة المجمع العلمي 22: 501.

2() معجم الأدباء 2:ـ 273،ـ 343 والمنتظم 7:ـ 179 وإنباه الرواة 1:ـ 201 ومجلة المجمع العلمي العربيّ 19: 73.

عن عُلَوِّ مَحَلَه في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم، هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغُرَّة الزمان، وينبوع العدل والإحسان)

وقال الطريحي: (جمع الصاحب بين الشعر والكتابة، وفاق فيها أقرانه. الصاحب بن عباد عالم، فاضل ماهر، شاعر أديب، محقق متكلم، عظيم الشأن جليل القدر في العلم والأدب والدِّين والدنيا)

من مؤلفاته: المحيط في اللغة، والكشف عن مساوئ المتنبي، وديوان رسائل، وديوان شعر، وعنوان المعارف في التاريخ، وأسماء الله وصفاته، وجوهرة الجمهرة، والإمامة، والإبانة عن الإمامة، والوقف والابتداء، والفصول المهذبة، والشواهد، والقضاء والقدر، وغيرها.

ومنهم **أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأصفهاني**[1] (284 ـ 356 هـ)، من أئمة الأدب، الأعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي.

قال عنه الحموي: (أبو الفرج الأصبهاني العلامة النساب الأخباري الحافظ الجامع بين سعة الرواية والحذق في الدراية: لا أعلم لأحد أحسن من تصانيفه في فنّها وحسن استيعاب ما يتصدّى لجمعه، وكان مع ذلك شاعرا مجيداً)[2]

وقال ابن خلكان: (الأصبهاني صاحب كتاب [الأغاني] هو أصبهاني الأصل بغدادي المنشأ، كان من أعيان أدبائها، وأفراد مصنفيها، وروى عن عالم كثير من العلماء يطول تعدادهم، وكان عالماً بأيام الناس والأنساب والسير)[3]

1() وفيات الأعيان 1: 334 ويتيمة الدهر 2: 278 ومفتاح السعادة 1: 184.

2() معجم الأدباء، الحموي، ج2 ص 52.

3() وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ج 3، ص 307.

وقال التنوخي: (كان أبـو الفـرج يحفـظ من الشـعر والأغـاني والأخبـار والآثـار والأحـاديث المسـندة والنسـب مـا لم أر قـط من يحفظ مثله، ويحفظ دون ذلك من علـوم آخـر منهـا اللغـة والنحـو والخرافات والسير والمغازي، ومن آلة المنادمة شـيئاً كثـيراً، مثـل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجـوم والأشـربة وغـير ذلك، وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان الظرفاء الشعراء)[1]

وقال الذهبي: (صاحب الأغاني العلامـة الأخبـاري أبـو الفـرج، كان بحرا في نقل الآداب، وكان بصيرا بالأنساب وأيام العرب، جيد الشعر، والعجب أنه أموي شيعي!)[2]

قال الخطيب البغدادي: (أبو الفرج الأموي الكـاتب المعـروف بالأصـبهاني: كـان عالمـاً بأيّـام النـاس والأنسـاب والسـيرة، وكـان شاعراً محسناً، والغالب عليه روايـة الأخبـار والآداب، وصـنَّف كتبـاً كثيرة)[3]

وقال ابن خلدون: (وقد ألـف القاضـي أبـو الفـرج الاصـبهاني كتابـه في الاغـاني جمـع فيـه أخبـار العـرب وأشـعارهم وأنسـابهم وأيـامهم ودولهم وجعـل مبنـاه على الغنـاء في المائـة صـوتا الـتي اختارها المغنون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه، ولعمري إنه ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسـن الـتي سـلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغنـاء وسـائر الاحـوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له به)[4]

ومن أهم كتبه وأشهرها [كتاب الأغاني] في 25 مجلـدا، وهـو

1() نشوار المحاضرة، التنوخي، ص 195.

2() سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 16، ص 202 .

3() تاريخ بغداد، الخطيب، ج11 ص 397.

4() تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج 1، ص 554.

يحوي (تاريخ فن الغناء العربي، ما من مغن إلا وأفرد له أبو الفرج حيّزاً يخصه ويتحدث عنه وعن أخباره وفنه متوسعاً في ذلك ما أمكنه، لا يألوا جهداً في هذا المجال، ولا يقصر. وقد حاول أبو الفرج السير على طريقة معاصره في إسناد الأخبار فجاء بسلسلة الرواة الذين أوصلوا الخبر إليه أخيراً، ولم ينس أن يذكر الروايات كلها، وكأنها أراد بذلك أن يوثق كتابه.. ويدرس كتاب الأغاني في كثير من الدول العربية كمصدر من مصادر التراث)

ومن مؤلفاته [مقاتل الطالبيين]، وترجم فيه للشهداء من ذرية أبي طالب منذ عصر رسول الله ﷺ إلى الوقت الذي شرع يؤلف فيه كتابه، وهو جمادى الأول سنة 313 هـ، سواء أكان المترجم له قتيل الحرب أو صريع الحرب أو صريع السم في السلم، وسواء أكان مهلكه في السجن أو في مهربة أثناء تواريه من السلطان، وقد رتب مقاتلهم في السياق الزمني.

ومن مؤلفاته الأخرى: أخبار القيان، وأخبار الطفيليين، وأيام العرب، والإماء الشواعر، وأدب الغرباء، وأدب السماع، والاخبار والنوادر، والفرق والمعيار في الأوغاد والأحرار، والمماليك الشعراء، والغلمان المغنين، والتعديل والانتصاف في اخبار القبائل وانسابها، وغيرها كثير.

هذه نماذج عن كبار اللغويين الذين أنجبتهم إيران، وكانت لهم مساهماتهم الرائدة في علوم اللغة العربية نحوها وصرفها وغريبها وبلاغتها، بحيث يمكن اعتبارهم المؤسسين الرواد لها، أما غيرهم ممن كتب في اللغة، فأكثر من أن نعده أو نحصيه في هذا المحل.

وهذا كله يدل على اهتمام الفرس بالعربية، وأنهم لا يحقدون عليها، ولا يتنكرون لها، كما يذكر المغرضون، بل إنهم ـ كما رأينا ـ يكشفون بلغة علمية من نواحي إعجازها ما لم يكتشفه العرب أنفسهم.

2 ـ الإيرانيون والإبداع في العلوم العقلية:

لا يمكن لأي باحث منصف أن يعزل الدور الذي قام به

الفلاسفة والباحثون الإيرانيون في المجالات العلمية المختلفة، بـل إن الصادق منهم، يعترف بأن فضلهم فيها لا يوازيه أحد؛ فهم رواد الحضارة الإسلامية في هذا الجانب بلا منازع، مثلـه مثـل الجـوانب الأخرى.

وربما يكون سبب ذلك ما ورثوه من حضارة سابقة، كـان لهـا تأثيرهــا فيهم، وهــو تــأثير منهجي لا فكــري، فهم في أفكــارهم مسلمون مؤمنون لا يشكك أحد في ذلك إلا المغرضون.

وقد عبر ابن خلدون عن مدى تمرسهم في الجوانب العقلية، بل إنه ينسب إليهم كل أنواع الفلسفة حتى اليونانيـة منهـا؛ فقـال: (وأما الفرس، فكـان شـأن هـذه العلـوم العقليـة عنـدهم عظيمـاً، ونطاقهـا متسـعاً، لمـا كـانت عليـه دولتهم من الضـخامة واتصـال الملك، ولقد يقال: إن هذه العلـوم، إنمـا وصـلت إلى يونـان منهم، حين قتل الإسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية، فاسـتولى على كتبهم وعلومهم، إلا أن المسلمين لما افتتحوا بلاد فارس، وأصـابوا من كتبهم وصحائف علـومهم، مـا لا يأخـذه الحصـر كتب سـعد بن أبي وقــاص إلى عمــر بن الخطــاب يســتأذنه في شــأنها وتنقيلهــا للمسلمين، فكتب إليه عمـرأن اطرحوهـا في المـاء. فـإن يكن مـا فيها هدًى، فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضـلالاً فقـد كفانـاه الله؛ فطرحوها في الماء أو في النار، وذهبت علـوم الفـرس فيهـا عن أن تصل إلينا)[1]

ولسنا ندري مدى دقة هذه الحادثة الـتي ذكرهـا ابن خلـدون، ولا دقـة كـون أصـل الفلسـفة اليونانيـة من الفـرس، ولكن الـذي ندريه أن أكثر الفلسفات أصالة في الإسلام وقربا منـه كـانت ذات منابع إيرانية.

ومن الأمثلة على ذلك ما يطلق عليه **الفلسفة أو الحكمـة الإشراقية**، وهي الـتي وضـعها **أبو الفتـوح يحـيى بن حبش بن أمـيرك السـهروردي، المشـهور باسـم السـهروردي**

---

[1] تاريخ ابن خلدون (1/ 631)

المقتول[1]، (549 ـ 587 هـ)، وهو فيلسوف إشراقي، شافعي المـذهب، ولـد في سـهرورد الواقعـة شـمال غـربي إيـران، وكـان مقتله بأمر صلاح الدين بعـد أن نسـب البعض إليـه فسـاد المعتقـد ولتوهم صلاح الدين أن السهروردي يفتن ابنه بالكفر والخروج عن الدين، وكل ذلك زور وبهتان، فالرجل مؤمن لا شك في إيمانه، بل إن صوفية المدرسة السـنية أنفسـهم يعتبرونـه من كبـار الأوليـاء، وهم ينشدون في مجامعهم قصيدته المعروفة، والتي يخاطب فيها الله تعالى بقوله:

أَبداً تَحنُّ إِلَيكُمُ	وَوِصالُكُم رَيحانُها
وَقُلوبُ أَهلِ وِدادكم	وَإِلى لَذيذ لقائكم
وَا رَحمةً للعاشِقينَ	ستر المَحبّةِ

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان فقيها شافعيا معتبرا، وكان أكـثر علماء عصره علما بالفلسفة والمنطق والحكمـة، ويسـمي مذهبـه الـذي عـرف بـه [حكمـة الإشـراق]، ومن مؤلفاتـه: رسـائل في اعتقـادات الحكمـاء، وهياكـل النـور، والمشـارع والمطارحـات، ورسالة مختصرة، والأربعون اسـمًا، والأسـماء الإدريسـية، وكتـاب البصر، والتنقيحات في الأصول، والرقيم القدسي،، ورسالة عقل.

ونحب أن نـذكر هنـا أن مـا حصـل لـه من القتـل لا يعـبر عن حقيقة أمره ــ كمـا يـذكر المتطرفـون ــ ذلـك أن القتـل تم لأجـل أسباب شخصية، حاولت أن تلبس لبـاس الـدين، وقـد حصـل مثـل ذلك لعبد الله بن المقفع المؤمن الشهيد الذي قتل ظلما، وحصـل للحلاج وغـيره، بـل إن أبـا حامـد الغـزالي الـذي تتبنـاه المدرسـة السنية، وتعتبره من كبار فقهائها وصوفيتها، اتهم بالكفر، وأحـرقت كتبه، وذلك لا يدل على كونه كما ذكروا.

ومن الفلسـفات الأصـيلة والرائـدة الـتي ولـدت في إيـران **فلسفة الحكمة المتعالية**، والتي وضعها **الملا صـدرا محمـد بن إبـــراهيم القـــوامي الشـــيرازي المعـــروف بصـــدر**

---

[1] () وفيات الأعيان 2: 261 ، وطبقات الأطباء 2: 167 ـ 171 ، والنجوم الزاهرة 6: 114.

المتألهين[1] (980 ـ 1050هـ)، والذي حاول أن يجمع فيها بين الفلسفة والعرفان والقرآن، وكان طرحه ـ كما يذكر المؤرخون له ـ متطورا جدا، وفاق حـدود عصـره ممـا صـعب على معاصـريه أن يقبلوه، فلاقى من معاصريه صنوف المضايقات بسبب ذلك، فكفر ورمي بأبشع التهم، مثلما حصل للكثير من الفلاسفة والصوفية.

قال عنه السيّد محمّد باقر الخونساري في روضـات الجنّـات: (كــان فائقــاً على من تقدّمــه من الحكمــاء البــاذخين، والعلمــاء الراسخين إلى زمن مولانا نصير الـدين الطوسـي، منقّحـاً أسـاس الإشراق والمشّاء بما لا مزيد عليه)

وقال عنه الشيخ محمّد رضا المظفّر: (بالغ في تصـوير آرائـه بــاختلاف العبــارات والتكــرار، حســبما أوتي من مقــدرة بيانيــة، وحسبما يسعه موضوعه من أدائـه بالألفـاظ، وهـو كـاتب موهـوب لعلّه لم نعهد له نظيراً في عصره وفي غير عصـره من أمثالـه من الحكمـاء، وإذا كـان أستاذه الجليـل السـيّد الـداماد يسـمى أمـير البيان، فإنّ تلميذه نـاف عليـه وكـان أكـثر منـه براعـة وتمكّنـاً من البيان السهل)[2]

وقال الشيخ محمّد حسـين الأصـفهاني: (لـو أعلم أحـداً يفهم أسرار كتاب الأسفار لشددت إليه الرحال للتَّلمـذة عليـه وإن كـان في أقصى الديار)

ومن مؤلفاته: الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعـة العقليـة، والذي يعتبر من أهم كتبه، حيث عرض فيـه فلسـفته، وقـد قسـمه إلى أربعة أسفار: السفر من الخلق إلى الحق، والسفر بالحق في الحق، والسفر من الحـق إلى الخلـق بـالحق، والسـفر بـالحق في الخلق.

1() انظر في ترجمته: أبو عبد الله الزنجاني، في مجلة المجمع العلمي العربيّ 9: 661 و 723 ثم 10:ـ 29 وروضـات الجنـات 331 ومعجم المطبوعـات 1174 والذريعـة 2:ـ 39 و 279 وأعيان الشيعة 45: 99.

2() سميح دغيم، موسوعة مصطلحات صدر الدين الشيرازي، ج 1، ص 11..

ومنهـا: الشـواهد الربوبيـة في المنـاهج السـلوكية، وهـو يلي الأسفار من حيث الأهمية، وقد أورد فيها المعلومـات نفسـها الـتي وردت في الأسفار دون أن يناقش نظريات الآخرين من الفلاسفة.

ومنها: المبدأ والمعـاد، وهـو الكتـاب الثـاني من حيث الحجم، ويشـتمل على الإلهيـات والطبيعيـات، ودرس في كيفيـة تكـوين وظهور النفس الناطقـة ومقاماتهـا ونهاياتهـا، وكـذلك يحتـوي على مباحث النبـوات والمنامـات، ويلاحـظ القـارىء النزعـة الإشـراقية واضحة في هـذا الكتـاب، ويقـول سـيد حسـين نصـر في مقدمتـه للكتاب: (كان ملا صدرا متعمداً في إطلاقه هـذا العنـوان على أثـر ضـخم كهـذا ليثبت توجهـه إلى السـابقة التاريخيـة لمبحث المبـدأ والمعـاد. واسـتفاد من العنـوان الـذي كـرره مـراراً حـتى يجعـل القارىء يدرك مدى علاقـة أفكـاره ببنيـة الفكـر الإسـلامي الغنيـة، وذلك، دون التقيد بما ورد لدى غيره من الفلاسفة المشائين)

ومنها: رسالة المشاعر، وتـدور حـول مسـألة أصـالة الوجـود واعتبارية الماهية، وتحتوي على ثمانية مشـاعر في شـرح الوجـود والماهية وكيفية تحققهما.

ومنها: مفاتيح الغيب، وقد ألَّفه عنـدما اكتملت فلسـفته، وهـو كبير الحجم، مـرتَّب على عشـرين مفتاحـاً كـل مفتـاح لـه فـواتح، ويمتاز هذا الكتاب بكونه من الكتب الجوامع، إذ مزج فيه الفلسفة بالعرفــان ومزجهمــا بالكتــاب والحــديث مزجــاً أنيقــاً، ودمج فيــه العناصــر المتقابلــة في ظــاهر الإفهــام وفي الطريقة الماضــية لمكاتب الفلسفة والعرفان والكلام والتفسير والشرح.

ومنها: كسر أصنام الجاهلية، وهو كتـاب صـغير الحجم، انتقـد فيــه الشــيرازي المتصــوفة وآراءهم، وذلــك بغيــة تفــريقهم عن العرفانيين.

ومنها: رسالة في حدوث العالم، وتشتمل على مبحث الحركة وقسم من الجوهر والأعراض والتي فصـلها في (الأسـفار)، وفيهـا أيضاً أثبت حدوث العالم المادي، وجسمانية النفس، وهذه الرسالة كـان كتبهـا قبـل فـترة العزلـة، وقـد أورد بعض الأمثلـة منهـا في

الأسفار.

ومنها: التفسير الكبير، ويشتمل تفسير جملة من السور، وغيرها كثير.

ومن فلاسفة إيران الكبار **الميرداماد، وهو محمد باقر الأسترآبادي**[1] (توفي 1041 هـ)، الملقب بـ [المعلم الثالث]، وكان فقيهاً وفيلسوفاً، وشاعراً باللغة العربية والفارسية، درس مدة طويلة في مدينة مشهد، وكان مشتغلاً بالتحقيق في آثار الفلاسفة سيما ابن سينا، ثم سافر إلى قزوين وأقام مدة بها، ثم سافر إلى كاشان، وبالنهاية إلى أصفهان واهتم بالفلسفة الإسلامية، وأسهم في إحيائها، والتدريس والتأليف في مختلف العلوم.

وقد ترك الكثير من المؤلفات في الفلسفة والحكمة الإشراقية، والكلام، والهندسة، والشريعة والتفسير، والحديث، منها: القبسات، في الحكمة، والصراط المستقيم، والحبل المتين، وخلسة الملكوت، وتقويم الإيمان، والأُفق المبين في الحكمة الإلهية، والرواشح السماوية، والإيماضات والتشريفات في حدوث العالم وقدمه، والجمع والتوفيق بين رأيي الحكيمين في حدوث العالم، ورسالة في حدوث العالم ذاتاً وقدّمه زماناً، واللوامع الربانية في ردّ شبه النصرانية، ورسالة في المنطق، ورسالة في تحقيق مفهوم الوجود، وكتاب السبع الشداد، في فنون من العلوم، ورسالة في فنون العلوم والصناعات، وسدرة المنتهى، ورسالة في خلق الأعمال، ونبراس الضياء في تحقيق معنى البداء، وشرح الاستبصار، في الحديث، ورسالة في الجبر والتفويض، في نفيهما وإثبات الأمر بين الأمرين، ورسالة في إبطال الزمان الموهوم.

وقد أثنى عليه الكثير من العلماء، ومنهم تلميذه الفيلسوف الكبير صدر المتألهين الذي قال عنه في شرح أصول الكافي: (سيدي وسندي، وأستاذي في المعالم الدينية، والعلوم الإلهية،

---

[1] () روضات الجنات 1: 114 ، والذريعة 2: 237 و 261 و 12: 153.

والمعارف الحقيقية، والأصول اليقينية، السيد الأجل الأنور، العـالم المقدّس الأطهـر، الحكيم الإلهي، والفقيـه الربـاني، سـيد عصـره، وصفوة دهره، الأمير الكبير، والبدر المنير، علامة الزمان، أعجوبـة الدوران، السمى بمحمّـد، الملقب ببـاقر الـداماد الحسـيني قـدس الله عقله بالنور الرباني)[1]

وقال عنه الشيخ الحر العاملي في كتابه [أمل الآمل]: (عـالم فاضـل، جليل القـدر، حكيم متكلّم، مـاهر في العقليـات، معاصر لشيخنا البهائي، وكان شاعراً بالفارسية والعربية)[2]

وقال عنه الشيخ أسد الله الكـاظمي: (السـيد الهمـام، وملاذ الأنام، عين الأماثل، عديم المماثل، عمدة الأفاضل، منار الفضائل، بحـر العلم الـذي لا يـدرك سـاحله، وبـر الفضـل الـذي لا تطـوى مراحله، المقتبس من أنواره أنـواع الفنـون، والمسـتفاد من آثـاره أحكام الدين المصون، الفقيه المحدث الأديب الحكيم)[3]

وقـال عنـه الفيلسـوف اليابـاني [توشـي هيكـو ايزوتسـنو]: (محمد باقر الداماد المشهور بالميرداماد واحد من أعلام الفلسـفة الإسلامية في العهد الصـفوي، واشـتهاره بـاللقب الفـاخر ـــ يعـنى المعلم الثـالث ـــ يـدل على شـهرة عظيمـة لـه في الفلسـفة الإسـلامية، شـهرةً لا معـارض لهـا، وهـذا اللقب يحكي عن علـوّ مرتبته في الفلسفة الإسلامية في عصره وبعده)[4]

ومنهم **محمد (أو محمود) بن محمـد الـرازي أبـو عبـد اللــه، قطب الــدين الــرازي، ويعــرف أيضــا بــالقطب**

1() الميرداماد، الرواشح السماوية، ص 7..

2() الحر العاملي، أمل الآمل، ج 2، ص 249..

3() الكاظمي، مقابس الأنوار، ج 1، ص 16..

4() الميرداماد، الرواشح السماوية، ص 10..

التحتاني[5] (694 ـ 766 هـ) هو عالم بالحكمة والمنطق، من أهل الري، ومن كتبه: (المحاكمات) في المنطق، حاول أن يوفق فيه بين آراء الفخر الرازي والنصير الطوسي على كتاب (الإشارات) لابن سينا، و(تحرير القواعد المنطقية في شرح الشمسية)، وتعرف بالرسالة القطبية، و(لوامع الاسرار في شرح مطالع الأنوار) في المنطق، وهو شرح لكتاب (مطالع الأنوار) للأرموي، ورسالة في (الكليات وتحقيقها)، و(تحقيق معنى التصور والتصديق)

بالإضافة إلى هؤلاء وغيرهم، نرى أن أكثر المساجلات الفلاسفية حصلت في إيران، ومن أمثالها كتاب [تهافت الفلاسفة] للغزالي، والذي كان له تأثيره الكبير في مسيرة الفلسفة في العالم الإسلامي.

أما المتأخرون، وخاصة المعاصرون، فقد ظهر الكثير من كبار الفلاسفة، أصحاب الفلسفة الأصيلة التي تحاول عرض القرآن الكريم بطريقة عقلانية منسجمة مع الرؤى المختلفة، ومن أشهرهم مرتضى مطهري الفقيه والفيلسوف والمفكر الكبير، والذي يُعد من أبرز المتصدين للفلسفات المادية.

ومنهم **عبد الله الجوادي الآملي** (1932 -..) الفيلسوف المعاصر الكبير، مؤسس مؤسسة الإسراء للبحوث في مدينة قم الإيرانية، وهو من أشهر المفسرين والفلاسفة في الوقت الراهن.

ومنهم **الشيخ تقي مصباح اليزدي** (1934 -..) الفيلسوف والعالم الكبير، ومؤسس مؤسسة الإمام الخميني للتعليم والبحث العلمي، وعضو مجلس خبراء القيادة في إيران.

وغيرهم كثير، ذلك أن الكثير ممن مارس الفلسفة مارس معها العلوم الشرعية، فصار أكثر نسبة إليها من نسبته للفلسفة.

3 ـ الإيرانيون والإبداع في العلوم الكونية:

5() القلائد الجوهرية 239 ومفتاح السعادة 1: 246 وشذرات الذهب 6: 207 وطبقات الشافعية 6: 31 و 275 , 272 ,.

من أهم المجــالات الــتي بــرز فيهــا الإيرانيــون في مختلــف فــترات تــاريخهم مــا يطلــق عليــه [العلــوم الكونيــة]، أو [العلــوم المحضة]؛ ولهذا نجـد في الكتب المؤرخـة للحضـارة الإسـلامية أن أكبر الشخصيات، وأكثر المنجزات، كانت إيرانية.

ومن الأمثلة على ذلك **أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا الــرازي**[1] (251 -ـ 313 هــ)، العــالم في الرياضــيات والطب والفلسفة والفلك والكيمياء والمنطق والأدب، وهو مخـترع تقطـير الكحــول واســتخدامه في الطب، وهــو أول من ابتكــر خيــوط الجراحة، وصنع المراهم، ولـه مؤلفـات في الصـيدلة سـاهمت في تقدم علم العقاقير.

وقد وصفته [سيغريد هونكه] في كتابها [شـمس اللـه تسـطع على الغـرب] بقولـه: (أعظم أطبـاء الإنسـانية على الإطلاق، حيث ألف كتاب الحاوي في الطب، الذي كان يضم كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق حتى عام 925م وظل المرجـع الطـبي الرئيسـي في أوروبا لمدة 400 عام بعد ذلك التاريخ)[2]

وقد عمل رئيسا لمستشفى الـري، ولـه الكثـير من الرسـائل في شتى مجالات الأمراض، وكتب في كل فروع الطب والمعرفــة في ذلك العصر، وقد تـرجم بعضـها إلى اللاتينيـة، وكـان يعتـبر من المراجع الرئيسية في الطب حتى القرن السابع عشر.

وله 200 كتـاب ومقـال في مختلـف جـوانب العلـوم، ومنهـا: تاريخ الطب، وكتاب المنصور في الطب، وكتاب الأدويـة المفـردة، الذي يتضمن الوصف الدقيق لتشريح أعضاء الجسم.

ومن أهم كتبه كتاب الحاوي في الطب، الذي يعتـبر من أكـثر كتبه أهمية وقد وصفه بموسـوعة عظيمـة في الطب تحتـوي على ملخصات كثيرة من مـؤلفين إغريـق وهنـود إضـافة إلى ملاحظاتـه الدقيقة وتجاربه الخاصة، وقد ترجم الحاوي كتبه من اللغة العربيـة

1() ابن النديم 1: 299 وطبقات الأطباء 1: 309 - 321 ونكت الهميان 249.

2() شمس الله تشرق على الغرب، سيغريد هونكه، ص243.

إلى اللغة اللاتينية وطبع لأول مرة في بريشـيا في شـمال إيطاليـا عام 1486 وقد أعيد طبعه مرارا في البندقية في القرن السادس عشر الميلادي.

ونحب أن نشير هنا إلى أنه بسبب إسهاماته العلمية الكثيرة تعرض لما تعرض له من ذكرنا من الفلاسفة إلى التكفير، ونسبوا إليه كتبا ومقالات، وكلها مدسوسة عليه، ولم يصلنا شيء منها، بل ما وصل إلينا يدل على كونه مؤمنا مسلما كسائر الفلاسفة والأطباء وغيرهم.

قال الباحث المعاصـر المختص بكتبـه د. عبـد اللطيـف العبـد عنه في رسالته للدكتوراه الموسومة [فلسـفة أبي بكـر الـرازي]: (المؤلفـات المنسـوبة لأبي بكـر الـرازي وآرائـه الفلسـفية والـتي تطعن بالدين والأنبياء، في الحقيقة لم يصل شيء منها إنما أخذت من مخطوطة منسوبه لأبي حاتم الـرازي (وهـو فيلسـوف ومتكلم إسماعيلي) اسمه (أعلام النبوة) وضع فيها مقتطفات من مؤلفات لملحد مجهول زعم البعض أنه أبو بكر الرازي، الصفحة الأولى من هذه المخطوطة مفقودة، فلا يعرف اسم الشخص، والذي كان يرد عليه أبو حـاتم.. كمـا أن لأبي بكـر الـرازي كتابـا اسـمه [إن للعبـد خالقا] وآخر اسمه [أسرار التنزيل في التوحيد])[1]

ومنهم **أبو الحسين عبـد الـرحمن بن عمـر بن سـهل الصوفي الرازي** (291 ـ 376 هـ)، وكان عالم فلـك كبـير، وقـد اعتبره المؤرخ جورج سارطون من أعظم فلكـيي الإسـلام، وكـان صديقاً للخليفة البويهي عضد الدولة الذي اتخذه فلكيـاً ومعلمـاً لـه لمعرفـة مواضـع النجـوم والكـواكب المختلفـة وحركـة الأجـرام الفلكية، وقد قـام عضـد الدولـة ببنـاء مرصـد خـاص للصـوفي في شيراز مما ساعده في القيام بإنجازاته الفلكية.

ومن إسهاماته في علم الفلـك: رَصَـدَ النجـوم، وعـدَّها وحـدد أبعادها عرضاً وطولاً في السـماء، ولاحـظ نجومـاً لم يسـبقه إليهـا

1() د.عبد اللطيف محمـد العبـد، تحقيقـه لكتـاب، أخلاق الطـبيب للـرازاي، مكتبـة دار التراث، القاهرة، 1977،ص 43.

أحد من قبل، ثم رسم خريطة للسماء حسب فيها مواضع النجـوم وأحجامها ودرجة لمعان كل منها، ووضع فهرساً للنجوم لتصحيح أخطاء من سبقوه.

وقد اعترف الأوربيون بدقة ملاحظاته الفلكية حيث يصفه ألدوميلي بأنه (من أعظم الفلكيين الفرس الذين ندين لهم بسلسلة دقيقة من الملاحظات المباشرة.. ولم يقتصر هذا الفلكي العظيم على تعيين كثير من الكواكب التي لا توجد عند بطليموس، بل صحح أيضاً كثيراً من الملاحظات التي أخطأ فيها، ومكن بذلك الفلكيين المحدثين من التعرف على الكواكب التي حدد لها الفلكي اليوناني مراكز غير دقيقة)

بالإضافة إلى ذلك يعتبر أول فلكي يَرصد ويُلاحظ تغير ألوان الكواكب وأقدارها (وحدة لقياس السطوع)، وأيضاً كان أول من رسمَ الحركة الصحيحة تماماً للكواكب. وهو أول من لاحظ وجود مجرة أندروميدا، ووصفها بـ [لطخة سحابية]، وكان أول من لاحظَ وجود سحابتي ماجلان الكبرى والصغرى.

وقد صحح الكثير من الأخطاء في وصف بطليموس لمواضع النجوم، وذلك في كتابه صور الكواكب الثمانية والأربعين، وقام بوضع حدود دقيقة لكل كوكبة وللنجوم التي تقع في الصورة المُتخيلة لها والتي خارجها، ووصف فيه مواقع كل النجوم وأقدارها (حيث كان القدماء يُصنفون النجوم ضمن ستة أقدار، وكانوا يُضطرون إلى تقدير لمعانها لعدم توفر أدوات دقيقة لقياسه) من رصده الخاص لها.

ومن مؤلفاته: كتاب الكواكب الثابتة غير المتحركة (كان العرب القدماء يُسمون النجوم بالكواكب الثابتة، والكواكب بالكواكب السيارة)، ويعدّه سارطون أحد الكتب الرئيسة الثلاثة التي اشتهرت في علم الفلك عند المسلمين، أما الكتابان الآخران، فأحدهما لابن يونس، والآخر لألغ بك، ويتميز كتاب الكواكب الثابتة بالرسوم الملونة للأبراج والصور السماوية.

ومن مؤلفاته الأخرى: كتاب الأرجوزة في الكواكب الثابتة،

وصور الكواكب الثمانية والأربعين، ورسالة العمل بالأسطرلاب، وكتاب التذكرة، وكتاب تطارح الشعاعات.

ومنهم العلامة الكبير **نصير الدين الطوسي**[1] (597 – 672 هـ)، الذي سبق ذكره، ويعتبر أحد أبرز الشخصيات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ومن إسهاماته الكبرى في الفلك أنه فند المفهوم السائد في وقته حول مركزية الارض ـ أي ان الأرض هي مركز الكون ـ فقد انتقد الطوسي هذا النظام وحاول إيجاد بدائل له، وحل معدل المسار.

وتمكن الطوسي من إبداع طريقة رياضية عرفت فيما بعد بمزدوجة الطوسي نقضت نظرية أرسطو، والتي كانت تنص على أن الحركة إما خطية أو دائرية، حيث أثبت الطوسي أنه من الممكن أن تنتج حركة خطية من حركتين دائريبان، واستعمل هذه التقنية لحل إشكالية النظام البطلمي، ومعدل المسار للعديد من الكواكب، ويعتقد الكثير من الباحثين أن مزدوجة الطوسي وجدت طريقها إلى مكتبة الفاتيكان بعد فتح القسطنطينية عام 1453م لتصل إلى عالم الفلك [نيكولاس كوبرنيكوس] الذي اعتمد عليها في نظريته الشهيرة مركزية الشمس والتي غيرت مفاهيم علم الفلك جذريا وأنهت الاعتقاد السائد بأن الأرض هي مركز الكون [2].

بالإضافة إلى ذلك تمكن الطوسي من خلال ملاحظاته في مرصد مراغة والذي كان أفضل المراصد في ذاك الوقت، أن يضع الجدول الأدق لحركة الكواكب في ذاك الوقت في كتابه الزيج الأخليني وأستغرق في ذلك 12 سنة. حيث يحتوي هذا الكتاب

---

[1] انظر في ترجمته: الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، حسن الأمين، ص 54، والعلامة خواجة نصير الدين الطوسي ، محمد تقي مدرس رضوي ، تعريب علي هاشم الأسدي ، ص 21، وأعيان الشيعة، ج9 ص 416، و حسين الجابري ، نصير الدين الطوسي تاريخ وحضارة ، مجلة آداب المستنصرية ، 1999، ص 345، نصير الدين الطوسى حياته وفلسفته ،دكتوراه، عبد الرحمن المراكبى، ا .د / محمد عبد الستار نصار، بكلية أصول الدين بالقاهرة 3344 ع 26.

[2] نصير الدين الطوسي، خالد العاني، ص 9.

على جدول فلكي لحساب مواقع الكواكب وأسماء النجوم وقد أستخدم بشكل واسع حتى اكتشاف نظام مركزية الشمس لنيكولاس كوبرنيكوس، كما استطاع تحديد معدل الانحراف السنوي لمحور الأرض وهي 51 درجة\سنة، وهي قريبة من الدرجة المكتشفة حديثا وهي 50.2.

وتمكن الطوسي من أن يضع وصفا دقيقا لمجرة درب التبانة حيث قال في كتابه [التذكرة]: (إن درب التبانة مخلوقة من عدد هائل من النجوم الصغيرة المتقاربة، ولشدة صغرها وتركيزها تبدو كرقع غيمية لذلك تكون قريبة من لون الحليب)، وهذا ما تم اكتشافه بعد ثلاث قرون عندما استعمل جاليليو المرقاب ليكتشف بأن المجرة مكونة من عدد هائل من النجوم الخافتة.

ومنهم **أبو الفتوح غياث الدين عمر بن إبراهيم الخيام المعروف بعمر الخيام**[1] (توفي 515 هـ)، وهو عالم وفيلسوف وشاعر، وُلِدَ في مدينة نيسابور، وتوفي فيها.

ورغم شهرته بكونه شاعرا، فقد كان من علماء الرياضيات، حيث اشتهر بالجبر واشتغل في تحديد التقويم السنوي للسلطان ملكشاه، والذي صار التقويم الفارسي المتبع إلى اليوم، وهو أوّل من اخترع طريقة حساب المثلثات ومعادلات جبرية من الدرجة الثالثة بواسطة قطع المخروط، وهو أول من استخدم الكلمة العربية [شيء] التي رسمت في الكتب العلمية البرتغالية (Xay) وما لبثت أن استبدلت بالتدريج بالحرف الأول منها [x] الذي أصبح رمزاً عالمياً للعدد المجهول. وقد وضع الخيام تقويما سنوياً بالغ الدقة، وقد تولى الرصد في مرصد أصفهان.

وترجع شهرته كذلك إلى عمله في الرياضيات حيث حلَّ معادلات الدرجة الثانية بطرق هندسية وجبرية، كما نظم المعادلات وحاول حلها كلها، ووصل إلى حلول هندسية جزئية لمعظمها. وقد بحث في نظرية ذات الحدين عندما يكون الأس صحيحاً موجباً، ووضع طرقاً لإيجاد الكثافة النوعية. كما برع في

1() أخبار الحكماء 162 ، وتاريخ حكماء الإسلام 119.

الفلك أيضاَ، وقد طلب منه السلطان ملكشاه سنة 467 هـ/1074 م مساعدته في تعديل التقويم الفارسي القديم. ويقول سـارطون إن تقويم الخيام كان أدق من التقويم الجريجوري.

ومن مؤلفاته باللغة العربية: شـرح مـا أشـكل من مصـادرات كتـاب أقليـدس، والاحتيـال لمعرفـة مقـداري الـذهب والفضـة في جسم مركب منهما، وفيه طريقة قياس الكثافـة النوعيـة، ورسـالة في الموسيقى، ورباعيات الخيام.

هـذه مجـرد نمـاذج عن بعض إسـهامات إيـران في التطـور العلمي في العصور السابقة، أمـا إسـهاماتها في العصـر الحـديث، وخاصة في مشـروعها الحضـاري الجديـد، فلا يمكن وصـفها، لأنهـا تفوق كل العصور السابقة، مع كونها عاشت طيلة هذه الفـترة في ظل الأحقاد الدولية المسلطة عليها، وفي ظل الحصـار المجحـف، ولكنها استطاعت أن تتغلب على ذلك، وتتفوق على دول كثيرة لم تحاصر ولم تحارب، بل وفر لها كل الدعم.

وقد ورد في مقالة بعنـوان [نظـرة على التطـور التكنولـوجي والعملي في إيــران] بصــحيفة الــوقت الالكترونيــة هــذا الخــبر: (واصلت إيران ومنذ نجاح ثورتها الإسلامية، الاستثمار الممنهج في الصناعة الـتي تعتمـد على البحـوث والتنميـة المكثّفـة، ممـا جعـل العدو قبل الصديق يشهد لها بالثورة الفكرية والتقـدم التكنولـوجي الـتي تحققــه البلاد وعلى مختلـف المجـالات، وتحتـل الآن مرتبـة متقدمة جداً من حيث إنتاج العلم بحسب الاحصائيات العلمية التي تجريهـا كبريـات المؤسسـات المتخصصـة، سـواء من حيث حجم المقالات العلمية العالمية التي تنشر في المجلات المحكمة أو من حيث الاختراعات والتجارب العلمية الفريدة، وتفوقت إيـران بـذلك في تــرتيب الانتــاج العلمي والتكنولــوجي على كـل من سويســرا وتركيا)[1]

ومن المجالات التي ذكرها صاحب المقال عن التطور العلمي

---

[1] انظــر: نظــرة على التطــور التكنولــوجي والعملي في إيــران، صــحيفة الــوقت الالكترونية، وفي المقال التوثيقات الخاصة بما ذكره صاحبه.

في إيران: مجال النانو تكنولوجيا، وبحوث الخلايا الجذعية، وعلــوم الوراثة، والهندسة الكيميائية، وبحوث الفضاء، والهندسة الزراعيــة، وأنظمــة الاتصــالات بــالليزر، وعلــوم الكمــبيوتر والإلكترونيــات، وغيرها.

وذكر صاحب المقال أن إيران أصبحت قبلـة لسـكان الشـرق الأوسط للسياحة المرضـية، إذ يتـدفق آلاف المرضـى من العـراق وسـوريا ولبنـان وأفغانسـتان وأغلب دول الشـرق الأوسـط الـذين يعـانون من أنـواع مختلفـة من السـرطان إلى مركـز الـدم وزرع النخاع في مستشفى الدكتور شريعتي الذي له بنك من مخزونـات الخلايا الجذعية الأكثر تقدما في العالم، بالاضافة الى توافـد مئـات مرضى الكبد من الشرق الاوسط الى مدينة شيراز (وســط البلاد) المركز الأول لزراعة الكبد في المنطقة.

وفيما يتعلق بزراعة الأعضاء، فإن إيران حققت تقـدماً كبـيراً في هذا المجال، ويتحدث المختصـون الإيرانيـون عن قفـزة كبـيرة حققها هذا النوع من الجراحـة منـذ أوائـل الثمانينـات، ولا ينكـرون دور الحاجة التي نشأت نتيجـة الحـرب المفروضـة على إيـران من قبل النظـام العـراقي من عـام 80 إلى عـام 88 وكـثرة الجـرحى والمعاقين في تنمية هـذا الجـانب من الطب البشـري، إذ بمقـدور الأطباء الإيرانيين الآن وبدون الاستعانة بأي مساعدة خارجية توفير العضو المطلوب أو من حيث إجراء العملية الجراحية الناجحــة في هـذا المجــال ابتــداءً من الكليــة إلى القلب إلى نخــاع العظم إلى الكبد وغيرها، وبعد أن كان هذا الجـانب يعـاني من التخلـف أصـبح قسم زراعة الأعضاء من الأقسام المتطورة.

ويذكر صاحب المقال أنه من المتوقع أن الأبحاث التي أعدت حـول التطـور العلمي في إيـران ستصـعد إلى الدرجـة الأولى في مجالات الاقتصاد والعلـوم والتكنولوجيـا في منطقـة جنـوب غـرب آسيا (التي تضم آسـيا الوسـطى، والمنـاطق القرغيزيـة، والشـرق الأوسط والبلدان المجاورة)

وذكر صاحب المقال أيضا أن الجمهورية الإسـلامية الإيرانيــة، دشنت أول سفينة أبحاث عابرة للمحيطات، تابعـة لـوزارة العلـوم

والابحـاث والتقنيـات الإيرانيـة، وتضـم مختـبرات متطـورة خاصـة بأبحاث الفيزياء البحرية، وعلم الأحياء البحرية، والكيمياء البحريـة، ويمكن لهذه السفينة أن تبحر لـ45 يوما بسرعة 15 عقـدة بحريـة ومن دون الحاجة الى الرسو في الموانئ، كما يمكنها أخـذ عينـات من رسوبات قاع البحر على عمق 3 آلاف متر.

وذكـر صـاحب المقـال أن التطـور العلمي في إيـران أرخى بظلاله بشكل كبير على المنجزات الدفاعيـة في البلاد، إذ تكشـف إيران كل حين عن منجزاتها التسليحية الدفاعية الجديدة.

وهو ما يخشاه الكيان الصهيوني الذي يعتبر إيران أخطر عـدو له في المنطقة، إذ حذر رئيس شعبة الإسـتخبارات العسـكرية في الجيش الإسـرائيلي، اللـواء هرتسـي هليفي، من التطـور العلمي المطرد للجمهورية الإسلامية الإيرانية، واصـفاً إيـاه بـالخطر الـذي يحـدق بإسـرائيل، وأشـار إلى أن الإيرانـيين ينجحـون باللحـاق بـ(الدولة العبرية) علمياً، وهم قادرون على سد الفجوة سريعاً بين الجانبين [1].

وقال هليفي: (تسألونني إن كانت الحرب ستنشب بيننـا وبين إيـران خلال الأعـوام العشـرة المقبلـة، وإجـابتي سـتكون مفاجئـة لكم، فنحن نخوض حرباً مع إيران، إلا أنهـا ليسـت حربـاً عسـكرية مباشـرة، بـل هي حـرب تكنولوجيـة، إذ إن مهندسـينا يقـاتلون المهندسـين الإيرانـيين اليـوم، وهـذه الحـرب سـتتحول إلى أكـثر ضراوة لاحقاً).

ووصف هليفي تقدير الوضع التكنولوجي بين إسرائيل وإيـران بعبارات مليئـة بالتشـاؤم، إذ أشـار إلى أن الحـرب الـتي يخوضـها الجانبـان في الميـدان التكنولـوجي تتمحـور حـول الإسـتخبارات والأسلحة والقدرات العسكرية التي يملكانهـا، وقـال (نتمتـع حاليـاً ببعض التفوق، إلا أن إيران تلحق بنا وبسـرعة، لقـد تضـاعف عـدد الجامعات وعدد الطلاب الجامعيين في إيران منذ الثورة الإسلامية

---

[1] انظر مقالا بعنوان: تطور إيران العلمي والتكنولوجي... يقلق إسرائيل، يحيى دبوق، جريدة الأخبار، الإثنين 2 تشرين الثاني 2015.

عام 1979 ولغاية اليوم بنحو عشرين ضعفاً، بينما تضاعفت هذه المعاهد والجامعات في إسرائيل فقط ثلاثة أضعاف ونصف ضعف)

وأضاف يقول: (إننا نخوض حرباً تكنولوجية مع إيران، وهي حرب في غاية الأهمية، وعدد الطلاب الإيرانيين الذين يلتحقون بمجالات العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات، وصل إلى حدود السماء)

وفي مقال آخر بعنوان: [هذه إيران.. أين نحن؟!] يقول صاحبه الإعلامي الكبير سامي كليب[1]: (لماذا نحن نكره الشيعة وإيران؟ هل تريدون الآن معرفة لماذا الغرب واسرائيل يخشيان إيران، ولماذا دول الخليج تخاف دورها؟ إليكم هذه المعلومات.. حسب تقرير طوموسن رويترز، إيران صعدت إلى المركز 17 عالميا بانتاج العلوم من مطلع عام 2013 بانتاجها 2925 مقالا علميا متخصصا.. وتحتل إيران المركز الاول عالميا في معدل النمو في الانتاج العلمي المنشور ويتضاعف الانتاج كل 3 سنوات.. ومن عام 96 حتى 2008 زادت إيران من انتاجها العلمي 18 ضعفا.. والمقالات العلمية المتخصصة كانت تنحصر قبل الثورة نحو 400 مقال، الآن تخطت 20 الفا.. وعدد الطلاب كان قبل الثورة يقتصر على 167 الفا، الآن يقارب الاربعة ملايين.. ونسبة المتعلمين ارتفعت من 50 بالمئة قبل الثورة، الى 86 بعدها. وصلت الى محو شبه كامل للأمية. 60 بالمئة من المقبولين في الجامعات هن من الاناث.. وأنفقت إيران 6.3 مليار دولار عام 2011 على البحث العلمي.. وعام 2012 أصدرت إيران اكثر من 38 الف عنوان كتاب، وتطبع أكثر من ٢٥٠ مليون نسخة كتاب، وتحتل المركز الأول باصدارات الكتب في الشرق الاوسط والعاشر عالميا.. وتحتل المرتبة 12 بانتاج السيارات في العالم، والاولى في الشرق الاوسط. اكثر من مليون سيارة في العام.. وأطلقت قمرين صناعيين إلى الفضاء بتصنيع محلي، وارسلت قردا وأعادته إيران حياً من الفضاء.. وفي مقال نشر في نيوزويك

---

[1] انظر المقال في موقع قناة العالم، ٠٧ أغسطس ٢٠١٥ ..

في 18 آب 2008 كـان العنـوان: (لننس هـارفرد ذلـك ان ابـرز الزملاء المتخـرجين في العـالم هم في إيـران).. ومسـؤولو جامعة سـتانفورد العريقة فوجئـوا عـام 2003 بـان ابـرز طلاب فـرع الهندسة الالكترونية لنيل شهادة الدكتوراه جاءوا جميعاً من جامعة شريف للعلوم والتكنولوجيا الإيرانية)

وبعد إيراد الكاتب لهذه الإحصائيات وغيرهـا، قـال: (كـل هـذا حصل وإيران مطوقة ومحاصرة، فكيف حين تسـتعيد الآن الـ 120 مليار دولار من ودائعها المجمـدة؟ وكيـف إذا أضـفنا الى مـا تقـدَّم الصـواريخ والاسـلحة والاقمـار الصـناعية والاختراعـات العلميـة وغيرها على أيـدي جيـل من الشـباب لم تتخـط اعمـارهم الثلاثين عاما.. هل زار أحد الخائفين من إيران إحدى مدنها؟ هـل رأى أنهـا تقارب بأناقتها ونظافتها وهندستها أعرق مدن الغرب؟ هـل عـرف أحدنا كيف أن الإيراني يهدي زوجته ورودا طيلـة السـنة ويحترمهـا ويقدرها؟)

ثم قال معبرا عن مشاعره الشخصية تجاه إيـران: (أنـا اعـتز بعروبتي، وأفضل أن تكون أي دولة عربية، كالسـعودية أو الكـويت أو قطر أو سوريا أو الإمـارات أو مصـر أو الجزائـر أو السـودان أو المغرب أو اليمن أو حتى جيبـوتي والصـومال وجـزر القمـر، بهـذه الأهمية لكي نكون كشعوب عربية خلفها، لكن بدلاً من البكاء على دور إيران، وتشكيل القوى العسكرية لصد دورها في هـذه الدولـة أو تلـك، فلنوظـف أموالنـا كمـا وظفتهـا لخدمـة الانسـان والعلم والتقدم والتكنولوجيا)

ثم ذكر السبب الحقيقي للحرب المعلنـة على إيـران؛ فقـال: (الغـرب يخشـى إيـران لانهـا ببسـاطة ستنافسـه علميـا، لانهـا لـو اقـترحت بعـد حين مثلاً مفـاعلا كهربائيـاً نوويـاً في دولـة عربيـة أو نامية سيكون أقـل بعشـرات الاضـعاف من سـعره الاوروبي، ولأن دولة بهذه القـدرات، تسـتطيع أن تلعب دورا محوريـا كبـيرا يـزعج إسرائيل.. إسرائيل وحدها الاكثر انزعاجاً، والغرب ما جـاء يفـاوض إيران إلاّ لأنها أسندت علومها بقـدرات عسـكرية عاليـة، ففاوضت من موقع القــوة لأنها هي الأخــرى بحاجة للمــال، لا كمفاوضــاتنا

المذلة منذ كامب دايفيد مرورا بمدريد واوسلو حتى اليوم.. ولا ننسى وادي عربة ملك الهاشمية.. نعم إيران عندها قنابل نووية، لكنها قنابل العلم والمعرفة والتقدم، فمبروك لإيران قنابلها العلمية النووية، وعسى أن نحذو حذوها يوماً ما بدل الشكوى من دورها)

ولا نملك بعد إيرادنا لأكثر ما أورده هذا الإعلامي الموضوعي المنصف في مقاله هذا إلا أن ندعو كل أولئك المشككين والمغرضين إلى زيارة المواقع العلمية لإيران، وملاحظة مدى تفوقها، ومحاولة الاستفادة منها في خدمة المسلمين، والقضايا الإسلامية؛ فالتطور الإيراني ليس لإيران وحدها، وإنما هو للمسلمين جميعا، بل هو للبشرية جميعا.

ثالثا ـ الإيرانيون.. وتصدير الحضارة:

نقصد بهذه القيمة [تصدير الحضارة] تصدير الثقافة والعلوم والقيم الأخلاقية والروحية وغيرها لسائر بلاد العالم الإسلامي، بل سائر بلاد العالم، نهوضا بالواجب الشرعي المرتبط بذلك، وهو من مقتضيات الشهادة التي وصفت بها هذه الأمة، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: 143]

ولذلك كان على كل دولة من دول العالم الإسلامي أن تمتلك مقومات هذه الشهادة، وأن تسعى لتطبيقها، حتى تكون أسوة ونموذجا يمثل القيم الإسلامية الرفيعة، ويكون فوق ذلك قبلة للأحرار والمستضعفين وطلبة العلم.

وقد كانت إيران في فترات كثيرة من تاريخها قبلة لطلبة العلم وأساتذته، يفدون إلى مدنها من كل حدب وصوب للتعلم أو للتعليم.. ولو طبقنا هذا المقياس على علماء المسلمين الذين درسوا في المدن الإيرانية، أو درّسوا فيها، لوجدنا كما كبيرا جدا.

فنيسابور مثلا كان بها مدارس كثيرة، ودرس فيها الكثير من العلماء من كل الفنون، من الذين لا ينتسبون إليها، من أمثال ابن دريد (223 -321هـ) صاحب القصيدة المقصورة والجمهرة في

اللغة، وأبو منصور الثعالبي (350 – 429 هـ)، وهو أديب ولغوي وناقد وصاحب الكتاب الشهير يتيمة الدهر، وكان يلقب بـ [جاحظ نيسابور]، وأبو الحسن الجُرجاني (322هـ – 392هـ)، صاحب الكتاب المشهور [الوساطة بين المتنبي وخصومه]، وأبو الفضل الهمذاني (358 – 398هـ) المشهور ببديع الزمان، صاحب المقامات الشهيرة، ومحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (194 -ـ 256هـ) صاحب الصحيح، وغيرهم كثير ممن لم نذكرهم في المحدثين والمفسرين واللغويين، مع كونهم عاشوا فترات طويلة من أعمارهم في إيران، وربما ماتوا فيها.

فمنذ الفتح الإسلامي ونيسابور مركز من مراكز الحضارة وقبلة لأهل العلم، ابتداء من الدولة الأموية، ثم العباسية، ثم الدول المستقلة عن الخلافة، وإن تبعتها اسميًا، من أمثال الدولة الطاهرية في خراسان (205 – 259هـ)، والدولة الصفَّارية في إيران وهرات وما وراء النهر، (254 – 298هـ)، والدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر وغيرها (261 – 390هـ)، والدولة الغزنوية في غزنة ومعظم إيران وما وراء النهر وبعض الهند (349 – 579هـ)، الدولة السلجوقية الكبرى (432 – 583هـ)

وقد عبر الجغرافي الكبير ابن حوقل عن قيمتها الحضارية والعلمية في عهد الدولة الطاهرية والدولة الصفارية، بقوله: (كانت دار الإمارة بخراسان فى قديم الأيام بمرو وبلخ إلى أيام الطاهريّة، فإنهم نقلوها إلى نيسابور، فعمّرت وكبرت وغزرت وعظمت أموالها عند توطّنهم إياها، وقطونهم بها حتى انتابها الكتّاب والأدباء بمقامهم بها، وطرأ إليها العلماء والفقهاء عند إيثارهم لها، وقد خرّجت نيسابور من العلماء كثرة ونشأ بها على مرّ الأيّام من الفقهاء من شهر اسمه وسمق قدره وعلا ذكره)[1]

وقال الحموي: (نيسابور معدن الفضلاء ومنبع العلماء، لم أر

1() صورة الأرض، ابن حوقل (2/ 434)

فيما طفت من البلاد مدينة كانت مثلها)[1]

وقال الرحالة ابن بطوطة: (هي أحد المدن الأربع التي هي قواعد خراسان ويقال لها دمشق لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها، وتخترقها أربعة من الأنهار، وأسواقها حسنة مشعة، ومسجدها بديع وهو في وسط السوق)[2]

وقال: (في مدارسها من الطلبة خلـق كثـير يقـرؤون القـرآن والفقه، وهي من حسـان مـدارس تلـك البلاد، ومـدارس خراسـان والعراقيين وبغـداد ومصـر وإن بلغت الغايـة من الإتقـان والحسـن فكلها تقصر عن مدرسة نيسابور)

وقال بعض المعاصرين معبرا عن ذلك: (وقد نبغ فيها جماعـة من العلماء في كـل فن مـا لا يحصـى عـددهم في القـرون الأولى الإسلامية، لا سيما في فن الحـديث والفقـه، حـتى فـاقت نظاميـةُ نيسابور نظاميةَ بغداد. فقد قيل بلغ عدد محدثيها ورجالهـا العلميـة في القرون الأربعة الأولى إلى 3000 عالماً)[3]

ولذلك أفرد تاريخها ورجالها بالتأليف، ومن أهمها كتاب [تاريخ نيسابور] للحافظ الحـاكم النيسـابوري (321 – 405هـ) صـاحب كتاب المستدرك على الصحيحين، ومنها [السياق لتاريخ نيسابور]، للحافــظ أبي الحســن عبــد الغــافر بنِ إســماعيل الفارســيِّ النيسابوري (451 – 529هـ)، ومنها [المنتخب من كتاب السـياق لتاريخ نيسابور]، للإمام الحافظ تقي الدين أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الصريفيني الحنبلي (581 – 641هـ)

وقد كان من مزاياها الكبرى التي أهلتها لأن تكون قبلة لطلبة العلم كثرة مدارسها ومكتباتهـا وجوامعهـا؛ فـأول مدرسـة أنشـئت

1() معجم البلدان ص 4/331.

2() رحلة ابن بطوطة (ص 401)

3() خراسان قديمي ترين پايگاه علوم اسلامي، مولوي عبد الحميد.

في العالم الإسلامي كـانت في نيسـابور، وكـان اسـمها المدرسـة البيهقية وذلك في القرن الرابع الهجري.

ثم أنشـئ بعـدها مـدارس كثـيرة منهـا أربـع مـدارس أنشـأها السلطان محمـود بن سـبكتكين الغزنـوي (367 – 421هـ)، كما أنشأ بها وبغيرها السـلطان مسـعود الأول، الـذي أعقب السـلطان محمـود (421 – 431هـ) عـددًا من المـدارس الإسـلامية. وعلى الـرغم من أن الدولة كـانت تشـرف على تلك المـدارس، فإنها لم تكن ذات مناهج محددة كالمدارس النظامية.

ومن مكتباتها الكبرى مكتبة الصابوني، والتي ذكرتها المصـادر التاريخية[1] عند حديثها عن خلف بن أحمد أمير سيسـتان، والـذي قام بجمع علماء إيران، وطلب منهم إعداد تفسـير شـامل للقـرآن الكريم يحتوي على جميع الأحاديث وأقوال المفسـرين السـابقين، والقراءات. وقد رصد لهذا المشروع مبلغ 20 ألف دينـار، ونتج عن ذلك تـأليف تفسـير واسـع يشـتمل على مئـة جـزء وهـذا التفسـير الفريد قد أُودع في مكتبـة الصـابوني بنيسـابور ليفيـد منـه الطلبـة والباحثون.. غير أنّ هذا الكتاب ضاع ـ في جملة ما ضـاع من هـذه المكتبة ـ في الهجوم على نيسابور.

ومنها مكتبة الشجري، التي أنشأها مسعود بن ناصر الشجري (المتـوفى سـنة 477 هـ) إلى جـوار مسـجد عقيـل في نيسـابور، وكانت محتويات هذه المكتبة من نفائس الكتب في ذلك الوقت.

ومنها مكتبة المدرسة السعديّة، وهي من الأعمـال العمرانيـة التي تولّى القيام بها حـاكم نيسـابور أبـو نصـر بن سـبكتكين، أخـو السلطان محمود الغزنوي.

ومنها مكتبة أبي سـعيد، والـتي بنهـا أبـو سـعيد إسـماعيل بن علي بن منشي الاسترآبادي، العارف والواعظ النيسابوري.

ومنها مكتبة المدرسـة البيهقيـة، والـتي أُنشـئت في نيسـابور

---

[1] انظر: نبذة تاريخية عن مكتبات إيران، تأليف: ركن الـدين هُمـايون فَـرُّخ، ج 2 ص 28، نشر وزارة الثقافة والفن، طهران 1968 م)

قبل المدرسة النظامية بسنوات كثيرة، وكان موئلاً للعلماء والباحثين.

ومنها مكتبة مدرسة الشوافع، وهي من أقدم مدارس إيران ومكتباتها، وفي هذه المدرسة درس أبو علي الدقّاق وأبوالقاسم القُشَيري.

بالإضافة إلى المكتبات الملحقة بالمدارس، ومن أمثلتها: مدرسة المشطي، ومدرسة السووي، ومدرسة أبي علي الدقّاق، ومدرسة الشحّامي، والمدرسة القشيرية، ومدرسة أبي نصر بن أبي الخير، ومدرسة السمعاني، وغيرها.

وهكذا كانت مدينة أصفهان[1] من مراكز الحضارة الإسلامية الكبرى، وقد ذكر القزويني سبب ذلك الاهتمام بها من أهل العلم، فقال: (أصفهان مدينة عظيمة، من أعلى المدن ومشاهيرها، جامعة لأشتات الأوصاف الحميدة من طيب التربة وصحة الهواء وعذوبة الماء وصفاء الجو وصحة الأبدان وحسن صورة أهلها وحذقهم في العلوم والصناعات)[2]

وقد أفرد تاريخها ورجالها لأجل ذلك بالتصنيف، وممن فعل ذلك حمزة بن الحسين الأصفهاني (ت 360 هـ) في كتابه (التاريخ الكبير)، وأبو الشيخ ابن حيان في كتابه (طبقات المحدثين بأصفهان)، والذي تضمن تعريفا لنحو 660 علماً من الصحابة والتابعين ومن تبعهم من جهابذة المحدثين، وأبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (المتوفى: 430هـ) في كتابه (ذكر أخبار أصفهان) الذي تضمن التعريف لنحو ألفي شخص من محدثي أصفهان والقادمين عليها.. وغيرها من الكتب الكثيرة.

1() وهي تقع في وسط ايران، وتميل إلى غربها أكثر، وهي في جنوب العاصمة تبعد عنها 313 أو 420 كيلومتراً، وقد فاقت بجودة تربتها واستعدادها للزراعة وعذوبة مائها وطيب هوائها على أكثر المدن الإيرانية، ومما زاد في حسن موقعها وجمالها أنها تقع على ضفة النهر المشهورة بـ [زاينده رود] وهو يجري اليوم داخلها، ولعل هذا سبب اهتمام أهل العلم بها..

2() آثار البلاد وأخبار العباد ص 296.

وقد عبر عن كثرة علمائها ياقوت الحموي، فقال: (خرج من أصفهان من العلماء والأئمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة من المدن بأسناد عالية، فإن أعمار أهلها تطول، ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث، وبها من الحفاظ خلق لا يحصون ولها عدة تواريخ.. ومن نسب إلى أصفهان من العلماء لا يحصون)[1]

أما أبو عبد الله المقرئ محمد بن عيسى الأصفهاني(ت 241هـ)، فقد راح يخاطب أهل الري يفخر عليهم قائلا: (يا أهل الري من الذي أفلح منكم؟ إن كان ابن الأصفهاني فمنا، وإن كان إبراهيم بن موسى فمنا، وإن كان جرير فمنا، وإن كان الخط فجدّي علمكم ما أفلح منكم إلا رجل واحد ولن أقول لكم حتى تموتوا كمداً)[2]

وهكذا كانت الكثير من المدن الإيرانية عواصم ومراكز علمية كبرى يفد إليها الطلبة والأساتذة من جميع بلاد العالم الإسلامي، وقد ساهم ذلك في تصديرها للحضارة الإسلامية ليس للدول الإسلامية فحسب، وإنما للعالم أجمع.

وفي بداية النهضة الإسلامية في العصر الحديث نرى كذلك كبار دعاة التجديد والنهضة الإسلامية يخرجون من إيران، ليبعثوا اليقظة في العالم الإسلامي أجمع، وعلى رأسهم باعث النهضة في العصر الحديث، والذي كان له التأثير الفاعل في كل الدعاة والمفكرين **محمد بن صفدر الحسيني الأسد أبادي**[3] (1254 ـ 1315 هـ)، والذي اشتهر بلقب بالأفغاني مع كونه كان إيرانيا، ولم يكن أفغانيا[4].

---

[1] معجم البدان 1/209، 210.

[2] طبقات المحدثين لأبي الشيخ ابن حيان 2/105.

[3] تاريخ الأستاذ الامام 1: 27 - 102 وتاريخ الصحافة العربية 2: 293 - 299.

[4] وهذا ما ذهب إليه أكثر الباحثين، ويذكرون أنه كان إيرانيًا من أسد آباد بالقرب من همدان، وأنه كان شيعيًا جعفري المذهب، بالرغم من حرصه على تلقيب نفسه بالأفغاني،

فمن المتفق عليه عند كل المؤرخين للفكر والحركات الإسلامية الحديثة اعتباره العقل الملهم لجميع الحركات الإسلامية، سنيها وشيعيها، حتى حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية، كان جمال الدين أول من دعا لها.

وهو ــ خلافا لما يشاع من كونه أفغانيا ــ إيراني، لكن المصلحة والتقية دعته لأن يلقب بذلك اللقب، أو كما عبر عن ذلك الكاتب والمؤرخ (علي الوردي) بقوله: (وقد تميّز السيد جمال الدين بقدرة خارقة على التكيّف مع المحيط الاجتماعي والسياسي الذي يحل فيه، وتمثل ذلك في تغييره ألقابه.. فهو الأفغاني، والحسيني، والكابلي، والاسطنبولي والأسد آبادي، ولم يقتصر التكيّف على ألقابه، بل كان زيّه هو الآخر يتبدل حسب ظروف وتقاليد المجتمع الذي يحل فيه، فمن العمائم السوداء والبيضاء، والخضراء إلى طربوش أزهري أو تركي، وعقال وكوفية حجازية، فحين وصل السيد جمال الدين إلى أسطنبول كان في زي سيد أفغاني على جبة وكساء وعمامة عجراء، فشرع بتعلّم اللّغة التركية حتى تمكّن بعد مدة وجيزة من أن يتكلّم بها ويكتب، وحين سافر إلى أوربا لبس الطربوش، ولكنه في الحجاز كان يلبس العقال والكوفية، وعندما وصل إلى ايران خلع السيد جمال الدين زيّه الأفغاني الذي عرف به في تركيا ومصر وتزيّا بزي سيّد من علماء الشيعة حيث وضع العمامة السوداء على رأسه، والعباءة على كتفيه، والمداس الأصغر في قدميه ولقب نفسه بالحسيني)[1]

ونرى أن هذه التقية التي مارسها جمال الدين لم يكن يقصد بها حراسة نفسه، بقدر ما كان يريد بها حراسة دعوته، والتي كان

وانخراطه في علماء أهل السنة في جميع البلدان الإسلامية التي زارها أو أقام فيها، ومن الأدلة التي ذكروها لذلك: (وجود عائلة جمال الدين في إيران، وعدم وجود أي أثر لها في أفغانستان.. أن اسم والد جمال الدين [صفدر]، اسم إيراني شيعي يعني: البطل ممزق الصفوف.. اهتمام جمال الدين بإيران ومشكلاتها أكثر من اهتمامه بأي قطر إسلامي آخر.. إجادة جمال الدين اللغة الفارسية باللهجة الإيرانية.. تمجيد جمال الدين للإيرانيين وإشادته بذكائهم)

(1) ملامح اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج 3، ص 273..

يمكن أن تغتـال في اللحظـة الأولى الـتي يعلن فيهـا عن أصـله الإيراني، ولذلك لم يكن يذكره إلا عنـدما دعتـه الحاجـة إلى ذلـك، حين وقف مخاطباً الشاه بقوله: (أستطيع أن أفخر بنفسي أن أرى عاهل ايران قد استيقظ من سباته العميق، وأخذ يفكـر في تعمـير البلاد ورقيهـا ويثـق بي، نعم إنـني إيـراني أسـد آبـادي، وإن كافـة العلـوم بحمـد اللـه مخزونـة في صـدري، فلا تنظـر إلى وحـدتي، وصغر جسمي فإني أستطيع أن أطمس جبـل دماونـد هـذا بقبضـة يدي الصغيرة)[1]

وقـال مـرزا لطـف اللـه أسـد آبـادي ابن اخت جمـال الـدين المشهور بالأفغاني في كتابـه (جمـال الـدين الأسـدابادي): (وكـان كشف حقيقة جمال الدين أمام السلطان عبد الحميد ضربة قاضية وجَّههـا مظفـر الـدين شـاه إلى جمـال الـدين بوثيقـة سـلمها علاء الملك سفير إيـران في تركيـا إلى الحكومـة التركيـة تثبت بالأدلـة القاطعة أن جمال الدين إيراني شيعي يختفي في ثيـاب الأفغـاني، ويتّخذ المذهب السني ستاراً يحتمي به)[2]

وقد أشاد بـه كـل القـادة الفكـريين والسياسـيين للجمهوريـة الإسلامية الإيرانية، ومنهم مرتضـى مطهـري الـذي قـال عنـه: (إن السيد جمال الدين الأسد آبادي، هو الرائد في الحركـاة الإصـلاحية خلال القرن المنصرم. هو أول من بدأ بتحريك الصحوات الإسلامية وكشف برؤية موضوعية عن همـوم المجتمعـات الإسـلامية وقـدّم الحلول للإصلاح والقضاء عليهـا...كـانت حركتـه ذات طـابع فكـري واجتماعي في آن واحد... قد حظي السـيد جمـال الـدين – بفضل حركته وحيويته - بمعرفة دقيقة للزمـان والعـالم المعاصـرَين لـه وبمعضـلات البلـدان الإسـلامية المطلوبـة علاجهـا عنـده. حسـب تشخيصــه يتصــدر الإســتبداد الــداخلي في الحكم والاســتعمار الخــارجي قائمــة أهمّ المشــكلات المتجــذرة في المجتمعــات الإسلامية فقام بالتصدي لهما، وأخيراً بذل حياته في هذا السبيل)

1() المصدر السابق، ص 305..

2() جمال الدين الأسدابادي، (ص 34)

ولخص الطــرق الــتي يراهــا جمــال الــدين حلــولا لخــروج المسلمين من أزمتهم، ومنها: (مناهضة المستبدين في اسـتئثارهم بالحكم، عبر تثقيف الشعب وتفهيمه مبدأ وجوب النضال السياسي على أساس الدين والشريعة.. التزوّد بالعلوم والصناعات الحديثة.. وعـودة المسـلمين إلى الشـريعة الأصـلية ونبـذ الخرافـة والبـدع والزوائد التي أُلحقت بالإسلام على مدى العصور، برأي الســيد أن هــذه العــودة إلى الشــريعة الإســلامية الأولى، لا تتم إلا من خلال العودة إلى القرآن والسنة الموثقة وسيرة السلف الصالح.. والثقة والعقيدة بالشريعة وبأن الإسلام كشريعة ومنظومـة عقديـة، قـادر على تحرير المسلمين والقضاء على الإستبداد الداخلي والاستعمار الخــارجي وأن يقــدم العــزة والســعادة للمســلمين.. ومعارضــة الاســتعمار الخــارجي بجميــع أشــكاله السياســية والإقتصــادية والثقافية.. ووحدة الإسـلام.. وبث روح الكفـاح والجهـاد في جسـد المجتمع الإسـلامي الـذي يلفـظ أنفاسـه الأخـيرة. قـام باسـترجاع أصـل الجهـاد إلى الأذهـان والـذي قـد أصـبح مهجـوراً، كمـا اعتـبر نسيانه عاملاً رئيسياً في تخلّف المسلمين.. والتصدي للذهول أمام الحضارة الغربية)[1]

وقال عنه الخامنئي: (السيد جمال الدين الكبير، ذلـك الرجـل الداعي للإسلام والهمام والمنـاهض، الكبـير، أفضـل مكـان وجـده مناسباً لنهضته، هي مصر، ومن ثم تلامذته محمد عبده والآخــرين، هكذا سوابق الحركات الإسلامية في مصر)[2]

ونرى هذا البعد كذلك في الثورة الإسلامية الإيرانيــة الــتي لم تكتـف بالـدعوة لإصـلاح إيـران، وتحويلهـا إلى مركـز من مراكـز الحضارة الإسلامية، وإنما دعت إلى تصدير نموذجها النهضــوي في العالم الإسـلامي جميعـا، وهـو مـا كـان سـببا فيمـا حصـل لهـا من حروب وحصار.

1() الحركات الإسلامية في القرن الأخير في دراسة إجمالية، المطهري، مرتضـى، ص 20-29..

2() في خطبة له قبيل صلاة الجمعة في تاريخ 4 فبراير 2011.

ذلك أن الاستكبار العالمي لا يرضى لدول العالم الإسلامي أن تتخلى عن تبعيتها للغرب، ولا أن تتحلى بقيم الشريعة بصورتها النقية الصافية، ولهذا كان من أكبر تهمه لإيران ما يطلق عليه [تصدير الثورة]، والتي نرى أنها ليست تهمة مسيئة، بقدر ما هي مدح وشرف.

فمن خلال مطالعة تراث الخميني وغيره من القادة الفكريين لإيران، نجد إيمانهم بهذا المبدأ (تصدير الثورة)، ولكن ليس كما يفهم المغرضون، أي صورة التصدير بالسلاح وإيجاد الانقلابات العسكرية ونحوها، وإنما يقصدون به دعوة العالم الإسلامية للخروج من الهيمنة الغربية، والتحقق بالذاتية الإسلامية، وما تحويه من قيم.

ومن الأمثلة على ذلك قول الخميني في خطابه لسفراء الأقطار الإسلامية بمناسبة عيد الفطر عام 1400هـ: (إننا نعتبر الأقطار الإسلامية جميعاً جزءاً من وجودنا دون أن يعني ذلك أن تفقد وجودها المستقل، وإنما نريد لها أن تتمتع بما تمتع به الشعب الإيراني من مزايا الخلاص من براثن القوى الكبرى، وقطع أيديها عن منابعه الحياتية، نريد لهذه الحالة أن يتسع مداها لتشمل كل الشعوب).

ويفسر تصدير الثورة بقوله:(إننا نعني بتصدير الثورة أن تستيقظ كل الشعوب وكل الحكومات وتتخلل من قيود التبعية والتسلط)

ويضيف: (إننا ثرنا لنحيي الإسلام، ومن ثم لنصدر الثورة ـ بمشيئة الله ـ إلى كل مكان، ذلك إننا أخوة وأحبة، مما يزيد فينا الأمل للعمل سوية وبكل ما نستطيع لتعميم هذا الجهاد وتحقيق هذا الهدف)

ويقول في نفس الخطاب: (إننا إذ نعلن عزمنا على تصدير الثورة إلى كل الأقطار الإسلامية بل كل الأقطار التي يرزح فيها المستضعفون تحت نير المستكبرين، فإنما نريد من ذلك أن نحيي في الشعوب روح التحرك ضد المستكبر الفتاك، ونردم تلك الهوة

بين الشعب والحكم المسلط عليه)

فالتصدير ـ حسب هذه النصوص وغيرها ـ يعني تصدير النموذج الحضاري والنهضوي الإيراني لجميع العالم الإسلامي مع الحفاظ على المزايا المحلية الخاصة بكل بلد.

وهذا ما يبرز بوضوح عند خطابه لمجموعة من الباكستانيين في خريف عام1980، فقد قال لهم: (هل تتصورون أن هدف الخطط الاستعمارية هو القضاء على إيران؟ كلا، إن الهدف هو القضاء على الإسلام، فليس الأمر يقتصر على قطر واحد فحسب، إنه يعم الأقطار الإسلامية جميعاً)

وهكذا نرى المغرضين أيضا يشوهون مصطلحا حضاريا أصدره بعض فلاسفة وعلماء إيران، وهو مصطلح (أم القرى)، والذي نسب لمحمد جواد لاريجاني رئيس جمعية الفيزياء والرياضيات في إيران، وهو مصطلح يقصد به التخطيط لتحويل إيران إلى مركز حضاري للأمة الإسلامية، بل للعالم الإسلامي، حتى يمثل الإسلام أحسن تمثيل، ولا علاقة للمصطلح بالهيمنة على مكة المكرمة ولا غيرها، لأن الهدف أكبر بكثير، وهو هدف حضاري لا استعماري.

وكان في إمكان المغرضين لو كانوا صادقين مع أنفسهم أن يدعو بلادهم إلى نفس الدعوة، حتى تتنافس بلاد العالم الإسلامي في التحقق بالأفضلية، والنموذج الحضاري الراقي الذي يؤهلها لأن تصبح أم المدن والقرى، ومركز الحضارة.

لكنهم، لا ينظرون إلا بعيون حسدهم وحقدهم، ولهذا تتحول المصطلحات في أذهانهم من معانيها الشرعية الصحيحة إلى معان سقيمة، تمثل أهواءهم وأحقادهم، ولا تمثل الحقيقة.

رابعا ـ إيران والحوار بين الحضارات:

من القيم الكبرى التي دعت إليها إيران ومثلتها، وانطلقت فيها من رؤيتها السلمية للتعامل مع القضايا العالمية ما يصطلح عليه [حوار الحضارات]، وهو مصطلح يمثل الرؤية الإسلامية في

التعامل بين الشعوب، في مقابل الرؤية الغربية التي تتبنى [صراع الحضارات]، أو [صدام الحضارات] والذي صاغه ــ كعنوان لمقال وكتاب ـ صامويل هنتنجتون، والذي ادعى فيه بأن صراعات مابعد الحرب الباردة لن تكون بين الدول القومية واختلافاتها السياسية والإقتصادية، بل ستكون الاختلافات الثقافية المحرك الرئيسي للنزاعات بين البشر[1].

وقد صاغ هذه النظرية ليرد بها على على أطروحة فرانسيس فوكوياما [نهاية التاريخ والإنسان الأخير]، والتي ذكر فيها فوكوياما أنه بنهاية الحرب الباردة، ستكون الديمقراطية الليبرالية الشكل الغالب على الأنظمة حول العالم.

لكن هنتغتون اعتبرها نظرة قاصرة، وجادل بأن صراعات مابعد الحرب الباردة لن تكون بين الدول القومية واختلافاتها السياسية والإقتصادية، بل ستكون الاختلافات الثقافية المحرك الرئيسي للنزاعات بين البشر في السنين القادمة.

ولم يكتف بذلك، بل راح يضع خارطة للحضارات التي يحتمل أن يحدث الصراع بينها، وهي : (الحضارة الغربية، والحضارة اللاتينية، والحضارة اليابانية، والحضارة الصينية، والحضارة الهندية، والحضارة الإسلامية (كل الدول ذات الأغلبية المسلمة) ، والحضارة الأرثوذكسية، والحضارة الأفريقية، والحضارة البوذية)

وقد تبنت أمريكا ومعها الاستكبار العالمي هذا الطرح، ومن خلاله مارست كل ألوان الهيمنة على العالم الإسلامي حتى تجعله عاجزا عن أي مواجهة حضارية.

وفي مقابل هذه النظرة العنصرية الحاقدة الممتلئة بالصراع تقدم الرئيس محمد خاتمي رئيس الجمهورية الاسلامية الإيرانية في ذلك الحين، بمشروع [حوار الحضارات] نال اهتماماً عالمياً واسعاً، وأعلنت منظمة الامم المتحدة عام ٢٠٠١ عام حوار

1() انظر مقالا مفصلا في هذا: نظرية صراع الحضارات والاستراتيجية الأمريكية، همام السليم، المركز الديمقراطى العربى، 30 أغسطس 2016.

الحضارات [1].

وقد ذكر بعض الباحثين الفرق بين النظريتين، فقال: (إن مفهوم (صدام الحضارات) إيديولوجية جازمة، ومطلقة، تقسم العالم إلى صديق وعدو، وقريب وبعيد، وفي النهاية تؤدي للعداوة، ونشوء الصراعات بين البلدان والحضارات. وبالطبع نعلم أن هذه الصراعات بسبب السلطة الغربية وقوتها سوف تؤول للإضرار بالبلدان الصغيرة، ودول المنطقة، لكن مفهوم (حوار الحضارات والثقافات) بعكس ما سبق لا يقسم العالم إلى صديق وعدو، ويرى أن جميع الشعوب هي صاحبة حق واستقلال سياسي، ويريد السلام والسعادة والديمقراطية والمجتمع المدني للشعوب كلها، ويدعو الحكومات للتعايش السلمي، والمشاركة في بناء حياة البشر) [2]

وقد قامت الجمهورية الإسلامية الإيرانية عبر مستشارياتها الثقافية في بلدان العالم بنشاطات كثيرة للدعاية لهذا الحوار، وأقامت حوله المؤتمرات، ونشرت الكتب والإصدارات المختلفة، وهي لا تزال تمثل هذا المشروع، وتتصدر الدعوة إليه في العالم أجمع.

وقد قال وزير الثقافة والارشاد الإسلامي السيد أحمد مسجد جامعي في بعض النشاطات المقامة لهذا الغرض يذكر مدى شرعية هذه القيمة، وكونها من القيم التي تبنتها إيران طيلة تاريخها: (أعتقد أن الحضارة الإسلامية بسبب قيامها على أساس معرفي اهتمت بشكل خاص بالحرية والعقلانية.. وهذه الحضارة باتساع صدرها لأفكار المخالفين وآرائهم قد وفّرت الجوّ لعرض وجهات النظر المختلفة، ونشهد في التاريخ أن سعة الصدر هذه كلّما ضاقت، قلّ التنوع الفكري، وضاقت دائرة العقلانية أكثر، مما يؤدي إلى أفول هذه الحضارة)

1() محاضرات حول حوار الحضارات، محمّد علي آذرشب، ثقافتنا - العدد ٢ ، موقع إيران والعرب..

2() حوار الحضارات من منظور علماء الاجتماع في إيران، غسان حمدان، موقع معابر.

ثم ذكر تطبيق إيران لهذا المشروع في تاريخها؛ فقال: (ومن نماذج هذا الاستيعاب الحميد نستطيع أن نذكر وقفيّة (ربع رشيدي) ووقفيّة (مدرسة خان) في شيراز.. ففي وقفيّة ربع رشيدي ينصّ الواقف على تخصيص ميزانية لترجمة مجموعة من الكتب سنوياً إلى العربية والفارسية (اللغتين العلميتين آنئذ)، وإرسالها إلى البلدان الأخرى، والمخاطبون في هذه الوقفية هم أهل الصين والهند، وهما من الأقاليم الحضارية الكبرى يومذاك.. وفي وقفية مدرسة خان بشيراز يخصص الواقف ريع الموقوفة على إرسال بعثة من أفراد هذه المدرسة إلى أرجاء العالم ليجمعوا الكتب المختلفة في دائرة العلوم والمعارف والحكمة، أو ليستخدموها ويضعوها تحت تصرف طلاب المدرسة، هذه الحركة توقفت برهة من الزمن، ولا عجب أن تكون هذه الوقفة مقرونة تقريباً بعصر بدء أفول الحضارة الإسلامية، وبنموّ الحضارة الغربية وازدهارها أيضاً)

وبناء على ذلك الاهتمام ظهرت الكثير من الدراسات العلمية التي تحاول أن تجعل من هذه النظرية نظرية علمية تقنع بها العالم أجمع، ومن تلك الدراسات دراسة عالم الاجتماع د. علي أصغر صباغ پور ، والتي ذكر فيها احتياجات الحوار وضروراته على الصورة التالية[1] :

الاحتياجات الحضارية: فكل حضارة تحتاج إلى التعامل مع البيئات التي تحيط بها لأجل بقائها، وتفاعلها.. وفي هذه الحالة يبدو أن النظرة الدينامية إلى جانب النظرة الساكنة تساعدنا على تقوية الحضارة الخاصة بنا، ففي النظرة الساكنة نعد الحضارة بمثابة بناء، ونظام ميكانيكي كحد أعلى، في حين أنها في الحالة الدينامية تبدو كعضو حيٍّ، ونظام مفتوح له حياة، ووجود حيٌّ، ولديه القابلية للنمو. وفي عالمنا اليوم تتعلق دينامية الحضارات وبقائها بارتباطها ببعضها البعض.

الاحتياجات الدولية: إن كل حكومة ونظام سياسي يجران

---

[1] () علي اصغر صباغ پور، گفتگوى تمدنها در جهان متغير، (= حوار الحضارات في عالم متغير)، مجلة گفتمان، العدد 3، طهران، 1999، ص 173 – 175.

وراءهما جـذورهما الحضـارية. وإن نظـرة الحكومـات إلى السـلام العالمي، والدبلوماسية والحرب، وغيرها، تتأثر بالمضامين الفكرية والثقافيــة والحركيــة للحكومــات. ويــتيح حــوار الحضــارات هــذه الفرصة للحكومات بأن تعـرض خلاصـة حضـارتها للأخـرى ليصـلوا إلى ميثاق عالمي، ولتنخفض الحـوادث المـرة، وغـير المستسـاغة الـتي حصـلت في الماضـي (كـالحروب) إلى حـدها الأدنى، لتصـل الشعوب إلى حالـة من الثبـات والاسـتقرار في قـالب من السـلام العالمي.

الاحتياجات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسـية: لا بد لكل بلـد من أجـل الوصـول إلى المصـالح الوطنيـة من تحقيـق صيانة الذات والاستقلال ووحدة الأرض والأمن القــومي والأوضــاع الاقتصادية الجيدة، وقد تساعد فكرة حوار الحضارات في الوصول إلى المصــالح الوطنيــة، ومــا يليهــا، عــبر عمليــات معقــدة تــارة، وواضحة وجلية تارة أخرى.

وبذلك يمكن اعتبار إيران نموذجا متفردا في القيم الحضارية، ذلك أنها لم تمارس أي نوع من أنواع الاسـتعمار أو الاسـتكبار مـع أي دولة من دول العـالم، بـل كـل مـا مارسـته طيلـة تاريخهـا هـو الحوار عبر النتاج العلمي والثقافي.

لكن للأسف نجد المغرضين يتهمونهـا بـالمؤامرة على العـالم الإسـلامي في نفس الـوقت الـذي يزكـون فيـه تركيـا والخلافـة العثمانيـة الـتي كـانت عبئـا ثقيلا على الأمـة، وكـانت مصـدرا من مصــادر الاســتبداد الــذي أخرهــا قرونــا طويلــة، وعنــدما حصــل الاستعمار لتلك الدول لم تنهض لنجدتها، ولتعـويض تلـك الضـرائب التي كـانت تجبيهـا منهـا، وإنمـا اكتفت بـالوقوف موقـف المتفـرج أحيانا، والداعم للمستعمرين أحيانا كثيرة.

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب ـ من خلال الأدلة والوثائق الكثيرة ـ إثبات جانبين مهمين في إيران عبر مسيرتها التاريخية، وواقعها الحالي، وهما:

أولا ـــ بيان أن الإيرانيين مسلمون منذ الفتح الأول، لم يتزحزحوا عن إسلامهم شعرة واحدة، وأن إسلامهم كان صادقا كما أخبر رسول الله ﷺ، وأنهم لم يتآمروا على الإسلام بتحريف أحكامه، ولا على المسلمين بإعلان الحرب عليهم، كما يزعم المغرضون.

وذكرنا في الكتاب الكثير من التجليات والشواهد والبراهين الدالة على ذلك، ابتداء من اهتمامهم بالقرآن الكريم قراءة وتفسيرا وتفعيلا في كل جوانب الحياة.. ومثله اهتمامهم بسنة رسول الله ﷺ بحسب ما وصلت إليهم نصوصها، وأنهم لأجل ذلك مؤمنون بعقائد الإسلام، ومنفذون لشرائعه، ومتحلون بقيمه الأخلاقية والروحية والحضارية، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ثانيا ـ بيان أن إيران لم تتمسك بدينها تمسكا أنانيا، احتكرته لنفسها، وإنما راحت تستعمل كل الوسائل لخدمة الإسلام والمسلمين ابتداء من القرن الأول، حيث كانت أرضها منبعا لكل العلوم الإسلامية، ومحلا لتدريسها والكتابة فيها.

ففيها ظهرت أكبر تفاسير القرآن الكريم، وأكثر مجامع السنة النبوية، ومعظم ما كتب في العقيدة والفقه والأخلاق والعرفان، وكل العلوم العقلية والكونية.

وفيها كانت المدارس التي نشأ فيها كبار العلماء، وتتلمذت فيها أجيال طويلة من المسلمين، الذين استقر بهم الإسلام، وامتد في الأرض، لينشر هداية الله، ويلبس في كل عصر اللباس الذي يتناسب معه.